المدينة المنورة

في عهد الرسالة

من

حديث القرآن الكريم

وبيان السنة المطهرة

تأليف

محمد الراوي



ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الراوي، محمد

المدينة المنورة في عهد الرسالة من حديث القرآن الكريم./محمد الراوي.- الرياض ١٤٢٧هـ

٥٧٢ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٩ - ٢١ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - المدينة المنورة - تاريخ - عصر صدر الإسلام ٢- السيرة النبوية

أ. العنوان

ديوي ٩٥٣,١٢٢ ٢٩٢٦ / ١٤٢٧

ردمك: ٩ - ٢١ - ٥٤ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٩٢٦ / ١٤٢٧

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

الناشر



الرياض . العليا . تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩





شكر وتقدير ودعاء

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

فإنَّ ما لَقَيْتُ من عَوْنٍ من الله وبركةٍ في إعداد هذا الكتاب، يجعلني أذكُرُ ما هيَّأ الله له - ممَّا كنتُ أتمنَّاه - من مراجعته ونَسْخه على يد متخصصين من أهل العلم والصِدْق والوفاء.

فإنَّ مراجعة مثل هذا الكتاب تحتاج إلى مَنْ له مصاحبة للقرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة.

وكَمْ سَعِدت أني وجدتُ ذلك فيمَن أُحبهم وأُقدِّر لهم معرفتهم، وجهدهم، ورغبتهم الصادقة في أن تكون لهم مشاركة في مثل هذا الموضوع:

المدينة المنورة.. في عهد الرسالة من حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المطهرة

وأخُصُّ بالذِّكْر كُلاً من:

✍ فضيلة الأخ الكريم الأستاذ الدكتور/ **أحمد بن منصور آل سبالك.**

عضو جبهة علماء الأزهر، ومدير مركز البحث العلمي لإحياء التراث، وعميد معهد علوم القرآن والحديث للعلوم العربية والإسلامية.

✍ فضيلة الابن الشَّاب المُجِدّ الدكتور/ **صلاح بن محمود آل الباجوري.**

مدرس الأديان والمذاهب بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

جزاهما الله خيراً على ما أفادا به من خِبْرَةٍ وعلمٍ في مراجعة ما اشتمل عليه الكتاب من: الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمعاني اللغوية، ونَسْخه - بجِدٍّ ونشاط - على يد الابن الشَّاب، الذي آثره بالمراجعة المتكررة لاستخلاص ما يُفيد في إعداد مقدمته وإخراجه على هذا النحو.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات..

مقدمة الكتاب

بسم الله، والحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسول الله.

وبعد.

فما أكثر وقائع الحياة التي تُذكر وتُنسى دون أن يعرف الناسُ عواقبَها أو يقفوا على عِبرتها ودَلالتها.

وقد حفظ اللهُ لنا - بفضله ورحمته - القرآنَ الكريمَ لنعرفَ به قَدَرَ كُلِّ شئ، كمَا حفظ لنا السُّنَّةَ المباركةَ؛ ليبقى فينا رسولُهُ ﷺ أُسْوةً وقُدوةً لا يَخْفَى من أمره عنَّا شيءٌ.

وعليه فإن الوقائع والأحداث التي يُنّزلُ الله فيها قرآناً، أو يكون للرسول ﷺ فيها بيان، لا تذهبُ بذَهاب زمنها، ولا يتوقف عطاؤها بوفاة أهلها.

ولما كانت أحداثُ دار الإيمان «المدينة المنورة» لا تنفصل - أبداً - عن الكتاب والسُّنة، فإنَّ ما يُتنَزَّلُ من آيات في هذه الأحداث تراه أوسع دائرة، وأشمل - في تبصرة الإنسان وتذْكرته - من الوقوف عند حَدَث عارض في أيِّ زمان أو مكان إنها ليست وقائع ماضية، وإنمَّا غَدَتْ - بالذِّكْر المحفوظ - سُنناً باقية.

إنها وقائع يُرى في صميمها الرُّوح الأمينُ جبريل عليه السلام يتنزَّل بوحي ربِّه وأمره، ليقتَرن تدَّبر الآيات بوقوع ما يصدقُها من وقائع وأحداث.

وقد أراد الله للمدينة المُنَوَّرَة أن تكون قُبّة الإِسلامِ، ودار الإيمانِ، وأرض الهِجرَةِ، ومُبَوّأ الحَلالِ والحَرامِ[١].

---

(١) انظر: مجمع الزوائد: ٣ / ٢٩٨ .

إنها البلد التي هاجر إليها كِرَامُ النَّاس من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القَرْحُ.

إنها البلد التي انبثق منها النُّور، وانطلقت منها مَوْجَةُ الهداية، وتمثلت فيها فصول التاريخ الإسلامى الأوَّل، وابتل ترابُها بدموع الصحابة - رضي الله عنهم - ودمائهم.

ومنها، وعلى أرضها الطيبة كانت وقائعُ الجهاد التي تُتلَى وتُعْرَف دلالتُها من حديث القرآن، وتُرى في واقعٍ من عمل الرسول ﷺ وصحابته الكرام.

من أجل ذلك أحبَبتُ أن نتدبَّرَ وقائعَ المَدينَة المُنَوَّرَة وفضائلَهَا في حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المُطَهَّرَة؛ حتَّى يُرى القرآن الكريم، وتُرَى السُّنَّة المُطَهَّرَة في واقعٍ لا تغيب فيه عن النَّاسِ النتائجُ والعواقبُ.

وذلك يستوجب أن نرى الأمورَ بنتائجها، ونُبْصرَ الشدائدَ في عواقبها، فإننا - كثيراً - ما نرى أنَّ العقبات أنفعُ للإنسان من الوَثَبَات؛ لأنها تُعين على مراجعة النفس، وتدعوها إلى الثبات على الحق، وتحثّها على التغيير الذي لابُدَّ منه لإدراك حكمة الخَلْق وغاية الوجود.

ولهذا كانت الوقائع والأحداث خيراً له، من حيث تبصرتُه ومراجعتُه لنفسه ويقينه، وهو يَرى أنَّ كُلَّ مَنْ وُلِدَ سَيَمُوتُ، وأنَّ الذي لمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ هو الحيُّ الذي لا يموت، فلا تَوكُل إلاَّ عليه، ولا فرارَ منهُ إلاَّ إليه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾(١).

من هُنَا لا نَرَى دوامَ لَيْلٍ دون نهار، ولا نَرَى دوامَ نهارٍ بلا لَيْل، بل نَرَى الليلَ والنهارَ قد جعلهما الله تذكرة للخلق وتبصرة.

---

(١) الفرقان: ٥٨.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾(١).

فمَنْ أراد أن يَذْكُرَ أو يَشْكُرَ فتلك آيات التبصرة قائمة له وعاملة فيه.

كُلُّ ذلك وغيرُه يدعونا أنْ نحفظ المدينة المنورة بحفْظ القرآن، وأن نتحدثَ عنها بما صَحَّ عن الرسول ﷺ من بيان.

فلا تكون دراستُنا لوقائعها وأحداثها كدراستنا لأيِّ وقائع في أيِّ مكان أو زمان، بل تكون دراسة رُشْدٍ وعملٍ، وحُسن تدبُّر لِمَا أُرسل به الرسول الأمين وجاء به القرآن الكريم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(٢).

وإلاَّ.. فكيف تكون الأسوة به ﷺ دون أن نعرف ما أُرسِلَ به، وما دَعَا إليه، وما وقع له، وما انتصر به؟!

وذلك ما قَصَدْتُه حين عَزَمْتُ أنْ أكتُبَ عن [المدينة المُنَوَّرَة.. وقائعها وفضائلها في حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المُطَهَّرَة].

وسَنَرى من الوقائع ما يُبَرْهن على أنَّ المدينة المُنَوَّرَة لها أن تُخاطِبَ الناسَ جميعاً بوقائعها وأحداثها؛ لتُعرَف - من خلالها - سُنَنُ الله في خَلْقه، وهي سُنَنٌ ثابتةٌ لا تتبدل ولا تتحول.

وليُعلم أنَّ آيات القرآن الكريم ليست بمَعْزَل عن واقع، وأنَّ تدبّرها مُيَسَّرٌ لِمَنْ آثرَ الحقّ وابتغاه، وأنَابَ - مُخْلصاً - إلى الله واتَّقاه..

---

(١) الفرقان: ٦٢.
(٢) الأحزاب: ٢١.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

ومن خلال وقائع المدينة وأحداثها نعلم كيف أدرك الصَّفْوة من الخَلْق حكمةَ خَلْقهم وغايةَ وُجودهم، ونُدرك ما قامت به المدينة المُنَوَّرَة - في شتَّى الجبهات - من أعمال، وكيف أُعدَّ الرجال الذين أَوْفَدَتهم ليكونوا طلائع حضارة صادقة للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

ويُخطئ مَن يظُنُّ أنَّ حضارةً مَا - في أيِّ زمن ما - يُمكن أنْ تستغني عن الإرشاد بما جرى مع هؤلاء، وما تمَّ على أيديهم، وما كانوا عليه من صِدْق الإيمان واليقين، حتى استطاعوا أن يفتحوا - للقيَم والأخلاق - فَتْحاً كانوا فيه مَثَلاً صادقاً للناس، وهم يَرَوْنَ سُنَنَ الله فيما جرى لهم أو وقع بهم، دون مُحاباة لهم إنْ كانوا مُصيبين أو مخطئين.

فإنَّ سُنَّة المداولة بين الناس لنْ تُبقيَ أحداً على دوام حال، بل هي المِنَّةُ من الله التي لا تجعل الناس يُفتنون أو يهلكون دون تَبْصرَة لهم بأنَّ ما في أيديهم لا يدوم، وأنهم - بما يملكون أو يُحرزون - ذاهبون.

ولن تكون الأحداث المتجددةُ بِمَنْأً عن الوقائع التي أنزل الله فيها قرآنًا، فلو أنَّ سائلاً سأل:

هل مَرَّت بالمسلمين وقائعُ وأحداثٌ أُحْكِمَ فيها الحصارُ، وتداعت الأممُ في ماض كما هو واقع في حاضر؛ حتَّى نُفيد مما وقع في ماض لحاضر أو مستقبل، في رُشد ويُسر، دون تكلُّف أو حرج؟

أقول: نستطيع أن ندرك ذلك إذا ما تدبَّرنا حديثَ القرآن فيما أُنزلَ من وقائع وأحداث، وأَحْسَنَّا الاتباع في الأخذ بالأسباب دون تَوَانٍ أو تقاعد.

---

(١) القمر: ١٧.

وهذه عظة باقية نراها في تجمع الأحزاب على مدينة رسول الله ﷺ ماثلة، جيشٌ من عشرة آلاف مقاتل حُوصرَتْ به مدينةُ الإيمان، يسُوقهم من يُسَوِّلُ لهم ويُغريهم بما تهواه نفوسُهم، ولم تكن قد عُرفت - من بعد - أسلحةُ النَّدَالة التي يملكها مَنْ يملكها، ويَتيه بإحرازها مَن يَتيه.

وأسلحة النذالة هي التي تراها تقترف من الجرائم، وتُحقق من الخراب والدمار ما لا يُعْفَى منه رضيعٌ أو شيخٌ كبيرٌ، وما لا يَبْقَى معه حَجَرٌ ولا شجرٌ يكون به إيواء أو إطعام.

لقد جاءت قريش ومَن حالفها، فلم تُرَد بأسلحة يملكها أهلُ «طيبة» ولم تستعنْ بمن يملك في دنياها السِّلاح، وإنما استعانت بمَن لا يُستَعانُ إلا به..

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١).

فإذا بريح تؤمَر فتردُّ أهل الكفر بأمر ربِّها.. تردُّهم بغيظهم خائبين..

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾(٢).

من هنا تكون الإفادة من القرآن والسنة في وقائع وأحداث، ولا تكون بعيدة عن حُسْن تدبُّر وصِدْق اتباع، فإنَّ جميع ما يقع في هذا الكون - أرضه وسمائه - ليس بمَعْزل عن مشيئة وإرادة يجب أن يُذكَر بها الله ولا يُنْسَى.

وما يقع في دُنيَا الناس من أحداث، وما يكون بينهم من تداول، يجب أن يعرف المؤمنون به أين موقِعُهم من مرضاة الله، وأين هم من الأخذ بأسباب نُصْرته ورضاه؟!

(١) الفاتحة: ٥ .

(٢) الأحزاب: ٢٥ - ٢٧.

وأن لا تَشْغَلهم الأحداثُ عن مُناصرة الحق ونُصرته من أنفسهم، قبل أن يطلبوا ذلك من أعدائهم.

وأن يُوقنوا أنهم لا يستطيعون أن ينصروا الله في معركة حتَّى ينصروه في أنفسهم، وهم إذا لم ينتصروا بفضلهم لن يَغلبوا أحداً بقوَّتهم.

يجب أن يُذكَر ذلك ولا يُنْسَى.

كما يجب ألا يكون علاج ما يقع مُنفصلاً عمَّا يحمله القرآن الكريم من هداية وتبصرة، أو تدعو إليه السُّنَّة المُطَهَّرَة من صِدْق ورُشْد وإخلاص في رؤية النتائج والعواقب.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(١).

عندئذ تكون دراسة الوقائع مُقْتَرِنَةً بعِبْرَتها وتبصرتها، غير مُنفصلة عن آياتها، فهي - في حقيقتها - ليست أحداثًا وقعت وانتهت، وإنما هي أحداثٌ ماضيةٌ تُرينَا سُنَنَ الله الباقية.

وكفى بذلك بلاغًا وذكرى ونذيرًا للعالمين..

﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٢).

لقد عايشتُ المدينةَ الطاهرة، وتأملتُ وقائعها، ووقفتُ على فضائلها، فتكشفت بين يدي حقائق ينبغي أن يسُودَ العلمُ بها ولا يغيب، ولعل من أجَلِّ هذه الحقائق وأكثرنا حاجة إلى تدبرها:

---

(١) الإسراء: ٩ .

(٢) إبراهيم: ٥٢.

أنَّ الإسلامَ ليس ضيعةً نملكها ولا يشاركنا فيها غيرُنا.

- إنه رحمةُ الله للعالمين يهتدي به من يشاء دون حَرَج أو تَكَلُّف أو عُسر

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

- إنَّه الحقُّ الذي أرسل الله به الرُّسُلَ جميعاً، فمَنْ أعرضَ عنه أو صَدَّ عن سبيله، لقي ما يلْقَاه المعرضون عن الحق أو الذين يصدون عنه

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾(٢).

- إنَّه العدل الذي لا يُقبل في ساحته أن يُعفَى ظالمٌ من حسابٍ لِقُربه، أو يُترك مظلومٌ دون إنصافٍ لبُعْده.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾(٣).

- وأنَّ من أَبْيَن الفضْل فيه - وكُلُّه بَيِّن - أنَّه لا يُجامل مَن اتَّبعه، ولا يُنقصُ قَدْر منْ عَادَاه، بل يدعو الخَلْقَ جميعاً إلى رحابه، ويُبَيِّنُ لهم أنَّ مكانتهم عنده تُوزَنُ بمكارم الأخلاق، وأنَّ ساحَتَه تتَّسع لهم جميعاً إنْ هُم التَقَوْا - فيما بينهم - على كلمة سَواء، وأنَّ ذلك قائمٌ فيهم جميعاً دون تمايز أو استثناء.

وسيظل نداؤُه دائماً بهذه الحقيقة: **﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾**(٤).

وعلى العاقل أن يُفَرِّقَ بين تفريط جيل وذَهَاب دين.

إن دينَ الحَقِّ - الذي تكفَّل الله بحفظه - لا يضيع بضياع مَنْ فَرَّطَ أو ضَيَّعَ، وإنما هو بَاقٍ بعزَّة مَن أعَزَّه، فلا يقترب من ساحته باطلٌ، ولا يُوقفُ مَدَّه حاسدٌ أو حاقدٌ، ولا يُطفئ نورَه مَفْتُونٌ بقوَّته أو مَزْهُوٌّ بزينته.

---

(١) الأنبياء: ١٠٧ . (٢) طه: ١٠٠ .
(٣) النساء: ١٢٣ . (٤) آل عمران: ٦٤.



هذا وَضْعُهُ وتلك حقيقته ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

وعلى العالَم أن يُحاكم المسلمين بدينهم لا بشيء سُواه، فلنْ يجد العالَمُ كُلُّه ما يريده منهم – من عدل، وبرٍّ، وإحسان، وصِدْق، ووفاء – إلاَّ بميزان دينهم.

وعلى المسلمين – أيضاً – أنْ يُدركوا أنَّ عقابَهم عند ربِّهم سيكونُ مُضاعفاً عندما يراهم العالَمُ على غير ما يدعو إليه دينُهم.

سيكون العقابُ بين يدي الله عقابَيْن:

عقابٌ لهم: لأنَّهم لم يحملوا الدِّين كما ينبغي أن يكون، بل حُمِلوا عليه

وعقابٌ لهم: لأنهم – بتفريطهم – أَغْرَوا النَّاس بالفتنة عنه.

هذه الحقيقة أقولُها إنصافاً لهذا الدِّين الذي ظُلِمَ من أهله قبل أن يُظلم من غيرهم، وهو مِنْ ظُلْم هؤلاء وظُلْم أهله بريءٌ.

وبذلك نكون على بصيرة حين ندعُو أنفسَنا إلى التمسك بالحق، أو نُبَصِّر غيرَنا بما يجب أنْ نُبَصِّرهم به بحُجة وسُلطان؛ رجاء أن نهتدي جميعا إلى دار السلام.

وذاك هو السبيل لطلب الهداية والنجاة، قد أَجْمَله الله لنَا ليكون أمام أعيننا، ولنكون على بَصيرة من أمرنا في جميع شؤوننا؛ حتَّى لا نَضلَّ في أيِّ أَمْرٍ، أو نَشْقَى في عاقبة ومصير.

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].



(١) فصلت: ٤١، ٤٢ . (٢) المائدة: ١٥، ١٦ .

إننا عندما نُخاطِبُ الناسَ بوقائع المدينة المنورة ينبغي ألا تغيبُ عنَّا أمور:

- **أولاً** : أنَّ ما نذكره من وقائع المدينة لا نُريد به الحَصْرَ، وإنما الذي يعنينا أن نعرف ما تشتمل عليه بعض هذه الوقائع من بيان لسُنَن الله في خلقه.

- **ثانياً**: أنَّ بَيَانَ وقائع المدينة يدُلُّ على حقيقة فضائلها، وأنهَّا فضائل مُسطَّرَة في آيات محفوظة تُتلَى، وليست وقائع تاريخية قد ذهبت بمُضِيِّ زمنها، وانْقَضَتْ بانقضاء أحداثها.

وما أَجَلَّ وأعظم الفضائل التي تهتدي بها النفوسُ، وتجدُ فيها عِظَتَها دون تَكلُّف أو عُسْر.

وما أعظم الوقائع التي تكون تفسيرًا للتنزيل أو سبباً له.

- **ثالثاً**: أنَّ الحديثَ عن المدينة المُنَوَّرَة يرتبط - كلَّ الارتباط - بمَكَّة المُكَرَّمة ولا يَنْفَصِلُ عنْها؛ ذلك لأن الأحداثَ في مَكَّة المُكَرَّمة - التي شَرُفَتْ بمولد الرسول ﷺ وبعثته - كانت بوْتَقةً لإعداد نفوسٍ أُخرجَتْ بهم خيرُ أُمَّة، وقامتْ بهم أزْكَى دولةٍ، وكان لهم قَدْرُهم وشأنُهم مع رسول الله ﷺ في دار الهجرة والإيمان.

كما أن الذين آمنوا بالله والرسول، واستجابوا لمتطلبات الإيمان، وأخضعوا كلَّ شيءٍ من أَمْرهم لمرضَاة ربِّهم، هم الذين أُمروا بالهجرة بعد أنْ أُعِدَّت نفوسُهم إعدادَ مَنْ يحمل دعوةَ الحق للعالمين.

وقد وصَفَهُم الله بما هم أَهْلٌ له، وقدَّمَهُم - في ذِكْرهم - على مَن آمن بإيمانهم من الأَنْصَار، في آيتين كريمتين من آيات القرآن فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ومَنْ تدبَّر الوقائعَ من قبل هجرة الرسول ﷺ ومن بعد هجرته، بل مَنْ صَاحَبَ الرسولَ ﷺ بقلبه - مُنذ نشأته وبَعثته - عرف مدى الارتباط الوثيق بين موطن الحرمين الشريفين في مَكَّة المُكَرَّمة والمدينة المُنَوَّرَة.

إنه امتدادُ نورٍ، وإظهار دين ببعثة الرسول ﷺ.

فلم يكن تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المُنَوَّرَة وليدَ لحظة طارئة، بل كان امتدادَ نور لبعثة الرسول ﷺ الذي حُفظَت برسالته رسالةُ السماء إلى جميع الأنبياء..

إنَّ الصِّلَة - إذن - بين المدينة المنورة وبين مَكَّة المُكَرَّمة هي صلةُ نُور يُعزُّ به الإنسانُ حيثُ كان، ولا يمكن التفرقة أو المقارَنة بينهما، أو النَّظَر إليهما بعيداً عن وحي في سُنَّة وقُرآن.

*****

وكما شرَّف الله المملكة العربية السعودية بخدمة الحرمين الشريفين، فقد خصَّها بدور رائد في خدمة القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة المطهرة.

فأمام ازدياد حاجة العالم الإسلامي إلى المصحف الشريف، وترجمة معانيه إلى مختلف اللغات التي يتحدث بها المسلمون، والعناية بمختلف علومه، وكذلك خدمة السنة والسيرة النبوية المطهرة.

واضطلاعاً من المملكة بدورها الرائد في خدمة الإسلام والمسلمين، واستشعاراً من خادم الحرمين الشريفين «الملك فهد بن عبدالعزيز» - رحمه الله - بأهمية

(١) الحشر: ٨، ٩.

خدمة القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة المطهرة من خلال جهاز متخصص ومتفرغ لذلك العمل الجليل، وضع - رحمه الله - حجرَ الأساس لمُجَمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، في السادس عشر من المحرم سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.

وقال - رحمه الله - عند إزاحة الستار عن اللوحة التذكارية لوضع حجر الأساس لمشروع المُجَمَّع:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى بركة الله العليِّ القدير.. إننا نرجو أن يكون هذا المشروع خيراً وبركة لخدمة القرآن الكريم أولاً، ولخدمة الإسلام والمسلمين ثانياً، راجياً من الله - العلي القدير - العونَ والتوفيقَ في كلِّ أمورنا الدينية والدنيوية، وأن يوفق هذا المشروع الكبير لخدمة ما أُنشئ من أجله، وهو القرآن الكريم؛ لينتفع به المسلمون، وليتدبروا معانيه»

وفي السادس من صفر سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م افتتحه - رحمه الله - قائلاً:

«لقد كنت قبل سنتين في هذا المكان لوضع حجر الأساس لهذا المشروع العظيم، وفي هذه المدينة - التي كانت أعظم مدينة فرح أهلها بقدوم رسول الله ﷺ وكانوا خيرَ عون له في شدائد الأمور، وانطلقت منها الدعوة، دعوة الخير والبركة للعالم أجمع - وفي هذا اليوم أجد ما كان حُلماً يتحقق على أفضل مستوىً، ولذلك يجب على كل مواطن في المملكة العربية السعودية أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى، وأرجو أن يوفقني الله أن أقوم بخدمة ديني ثم وطني، وجميع المسلمين، وأرجو من الله التوفيق».

هذا، ويعد إنشاء مُجَمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، من أجَلِّ صُور العناية بالقرآن الكريم: حفظاً، وطباعة، وتوزيعاً على المسلمين في مختلف أرجاء المعمورة. ومن أبرز الصُور المشرقة والمشرِّفة الدالة

على تمسك المملكة العربية السعودية بكتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ اعتقاداً ومنهاجاً، وقولاً وتطبيقاً.

وهو - كذلك - خير تجسيد لقول الرسول الكريم ﷺ: «**إِنَّ الإيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**»[١].

لقد وَفَّقَ الله خادمَ الحرمين الشريفين لإقامة هذا المشروع الإسلامي الضخم، حيث اعتنى بطباعة المصحف الشريف، وتوزيعه - بمختلف الإصدارات والروايات والترجمات - على المسلمين في شتَّى أرجاء المعمورة، كما اعتنى بطباعة كتب السُّنَّة والسيرة النبوية.

وقد استعمل الله خادم الحرمين الشريفين ليقيم هذا الصرح الشامخ بالمدينة المنورة، فجمع الله للمدينة شرفَ الإيمان الذي يأرز إليها، وشرفَ العناية بالكتاب الذي يُطبَعُ فيها.

وكم للمدينة من شرف وفضل، وكم لله فيها من نعمة وهداية، وبركة وعطاء.

﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ**﴾[٢].

﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾[٣].

---

(١) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٣، مسلم - كتاب الإيمان، حديث رقم ٢١٠.
(٢) النور: ٣٥.
(٣) الشورى: ٥٢، ٥٣.

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

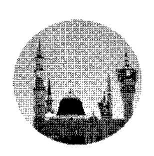
وصلى الله وسلَّمَ وبارك على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

مُحَمَّد الرَّاوي

القاهرة – مدينة نصر:

الاثنين ٢٤ من رجب ١٤٢٦هـ

٢٩ أغسطس ٢٠٠٥م



(١) البقرة: ٢٨٦.



المَدينَة المُنَوَّرَة
في وَصْف أهل الكتاب وإسْلام سَلْمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

شريعة الله تعالى إلى الناس واحدة، ورسالاته إلى الأنبياء خالدة، تمتد جذورها إلى آدم أبي البشر، وتنتهي فروعها بانتهاء هذا الجنس البشري، وقيام الناس لرب العالمين.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

وإذا كان محمد بن عبدالله هو خاتم الأنبياء، فإنَّ رسالته لا تزال متصلة إلى يوم الناس هذا، وسوف تظل متصلة إلى يوم القيامة يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته على توالي الأجيال والقرون.

ويخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على الأنبياء والمرسلين في مشهد رباني رائع، بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن جاءهم مصدقاً لما أُنْزِلَ عليهم.

وكان معنى ذلك تنبيه الأمم والشعوب التي ستدرك زمانه ﷺ إلى الإيمان به والتصديق بدعوته؛ لأنها دعوة الحق الذي لا يأتيه الباطل، ولأنها الدعوة العالمية التي كُتِبَ لها الخلود إلى أن تنفطر السماء، وتتكدر النجوم، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[2].

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) آل عمران: ٨١.

كما أخبر الله الأنبياء - فيما أنزل عليهم من كتب - بكرامة هذا النبي العظيم، وذكر لهم من أوصافه وعلاماته ما يجلو غواشي الشك، ويضيء طريق الحق..

وفي ذلك يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وفي التوراة والإنجيل أخبار عن هذا النبي الأُمِّي، وأوصاف تؤيد صدقه في نبوته، وهي دلائل قوية كانت كافية لإقامتهم على المحجة الواضحة، لولا ما ران على قلوب القوم من أكدار الحقد والحسد.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

*****

وها هي قصة إسلام سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبدأ بها ليُعلَم أن المدينة المنورة - وهي موطن هجرته ﷺ ومنطلق دعوته إلى العالمين - ذُكِرَت في كُتُب أهل الكتاب.

عن عبدالله بن عبَّاس - رضي الله عنهما - قال: حدثني سَلْمَانُ، وأنا أسمعُ مِنْ فيه، قال:

كُنْتُ رَجُلاً فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ[٣] مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا «جَيٌّ» وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ [٤] قَرْيَتِهِ، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ.

---

(١) الأعراف: ١٥٧. (٢) البقرة: ٨٩.

(٣) أصبهان: مدينة عظيمة بأرض فارس من أعلام المدن.

(٤) الدِّهْقان: شيخ القرية العارف بالفلاحة وما يُصلح الأرض، يُلجأ إليه في معرفة ذلك.

وقوف سلمان على النصرانية:

قال سلمانُ: وَاجْتَهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ[(١)] الَّذِي يُوقِدُهَا، لاَ يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً.

وَكَانَتْ لأبِي ضَيْعَةٌ[(٢)] عَظِيمَةٌ، فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانِي هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا. وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ.

ثم قال لي: ولا تَحْتَبِس عنِّي؛ فإنَّكَ إنْ احتَبَسْتَ عنِّي، كنتَ أهمَّ إليَّ من ضَيعتي، وشَغَلْتَني عن كُلِّ شَيْءٍ من أمري.

قال: فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ التي بعثني إليها، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ.

وَكُنْتُ لاَ أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ؛ لحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا سَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ.

قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَتْنِي صَلاَتُهُمْ، وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ: هَذَا - وَاللَّهِ - خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ.

فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا.

ثم قُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟

قَالُوا: بِالشَّامِ.

قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي، وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي، وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِه كُلِّهِ

قَالَ: فَلَمَّا جِئْتُهُ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟

---

(١) قَطَنَ النَّارِ: خادمها الذي يخدمها ويمنعها من أن تخبو؛ لتعظيمهم إيَّاها.
(٢) الضَّيْعَةُ: العقار.

قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَت، مَرَرْتُ بِأُنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ.

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ

قَالَ: قُلْتُ: كَلاَّ وَاللَّهِ، إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا.

قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ.

اتفاق سَلْمَان والنصارى على الهرب:

قَالَ: وَبَعَثْتُ إِلَيَّ النَّصَارَى، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ.

قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى، فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ.

فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ، وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلاَدِهِمْ، فَآذِنُونِي بِهِمْ

قَالَ: فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلاَدِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ.

فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا؟

قَالُوا: الأَسْقُفُّ[1] فِي الْكَنِيسَةِ.

سَلْمَانُ وأَسْقُف النصارى السيئ:

قَالَ: فَجِئْتُهُ، فَقُلْتُ له: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ وَأَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّي مَعَكَ.

---

(١) الأسقُف: كلمة يونانية معناها الرقيب، وهو خليفة الرسول في كُلِّ شيء ما عدا الرتبة الرسولية العامة، وعمله محصور في رعيته ومكانه فقط، وله القوة على إقامة القسّ والشَّمَّاس.

قَالَ: ادْخُلْ. فَدَخَلْتُ مَعَهُ.

قَالَ: وكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا له شيئاً منها اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ! حتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ(١).

قَالَ: فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا؛ لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ.

ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا، فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا.

قال: فقَالُوا لي: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟

قَالَ: قُلْتُ: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ.

قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ.

قَالَ: فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلاَلٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا

قَالَ: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لاَ نَدْفِنُهُ أَبَدًا.

قال: فَصَلَبُوهُ، ورَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ مَكَانَهُ.

سَلْمَانُ والأَسْقُفُ الصالح:

يَقُولُ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً يُصَلِّي الْخَمْسَ، أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وأَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، ولاَ أَرْغَبُ فِي الآخِرَةِ، وَلا أَدْأَبُ لَيْلاً وَنَهَارًا مِنْهُ

قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شيئاً مِنْ قَبْلِه.

قال: فَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا طويلاً، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ:

---

(١) الوَرِق: الفضة.

يَا فُلانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شيئاً مِنْ قَبْلِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ اليوم أَحَدًا عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فقد هَلَكَ النَّاسُ، وَبَدَّلُوا، وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلاَّ رَجُلاً بِالْمَوْصِلِ، وَهُوَ فُلانٌ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالحَقْ بِهِ.

سَلْمَانُ وصاحبُه بالموصل:

قَالَ سَلْمَانُ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لحِقْتُ بِصَاحِبِ المَوْصِلِ فَقُلْتُ لَهُ:

يَا فُلانُ، إِنَّ فُلانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ.

قَالَ: فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ:

يَا فُلانُ، إِنَّ فُلانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللَّهِ مَا تَرَى. فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلاً عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلاَّ رجلاً بِنَصِيبِينَ[1] وَهُوَ فُلانٌ، فَالحَقْ بِهِ.

سَلْمَانُ وصاحبه بِنَصِيبِين:

قَالَ سَلْمَانُ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، فقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ.

فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ. فَوَاللَّهِ، مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ، فَلَمَّا حُضِرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلانُ، إِنَّ فُلانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلانٌ إِلَيْكَ. فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟

---

(١) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام.

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّه مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا، آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إلاَّ رَجُلاً بعَمُّورِيَّةَ[١] من أرض الرُّوم، فَإِنَّهُ على مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْه، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أن تأتيه فَأْته؛ فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا.

سَلْمَانُ وصاحبه بعَمُّورِيَةَ:

قَالَ سَلْمانُ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لحَقْتُ بصَاحب عَمُّورِيَّةَ، فَأَخْبَرْتُه خَبَرِي فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عند خَيْر رَجُل، عَلَى هَدْيِ أَصْحَابه وَأَمْرِهِمْ.

قَالَ: وَاكْتَسَبْتُ حتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ.

قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّه، فَلَمَّا حُضِرَ، قُلْتُ لَهُ:

يَا فُلانُ، إنِّي كُنْتُ مَعَ فُلان، فَأَوْصَى بِي فُلانٌ إلَى فُلان، وَأَوْصَى بِي فُلانٌ إلَى فُلان، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلانٌ إلَيْكَ. فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ اليَوْمَ أَحَدٌ عَلَى مثل مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ.

وَلَكنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ..

وهُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام..

يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ..

مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ[٢] بَيْنَهُمَا نَخْلٌ

بِهِ عَلامَاتٌ لاَ تَخْفَى..

يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ، وَلا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ..

بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّة.

فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلادِ فَافْعَلْ.

جاء في كتب الحديث ومصادر سيرة الرسول ﷺ روايات كثيرة تفيد أنه كان في جسده الطاهر (قطعة لحم بارزة عليها شعر عند كتفه الأيسر كذر

---

(١) عمُّورية: بلد من بلاد الروم غزاه المعتصم حين سمع شراة العلوية.

(٢) الحرَّة: أرض ذات حجارة سود نخرة، كأنها أحرقت بالنار.

الحجلة [الحجلة - بفتح الحاء والجيم - الخيمة المزينة بالستور، وذرها هي البكرة التي تربط بها الحبال، وقيل: الحجلة طائر، وذرها بيضها] وأخرج البخاري في كتاب الوضوء، حديث رقم ١٨٣ عن السَّائِب بْن يَزِيد قال: «ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ، فَمَسَحَ رَأْسِي، وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَة، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِه، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْه مِثْلَ زِرِّ الحَجَلَة» والحكمة في خاتم النبوة - على جهة الاعتبار - أنه (لما مُلئ قلبه حكمة ويقيناً، خُتم عليه كما يُختم على الوعاء المملوء. والله أعلم.

سَلْمَانُ ونَقْلتُه إلى وادي القرى ثُمَّ إلى المَدِينَة:

قَالَ سَلْمانُ: ثُمَّ مَاتَ وَغُيِّبَ، فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْكُث، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْب[١] تُجَّار.

فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ؟

قَالُوا: نَعَمْ. فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا، وَحَمَلُونِي معهم، حتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى[٢] ظَلَمُونِي، فَبَاعُونِي إلى رَجُلٍ مِنْ يَهُود عبداً.

فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي.

فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ، قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَة، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ[٣]، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَة.

فَوَاللَّه مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُهَا، فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا.

وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَام، لاَ أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ، مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَة.

فَوَاللَّه إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْق[٤] لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تحتي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْه، فَقَالَ:

---

(١) كلب: إحدي قبائل العرب. (٢) وادي القرى: واد بين تيماء وخيبر.
(٣) أي اشتراني.
(٤) العَذْقُ: كل غصن له شُعَب، والعَذْقُ - أيضاً - النخلة عند أهل الحجاز.

يا فُلانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ(١) وَاللَّهِ إِنَّهُمْ - الآنَ - لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ(٢) عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

قَالَ سَلْمَانُ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ(٣) حَتَّى ظَنَنْتُ أني سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي فَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لابن عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟

فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ:

مَا لَكَ وَلِهَذَا؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ.

قَالَ: قُلْتُ: لاَ شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ.

سَلْمَانُ بين يدي رسول الله ﷺ:

قَالَ سَلْمَانُ: وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ:

إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ.

قَالَ: فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ:

كُلُوا. وَأَمْسَكَ يَدَهُ، فَلَمْ يَأْكُلْ.

قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُه بِهِ، فَقُلْتُ:

إِنِّي رَأَيْتُكَ لاَ تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا.

قَالَ: فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ.

قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ ثِنْتَانِ.

---

(١) قَيْلَةَ: هي الجدة الكبرى للأنصار، وهي قيلة بنت كاهل بن عذرة.
(٢) قُباء: قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة.
(٣) العُرَواء: الرِّعْدة والانتفاضة.

قال: ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ[١] قَدْ تَبِعَ جَنَازَة رجلٍ مِنْ أَصْحَابِه وعَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ[٢] وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ، هَلْ أَرَى الخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي.

فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شيءٍ وُصِفَ لِي، فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي.

فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّه ﷺ: تَحَوَّلْ. فَتَحَوَّلْتُ، فجلستُ بين يديه، فَقَصَصْتُ عَلَيْه حَدِيثِي - كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ - فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ.

ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْر وَأُحُد.

الرسول ﷺ يأمر سَلْمَان بالمكاتبة:

قَالَ سَلْمَانُ: ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ[٣].

فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلاثِ مئة نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ[٤] وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: أَعِينُوا أَخَاكُمْ.

فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بِثَلاثِينَ وَدِيَّةً[٥] وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ. يُعِينُ الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلاثُ مئة وَدِيَّةٍ.

فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُنْ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ.

---

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة. (٢) الشَّمْلَةُ: كساء يُشتَمل به.
(٣) المكاتبة أن يطلب العبدُ من سيِّده عتْقَه، على أن يؤدي إليه المال الذي شارطه على أدائه.
(٤) بالفقير: أي بالحفر والغرس.
(٥) الوديُّ: فسيل النخل وصغاره.

قال: ففقَّرْتُ لهَا، وأعانني أصْحابي، حتَّى إذا فرغْتُ منْهَا جئْتُه فأخبرْتُه، فخرجَ رسُولُ اللَّه ﷺ معي إليْهَا، فجعلْنا نُقرِّبُ لهُ الْوَديَّ ويضعُهُ رسُولُ اللَّه ﷺ بيده حتَّى فرغنا.

فوالَّذي نفْسُ سلْمَانَ بيده ما ماتتْ منْهَا وديَّةٌ واحدَةٌ!

فأدَّيتُ النَّخْلَ، وبقيَ عليَّ المَالُ.

فأُتيَ رسُولُ اللَّه ﷺ بمثْلِ بيْضَةِ الدَّجاجَةِ منْ ذهبٍ منْ بعْضِ المَغازي فقالَ: ما فعلَ الفارسيُّ المُكاتَبُ؟ قالَ: فدُعيتُ لهُ.

فقالَ: خُذْ هَذه، فأدِّ بها ما عليْكَ يا سلْمَانُ.

فقُلْتُ: وأيْنَ تقعُ هذه - يا رسُولَ اللَّه - ممَّا عليَّ؟!

فقالَ: خُذْهَا، فإنَّ اللَّهَ عز وجل سيُؤَدِّي بهَا عنْكَ.

قالَ: فأخذْتُهَا فوزنْتُ لهُمْ منْهَا، والَّذي نفْسُ سلْمَانَ بيده، أرْبعينَ أُوقيَّةً! فأوْفيْتُهمْ حقَّهُمْ، وعُتقْتُ، فشهدْتُ مع رسُولِ اللَّه ﷺ الخنْدقَ، ثُمَّ لمْ يفُتْني معهُ مشْهدٌ.

*****

ذاك حديث سلْمَان الذي أعْجَبَ رسُولَ اللَّه ﷺ أنْ يسْمَعه أصْحابُه.

ومنه يُعلَم أنَّ بَعثَةَ الرسول الخاتم ﷺ كانت معلومةً لأهل الكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿**يجدُونَهُ مكْتُوبًا عندَهُمْ في التَّوْرَاة والإنجيل**﴾[1].

وقد عرف سلْمَان ذلك من عالم النَّصارى ورئيسهم في عمُّوريَّة، عندما نزل به أمرُ الله.

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

وقد أمره أن يلحق بأرض العرب، وفي وادي القرى بيعَ سلمانُ إلى رجل من يهود عبداً.

وبينما هو عنده، قدم عليه ابنُ عمٍّ له من المَدينَة من بني قُرَيْظَة، فابتاعه منه، فاحتمله إلى المَدينَة.

وفي الصحيح عن سَلْمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «**تَدَاوَلَني بِضْعَةَ عَشَرَ مِنْ رَبٍّ إِلَى رَبٍّ**»(١).

ولكنْ.. متى أُعتِقَ سَلْمانُ؟

عندما قال له الرسول الكريم ﷺ: «**كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ**» وقال لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**».

فأعانوه حتَّى اجْتَمَعَتْ له ثَلاثُ مئة وَدِيَّة، وقال له الرسول ﷺ:

«**اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ، فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُنْ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ**»

فَفَقَّرَ لها سلمانُ، وأعانَهُ أصحابُه.

فلمَّا فَرَغ مِنْهَا، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، خرج رسولُ الله ﷺ مَعه إِلَيْهَا، يضعها بيده الشريفة.

يقولُ سَلْمَانُ: فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ، وَبَقِيَ عَلَيَّ المَالُ.

ثم اكتملت مِنَّةُ الله على سلمان بما قدَّمه له الرسول ﷺ من مال حتى أدَّى ما عليه.

يقول سلمانُ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ، مِنْ بَعْضِ المَغَازِي، فَقَالَ: مَا فَعَلَ الفَارِسِيُّ المُكَاتَبُ؟

---

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٥٢.

قَالَ: فَدُعِيتُ لَهُ.

فَقَالَ: خُذْ هَذِهِ، فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ.

فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِمَّا عَلَيَّ؟!

فقَالَ: خُذْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ.

قَالَ: فَأَخَذْتُهَا، فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا. وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِه، أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً! فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعُتِقْتُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الخَنْدَقَ، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ.

الله أكبر، الله أكبر.

أشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله.

جاء سَلْمَانُ الفارسي إلى المَدينَة بوصف الأسقف النصراني له، وَصْفه المَدينَة، وذكْره الرسول الذي يُهاجر إليها.

وكان من أمره وحديثه ما عَلِمَ الرسولُ ﷺ به، فأحبَّ أن يُذكَرَ حديثُه، وأنْ يسمعه أصحابُه.

وقد وَجَدَ سَلْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دار الهجرة كما وُصفَتْ له، وشهد دلائلَ النُّبُوَّة كما ذُكرت له.

ولا غرابة أنْ نسمع ما رواه أبو الأسود الدؤليُّ حين قال:

«كنا عند عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذاتَ يوم، فقالوا: يا أمير المؤمنين حدِّثنا عن سَلْمَان

قال: مَنْ لكم بمِثْل لقْمان الحكيم؟

ذلك امرؤ منَّا وإلينا أهْلَ البيت.. أدركَ العِلْمَ الأولَ والعِلْمَ الآخرَ، وقرأَ الكتابَ الأولَ والآخرَ. وبَحْرٌ لا يَنْزف»[1].

*****

(١) مجمع الزوائد ٩/١٥٨، حلية الأولياء ١/١٨٧، سير أعلام النبلاء ٢/٣٨٨.

لقد أَسْلَمَ سَلْمَانُ الفارسي فسمعنا من حديثه ما يَلْفِت الأنظارَ إلى حقائقَ يجب أن تُستحضَر - دائماً - ولا تَغيب:

مَن الذي هيّأ سَلْمَانَ الفارسيَّ لتَحَمُّل ما تحمّله للوصول إلى حيث يُهاجر الرسولُ ﷺ؟ وقد عرفنا مَن أخْبَرَه بذلك قبل أن يكون.

ومَن الذي هيّأ المَدينَةَ - يثربَ كما كانت تُسمّى من قبل - لتَكون قُبَّة الإسلام ودار الهجرة للرسول الكريم المبعوث رحمة للعالمين؟

وما يوم بُعاث[(١)] منها ببعيد..

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - قَالَتْ: «كَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ عز وجل لِرَسُوله ﷺ فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ المَدينَة وَقَد افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ[(٢)] وَرَفَقُوا لِلَّهِ عز وجل وَلِرَسُولِه فِي دُخُولِهِمْ فِي الإسلام»[(٣)].

وفي هذا الحديث الصحيح ما يدلُّ على أنَّ الأحداث التي وقعَتْ كانت تهيئةً لَمَقْدِم الرسول الذي ائتلفت به القلوبُ، وصَلُحَتْ النفوسُ، واجتمعت على كلمة سواء لنُصْرَة الله ورسوله.

بل كانت الأحداثُ في مَكَّة المُكَرَّمة - التي شَرُفَتْ بمولد الرسول ﷺ وبعثته - بوْتَقةً لإعداد نفوسٍ أُخرجَتْ بهم خيرُ أُمَّةٍ، وقامتْ بهم أزْكَى دولةٍ، وكان لهم قَدْرُهم وشأنهم مع رسول الله ﷺ.

كانوا كما ذكر الله تعالى عن المهاجرين: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[(٤)].

---

(١) يوم بُعاث: أهَمُّ وآخر الحروب التي دارت رحاها بين الأوس والخزرج، وكانت قبل الهجرة بخمس سنين.

(٢) سَرَوَاتُهُمْ: أي أشرافهم.

(٣) أحمد - باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣١٨٤.

(٤) الحشر: ٨.

وعن الأَنْصَار الذين أحبُّوهم وآثروهم على أنفسهم، وقد تبوّؤوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قبلهم، يقول الله: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

وقد أصبح المهاجرون والأَنْصَار في آيات تُتلَى

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

ليعرف الناسُ دلائل الصِّدْق وسبيل الفلاح على مَرِّ الزمان وإلى أن يَرِثَ الله الأَرْضَ ومَنْ عليها.

وتلك دلائل الصِّدْق وسبيل الفلاح في آيتين من آيات الذِّكر الحكيم، تُرى فيهما صفاتُ الأَنْصَار والمهاجرين وهم يلتقون في دار الإيمان والأبرار

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقد شاء الله تعالى لرسوله ﷺ أن يعود مع الأَنْصَار إلى سيِّدة البُلدان «طابة»[2] بعدما فَتَحَ الله له مكةَ أحبَّ بلاد الله إلى الله، وأحبَّ البلاد إليه ﷺ.

ولم تكن عودتُه ﷺ إلى المَدينَة مع الأَنْصَار - مع إيثاره للأنصار - إلا استجابةً لدواعي الحقِّ الذي بُعثَ به، وليسَتْ استرضاءً للأنصار الذين وجدوا في نفوسهم؛ لحرمانهم من العطايا التي أعطاها الرسول ﷺ للمؤلفة قلوبهم.

---

(١) الحشر: ٨، ٩ .

(٢) طابة: من الطيب، وهو اسم للمدينة.

وكان لابُدَّ من بيانٍ يَعْرفُ به الناسُ - على مَرِّ الزمان - قيَمَ الأشياء وفضائل الأعمال:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

«لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، وقَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الحيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ[1] الَّذِي أَصَبْتَ.

قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ..

وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الحيِّ مِنَ الأَنْصَارِ منها شيء!

قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي.

قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ[2].

قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الحَظِيرَةِ.

قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا له، أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحيُّ مِنَ الأَنْصَارِ.

فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ:

---

(١) الْفَيْءُ: الخراج والغنيمة.

(٢) الحظيرة: أي المكان.

يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟

أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!

قَالُوا: بَلِى. اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ.

قَالَ: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار؟

قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ؟

قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ.

أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار - فِي لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ؟!

أَلا تَرْضَوْنَ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار - أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَار.

وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا[2] وَسَلَكَتِ الأَنْصَار شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَار

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَار.

قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلوا[3] لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا»[4].

*****

(١) اللُّعاعة: البقية اليسيرة.

(٢) الشِّعْبُ: ما انْفَرَجَ بين جَبَلَيْنِ، والشِّعْب: مَسِيلُ الماءِ في بطنٍ من الأرض.

(٣) أخضلوا لحاهم: أي ابتلَّتْ.

(٤) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٣٠٥، مجمع الزوائد ٢٩/١٠.

يَا له من شَرَفٍ سَمَتْ به المَدينَة المُنَوَّرَة وعَزَّتْ مع شرفها وعِزِّها.

أن يذهب النَّاسُ بالشَّاة والبعير، وأن يرجع الأَنْصَار برسول الله ﷺ في رحالهم، لتكون المدينةُ مَثْوى رسول الله، يعيشُ بها عَشْرَ سنواته الأخيرة، ويُدفَن بها.

لقد هاجر الرسول ﷺ إلى المَدينَة المُنَوَّرَة بإذن ربِّه؛ لتكون مَقَرّاً لدعوته.

وقد أعدَّ الله لها - قبل الهجرة إليها - مَن يكونُ جديراً بنعمة الإيمان وشرَف الجهاد في سبيل الله..

لقد هاجر إليها كِرَامُ النَّاس من الذين استجابوا لله وللرسول.

وهم - وإن كانوا قلَّةً في عددهم - لكنهم كانوا كَثْرةً في فضائلهم ونَصْر الله لهم، ويكفي أن يُذكَر الواحد منهم، فيُذكَر الله بذكرهم.

فمَنْ ذا الذي لا يرى ذلك في المهاجرين، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ - رضوان الله عليهم جميعاً؟

ومَنْ ذا الذي لا يَذْكُرُ مُصْعَب بن عُمَيْر، المقرئ الذي سَطَعَ نُورُ القرآن بقراءته في المَدينَة قبل أن يصل إليها رَكْبُ الرسول الكريم ﷺ؟

ومَنْ تدبَّر الوقائع ببعثة الرسول ﷺ وهجرته، عرف مَدَى الارتباط بين الحرمين الشريفين في مَكَّة المُكَرَّمة، والمَدينَة المُنَوَّرَة، وأيْقَنَ أن الهجرة كانت - في حقيقتها - هجرة أرْوَاح تعارفت فَأتَلَفَتْ، واعتصمت بحبل الله فتوحدت.

أرْوَاحٌ أيْقَنَتْ بربِّها، وآمنَتْ به، فعرفت حِكْمَةَ خَلْقِهَا وغايةَ وُجُودها.

فالتَقَتْ على صِدْق الغاية وشَرَف اليقين.

واستحضرتْ ما يُوحي به القرآنُ وما يدعو إليه.

ورأَتْ القرآنَ في رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى مكارم الأخلاق.

رأَتْهُ عملاً وخُلُقاً.. وقد «كان خُلُقُه القرآن ﷺ»[1].

(١) مسند أحمد - باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٤٦٠، ٢٤١٣٩.

وقائع وأحداث سبقت هجرة الرسول ﷺ

إنَّ الحديثَ عن المدينة المُنَوَّرَة يَسْتَوْجِبُ الحديثَ عما سبقها من دَعْوة الرسول ﷺ وبَيَان مَن استَجَابَ لَهُ من عباد الله، ومَا جَرَى لهم، ومَا وقَعَ بهم قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بإذْن رَبِّه.

فإنَّ الحديثَ عن المدينة المُنَوَّرَة يرتبط - كلَّ الارتباط - بمَكَّة المُكَرَّمة ومَا وقَعَ فيها، ولا يَنْفَصِلُ عنْهُ.

ذلك أنَّ الذين آمنوا بالله ورسوله، واستجابوا لما يطلُبُه إيمانُهم من إخلاصٍ وصِدْق، وصبروا وصَابَروا، وأخضعوا كلَّ شيءٍ من أمْرهم لمرضَاة ربِّهم، هم الذين أُمِروا بالهجرة بعد أنْ أُعِدَّت نفوسُهم إعدادَ مَنْ يحمل دعوة الحق للعالمين.

وهم الذين عُرفوا بما سمَّاهم به القرآنُ الكريمُ «المهاجرين» وقد وصَفَهُم الله بما هم أَهْلٌ له، وقدَّمَهُم - في ذِكْرهم - على من آمن بإيمانهم من الأنْصَار في آيتين كريمتين من آيات القرآن الكريم، يُعْرَفُ بهما ما للمهاجرين والأنْصَار من ذِكْرٍ وفَضْلٍ، يبْقَى ويُتلَى في آيات بيِّنَاتٍ في الذكر الحكيم؛ لتكونَ للناس فيهم قُدوة حَسَنَة إلى يوم الدين.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

---

(١) الحشر: ٨، ٩.

السابقون الأوَّلون إلى الإيمان:

أرْسَلَ الله تعالى خاتَمَ أنبيائه ورُسُله ﷺ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأمره أن يجهر بدعوته، قائلاً له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[1].

فاستجاب الرسول ﷺ لأمر ربِّه، فصَدَع بدعوة الحق دُون أنْ تأْخُذَهُ في الله لَوْمَةُ لائم، ودعا إلى الله الصغيرَ والكبيرَ، والحرَّ والعَبْدَ، والذَّكَرَ والأُنثى، والأحْمَرَ والأسْوَدَ، والجنَّ والإنْسَ[2].

فرمته العرب عن قَوْسٍ واحدة، وشَمَّروا له ولأصحابه عن سَاقِ العداوة والمحُاربة، وصاحوا بهم من كُلِّ جانب، والله - سبحانه - يأمرهم بالصَبْر والعفو والصفح.

عن جابر رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ لَبثَ بمكة عشرَ سنين يتَّبعُ الناسَ في منازلهم، في المواسم، ومجنَّة وعُكاظ[3] يقول: مَنْ يُؤويني مَنْ يَنْصُرني حتَّى أبَلِّغَ رسالة ربِّي وله الجنَّةُ؟ فلا يجدُ أحدًا ينْصُرُه ولا يُؤْويه، حتَّى إنَّ الرجلَ ليَرْحَلُ من مُضَر أو اليمن إلى ذِي رَحِمِه، فيأتيه قومُه، فيقولون له: احْذَرْ غُلاَمَ قريشٍ لا يَفْتنْكَ[4].

فاستجابَ له من استجابَ من عباد الله.

* وكان حائز قَصَب السَّبْق صدِّيقُ هذه الأُمَّة، وأسبقُها إلى الإسلام، أبو بكر رضي الله عنه فآزره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بَصيرة، فاستجاب لأبي بكر رضي الله عنه: عثمانُ بن عفان، وطلحةُ بن عبيد الله، وسعدُ بن أبي وقَّاص.

---

(١) الحجر: ٩٤ .

(٢) استمرت الدعوة السِّرية ثلاث سنوات، كان رسول الله ﷺ خلالها يجتمع بأصحابه ومَن آمن به في دار الأرقم بمكة.

(٣) مجنَّة وعُكَاظُ: من أسواق العرب، كانوا يجتمعون بها في كل سنة فيقيمون شهرا يتناشدون الأشعار ويتفاخرون.

(٤) مسند أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٣٩٣٤، ١٤١٢٦، المستدرك على الصحيحين ٦٨١/٢، حديث رقم ٤٢٥١، سنن البيهقي الكبرى ١٤٦/٨، مجمع الزوائد: ٤٧/٦.

* وبَادَرَ إلى الاستجابة له ﷺ صدِّيقةُ النِّساء، خديجةُ بنت خُويلد - رضي الله عنها - وقامَتْ بأعباء الصِّدِّيقية خَيْرَ قيام.

فعندما قال لها الرسولُ ﷺ: «لقد خشيتُ على نفسي» أجابته بقولها: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتُقْري[١] الضيف، وتحمل الكل[٢] وتُعين على نوائب الحق[٣]»[٤].

لقد استدلَّتْ على ما قالتْ بما عَرفَتْ فيه من الصِّفات الفاضلة، والأخلاق الرفيعة، وقد عَلمَتْ - بكمال عقْلها واستقامة فطرتها - أنَّ الأعمالَ الصالحة والشِّيَم الفاضلة تُناسبُ أشكالها من كرامةِ الله وتأييده وإحسانه، ولا تُناسب الخزي والخسران.

وبهذا استَحَقَّتْ أن يُرسلَ إليها ربُّها بالسَّلام منه مع رسولِه جبريل ومحمد ﷺ فقد أخرج البخاريُّ ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

«أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّه، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ. فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ[٥] لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ[٦]»[٧].

* وبادَر إلى الإسلام عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ابن ثمان سنين، وكان في كَفَالة رسول الله ﷺ، أخَذَهُ من عمِّه أبي طالب.

---

(١) تُقْري الضيف: أي تُضيفه وتُحسن إليه.

(٢) الكلّ: العيال واليتيم ومن لا يستقل بأمره، وحمل الكَلّ معناه: الإنفاق على العيال والضعفاء، والصدقة على المساكين.

(٣) النَّوائبُ: جمع نائبة، وهي ما يَنُوبُ الإنسانَ أي يَنْزِلُ به من المُهمَّات والحَوادِثِ، ومعني الإعانة على نوائب الحق: أيِ الحوادث التي تكون في الحق دون الباطل.

(٤) حجة الله البالغة: ج ١ ص ١٢٧ .

(٥) القَصَبُ: لُؤْلُؤٌ مُجَوَّف واسعٌ كالقصْرِ المُنيف.

(٦) الصخب: الصوت المرتفع، والنَّصَب: التَّعَب.

(٧) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٣٦، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٦٠ .

* وبَادَر زيدُ بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكانَ غُلاماً لخديجة - رضي الله عنها - فوهبته لرسول الله ﷺ لَمَّا تزوَّجَها.

وقَدِمَ أبوه وعمُّهُ في فدائه، فخيَّره رسول الله ﷺ بين أبيه وعمِّه، وبين البقاء قائلاً له: «أنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ، وعرفتَ صُحبتي لك، فاخترني أو اخترهما»

فقال زيد: ما أنا بالذي أَخْتَارُ عليك أحدًا أبدًا، أنت منِّي مكان الأب والعمِّ

فلَمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ذلك قال: «أُشهدكم أنَّ زيدًا ابني، يرثُني وأَرِثُه»

فلَمَّا رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت نفوسُهما فانصرفا، ودُعيَ «زيدَ بن محمد» حتَّى جاء الله بالإسلام فنزلت ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ**﴾(1).

فدُعيَ من يومئذ: «زيدَ بن حارثة»

الابتلاء في جنب الله وأثره على النفوس المؤمنة:

دخل الناسُ في دين الله واحدًا بعد واحد، وقريشٌ لا تُنْكر ذلك، حتَّى بادأهم بعَيْب دينهم وسَبِّ آلهتهم.

فحينئذ شمَّروا له ولأصحابه عن ساق العداوة، فَحَمَى اللهُ رسولَه بعمِّه أبي طالب؛ لأنَّه كان شريفاً معظَّمًا في قريش، مُطاعًا في أهله، وأهلُ مكة لا يتجَاسَرُونَ على مُكاشفته بشيءٍ من الأذى.

وكان من حِكْمَة الله بقاؤُه على دينِ قومه، لما في ذلك من المصالح التي تَبْدُو لِمَنْ تأمَّلَهَا.

وأما أصحابُه، فمَنْ كان له عشيرةٌ تَحميه امْتَنَعَ بعشيرته.

وسائرُهم تصدَّوا له بالأذى والعذاب، منهم:

---

(1) الأحزاب: ٥.

عمَّارُ بن ياسر، وأُمُّه سُمَيَّة، وأهلُ بيته - جميعاً - عُذِّبوا في ذات الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا مَرَّ بهم - وهم يَعذَّبون - يقول:

«صبرًا آل ياسر؛ فإنَّ موعدَكم الجنَّةُ».

ومنهم بلالُ بن رَبَاح.. فإنَّه عُذِّب في الله أشدَّ العذاب، فهان على قومه، وهانت عليه نفسُه في الله، وكان كلَّما اشتدَّ عليه العذب يقول: «أحَدٌ.. أحدٌ»

ولَمَّا اشتدَّ أذى المشركين على من أَسْلَمَ، وفُتِنَ منهم من فُتِن، ومرَّ عدوُّ الله أبو جهل بسُمَيَّةَ أمِّ عمار بن ياسر، وهي تَعَذَّب وزوجُها وابنُها، فطعنها بحربةٍ حتَّى قتلها.

وقد كان الصِّدِّيق رضي الله عنه إذا مرَّ بأحدٍ من العبيد يُعَذَّب اشتراه منهم وأَعْتَقَهُ، منهم:

بلال بن رباح، وعامِرُ بن فهيرة، وأُمّ عُبيسَ، وَزِنِيرَة، والنَّهْدية، وابنتها، وجارية لبني عدي كان عمر يعذِّبها على الإسلام قبل إسلامه.

وقد كان والدُ الصِّدِّيق رضي الله عنه يقول له: يا بني أراكَ تعتقُ رقابًا ضعافًا، فَلَوْ أنَّكَ إذْ فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ أعْتَقْتَ قومًا جُلْدًا يَمْنَعُونَك؟

فقال له أبو بكر: إنِّي أُريدُ مَا أُريدُ.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

لَمَّا اشْتَدَّ البَلاءُ بالمؤمنين في مكة، أذن الله تعالى لهم بالهجرة الأُولى إلى أرض الحبشة، وكان أولَ مَنْ هَاجَر إليها عثمانُ بن عفان، ومعه زوجتُه رُقَيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ.

وكان أهلُ هذه الهجرة الأُولى اثني عشر رجلاً وأرْبَع نِسْوَة، هم:

عثمانُ، وامرأتُه، وأبو حُذيفة، وامرأتُه سَهْلَةُ بنتُ سهيل، وأبو سَلَمَةُ،

وامرأته أُمُّ سَلَمَة هند بنتُ أبي أُميَّة، والزُّبيرُ بن العوام، ومُصْعَب بنُ عُمَيْرٍ، وعبدُ الرحمن بن عوف، وعثمانُ بن مَظْعُون، وعامرُ بن ربيع، وامرأته ليلى بنت أبي حتمة، وأبو سبرةُ بن أبي رُهْم، وحاطبُ بن عمرو، وسهيلُ بن وهب، وعبدُ الله بن مسعود.

وقد خرج المهاجرون متسلِّلين سرًّا، فَوَفَّقَ الله لهم - ساعةَ وُصولهم إلى الساحل - سفينتين للتجارة، فحملُوهم فيهما إلى أرض الحبشة، وكان مَخْرجهم في رجب في السنة الخامسة من المبعث.

وخرجَتْ قريشُ في آثارهم حتَّى جاءوا البحرَ، فلَمْ يُدركوا منهم أحدًا، ثُمَّ بلغهم أنَّ قريشًا قد كفُّوا عن النبي ﷺ، فرجعوا، فلَمَّا كانوا دون مكة بساعة من نهار، بلغَهُم أنَّ قريشًا أشدّ ما كانوا عداوةً لرسول الله ﷺ، فدَخَلَ مَنْ دخَلَ منهم بجوارٍ.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

ثُمَّ اشتدَّ البلاءُ من قريش على مَنْ قَدِمَ من مهاجري الحبشة وغيرهم، فأَغْرَتْ بهم عشائرهم، ولَقُوا منهم أذًى كثيراً.

عندئذ أذِنَ لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مَرَّةً ثانيةً وكان خروجُهم الثَّاني أشَقَّ عليهم وأَصْعَب، فقد لَقُوا من قريشَ تعْنيفًا شديدًا، ونالوهم بالأذى، وصَعُبَ عليهم ما بلغهم عند النجاشي من حُسْن جواره لهم وكان عُدةُ مَنْ خرج - في هذه المَرَّة - ثلاثةٌ وثمانون رجلاً، ومن النساء تسعُ عشرة امرأة.

قال ابنُ سعد وغيرُه: إنهم لَمَّا سمعوا مُهَاجَرَ رسول الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثمان نسوة، فمَاتَ منهم رجلانِ بمكة، وحُبِسَ بمكة سبعةٌ، وشهد بدرًا منهم أربعةٌ وعشرون رجلاً[1].

(١) الطبقات الكبرى ١/٢٠٧، فتح الباري ٣/٧٤، عون المعبود ٣/١٦٠.

وكانت أُمُّ حبيبة - رضي الله عنها - زوجةً لعُبَيْد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزَوَّجَها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ وأَمْهَرَها أربعةَ آلافٍ، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة.

هكذا روَتْ أُمُّ حبيبة نفسها، وجاء عنها ذلك بسند صحيح(١).

وقد كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي أنْ يبعث إليه مَنْ بَقيَ عنده من أصحابه وَيَحْملَهم، ففعل.

حَمَلَهُم في سفينتين مع عمرو بن أميَّة الضَّمْري، فقَدمُوا على رسول الله ﷺ بخيبر، فوجدوه قد فتحها، فكلَّمَ رسولُ الله ﷺ المسلمين أنْ يُدخلهم في سهامهم، فَفَعَلُوا.

أمَّا النجاشي فإسلامه ثابتٌ؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ صلى عليه صلاةَ الغائب، كما في البخاري ومسلم، وقال ﷺ عنه:

«ماتَ اليَوْمَ عبدٌ لله صالحٌ، أَصْحَمةُ(٢)»(٣).

ومما يدُلُّ على إسلام النجاشي مَوْقفه من وشَاية قريش لرد المهاجرين، وقوله للمهاجرين: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي. مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ.

ثُمَّ أمَر بردِّ الهدايا وتأمين المهاجرين.

وسيأتي الحديثُ عن ذلك تفصيلاً عند الحديث عن وقائع المدنية المنورة.

هجرةُ أصحاب السفينة وما كان من شأنهم:

قد علمنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أمَرَ أصحابَه - من المهاجرين من قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين - بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها وقال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

(١) المستدرك على الصحيحين ١٩٨/٢، مجمع الزوائد ٢٥١/٩.
(٢) أصحمة: تعني بالعربية «عطية».
(٣) مسلم - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٥٨٣.

ويعني ﷺ بـ «الدَّار» المدينةَ المُنَوَّرَة التي هاجر الرسول ﷺ إليها، واتخَذَهَا مقراً لدعوته، وجعلها الله حرماً آمناً.

وعندما سمع صحابتُه أنَّه أمَرَ بالهجرة إليها، سارعوا بالخروج إليها.

فماذا فعل الذين كانوا بالحبشة مهاجرين إليها، وقد طال مُقامُهم فيها؟ وبخاصة أولئك الذين أسلموا من قبل وهاجروا الهجرتين إليها؟

لقد أُمر «حزب الله» في الحبشة - كما أُمِرَ غيرُهم - بالهجرة إلى الدَّار، دار الإيمان، لتقومَ بهم دولة تلك عاصمتها.

ومنها يشِّعُ نورُ الإسلام إلى كلِّ مكان، ويُعقَد لواء الجهاد في سبيل الله دون تَعّويقٍ أو إبطاء، لتحقيق ما جاء الإسلامُ به من بلاغٍ وإنذار للعالمين.

وقد أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بذلك في قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**(١).

أُمِرَ الرسول ﷺ بذلك، كما أُمرَتْ أُمَّته بِصِدْقِ البَلاغ وحُسْنِ الاتِّباع

ولابد لتحقيق ذلك من الأَخْذ بأسباب القوة، والعمل على إعداد النفوس، واعتصامها جميعاً بحبل الله المتين.

ولا قوة إلا بالأخوة في الله، والتضامن لإعلاء كلمة الله.

وإعداد الإنسان الذي يَعي رسالتَه، ويُدْرِك حِكْمَةَ خَلْقِه وغايةَ وُجُوده

وتكون بهم الأُمّة التي عَنَاهَا اللهُ بقوله تعالى: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾**(٢).

---

(١) الأعراف: ١٥٨.
(٢) آل عمران: ١١٠.

ومَنْ تدبَّر كلماتِ جعفر في هجرته إلى الحبشة - وهو يُخاطب النجاشي في جَمْعٍ ممَّنْ طُلبوا لسماع ما يقوله جعفر عن هذا الدِّينِ - أدركَ - من أول الأمر - أن الإنسانَ الذي أُعِدَّ للهجرة كان على يَقين برسالته، ومعرفة صادقة بغايته، وصدْق وإخلاص في إخضاع كلِّ شيء لَمَرْضَات خالقه.

ولْنَتَدبَّر الأمرَ من بدايته مع هذا الفريق من حزب الله الذي شاءَ الله أن تكون هجرتُهم الأولى إلى الحبشة.

روى مسلمٌ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

«بَلَغَنَا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمَا، أَحَدُهُمَا: أَبُو بُرْدَةَ، وَالآخَرُ: أَبُو رُهْمٍ. إِمَّا قَالَ: بِضْعًا، وَإِمَّا قَالَ: ثلاثَةً وَخَمْسِينَ، أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي

قَالَ: فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ[1] فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ.

فَقَالَ جَعْفَرٌ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا هَاهُنَا، وَأَمَرَنَا بِالإِقَامَةِ، فَأَقِيمُوا مَعَنَا فَأَقَمْنَا مَعَهُ، حتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا

قَالَ: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا، أَوْ قَالَ: أَعْطَانَا مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لأحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا، إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ، إِلاَّ لأَصْحَابِ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ، قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ.

قَالَ: فَكَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ -: نَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ.

قَالَ: فَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ - وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا - عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ..

---

(١) أي بسبب هيجان البحر والريح.

فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟

قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

قَالَ عُمَرُ: الحَبَشِيَّةُ هَذِهِ؟ البَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟

فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ.

فَقَالَ عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ.

فَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ كَلِمَةً:

كَذَبْتَ يَا عُمَرُ، كَلاَّ وَاللَّهِ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارِ - أَوْ فِي أَرْضِ - الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ فِي الحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ.

وَأَيْمُ اللَّهِ، لا أَطْعَمُ طَعَامًا، ولا أَشْرَبُ شَرَابًا، حتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَسْأَلُهُ.

وَوَاللَّهِ لا أَكْذِبُ، وَلا أَزِيغُ، وَلا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ ولأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ - أَهْلَ السَّفِينَةِ - هِجْرَتَانِ».

قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً[1] يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

(١) أرْسالاً: أي جماعة في إثر جماعة.

قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الحَدِيثَ مِنِّي(١).

*****

في هذا الحديث فَضيلةٌ ظاهرةٌ لجعفر بن أبي طالب، ومَنْقَبَةٌ لأسماء بنت عُمَيْس زوجه.

وفيه بَيَانٌ لفَضْل الله تعالى على أصحاب السفينة؛ إذ لم يكن مَقْصدُهم حين ركبوا السفينةَ من اليمن إلى مَكَّة حين مبعث رسول الله ﷺ أن يصلوا إلى الحبشة حيث المهاجرين من حزب الله.

ولكن شاءت إرادة الله تعالى لهؤلاء أن تُلْقِيَ بهم سفينتُهم إلى حيث لم يُريدوا.

سبحانك ربي! لا إله إلا أنت..

لقد أَلْقَتْ بهم إلى الحبشة، لهيجان البحر والريح وهم يُريدون أن يصلوا إلى مكة، حيثُ بَلَغَهُم مَبْعَثُ رسول الله ﷺ.

فشاء الله أنْ يَنْعَمُوا بهجرتين، ويكونَ لهم ما كان من إسْهَام لهم، فما قَسَم رسولُ الله ﷺ لأحَدٍ غَابَ عن فَتْح خيبر منها شيئاً، إلا لَمَنْ شهد معه، إلا أصحاب السفينة الذين عرفنا منْ أَمْرِ سفينتهم ما عرفنا.

فكان من فَضْل الله عليهم ورحمته بهم - وهُمْ يَقْصُدون مرضات ربِّهم - أنْ جَعَلَ لهم هجرتين، وأن تكون هجرتهُم إلى المدينة المُنَوَّرَة هجرة بَعد بَلاءٍ وتَمْحيص، وبعد صَبْرٍ ورجاءٍ، فَحَظيَتْ بهم دارُ الأبرار بعد أنْ مُحِّصُوا لها، وفازوا بالدَّار بعد صِدْقِ الإيمان.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٠٥، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٥٨.

فهنيئاً لهم بذلك، وهنيئاً لهم ببُشْرَى رسول الله ﷺ التي قالت عنها أَسْمَاءُ بنْتُ عُمَيْس - وهي تذكرُ أثرَها في أنفسهم -: «مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ، مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

وقالت: «فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الحَدِيثَ مِنِّي».

المقاطعة العامة وميثاق الظلم القرشي:

لَمَّا رأَتْ قريشُ أمْرَ رسولَ الله ﷺ يعلُو وأعداد المؤمنين به في تزايد، أجْمَعُوا أمرهم على أنْ يتعاقدوا على بني هاشم، وبني عبدالمطلب، وبني عبد مناف أنْ لا يُبايعوهم، ولا يُنَاكحُوهم، ولا يُكلِّموهُم، ولا يُجَالسوهم، حتَّى يُسَلِّموا إليهم رسولَ الله ﷺ.

وكتبوا بذلك صحيفة، وعلَّقوها في سَقْف الكعبة.

فانْحَاز بنو هاشم، وبنو عبدالمطلب - مؤمنُهم وكافرُهم - إلاَّ أبا لهب؛ فإنَّه ظاهَرَ قريشاً على رسول الله ﷺ وبني هاشم، وبني عبدالمطلب.

وحُبِسَ رسولُ الله ﷺ - ومَنْ معه - في الشِّعْب، شعْب أبي طالب ليلة هلالِ المحرم سنة سبع من البعثة، وعُلِّقَتْ الصحيفةُ في جوف الكعبة، وظلُّوا محصورين، مُضَيَّقاً عليهم، مَقْطُوعًا عنهم الميرةُ[1] والماء نحو ثلاث سنين

حتى بلغَهُم الجَهْدُ، وسُمِعَ أصواتُ صبيانهم بالبُكاء من وراء الشِّعْب.

وكانت قريشُ في ذلك بين راضٍ وكارهٍ.

فسَعَى في نَقْض الصَّحيفة مَنْ كان كارهاً لها، وكان القائمُ بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك.

(١) المِيرة: الطعام.

مشَى في ذلك إلى المُطعَم بن عدي وجماعةٍ من قريش، فأجابوه إلى ذلك.

ثُمَّ أطْلَعَ اللهُ رسولَه ﷺ على أمْرِ صحيفتهم، وأنَّه أرسل عليها الأَرَضَةَ[1] فأكَلَتْ جميعَ ما فيها من جَوْرٍ وقَطيعةٍ وظُلم، إلاَّ ذكْر الله عز وجل، فأخْبَر بذلك عَمَّه.

فخرج أبو طالب إلى قريش، فأخبرهم أنَّ ابنَ أخيه قد قال كذا وكذا، فإنْ كان كاذبًا خَلَّينَا بينكم وبينَه، وإنْ كان صادقًا رجعتُم عن قَطيعَتِنا وظُلْمِنا

قالوا: قدْ أنْصَفْتَ، فأنزَلُوا الصحيفَةَ، فلَمَّا رَأَوْا الأمْرَ كما أخبرَ به رسولُ الله ﷺ، ازدادوا كفْرًا إلى كُفْرِهم

وخرج رسولُ الله ﷺ، ومَنْ معه من الشِّعْب بعد عشرة أعوام من المبعث

الرسول ﷺ في الطائف يدعو إلى الله:

لَمَّا نُقِضَتِ الصحيفةُ وافق موت أبي طالب وموت خديجة - رضي الله عنها - وبينهما يسير[2].

فاشتدَّ البلاءُ على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتَجَرَّؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى حتى قال ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[3].

عندئذ خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، رجَاءَ أن يُؤووه ويَنْصُروه على قومه، ويمنعوه منهم.

ودعاهم إلى الله عز وجل فلم يَر مَنْ يُؤْوِي ولم يَر ناصرًا، وآذَوْه - مَعَ ذلك - أشدَّ الأذى، ونالوا منه ما لم يَنَلْهُ قومُه.

---

(١) الأَرَضَة: دُوَيبَة تأكل الخشب.

(٢) رجَّح ابن الجوزي في (تلقيح فهوم أهل الأثر) أن وفاة خديجة - رضي الله عنها - كانت بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة، وكان ذلك في رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولها خمس وستون سنة.

(٣) تاريخ الطبري: ١/٥٥٤، السيرة لابن هشام ٢/٢٦٤.

وكان معه «زيدُ بن حارثة» مولاه، فأقام بينهم عشرةَ أيام لا يَدَعُ أحدًا من أشرافهم إلاَّ جَاءَه وكلَّمَه.

فقالوا: اخرج من بلدنا. وأغْرَوا به سفهاءَهم، فوقفوا له سِمَاطَيْن(١) وجعلوا يَرْمُونه بالحجارة حتَّى دَمِيَتْ(٢) قدماهُ.

وزيد بن حارثة يَقيهِ بنفسه، حتَّى أصابه شِجَاجٌ في رأسه!

فانصرفَ راجعًا من الطائف إلى مكة مَحْزُوناً.

وفي مَرْجعه ذلك دعَا بالدعاء المشهور، دعاء الطائف:

«اللهُمَّ إليكَ أشْكُو ضَعْفَ قُوَّتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهَوَاني على النَّاس

يا أَرْحَمَ الراحمين، أنْتَ ربُّ المستضعَفين، وأنْتَ ربِّي

إلى من تَكِلُني؟! إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُني(٣)؟ أو إلى عَدُوٍّ ملَّكْتَهُ أَمْري؟

إنْ لم يكنْ بكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبَالي، غَيْرَ أنَّ عافيتَك هي أوْسَعُ لي.

أعوذُ بنُور وَجْهكَ الذي أشْرَقَتْ له الظلماتُ، وصَلُح عليه أَمْرُ الدنيا والآخرةِ، أنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أو أنْ يَنْزِل بي سَخَطُك

لك العُتبى حتَّى تَرْضَي، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بك»

فأرسلَ ربُّه - تبارك وتعالى - إليه مَلَكَ الجبال، يستأمِرُه أنْ يُطبق الأخشبين(٤) على أهل مكة، فقال:

«لا، بل أستأني بهم(٥) لعَلَّ الله يُخرجُ من أصلابهم من يَعْبُد الله لا يشركُ به شيئًا».

(١) سِمَاطَيْن: أي صفَّيْن. (٢) دَمِيَتْ قدماهُ: أي سال منها الدم.
(٣) يَتَجَهَّمُني: أي يلقاني بالغِلْظة والوجه الكريه.
(٤) الأَخْشبان: جَبَلان مُطيفانِ بمكَّةَ وهما: أَبو قُبَيْس، والأَحْمَرُ.
(٥) استَأْنى به: أي انتظَرَ به.

عن عَائشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «يا رسولَ الله، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِك مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَة، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْد يَالِيلَ بْنِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ - وَأَنَا مَهْمُومٌ - عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِب[1] فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عز وجل قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ. وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ؛ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قال: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأنا مَلَكَ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي ربُّك إِلَيْكَ؛ لتأمُرني بأمْرك، فمَا شِئْتَ. إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ له رسول اللَّه ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2].

ولَمَّا توجه الرسولُ ﷺ إلى مكة، قال له زيدُ بن حارثة:

كيف تدخُلُ عليهم وقد أَخْرَجُوك؟ يعني قريشًا، فقال ﷺ: «يا زيدُ، إنَّ الله جاعلٌ لمَّا ترى فرجًا ومخرجاً، وإنَّ الله ناصرُ دينَه، ومُظهر نبيَّه».

ثم انتهى إلى مكة، فأرسل رجلاً من خُزاعةَ إلى مُطعم بن عدي:

أدخُلُ في جِوارِكَ؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومَه، فقال: البِسُوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإنِّي قدْ أَجَرْتُ محمداً.

---

(١) قرن الثعالب: ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة.

(٢) البخاري - كتاب بدء الخلق، حديث رقم ٢٩٩٢، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٥٢.

فدخل رسولُ الله ﷺ ومعه زيدُ بن حارثة، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام فقام المطعمُ بن عَدِي على راحلته، فنادى:

يا معشر قريش، إنِّي قد أَجَرْتُ محمداً، فلا يَهِجْهُ[١] أحدٌ منكم.

فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الرُّكْن، فاسْتَلَمَهُ[٢] وصلى ركعتين، وانْصَرَف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده محدِقُون به بالسِّلاح، حتَّى دخل بيته.

الإسراء والمعراج:

ضَاقَتْ الأرض برسول الله ﷺ على النحو الذي رأيناه..

فبعد أنْ فَقَدَ الرسولُ ﷺ مَنْ كان ينْصُره من البشر.. فَقَدَ مَنْ كان يُؤْنسُهُ ويُؤازره

فَقَدَ عمَّه أبا طالب، وهو منْ هو مكانةً عند قريش، وفَقَدَ خديجةَ وقد كانت نِعْمَ الزوج.

وها هو ﷺ يعودُ من الطَّائف مع زيد بن حارثة، فلا يدخل مكة إلاَّ في جوار المطعم بن عدي.

ولكنَّ رعاية الله باتت تُظلل رسولَه ﷺ.

ويَالَهَا من دلالة بالغة على تكريم الله لرسوله ﷺ ورعايته له، أن يأتي أمْرٌ ذو بالٍ في حياة الرسول ﷺ، أمْرٌ فيه من المؤانَسَةُ والعزاء ما فيه، وفيه من آيات الحق والقُدرة الإلهية والحكمة ما فيه.

إنَّه أمْرُ الإسراء والمعراج، الذي لا تُرى فيه إلاَّ كلمة العَليِّ القَدير في وقت عزَّ فيه من البشر المؤيدُ والنَّصير.

ويُرَى الكَوْنُ - أرْضُه وسَماؤه - حَفيٌّ بمَنْ ظنَّ الجاحدون أنَّه بمَعْزلٍ عن حماية ربِّه ورعاية خالقِه.

---

(١) أي: لا يرده عمَّا أراد، ولا يناله بسوء.
(٢) اسْتَلَمَ الركن: أي لَمَسَه.

وأيُّ مُؤَانَسَةٍ أعظم، وأيُّ تكريم أشدّ وأبقى من هذا التكرم؟!!

جبريل عليه السلام يأتي بأمر ربِّه، ليَصْحَب الرسول ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج!

ولا تَسَلْ عمَّا يكون في ذلك من إعجاز؛ إذْ الأمْرُ كلُّه فوق طاقة العباد إنَّه أَمْرُ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء.. إنَّه أَمْرُ الله.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾(١).

قال ابن القيم - رحمه الله -:

«أُسْرِيَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البُرَاق، صُحبة جبريل - عليهما الصَّلاة والسَّلام - فنزل هناك، وصلَى بالأنبياء إمامًا، وربط البراقَ بِحَلْقَة باب المسجد، ثم عُرِجَ به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا»(٢).

سبحانك ربي، لا إله إلاَّ أنت.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣).

وقد أتَمَّ اللهُ الرحلةَ وأخْبَرَ بها؛ لتكون زادًا ليقين الناس وإيمانهم ومعرفتهم بقَدر خالقهم، وأنَّ أرضَهم وسماءَهم مَمْسُوكَةٌ، غيرُ مَتْرُوكة لعَبث العابثين أو إضلال المضلين.

---

(١) فاطر: ٤٤.
(٢) زاد المعاد: ٢/٦٩
(٣) الإسراء: ١.

وأنَّ الله قد اخْتَارَ مَن اصطفاه ليُريَه من آياته ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[1].

وقد رأى ما رأى من آيات ربِّه الكُبْرَى في وقت وجيز لمْ يُبَارحْ ليلةَ أُسرى به.

فلَمَّا أَصْبَحَ في قومه، أخْبرهم بما أراه الله ﷺ من آياته الكُبْرَى، فاشتدَّ تكذيبهم وأذاهُم وضَراوتُهم عليه، وسَأَلُوه أنْ يصِفَ لهم بيتَ المقدس

فَجَلاَّه الله له حتَّى عَايَنَه، فطَفِقَ يُخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أنْ يرُدُّوا عليه شيئًا.

وأخبرهم عن عيرهم في مَسْراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يَقْدُمها

وكان الأمْرُ كما قال، فلم يَزدْهُم ذلك إلاَّ نُفُورًا، وأَبَى الظَّالِمُونَ إلاَّ كُفُوراً

قال موسى بن عقبة، عن الزهري: «عُرج برُوح رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، وإلى السماء قبل خروجه إلى المدينة بسَنَة»[2].

وقال ابنُ عبدالبَرِّ وغيرُه: «كانَ بين الإسراء والهجرة سنَة وشهران»

بدء إسلام الأنصار:

وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أنَّ «الأوس والخزرج»[3] كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أنَّ نبيّاً من الأنبياء، مَبْعُوث في هذا الزمان، سيَخْرُج فنتَّبعه، ونقتلكُم معه قَتْلَ عاد وإرَم[4]. قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: من الآية:٨٩).

---

(١) النجم: ١٨ . (٢) الاستيعاب: ١/٤٠.

(٣) الأوس والخزرج: قبيلتان عربيتان هاجرتا من اليمن وسكنتا يثرب. قامت بينهما حروب عديدة كان آخرها يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، وبعد ظهور الإسلام دخل الأوس والخزرج تحت لوائه وعرفوا بـ «الأنصار».

(٤) عاد وإرم: من أقدم القبائل العربية كانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان.

وكانت الأَنْصَار يَحجُون البيت، كما كانت العرب تَحجُّه دون اليهود(١) فلَمَّا رأى الأَنْصَار رسولَ الله يدعو النَّاسَ إلى الله عز وجل، وتأمَّلوا أحوالَه، قال بعضُهم لبعض: تعلمون - والله - يا قوم أنَّ هذا الذي توعَّدكم به يَهُودُ، فلا يَسْبِقُنَّكم إليه، ثمَّ أجابوه ﷺ فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك.

وكانوا ستة نفَر كلُّهم من الخزرج وهم:

أبو أُمامة أسعَدُ بنُ زرَارَة، وعوفُ بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبةُ بن عامر، وعقبةُ بن عامر، وجابر بن عبدالله بن رئاب.

فلما قدموا المدينة دعَوْا أهلها إلى الإسلام، فَفَشَا الإسلام فيها، حتَّى لم يبق دارٌ إلاَّ وقد دخلها الإسلامُ.

بيعة العقبة الأولى:

لَمَّا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة(٢) وهي العقبة الأولى، السِّتَّةُ الأُوَل، خلا جابر بن عبدالله، ومعهم مُعَاذ ابن الحارث بن رفاعة، أخو عوف المتقَدِّم، وذَكْوان بنُ عبدالقيْس، وقد أقام ذَكْوَانُ بمكة حتَّى هاجر إلى المدينة، فيُقال: إنَّه مهاجري أنصاري، وعبادةُ ابن الصامت، ويزيدُ بن ثعلبة، وأَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، وعُوَيْمر بن مالك - هم اثْنَا عشر.

(١) كان بالعرب - على شركهم بالله - بقايا من حنيفية إبراهيم - عليه السلام - يتمسكون بها، كتعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، غيْر أنهم - مع تطاول العُمُر وغلبة الأهواء - غيروا في الحج وبدلوا.

(٢) العقبة: موضع بين منى ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين، ومنها تُرمى جمرة العقبة.

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كنتُ فيمَن حضر العقبة الأولى، وكنَّا اثني عشر رجلاً، فبايعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء[1] - وذلك قبل أن تُفتَرَض الحرب - على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادَنَا، ولا نأتي ببُهْتَان نَفْتَرينَه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر».

مصعب سفير الإسلام في المدينة:

حمل هؤلاء الرجالُ إلى قومهم دعوةَ الإسلام، واستجاب مَنْ استجابَ لهذه الدعوة، وبدأ الإسلامُ ينتشر بين الأنْصَار.

عند ذلك أرسلوا إلى رسول الله ﷺ كتاباً يقولون فيه:

ابعَثْ إلينا رجلاً من أصحابك يُفقِّهُنَا في الدِّينِ، ويُقرئنا القرآن.

فاختار الرسولُ ﷺ مُصْعَب بن عُمَيْر ليكونَ مُوفَداً إليهم.

فلم يزل يدعو آمناً، ويهدي الله تعالى على يديه، حتَّى قَلَّ دارٌ من دُور الأنْصَار إلا قد أَسْلَمَ مَن أَسْلَمَ من أشرافهم.

قال ابنُ شهاب: «وكان مُصْعَب أول مَنْ جَمَعَ الجمعة بالمَدينَة بالمسلمين قبل أن يَقْدُمها رسول الله ﷺ»[2].

وعن البراء قال: «أول مَنْ قَدِمَ المَدينَةَ من المهاجرين مُصْعَبُ بنُ عمير»

فمَنْ هو مُصْعَب بن عُمَيْر الذي اختاره الرسول ﷺ؟ وما سيرتُه؟

---

(١) أي على نمطها، وكانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال.

(٢) فتح الباري ٢/٣٥٥، حلية الأولياء ١/١٠٧، صفة الصفوة ١/٣٩١.

كان مُصْعَب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسمّى «المُقرئ».

والده: «عُمير بن هشام بن عبدمناف» من أشرف بُيوتات قريش وأعرقها حَسَباً ونسباً.

والدتُه: «خناس بنت مالك بن المضرب» من أكثر أغنياء مكة ثروةً ومالاً.

ما جاءت قافلةٌ إلى مكة إلاَّ وكان لها فيها نصيبٌ، وما خَرَجَتْ قافلةٌ من قوافل مكة إلى الشام، إلا كان لوالدة مُصْعَب فيها إبلٌ وجَمَلٌ.

أخُوه: «أبو عزيز» صاحب لواء المشركين ببَدْرٍ بعد النَّضْر بن الحارث، وأحدُ الأسرى فيها.

أَسَرَهُ «أبو اليُسر» فسألتْ أمُّهُ عن أغلى ما فُدِيَ به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فلم تدفع أقلَّ من ذلك فداءً له.

وُلِدَ مُصْعَبُ ﷺ بمكةَ، ونشأ على بطحائها بين أبوين يُحبّانه، ويؤثرانه، ولا يبخلان عليه بشيء.

وعُرِفَ بـ «الفتى المُعطَّر» حيثُ كان أعطَرَ أهل مكة ريحاً، وأجملهم ثوباً

وكان رسولُ الله ﷺ يذكره ويقول: «ما رأيتُ بمكة أحداً أحسن لِمَّة، ولا أرقَّ حُلَّةً، ولا أنْعَمَ نعمَةً من مُصْعَب بن عُمَيْر»(١).

أَسْلَمَ مُصْعَب والرسول ﷺ في «دار الأرقم»(٢) ونطق بكلمة الشهادة، الكلمة الفاصلة بين عَهْدَيْن.

وخرج مُصْعَب من «دار الأرقم» يكتمُ إيمانه.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/٢٢١، حديث رقم ٤٩٠٤، الطبقات الكبرى ٣/١١٦، الاستيعاب ٤/١٤٧٤

(٢) دار الأرقم: هي دار تقع على الصفا، اختارها النبي ﷺ ليلتقي بأصحابه فيها بعيداً عن أعين الرقباء.

فأبْصَرَهُ عثمانُ بن طلحة يُصلي، فأشاع ما رأى، وأُخبرَتْ أُمُّهُ بما حدث وكان يوماً عصيباً على مُصْعَبٍ؛ فقد لقي من أُمِّهِ ما لقي.

دأبَتْ إلا أن تضعَ قدمَهُ في القَيْد حتَّى يموتَ أو يرجع عمَّا أقدَم عليه.

واستمر مُصْعَب في قيده مُعتصماً بربه حتَّى أَذِنَ الرسولُ ﷺ بالهجرة إلى الحبشة.

فانفَلَتَ من مَحْبَسه، وانْضَمَّ إلى قافلة المهاجرين الفَارِّينَ بدينهم من أذى قريش.

وعاد مُصْعَبُ مع العائدين إلى مكة عندما وَصَلَ إلى أسماعهم ما أُشيعَ من أنَّ قريشاً قد تابعَتْ محمداً.

وكان مُصْعَب من هؤلاء العائدين إلى وطنهم.

عاد من الحبشة، وأقبل على رسول الله ﷺ وهو جالس بين أصحابه، وعليه قطيفة نَمِرَة[1] قد وَصَلَهَا بإهَاب[2] فَلَمَّا رآه أصحابُ رسول الله ﷺ رَأَوْا رسولَ الله ﷺ يُحْسِنُ الثَّنَاءَ عليه ويقول:

«الحمدُ لله، يُقلِّب الدنيا بأهلها، لقد رأيتُ هذا - يعني مُصْعَباً - وما بمكة فَتىً من قريش أنْعَم - عند أبويه - نعيماً منه، ثُمَّ أخرجه من ذلك الرغبةُ في الخير في حُبِّ الله ورسوله ﷺ»[3].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

«نظر النبي ﷺ إلى مُصْعَب بن عُمَيْر مُقْبلاً، وعليه إهابُ كبشٍ قد تَنطَّق به، فقال النبي ﷺ: انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نَوَّرَ الله قلبَه، لقد

---

(١) النَمِرَة: بُردة من صوف تلبسها الأعراب.

(٢) الإهَاب: هو الجلد ما لم يُدْبَغ.

(٣) الطبقات الكبرى: ١١٦/٣.

رأيتُه بين أبوين يَغْذُوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حُبُّ الله ورسوله إلى ما تَرَوْنَ»[(١)].

وعن محمد بن شرحبيل قال:

«حمل مُصْعَبُ اللواءَ يوم أُحُد، فلمَّا جَالَ المسلمون ثبَتَ به مُصْعَب، فأقبلَ ابنُ قميئة، فضرب يدَه اليمنى فقطعها، ومُصْعَب يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾[(٢)].

وأخذ اللواءَ بيده اليُسرى، وحَنَى عليه، فضَرَبَها ابن قميئةُ فقطعها، فحنَا مُصْعَبُ على اللواء، وضَمَّهُ بعضُديه إلى صدره وهو يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ ثُمَّ حملَ عليه الثالثة بالرُّمح فَأَنْفَذَه[(٣)]»[(٤)].

وكان مُصْعَب بين أربعين سنة أو يزيد قليلاً.

وقال ابن سعد: قال عبدُ الله بن الفضل: «قُتِلَ مُصْعَب، وأخذ اللواءَ مَلَكٌ معه في صورته، فجعل النبي ﷺ يقول له في آخر النهار: تَقَدَّم يا مُصْعَب، فالتَفَتَ إليه المَلَكُ، وقال: لَستُ بمُصْعَب، فعرف النبي ﷺ أنه مَلَكٌ أُيِّدَ به»[(٥)].

وعند عُبيد الله بن عمير قال:

«لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من أُحُد، مَرَّ على مُصْعَب بن عُمَيْر مقتُولاً على طريقه، فقال: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾[(٦)].

---

(١) شعب الإيمان ٥/١٦٠، الترغيب والترهيب ٣/٨١، حلية الأولياء ١/١٠٨، صفوة الصفوة ١/٣٩٢.
(٢) آل عمران: ١٤٤.
(٣) أنفذه: أي قضى عليه.
(٤) صفوة الصفوة: ١/٣٩٢، الطبقات الكبرى ٣/١٢٠.
(٥) الطبقات الكبرى: ٣/١٢١، صفوة الصفوة ١/٣٩٣.
(٦) الأحزاب: ٢٣.

وعَنْ خَبَّابٍ قَالَ:

«هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّه، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّه، فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا نُكَفِّنُهُ فِيهِ إلاَّ نَمِرَةً، كُنَّا إذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ، فَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ بِهَا، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنْ إِذْخِرٍ(١) وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا(٢)»(٣).

وعن عُبيد بن عمير قال:

«مَرَّ رسولُ الله ﷺ على مُصْعَب بن عُمَيْر حين رجع من أُحُد، فوقفَ عليه وعلى أصحابه فقال: أشْهَدُ أنَّكم أحياء عند الله. فزوروهم، وسَلِّمُوا عليهم، فوالذي نفسي بيده، لا يُسَلِّمُ عليهم أحدٌ إلاَّ ردُّوا عليه إلى يوم القيامة»(٤).

*****

ذاك مُصْعب بن عُمير الذي اختاره الرسول ﷺ ليكون داعية الإسلام في أطيب دار..

فما نشاطه في مدينة رسول الله ﷺ؟ وكيف كانت دعوته إلى الله تعالى؟

لَمَّا قدمَ مُصْعبُ المدينة نزل على «أَسْعَد بن زُرَارَة» أحد رجالات البيعة الأولى، ومن السابقين إلى الإسلام.

يقول عبدالرحمن بن كعب:

---

(١) الإذخر: نبات طيِّب الرائحة.

(٢) قوله «منا من أينعت له ثمرته» أي: أدركت ونضجت، وقوله «فهو يهدبها» أي: يجتنيها، وهذا استعارة لما فتح عليهم من الدنيا.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٠٨، ٣٦٢٣، كتاب الرقاق، حديث رقم ٥٩٦٧.

(٤) المعجم الكبير ٣٦٤/٢٠، حلية الأولياء ١٠٨/١.

«كنتُ قائدَ أبي كعب بن مالك حين ذهب بَصَرُه، فكنتُ إذا خرجتُ به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها، صلَّى على أبي أُمَامَةَ، أَسْعَد بن زُرَارَة

قال: فمكث حِيناً على ذلك، لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلَّى عليه، واستغفر له

قال: فَقُلْتُ في نفسي: والله، إنَّ هذا بي لَعَجْزٌ، ألا أسأله مَا لَهُ إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبي أُمَامة، أَسْعَد بن زُرَارَة؟

قال: فخرجتُ به في يوم جمعة كما كنتُ أخرج، فَلَمَّا سمع الأذانَ للجمعة صلى عليه واستغفر له.

قال: فقلتُ له: يا أبت مالَكَ إِذَا سَمِعْتَ الأذان للجمعة صليتَ على أبي أُمامة؟

قال: أي بُنيّ، كان أوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بنا بالمَدينَة.

قال: قلتُ: وكم أنتم يومئذ؟

قال: أربعون رجلاً.

*****

نزل مُصْعَبُ بنُ عُمير ضيفاً على أسعد بن زُرارة، وما إن استقر المُقَامُ بمصعب حتى أخذ في أداء ما كُلِّفَ به.

قال ابن إسحاق: حدثني عبيد الله بن معيقب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زُرارة خرج بمُصْعَب يريد دار بني الأشهل، ودار بني ظفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زُرارة، وسَعْد بن مُعَاذ، وأُسَيْدُ بن حُضَيْر - يومئذ - سيِّدا قومهما من بني عبدالأشهل، وكلاهما مُشْرِكٌ على دِين قومه.

قال سَعْد بن مُعَاذ: لا أبَا لَكَ [1] انْطَلِقْ إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دَارَيْنَا؛ ليُسَفِّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانْهَهُمَا عن أن يأتيا دَارَيْنَا، فإنه لولا أن أَسْعَد بن زُرَارَة مني حيثُ قد علمتَ، كَفَيْتُكَ ذلك.

هو ابن خالتي، ولا أجدُ عليه مقدما.

قال: فأخذ أُسَيْدُ بن حُضَيْر حربته، ثُمَّ أقبل إليهما، فَلَمَّا رآه أَسْعَدُ بن زُرَارَة قال لمُصْعَب بن عُمَيْر:

هذا سيِّدُ قومه قد جاءك، فاصْدُق الله فيه.

قال مُصْعَب: إنْ يجلس أُكلِّمه.

قال: فوقفَ عليهما مُتشتِّماً.

فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهان ضعفاءَنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ.

فقال له مُصْعَب: أوَتَجْلِسُ، فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قبلتَهُ، وإن كرهتَهُ كُفَّ عنك ما تكره.

قال: أنصفتَ. ثُمَّ ركَّزَ حربَتَه، وجلس إليهما.

فَكَلَّمه مُصْعَبُ بالإسلام، وقرأ عليه القرآن.

فقالا - فيما يُذْكَرُ عنهما -: والله لَعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أنْ يتكلم في إشراقه وتَسهّله.

ثم قال: ما أَحْسَنَ هذا الكلام وأجمله.

كيف تصنعون إذا أردتم أنْ تدخلوا في هذا الدِّينِ؟

---

(١) لا أبا لك: كلمة تُقالُ في الذم والمدح، والمراد بها هنا المدح.

قالا لـه: تغتسـل، فَتَطَهَّرَ، وتُطَهِّرَ ثوبيك، ثُمَّ تشهد شهادة الحق، ثُمَّ تُصلي

فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثُمَّ قام فركع ركعتين

ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سَعْد بن مُعَاذ.

ثم أخذ حرْبَتَه وانصرف إلى سَعْدٍ وقومه وهم جلوسٌ في ناديهم، فَلَمَّا نظر إليه سَعْدُ بن مُعَاذ مُقْبلاً قال:

أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم

فَلَمَّا وقف على النادي قال له سَعْدٌ: ما فعلتَ؟

قال: كلَّمتُ الرجلين، فوالله ما رأيتُ بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا نفعل ما أحببتَ.

وقد حُدِّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أَسْعَد بن زُرَارَة؛ ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك؛ لِيُخْفِرُوكَ[1].

قال: فقام سَعْدٌ مُغْضَباً مُبادراً؛ تخوفا للذي ذُكِرَ له من بني حارثة

فأخذ الحَرْبَةَ من يده، ثُمَّ قال:

والله، ما أراك أغنيتَ عنا شيئاً، ثُمَّ خرج إليهما، فَلَمَّا رآهما سَعْدٌ مطمئنَّين، عرف أن أُسَيْداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتَشَتِّماً

ثم قال لأَسْعَد بن زُرَارَة: يا أبا أُمامة، أما - والله - لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أَتَغْشَانَا في دارينا بما نكره؟!

(١) الخُفْرَة: هي الذمة، وأَخفرَه أي نقض عهده، وخاسَ به، وغَدَره.

وقد قال أَسْعَد بن زُرَارَة لِمُصْعَب بن عُمَيْر: أي مُصْعَب، جاءك - والله - سيِّد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان

قال: فقال له مُصْعَب: أَوَتَقْعُد، فتسمع، فإن رضيتَ أمراً، ورغبت فيه، قبلته، وإن كرهته عزَلْنَا عنك ما تكره؟

قال سَعْدٌ: أنصفت، ثُمَّ ركَّزَ الحربة وجلس.

فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.

قالا: فعرفنا - والله - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم؛ لإشراقه وتسهّله

ثم قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدِّين؟

قالا: تغتسل، فتطهَّر، وتُطَهِّرَ ثوبيك، ثُمَّ تشهد شهادة الحق، ثُمَّ تُصلي ركعتين

قال: فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثُمَّ ركع ركعتين، ثُمَّ أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعه أُسَيْدُ بن حُضَيْر

قال: فَلَمَّا رآه قومُه مُقبلاً، قالوا: نَحْلِفُ بالله، لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فَلَمَّا وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيّدُنا، وأفضلُنا رأياً، وَأَيْمَنُنَا نقيبةً.

قال: فإنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتَّى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله، ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً ومسلمةً.

ورجع سَعَدُ ومُصْعَب بن عُمَيْر إلى منزل أَسْعَد بن زُرَارَة.

فأقام مصعب عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتَّى لم تبق دار من دُور الأَنْصَار إلا وفيها رجالٌ ونساءٌ مسلمون.

ثمرات الدعوة المباركة:

لقد رأينا كيف اختار الرسول ﷺ مصعباً لفتح قلوب وديار أهل المدينة بالإسلام، وكيف نجح رضي الله عنه أيّما نجاح في هذه المهمة، وظهرت آثار الدعوة المباركة في عام واحد، حتى لم يبق بيت إلا ودخله الإسلام.

ومن ثمرات هذه الدعوة المباركة أن أَسْلَمَ على يديه أشرافُ المدينة، واستجاب لله وللرسول كرامُهم، وصار لكل مَنْ أَسْلَمَ منهم - في تاريخ الإسلام - شأنٌ أيُّ شأن.

* أَسْلَمَ «أُسَيْدُ بن حُضَيْر» وكان من النُّقباء، وكان والدُه رئيس الأوس يوم بُعاث، وقد قُتِلَ يومئذ.

وكان ابنُه أُسَيْدُ شريفاً في الجاهلية وفي الإسلام، وكان يكتب بالعربية، ويُحسن العَوْم والرَّمي، وكانوا - في الجاهلية - يُسَمُّون مَنْ كانت فيه هذه الخصال «الكامل»

أَسْلَمَ أُسَيْدُ بن حُضَيْر قبل إسلام «سَعْد بن مُعَاذ» بساعة.

وشهد بيعة العقبة الأخيرة مع السبعين، ولم يشهد بدراً.

كما شهد أُحُداً، وَجُرِحَ - يومئذ - سبع جراحات، وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناسُ.

وشهد الخندق والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ.

وتُوفيَ في شعبان سنة عشرين.

عن أَنَس رضي الله عنه قال: «كان أُسَيْدُ بن حُضَيْر وَعَبَّاد بْن بِشْر عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ في لَيْلَة ظَلْمَاءَ حِنْدِس(١) فتحدثا عنده، حتَّى إذا خَرَجَا أَضَاءَتْ لهما عَصَا أَحَدِهِمَا، فَكَانَا يَمْشِيَانِ في ضَوْئِهَا»(٢).

---

(١) حندس: أي شديدة الظُلمة.

(٢) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم١٣٣٦٧، صحيح ابن حبان ٣٧٨/٥، حديث رقم ٢٠٣٢، المستدرك على الصحيحين ٣٢٦/٣، حديث رقم ٥٢٦١، الاستيعاب ٨٠٢/٢، الطبقات الكبرى ٦٠٦/٣.

وأخرج البخاريُّ في باب مناقب أُسَيْد بن حُضَيْر وعبَّاد بن بشر - رضي الله عنهما - عن قتادة عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أَنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، حتَّى تَفرَّقَا، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا»(١).

* وأَسْلَمَ «سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ» على يد مُصْعَب بن عُمَيْر، فأَسْلَمَ بإسلامه بنو عبدالأشْهَل، وهي أول دار أسلمت من الأَنْصَار.

وقد شهد سعد بدراً وأُحُداً، وثَبَتَ مع النبي ﷺ يومئذ.

ورمي يَوْمَ الخندق، ثُمَّ انفجر كَلْمُهُ(٢) بعد ذلك.

فمات في شوال سنة خمس من الهجرة وهو ابن سبع وثلاثين سنة

وصلى عليه رسول الله ﷺ، ودُفِنَ بالبقيع.

*****

لقد أَسْلَمَ أُسَيْدُ بن حُضَيْر، وسَعْد بن مُعَاذ على يد مُصْعَب بن عُمَيْر، المقرئ الذي أوفده الرسول ﷺ إلى المَدينَة؛ ليُعلِّم الإسلام، ويُقرئ القرآن.

وقد رأينا منهما ومن غيرهما عَجَباً بعد الإسلام.

ولْنَسْتَمع إلى ما جاء في السنة الصحيحة عنهما؛ ليكون لنا فيمَنْ صدقَ الله ورسولَه أُسْوَةٌ وقُدْوَةٌ:

روى البخاريُّ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ:

«بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَة، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ(٣) الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٢١ . (٢) كَلْمُهُ: أي جراحه.
(٣) يقال: جالَ يجُولُ، إذا دارَ.

فَانْصَرَفَ - وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا - فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ[١] فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:

اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ

قَالَ: أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَانْصَرفتُ إليه، ورَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حتَّى لاَ أَرَاهَا.

قَالَ: وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟

قَالَ: لاَ.

قَالَ: تِلْكَ الْمَلائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[٢].

وروى مسلم عن أبي سَعِيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه «أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ[٣] إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا

قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ[٤] عَرَجَتْ فِي الجَوِّ حتَّى مَا أَرَاهَا.

قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ.

---

(١) الظُّلَّة: الشيء يُستَتر به من الحَرِّ والبرد.
(٢) البخاري - كتاب فضائل القرآن.
(٣) المربد: موقف الإبل.
(٤) السُّرُج: المصابيح الزاهرة.

قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ.

قَالَ فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ.

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ المَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ، مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ»(١).

*****

تلك قراءةُ القرآن وهذه فضائله ونزول السكينة والملائكة عند قراءته

فماذا عن ابن حَضَيْرٍ الذي قال له الرسول ﷺ: «اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ»؟

وفي رواية «اقرأ أبا عتيك»(٢) وهي كُنية أُسَيْدٍ.

أي: كان ينبغي أن تستمرَ على قراءتك؛ لتستمر لك البركة بنزول الملائكة واستماعها للقرآن.

وقد فهم ابنُ حُضَيْر ذلك، فأجاب بعُذره في قَطْع القراءة، وهو قوله: «خَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى» أي: خشيتُ إن استمريتُ في القراءة أن تطأ الفرسُ ابني.

لقد أخبر أُسَيْد بن حُضَيْر بما رأى وبما وقع منه من قَطْع القراءة؛ خشيةً على ابنه يحيى، فأعلمه الرسول ﷺ بقوله له:

(١) مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١٣٢٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١/٧٤٠، حديث رقم ٢٠٣٤، الترغيب والترهيب ٢/٢٤٢، فتح الباري ٩/٦٤.

«تِلْكَ المَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ».

وفي رواية البخاري: «وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى عَنْهُمْ».

وفي ذلك دلالة على جواز رؤية آحاد الأُمَّة للملائكة، كما قال الإمام النووي:

«في الحديث جواز رؤية آحاد الأُمَّة للملائكة»(١) كذا أطْلَقَ وهو صحيح كما أضاف الإمام ابن حجر العسقلاني قائلاً:

«لكنَّ الذي يظهر التقييد بالصالح - مثلاً - والحَسَن الصوت»(٢).

فابن حجر يميل إلى التقييد، وقد كان أُسَيْد حَسَن الصوت، فقد جاء في رواية يحيى بن أيوب عن يزيد بن الهاد: «اقرأ أُسَيْد، فقد أُوتيتَ من مزامير آل داود» فقول رسول الله ﷺ له: «وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى عَنْهُمْ» مختص به لصلاحه وحُسْن صوته.

هذا ما يُفهَم من كلام الإمام ابن حجر في شرح صحيح البخاري، حيث قال:

«فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة، بصفة خاصة، ويُحتمل من الخصوصية ما لم يُذكَر، وإلاَّ لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكل قارئ، وقد أشار في آخر الحديث بقوله: «ما يتوارَى منهم» إلى أن الملائكة - لاستغراقهم في السماع - كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذي هو من شأنهم، وفيه مَنْقَبَةٌ لأُسَيد ابن حُضَيْرٍ، وفَضْلُ قراءة سورة البقرة في صلاة الليل، وفَضْلُ الخشوع في الصلاة، وأنَّ التشاغل بشيء من أمور الدنيا - ولو كان من المباح - قد يُفَوِّت الخيرَ الكثير، فكيف لو كان بغير المباح. أ. هـ»(٣).

*****

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٨٢/٦.

(٢) فتح الباري: ٦٤/٩.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ذاك ما كان من أُسَيْد بن حُضَيْر بعد إسلامه على يد المقرئ مُصْعَب بن عُمَيْر الذي أرسله الرسول ﷺ إلى المَدينَة قبل هجرته إليها ليُعلِّم الإسلام، ويُقرئ القرآن، فأَسْلَمَ على يديه أُسَيْد بن حُضَيْر.

كما أَسْلَمَ - بعده بساعة - الصحابيُّ الجليلُ سَعْدُ بن مُعَاذ، وقد كان له شأنه في وقائع المَدينَة، وله فضله في إسلامه وبعد إسلامه، مما سنراه بعد في وقائع وأحداث، يدعونا إلى معرفتها والحرص على تدبرها ما صَحَّ من الحديث من أخبار الرسول ﷺ عن سعد بن معاذ وما صار إليه من حُسْن عاقبة وجزاء.

روى البخاري ومسلم عَنْ جَابِرِ بن عبدالله - رضي الله عنهما -: قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ»(١).

زاد البخاري: «فَقَالَ رَجُلٌ لِجَابِرٍ: إِنَّ الْبَرَاءَ يَقُولُ: اهْتَزَّ السَّرِيرُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ(٢) ضَغَائِنُ. سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ»(٣).

وفي رواية لمسلم قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَجَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ -: اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»(٤).

وفي [جامع الأصول] لابن الأثير: «اهتزاز العرش: كنايةٌ عن ارتياحه بروحه حين صُعِدَ به؛ لكرامته على ربِّه، وكلُّ مَنْ خَفَّ لأمرٍ وارتاحَ له فقد اهتزَّ له والمعنى: فرحَ أهلُ العرش بقُدومه على الله لما رأوه من منزلته وكرامته وفضله».

وروى الترمذي بإسناد صحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال:

---

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥١٩.
(٢) الحَيَّيْن: أي الأوس والخزرج.
(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥١٩.
(٤) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥١١.

«لَمَّا حُمِلَتْ جَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا أَخَفَّ جَنَازَتَهُ، وَذَلِكَ لِحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ»(١).

بيعة العقبة الثانية:

رجع مُصْعَبَ بن عُمير إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجَّاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق(٢) حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنَّصْر لنبيِّه، وإعزاز الإسلام وأهله.

قال كعبُ بن مالك رضي الله عنه:

«خَرَجْنَا إِلَى الحَجِّ، وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، أَبُو جَابِرٍ، سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا.

وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ:

يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا.

ثُمَّ دَعَوْنَاه إِلَى الإسلام، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّانا العقبة

قال: فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا.

قَالَ: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا(٣).

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/٢٢٨، حديث رقم ٤٩٢٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٧٨٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أيام التشريق: هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، كانوا يُشرِّقون فيها لحمَ الأضاحي للشمس.

(٣) القَطا: طائر معروف سُمِّي به لثقل مشيه.

حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنا:

نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ.

قال: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ - يَوْمَئِذٍ - عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ.

فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ - قَالَ: وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا -: إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ.

وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ.

وإِنَّهُ قد أَبَى إلاَّ الانْحيازَ إليْكُم واللُّحُوقَ بكم

فَإِنْ كُنتم تَرَوْنَ أَنَّكم وافُونَ لهُ بما دَعَوْتُمُوه إليه ومانعُوه ممَّا خَالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك.

وإن كنتم تَرَوْن أنَّكم مُسلمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمنَ الآن فدَعُوه؛ فإنَّه فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِه وبلَدِهِ.

فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلاَ القرآن وَدَعَا إِلَى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الإِسلامِ، ثُمَّ قَالَ:

«أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ

فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ. وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَهْلُ الحُرُوبِ، وَأَهْلُ الحَلْقَةِ[١] وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ - وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي اليهود - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ[٢] أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ.

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا؛ يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، تِسْعَةٌ مِنَ الخَزْرَجِ، وَثَلاثَةٌ مِنَ الأَوْسِ[٣].

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة: أن القوم لمَّا اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِي، أخو بني سالم ابن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تُبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

---

(١) الحَلْقَة: اسم لجُملة السِّلاح والدُّروع وما أشبهها، وهو كناية عن المهارة في الحروب.

(٢) الهدم بإسكان الدال وفتحها: إهدار الدم، أي إن طلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أُهدر دمكم فقد أُهدر دمي، والهدم بالتحريك: القبر والمنزل، أي أُقبر حيث تقبرون، وأنزل حيث تنزلون.

(٣) نقباء الخزرج السبعة هم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت. وأما نقباء الأوس فهم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن المنذر. قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعة.

قال: إنَّكم تُبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس! فإن كنتم تَرَوْن أنكم إذا نَهَكَتْ أموالَكم مُصيبةٌ، وأشرافَكم قَتْلاً أسلَمْتُموه، فمنَ الآن، فهو - والله - إن فعلتم خِزيُ الدنيا والآخرة.

وإنْ كنتم تَرَوْن أنَّكم وافُون له بما دَعَوْتُموه إليه - على نهْكة الأموال، وقَتْل الأشراف -، فخذوه، فهو - والله - خيرُ الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنَّا نأخذه على مُصيبة الأموال وقَتْل الأشراف.

فما لنا بذلك يا رسول الله إنْ نحن وفَّيْنَا؟

قال: الجنَّةُ.

قالوا: ابسطْ يَدَك، فبسط يده فبايعوه.

ورُوي عن كعب بن مالك قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراءُ بن مَعْرُور، ثُمَّ بايع بعد القومُ.

وصَرَخَ الشيطانُ على العقبة بأنْفَذِ صوتٍ سُمِع:

يا أهلَ الجباجب[١] هل لكم في مُذَمَّمٍ[٢] والصُّبَاةُ[٣] معه قد اجتمعوا على حربكم؟

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العقبة[٤] هذا ابنُ أُزَيْب، أمَا والله يا عَدُوَّ الله لأتَفرَّغَنَّ لك».

ثم أمرهم أن يَنْفَضُّو إلى رحالهم، فلَمَّا أصبح القومُ، غَدَتْ عليهم جِلَّةُ قريش وأشرافُهم، حتَّى دخلوا شِعَب الأنْصَار، فقالوا:

---

(١) الجباجب: منازل منى.
(٢) المذمم: المذموم.
(٣) الصباةُ: جمع صابئ، وهو الخارج من دين قومه المفارق له.
(٤) أزب العقبة: اسم شيطان.

يا معشر الخزرج، إنَّه بَلَغَنَا أنَّكم لقيتم صَاحِبَنَا البارحةَ، وواعدتّموه أنْ تُبايعوه على حربنا. وأيْمُ الله، ما حيٌّ من العرب أبغضَ إلينا من أن يَنْشِبَ[١] بيننا وبينه الحرب منكم.

فانْبَعَثَ مَنْ كان هناك من الخزرج من المشركين، يحلفون لهم بالله: ما كان هذا وما علمنا.

وجعل عبدُ الله بن أبي بن سلول يقول: هذا باطل. وما كان هذا، وما كان قومي لِيَفْتَاتُوا عَلَيَّ مثلَ هذا[٢] لو كنتُ بيثرب ما صنع قومي هذا حتَّى يُؤامِروني.

فرجعتْ قريشُ مِنْ عندهم، ورَحَلَ البَراءُ بن مَعْرُور، فتَقَدَّم إلى بَطْن يأجج[٣] وتلاحق أصحابُه من المسلمين.

وتَطَلَّبتهم قريشُ، فأدركوا سعدَ بنَ عبادة، فربطوا يديه إلى عُنُقه بِنِسْع[٤] رحله، وجعلوا يَضْربونَه، ويجرُّونه، ويجذبونَه بِجُمَّته[٥] حتَّى أدخلوه مكةَ

فجاء مطعمُ بن عَدي، والحارثُ بن حرب بن أُميَّة، فخَلَّصَاهُ من أيديهم، وتشاورت الأَنْصَار - حين فَقَدُوه - أنْ يَكِرُّوا إليه، فإذا سَعْدٌ قد طلع عليهم، فوصل القومُ جميعًا إلى المدينة.

قال كعب: ثُمَّ قال رسولُ الله ﷺ: ارفَضُّوا[٦] إلى رحالكم.

قال: فقال له العبَّاس بنُ عُبَادة بن نَضْلَةٍ: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لَنَميلَنَّ على أهل مِنىً[٧] غداً بأسيافنا؟

---

(١) يُقال: نَشِبَت الحرب أي اشتبكت.
(٢) يُقال: افتاتَ عليه إذا انْفَرَدَ برأيه دونه في التصرف فيه.
(٣) بطن يأجج: علم مرتجل لاسم مكان من مكة على ثمانية أميال.
(٤) النِّسعة: سَيرٌ مَضفور يُجعل زِماما للبعير وغيره.
(٥) الجُمَّةُ: مُجْتَمَعُ شعر الرأس، والجُمَّة من شعر الرأس: ما سَقَطَ على المَنْكِبَيْنِ.
(٦) ارفَضُّوا: أي تفرقوا.
(٧) مِنَىً: بليدة على فرسخ من مكة طولها ميلان في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم، سُمي بذلك لما يُمنَى به من الدماء، أي يراق، وقيل: لأن آدم (تمنى فيها الجنة.

قال: فقال رسول الله ﷺ: لم نُؤمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم

قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنِمْنَا عليها حتَّى أصبَحْنا.

وكان رسولُ الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يُؤذَن له في الحرب، ولم تُحلَّل له الدماء، إنما يُؤمَر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتَّبعه من المهاجرين حتَّى فَتَنُوهم عن دينهم، ونَفَوْهم من بلادهم.

فهم من بين مفتُون في دينه، ومن بين مُعَذَّب في أيديهم، ومن بين هارب في البلاد فراراً منهم.

منهم مَنْ بأرض الحبشة، ومنهم مَنْ بالمَدينَة، وفي كُلِّ وَجْه.

فَلَمَّا عَتَتْ قريشُ على الله عز وجل وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذَّبوا نبيه ﷺ وعذَّبوا مَنْ آمنَ به، أذن اللهُ عز وجل لرسوله ﷺ في القتال، والانتصار ممن ظلمهم وبَغى عليهم.

فكانت أول آية أُنزلت في إذْنه له في الحرب، وإحلاله الدماء والقتال لمَنْ بُغِيَ عليهم قولُ الله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

---

(١) الحج: ٣٩ - ٤١.

أي: أنِّي إنما أحلَلْتُ لهم القتال لأنهم ظُلِمُوا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا وانتصروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعني النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين.

إذنه ﷺ لمسلمي مكة بالهجرة:

قال ابنُ إسحاق:

فَلَمَّا أذن الله لرسوله ﷺ في الحرب، وبايعه هذا الحيُّ من الأَنْصَار على الإسلام والنُصْرةِ له ولِمَنْ اتبعَهُ وأوى إليهم من المسلمين، أمَرَ رسولُ الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومَنْ معه بمكة من المسلمين، بالهجرة إلى المَدينَة، واللُّحوق بإخوانهم من الأَنْصَار.

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»

فخرجوا أَرْسَالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّهُ في الخروج من مكة، والهجرة إلى المَدينَة.

*** هجرة أبي سَلَمَة وزوجه وحديثها عمَّا لقيه:**

كان أول من هاجر إلى المَدينَة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم، أبو سَلَمَة بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم، واسمه عبدالله.

هاجر إلى المَدينَة قبل بيعة أصحاب العقبة بسَنَةٍ.

وكان قد قَدِمَ على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فَلَمَّا آذته قريشُ، وبلَغَه إسلامُ من أَسْلَمَ من الأَنْصَار، خرج إلى المَدينَة مُهاجراً.

تقول أُمُّ سَلَمَةُ زوجُ النبي ﷺ:

لَمَّا أجمع أبو سَلَمَة الخروج إلى المَدينَة، رَحَلَ لي بعيره، ثُمَّ حملني عليه، وحمل معي ابني سَلَمَة بن أبي سَلَمَة في حِجْري، ثُمَّ خرج بي يَقُودُ بعيرَه

فَلَمَّا رأته رجالُ بنى المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، قاموا إليه فقالوا:

هذه نفسك غلبتَنا عليها، أرأيتَ صاحبتك هذه عَلاَمَ نتركك تسيرُ بها في البلاد؟!

قالت: فنزعوا خطامَ البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب - عند ذلك - بنو عبدالأسد، رهطُ أبي سَلَمَة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سَلَمَة بينهم حتَّى خلعوا يدَه! وانطلق به بنو عبدالأسد.

وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سَلَمَة إلى المَدينَة

قالت: فَفُرِّقَ بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنتُ أخرجُ كلَّ غَداةٍ، فأجلس بالأبطح[1] فما أزالُ أبكي حتَّى أُمْسِي، سنَةً أو قريباً منها

حتَّى مَرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمنى، فقال لبني المغيرة:

ألا تُخرجون هذه المسكينة؟ فرَّقْتُم بينها وبين زوجها وبين ولدها!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وَرَدَّ بنو عبدالأسد إليَّ - عند ذلك - ابني.

---

(١) الأَبْطَحُ: مسيل واسع فيه دقاق الحصى والجمع بِطَاحُ.

قالت: فارْتَحلْتُ بعيري، ثُمَّ أخَذْتُ ابني، فوضعتُه في حِجْري، ثُمَّ خرجتُ أُريدُ زوجي بالمَدينَة.

قالت: وما معي أحَدٌ من خَلْقِ الله، فقلتُ: أتبلَّغُ بمَنْ لقيتُ حتَّى أقْدُم على زوجي، حتَّى إذا كنتُ بالتنعيم[1] لقيتُ عثمانَ بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبدالدَّار، فقال لي:

إلي أين يا بنت أبي أُميَّة؟

قالت: فقلتُ: أريدُ زوجي بالمَدينَة.

قال: أوَمَا معك أحَدٌ؟

قالت: فقلتُ: لا والله، إلا الله، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله، ما لَكِ من مَتْرَك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوي بي، فوالله، ما صَحِبْتُ رجلاً من العربِ - قَط - أرى أنه كان أكرمَ منه

كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثُمَّ استأخر عني، حتَّى إذا نزلتُ استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثُمَّ قيَّده في الشجرة، ثُمَّ تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواحُ قام إلى بعيري، فقدَّمه فرحله، ثُمَّ استأخرَ عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ واستويتُ علي بعيري، أتى فأخذه بخطامه، فقادَهُ حتَّى ينزل بي، حتَّى أقدمني المَدينَة ، فَلَمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُبَاء، قال:

زوجك في هذه القرية - وكان أبو سَلَمَة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله. ثُمَّ انصرف راجعاً إلى مكة.

قال: فكانت تقولُ: والله، ما أعلمُ أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سَلَمَة، وما رأيت صاحباً - قَط - كان أكرم من عثمان بن طلحة.

---

(١) التنعيم: موضع بمكة في الحِلِّ.

* **هجرةُ عُمَر وقِصَّة عَيَّاش مَعَهُ:**

وخرج عمرُ بن الخطاب، وعيَّاش بن أبي ربيعة الأنصَاري حتَّى قدما المَدينَة

قال ابن إسحاق: حدثني نافع مولى عبدالله بن عمر، عن عبدالله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب قال:

اتَّعَدتُ[١] - لمَّا أردنا الهجرة إلى المَدينَة - أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام ابن العاص بن وائل السهمي التناضب[٢] وقلنا:

أيُّنَا لم يُصبح عندها فقَدْ حُبِسَ، فَلْيَمْض صاحبَاه.

قال: فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبِسَ عنَّا هشامُ، وفُتِنَ فَافتُتَنَ.

فَلَمَّا قدمنا المدينةَ نزلنا في بنى عمرو بن عوف بقُبَاء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارثُ بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمِّهمَا وأخاهما لأُمّهما - حتَّى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلَّماه وقالاً:

«إن أُمَّك قد نَذَرَت أنْ لا يمسَّ رأسَهَا مُشْطٌ، ولا تستَظل من شمس حتَّى تراك»

فَرَقَّ لها، فقلتُ له - والقائل هو عمر بن الخطاب -:

يا عيَّاش، إنه - والله - إن يريدك القومُ إلا ليَفْتنُوك عن دينك، فاحْذَرْهُم؛ فوالله لو قد آذى أُمَّكَ القَمْلُ لامتَشَطَت، ولو قَدْ اشتَدَّ عليها حَرُّ مكة لاستَظَلَت.

---

(١) اتَّعَدتُ: أي تواعدتُ.

(٢) التناضب: اسم موضع.

قال: فقال: أَبِرُّ قَسَمَ أُمِّي، ولي هنالك مالٌ فآخُذه.

قال: فقلتُ: والله، إنك لتعلم أني لَمِنْ أكثر قريش مالاً، فَلَكَ نصف مالي، ولا تذهب معهما.

قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما.

قال: فَلَمَّا أبي إلا ذلك قلتُ له:

أمَا إذْ قد فعلتَ ما فعلتَ، فَخُذْ ناقتي هذه؛ فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذَلُولٌ، فالزم ظهرَها، فإن رَابَكَ من القوم رَيْبٌ فانْجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل:

يا ابن أخي، والله لقد استَغْلَظْتُ بعيري هذا، أفلا تُعقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى.

قال: فأناخ وأناخا؛ ليتحوَّل عليها، فَلَمَّا استووا بالأرض عَدَوْا عليه، فأَوْثَقَاه، ورَبَطَاه، ثُمَّ دخلا به مكة نهاراً وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

*****

لم تكن الهجرةُ - إذن - أمراً سهلاً لكثير ممَنْ حيل بينهم وبينها؛ فقد رأينا كيف هاجَرَ أبو سَلَمَة إلى المَدينَة المُنَوَّرَة، وكيف حيلَ بينه وبين زوجه وابنه، وكيف حَبَسَ بنو المغيرة أمَّ سَلَمَة سَنَة أو قريباً، وكيف لحقت بزوجها بعد ذلك.

ورأَيْنَا ما فُعِلَ بعيَّاش بن أبي ربيعة وما نالَه من أذى أقربائه.

ومُفارقةُ الإنسان لوطنه وإخراجه منه - بغير حَقٍّ - أمْرٌ لا تُطيقه النفوسُ، ولا يحتمله المخلوقُ الذي جُبِلَ على حُبِّ وطنه وإيثاره.

فـإذا أُرغمَ على الخـروج منـه، وجُـرِّدَ من كُلِّ مـا يملـك من مـال أو متـاع، وحُوربَ كلُّ من يُعينه أو يقترب من معاونته.

فإنَّ الأمر - والحالةُ هذه - قد خَلُصَ لله، ولم يكن هناك رُكُونٌ إلى أَحَدٍ سُواه ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(١).

وكذلك كان حال المهاجرين الذين قال الله فيهم:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٢).

إنَّ صدْق الإيمان بالله وبالرسول هو الذي جعل كلَّ تضحية تَهُونُ في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وجعل العقبات - مهما بَلَغَتْ - لا تحُولُ، وكَمْ لله من مِنَّةٍ في طَي المَكَاره.

ومَنْ تدبر العواقب أيقنَ - يقيناً لا شكَ فيه - أنَّ الحقَّ لا يُمكن أن يُهْزَم أبداً.

فطُوبَى لَمَن استمسك بالحق، فصابَر وصَبَر، حتَّى يفوز بحُسْن عاقبة وأكرم مصير.

تتابُع المهاجرين:

قال ابن إسحاق:

كان أول مَنْ قَدِمَ المَدينَة من المهاجرين - بعد أبي سَلَمَة - عامرُ بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، ثُمَّ عبدالله بن جحش.

* فكان منزل أبي سَلَمَة، وعامر بن ربيعة، وعبدالله بن جحش، وأخيه أبي أحمد بن جحش، كان منزلُهم على مُبَشِّر بن عبدالمنذر بقُبَاء، في بني عمرو ابن عوف.

---

(١) الحج: ٤٠.
(٢) الحشر: ٨.

ثم تتابع المهاجرون، فاستقبلتهم قلوبُ الأَنْصَار في أُلْفَةٍ ومَحَبَّة لم يَسْبق لها نظيرٌ

* فنزل عمرُ بن الخطاب - حين قدم المدينة، ومَنْ لحق به من أهله، وقومه وأخوه زيد بن الخطاب - نزلوا في بني عمرو بن عوف بقُبَاء.

* ونزل طلحةُ بن عبيد الله بن عثمان على أَسْعَد بن زُرَارَة، أخي بني النجار.

* ولم يستطع صُهَيْب أن يَفْلتَ من حصار قريش إلاَّ بعد أن أظْهَرَ لهم ما أرادُوه من التخلِّي عن كلِّ ما يملك حتَّى يهاجر، فكانت هجرتُه في سبيل الله أحبَّ إليه من ماله.

قال ابنُ هشام:

ذُكر لي عن أبي عثمان النَّهْدي أنه قال: بلغني أن صُهَيْباً - حين أرادَ الهجرة - قال له كُفَّارُ قريش:

أتيتنا صُعْلُوكاً حقيراً، فكَثُرَ مالُك عندنا، وبلَغْتَ الذي بَلَغْتَ، ثُمَّ تُريدُ أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صُهَيْب: أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي، أتُخلُّونَ سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإنِّي جَعَلْتُ لكم مالي.

قال: فبلغَ ذلكَ رسولَ الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صُهيب، رَبِحَ صُهيب»[1].

* ونزل حمزةُ بن عبدالمطلب، وزيدُ بن حارثة على كلثوم بن هدْم، أخي بني عمرو بن عوف بقُبَاء، ويُقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويُقال: بل نزل حمزةُ بن عبدالمطلب على أَسْعَد بن زُرَارَة، أخي بني النجار. كلُّ ذلك يُقال.

---

(١) صحيح ابن حبان: ١٥/٥٥٧، حديث رقم ٧٠٨٢، سير أعلام النبلاء ٢/٢٢.

* ونزل عبيدةُ بنُ الحارث بن عبدالمطلب، وأخوه الطفيلُ بن الحارث، والحصين ابن الحارث، ومسطَحُ بن أُثَاثَة بن عبَّاد بن المطلب، وسويبطُ بن سعد بن حريملة أخو بني عبدالدَّار، وطليبُ بن عمير أخو بني عبد بن قصي، وخبَّابُ مولي عتبة بن غزوان، علي عبدالله بن سَلَمَة، أخي بَلْعجلان بقُبَاء.

* ونزل عبدُ الرحمن بن عوف - في رجال من المهاجرين - على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج، في دار بلحارث بن الخزرج.

* ونزل الزبيرُ بن العوَّام، وأبو سبرة ابن أبي رُهْم بن عبدالعُزَّى على مُنْذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحه بن الجلاح بالعصبة.

* ونزل مصعبُ بن عمير بن هاشم، أخو بني عبدالدَّار على سعد بن مُعَاذ بن النعمان أخي بني عبدالأشهل في دار عبدالأشهل.

* ونزل عثمانُ بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر، أخي حسَّان بن ثابت، في دار بني النجار، فلذلك كان حسَّانُ يُحبُّ عثمان، ويَبْكيه حين قُتلَ.

ومَنْ تابع كيف استقبل الأنْصَار مَنْ هاجرَ إليهم من المهاجرين، لم يعجَب حين يقرأ: نزل فلانٌ عند فلان، وقيل: عند فلان.

لم يَعجَب من ذلك كلِّه؛ لأن التنافسَ بين الأنْصَار في الترحيب بالمهاجرين قد بلغ مبلَغه في الحُبِّ والمواساة والإيثار، حتَّى لَيَصْعُبُ على الباحث أن يعرف عند مَنْ نزل فلانٌ أو فُلانٌ.

كلٌّ يريد أن ينال شَرَفَ استقبال المهاجر، وإيثاره وإكرامه.

وسنرى كيف كانت المؤاخاةُ بعد قُدوم رسول الله ﷺ وهَدْيه في المؤاخاة بينهم، مما جعلهم أُسوةً وقُدوةً لمَنْ جاء بعدهم.

الفرج بعد الشدة:

لقد قلتُ من قبل: إن الهجرة لم تكن أمراً سهلاً لكثير ممن حيلَ بينهم وبينها، ولكنَّ الله يأبى إلاَّ أن يجعل للمتقين من كلِّ ضيقٍ فرجاً، ومن كلِّ كَرْبٍ مَخرجاً.

* كتاب عمر رضي الله عنه إلى هشام بن العاص:

قال ابنُ إسحاق: وحدثني نافع، عن عبدالله بن عمر، عن عمر في حديثه قال: كنا نقولُ: ما الله بقابل ممَّن افتُتنَ صَرْفَاً ولا عَدْلاً ولا تَوْبة؛ قوم عرفوا الله ثُمَّ رجعوا إلى الكفر لبَلاءٍ أصابَهُم!

قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فَلَمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أَنْزَلَ الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾(١).

قال عمرُ بن الخطاب: فكَتَبْتُها بيدي في صحيفة، وبَعَثْتُ بها إلى هشام بن العاص.

قال: فقالَ هشام بن العاص: فَلَمَّا أتَتْني جَعَلْتُ أقرؤهَا بذي طُوَى(٢) أُصَعِّدُ بها فيه، وأُصوب ولا أفهمها، حتَّى قلتُ: اللهم فَهِّمنيها.

قال: فألقى الله تعالى في قلبي إنَّما أُنزلَتْ فينا وفيما كُنَّا نقُولُ في أنفسنا ويُقَالُ فينا.

قالَ: فرجعتُ إلى بعيري، فجلستُ عليه، فلحَقْتُ برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.

هذا، ومَنْ صَدَق الله، وأخْلَصَ له لم يُحبَط سَعيُهُ، ولم يَبْطُل عملُهُ، فهؤلاء الذين حُبِسوا بمكة قد علم الله صِدْقَ قلوبهم، وإنابتهم إلى ربِّهم، وأنهم

---

(١) الزمر: ٥٣ – ٥٥.

(٢) ذو طوى: موضع بمكة.

يتطلعون أنْ يلحقوا بإخوانهم، وأن يصلوا إلى المدينة المُنَوَّرَة مهاجرين في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

*** خروج الوليد بن الوليد في أمر عياش وهشام:**

قال ابنُ هشام:

حدثني مَنْ أثق به أنَّ رسول الله ﷺ قال - وهو بالمدينة -: مَنْ لي بعياش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص؟

فقال الوليدُ بن الوليد بن المغيرة: أنَا لك - يا رسول الله - بهما.

فخرج إلى مكة فقدمها مُستَخْفياً، فلقي امرأةً تحمل طعاماً، فقال لها:

أين تُريدين يا أَمَةَ الله؟

قالتْ: أُريدُ هذَيْن المحبُوسَيْن - تَعْنيهما - فتَبعَها حتَّى عرف موضعَهُما - وكانا محبوسَيْن في بيْت لا سَقْفَ له.

فَلَمَّا أمسى تَسَوَّرَ عليهما[١] ثُمَّ أخذَ مَرْوَةً[٢] فوضعها تحت قيديهما، ثُمَّ ضربهما بسيفه، فقطعهما، فكان يُقال لسيفه «ذُو المَرْوَة» لذلك.

ثم حملهما على بعيره، وسَاق بهما، فعَثُر، فَدَميَتْ إصبُعه، فقال:

هَلْ أَنْتَ إلاَ إصْبُعٌ دَميت ... وفي سبيل الله مَا لَقيت

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

وهكذا نرى طيبة الطيبة تستقبل مَنْ أُعدُّوا لها، وصاروا - بإيمانهم - أهلاً لتَبَوئها، ونرى أولئك المهاجرين الصادقين ينزلون عند إخوانهم الأَنْصَار مُعزَّزين مُكرَّمين.

*****

(١) يُقالُ: تَسَوَّرَ الحائط، أي تسلَّقه.

(٢) المَرْوة: حَجَرٌ أبيض رقيق.

هجـرةُ الرَّسُولُ ﷺ

بين يدي الهجـرة:

هُيئتْ المدينة - بإسلامها - لاستقبال المهاجرين الصادقين إليها، وقد أراد الله أن يجعلها حرَم رسوله الله ﷺ.

وأن تكون دار الهجرة والفتح.

وأن يجتمع فيها شَمْلُ المهاجرين الذين كانوا في مكة، أو في غيرها ممَّن هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، أو أُخرجوا من ديارهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

وجديرٌ بالمَدينَة أن تُسمَّى «الدَّار» لتكون أمْنَاً للمتقين.

ولها من تسمية الجنَّة نَسَبٌ ونَصيبٌ، ولها من صفات مَنْ يسكنها بُشرى

وقد قال الله تعالى في صفات الذين رحمهم، فأسكنهم جنَّاته:

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

وقال الله تعالى عن دار الهجرة التي هُيئَتْ للمؤمنين المهاجرين، مُخْبِراً عمَّنْ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قبلهم:

---

(١) الرعد: ٢٢ - ٢٤.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

والذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمَانَ هم «الأَنْصَار».

مَدَحَهُمُ الله بخصائصَ طيِّبةٍ حميدة، من جُملتها محبتهم للمهاجرين.

وقد تَبَوَّأُوا الدَّارَ: المَدينَة المُنَوَّرَة، وأخلَصُوا الإيمان.

والتعريف في «الدَّار» للتَّنويه كأنها الدَّار التي تستحقُ أن تُسَمَّى «داراً»

وقد أعدَّها الله لهم؛ ليكون تبوُّؤهم إيَّاها مَدْحاً.

وكان تبوُّؤهم للدَّار والإيمان من قبل هجرة المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من إخوانهم المهاجرين.

وقد بلغ من سماحتهم أنهم أَنْزَلُوهم منازلهم، وأشْرَكُوهم أموالَهم، ونزلوا لهم عن بعض ما يَعِزُّ عليهم.

أليستِ المَدينَة المُنَوَّرَة جديرة بأن تُسَمَّى «الدَّار» في آيات الله - وتلك صفات مَن تبوؤها - كما تُسَمَّى الجنة «الدَّار» وتلك صفات مَنْ كانت الدَّار عُقبى لهم؟

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ

---

(١) الحشر: ٩.

يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١].

إنَّ الله - بفضله ورحمته - قد أعَدَّ للجنة من يُقيمُ فيها، وبَيَّن صفاتهم، وذكَرَ جزاءَهم؛ ليكونوا للناس أُسوة فيما يُحبُّونَ ويُؤثرون.

وفي البيان تبصرةٌ وتذكرةٌ، وإعذارٌ من الله وإنذارٌ.

وما من صفة من صفاتهم إلاَّ ولها تأثيرٌ بالغ في شئون الناس وحياتهم، وتعاونهم على مرضات ربِّهم.

وبها - لا بغيرها - يمكن أن يقومَ في الحياة أَمْنٌ، وأن يتحقق بين الناس سِلْمٌ

ومَنْ تدبر صفات الذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قبل هجرة المهاجرين، علم أنها صفاتٌ تأتلف بها القلوبُ، وتأمَنُ بها النفوسُ.

وأيُّ شيء أبرُّ من ذلك؟

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾

وكيف يجدون، وهم قد آثروا إخوانهم بأعزِّ ما يملكون؟!

فلا حقد، ولا حَسَد، بل صَفَاءُ نَفْسٍ وطيبُ قَلْبٍ.

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

فهم يُقدِّمُونَ إخوانهم المهاجرين على أنفسهم في كلِّ شيء من الطيبات، ولو كان بهم حاجةٌ، فحاجةُ إخوانهم مُقَدَّمَةٌ عندهم على حاجة أنفسهم.

ألا يدلُّ ذلك على أنْ مَنْ كانَتْ هذه صفاتُهم، كانت الدَّارُ طَيِّبَةً في الدنيا، مُسْتَقَرّاً لهم وموطناً، وكانت جنَّاتُ عَدْنٍ في الآخرة جزاءً ومصيراً؟

---

(١) الرعد: ١٩ - ٢٤.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

وكانت عليهم من الملائكة تحية وسَلام يدوم ولا ينقطع

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

*****

ذاكَ ما كان من الأنْصَار مع المهاجرين، يُقَدِّمونهم على أنفسهم حين قدموا بإيمانهم إلى دار الإيمان وقُبَّة الإسلام، المَدينَة المُنَوَّرَة.

وهي تتهيأ - بمَنْ كان فيها أو هاجر إليها - بمَقْدم سيِّد الخَلْق مُهَاجراً حين يأذن له ربُّه.

وقد شاء الله تعالى أنْ يخرج من مكة إلى المدينة؛ ليرى الناسُ - في هجرته - آيات وآيات.

منذ تآمَرَ أهلُ الكفر عليه، وبَيَّتُوا الغَدْرَ به، وأخذوا بجميع الأسباب التي تُمكّنهم من النَيْل منه.

آياتٌ وآيات رأيناها في هجـرته، ورأينا المَكْرَ والكَيْدَ من أهل الكفـر والجحود

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾(٢).

هم هنا يَمْكُرون، ونرى بطلانَ مَكْرهم.

---

(١) الأنفال: ٣٠ .

(٢) فاطر: ٤٣.

ونرى طيبةَ وقد جُهِّزت لاستقباله، والأنْصَار وهم يَسْعَوْن - وقد طاب سَعْيُهم - لِتَكُونَ قلوبُهم له موطناً، وقد صَدَّقوه، ونَصَرُوه، واتبعوا النُّور الذي أُنزلَ معه.

وسنرى كيف كانت هجرته ﷺ لَمَّا أذنَ الله له، وكيف كان استقبالُ الأنْصَار وفرحهم بمَقدمه.

وسنرى وقائع المَدينَة وما أُنزلَ فيها من قرآن، وفضائلَها وما كان فيها من آيات تُعَلِّمَ الإنسانَ ما يجب أن يكون عليه الإنسانُ في كُلِّ زمان ومكان.

لقد رأينا الإيثارَ يقْتَرِنُ بِصِدْق الإيمان.

رأيناه في واقع عندما تآخى «الصادقون» مع «المفلحين» لنُصْرَة الحق وإعلاء كلمة الله

ونقرأ ذلك في حديث القرآن وبيان من السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

«أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَابَنِي الجَهْدُ. فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟

فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ». وفي رواية «فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله ﷺ

فَذَهَبَ به إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا

قَالَتْ: وَاللَّهِ، مَا عِنْدِي إِلاَّ قُوتُ الصِّبْيَةِ.

قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ.

فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عز وجل أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلانٍ وَفُلانَةَ»[١].

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... الآية﴾[٢] والجملة الشرطية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هذه الجملة تَذْييل وتوكيد لِمَدْح الأَنْصَار والثَّناء عليهم؛ لتناوُله إيَّاهم تناولاً أصلياً.. وهي لكلِّ مَنْ كان كذلك إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

اجتماع الملأ من قريش وتشاورهم في أمْر الرسول ﷺ:

عَرَفنا من قبل أن الرسول ﷺ عندما بايعه هذا الحيُّ من الأَنْصَار على الإسلام والنُّصْرَة له ولِمَنْ اتَّبعَهُ وآوى إليه من المسلمين.

أَمَرَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه - من المهاجرين من قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين - بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللُّحوق بإخوانهم من الأَنْصَار، وقال ﷺ: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

فخرج الصحابةُ أَرْسَالاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّهُ في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

ولم يتخلف معه بمكة أَحَدٌ من المهاجرين، إلاَّ مَنْ حُبِسَ أو فُتِنَ، إلاَّ عليَّ بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قُحافة - رضي الله عنهما -.

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذنُ رسولَ الله ﷺ في الهجرة، فيقولُ له رسولُ الله ﷺ: «لا تَعْجَلْ؛ لعل الله يجعلُ لك صاحباً» فيطمَعُ أبو بكر أنْ يَكُونَهُ

قال ابنُ إسحاق:

ولما رأت قريشُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد صارت له شيعَةٌ وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورَأَوْا خُروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد

---

(١) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥١٠.
(٢) الحشر: ٩.

نزلوا داراً، وأصابوا منهم مَنَعَةً، فَحَذِرُوا خُرُوجَ رسول الله ﷺ إليهم، وعَرَفُوا أنهم قد أُجْمِعَ لحربهم.

فاجتمعوا له في «دار الندوة»[1] يتشاورون فيها ما يصنعون في أَمْرِ رسول الله ﷺ حين خَافُوه.

ويذكرُ ابنُ إسحاق ما رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

لَمَّا أجمعوا لذلك، واتَّعِدُوا أن يدخلوا في دار النَّدْوة ليتشاوروا فيها في أمْرِ رسول الله ﷺ غَدَوا في اليوم الذي اتَّعَدوا له - وكان ذلك اليوم يُسَمَّى يَوْمُ الزَّحْمَة - وذَكرَ مَنْ كان في جَمعهم بأسمائهم، وإبليس بينهم، فقال بعضُهم لبعض:

إن هذا الرجل قد كان من أَمْره ما قدْ رَأَيْتُم، فإنَّا - والله - ما نَأْمَنُه على الوُثُوب علينا فيمَنْ قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

قال: فتشاورُوا، وانتهى تشاورُهم إلى القَوْل الذي قالَهُ أبو جهل، وأَقَرَّهُ إبليسُ

وأجملت الآيةُ الكريمةُ ما كان منهم: ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

وذاك قَوْل أبي جهل، قال: والله، إنَّ لي فيه لَرَأياً، مَا أراكُم وقعتُم عليه بعد

قالوا: وما هو يا أبا الحَكَم؟

---

(١) دار الندوة: دار بناها قُصي بن كلاب، وجعل بابها إلى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع درعها إلا فيها ثم ينطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا من قوم غيرهم إلا في دار الندوة، يعقده لهم قصي، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة، ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها؛ تشريفا له، وتيمنا برأيه، ومعرفة بفضله، وإنما سميت دار الندوة لأن قريشا كانوا ينتدون فيها، أي يجتمعون للخير والشر.

قال: أرى أن نأخذ من كُلِّ قبيلة فتىً، شاباً، جليداً، نسيباً، وسيطاً فينا، ثُمَّ نُعطي كُلَّ فتىً منهم سيفاً صارماً، ثُمَّ يَعْمَدُوا إليه، فيضربوه بها ضَرْبَةَ رجلٍ واحدٍ، فيقتلوه، فنستريح منه.

فإنهم إذا فعلوا ذلك تَفَرَّقَ دَمُهُ في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حَرْب قومهم جميعاً، فَرَضُوا منا بالعَقْل[1] فعقَلْناه لهم.

فقال إبليس: القولُ ما قال الرجلُ.. هذا الرأي الذي لا أرى غيرَهُ

فَتَفَرَّقَ القومُ على ذلك وهم مُجْمِعُون له.

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ فقال:

لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فراشك الذي كُنْتَ تَبيت عليه.

فَلَمَّا كانت عَتْمَةُ الليل اجتمعَ أولئك النَّفَرُ من قريش، يتطلعون من صِيْرِ الباب ويَرْصُدونه، ويريدون بياته، ويأتمرون أيُّهم يكون أشْقَاهَا.

ولا يحيقُ المكرُ السَّيئُ إلا بِأَهْله:

يَاللهِ! ما هذا الذي بُيِّتَ لِمَنْ أرسلَه الله رحمةً للعالمين؟!

تدبيرٌ أثيمٌ شارك فيه إبليسُ، وظنُّوا - جميعاً - أنهم قد أحكموا تدبيرهم، ونَسُوا الله، فأنساهم أنفسهم.

وربما ظنُّوا أو ظنَّ فرعونُهم وإبليسُهم أنهم قد أفلحوا أو يُفلحون بما صنعوا

وغاب عنهم - من بداية أمرهم وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً - أنَّ الله قد أضلَّ سَعْيَهُم، وجعلهم الأخسرين أعمالاً.

---

(١) العقل: أي الدِّية.

ولَم أر عقاباً لِمَنْ نسي الله أشدَّ من هذا العقاب الذي يُلازم مَنْ نسي ربَّه ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١).

وذلك أشد عقاب يُعَاقَبُ به أهلُ الجُحُود والغفلة والنسيان.

فإن هذا العقاب - نعُوذُ بالله منه - يجعل صاحبَه يفعل أفحش الكبائر والمنكرات، وهو يحسبُ أنه يصنع لنفسه الصالحات النافعات.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾(٢).

ولذلك نَهى الله أهلَ الإيمان وحذَّرهُم أن يكونوا كهؤلاء الذين نَسُوا الله، وأمرهم - من قبل - أن يستحضروا ما هُم مُقْبِلون إليه ومُحاسَبُون عليه، وهو واقِعٌ مَا لَهُ من دافعٍ.

فقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٣).

وتلك هي العاقبة، ولا يستوي الناسُ فيها.

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٤).

ونرى من سُنَن الله في خَلْقه، وما أجراه الله للصالحين من عباده أنَّ أهْلَ الصِّدْق والإيمان - وهم يأخذون بالأسباب في نُصْرَة حَقٍّ وإبطال باطلٍ -

---

(١) الحشر: ١٩.
(٢) الكهف: ١٠٣ - ١٠٦.
(٣) الحشر: ١٩.
(٤) الحشر: ٢٠.

نراهُم يُحسنون الظن بالله، ويثقون في وعْده، ويتوكلون عليه لا على أحد سُواه.

ولذلك نرى سَيِّدَ الخَلْق ﷺ يأمرُ عَلياً - في طمأنينة وثقة - قائلاً له:

نَمْ على فراشي، وتَسَجَّ[1] ببُرْدي هذا الحَضْرَمي الأخضر، فَنَمْ فيه فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيءٌ تكرهه منهم.

وكان رسول الله ﷺ ينامُ في بُرْده ذلك إذا نام.

ثم يخـرجُ ﷺ علي المتآمرين، ويأخذ حِفْنَةً من تراب في يده ينْثُرها على رؤوسهم، وهو يتلو هذه الآياتِ من سورة (يس):

﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

ثم انصرف ﷺ إلى حيث أراد أنْ يذهب، ليبدأ رحلَتَه في هجرة مُباركة إلى المدينة المُنَوَّرَة. فماذا كان فيها من دروسٍ وَعِبَرٍ، والقومُ لا زالوا يُحاصرون الدَّارَ بمَن أحضروهم من فتيان؟

بينما المتآمرون يرقبون البيت النبوي ويرصدونه، إذ بآتٍ - ممَّن لم يكن معهم - يأتيهم ويقول لهم: ما تنتظرون هنا؟!

قالوا: محمداً.

قال: خيَّبَكُمُ اللهُ، والله لقد خرج عليكم محمدٌ، ثُمَّ ما ترك منكم رَجُلاً إلا وقد وضعَ على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفَمَا تَرَوْنَ ما بكم؟

---

(١) تَسَجَّ بالثوب: أي غطَّى به جسده ووجهه.
(٢) يس: ١ - ٩.

فوضع كلُّ رَجُلٍ منهم يدَه على رأسه، فإذا عليه ترابٌ، وهم:

أبو جهل، والحَكَم بن العاص، وعقبةُ بن أبي معيط، والنضرُ بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعةُ بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأُبَيُّ بن خلف، ونبيه ومنبه بن الحجاج.

ثُمَّ جعلوا يتطلعون فيرون عَلِيّاً في الفراش مُتَسَجِّياً بِبُرْدِ رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمد نائم عليه بُرْدُه

فلم يَبْرَحُوا كذلك حتَّى أصبَحُوا.

فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله، لقد كان صَدَقَنا الذي حدَّثنا

وهكذا نرى الأحداثَ تجري؛ لتُعَلِّمَ الناس - في كلَّ خُطوة - أن الأمْرَ كلَّه بيد الله لا بيد أحد سُواه.

وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

ففي هذه الآية دَلالَةٌ لا تَغيبُ، فإن معنى (إذْ): اذْكُرْ حينَ، والمقصودُ التذكير بما تضمَّنته هذه الآيةُ.

ولم يكن المراد تذكير رسول الله ﷺ فحَسْب، بل المراد تذكير النَّاسِ جميعاً بما وقَعَ له وما أُريدَ به، وإن خُوطِبَ الرسولُ ﷺ مباشرة بذلك.

فإن مخاطبته بشيء لها شأنُها في التدبُّر والتذكُّر للناس جميعاً، فإن الأمر إذا عَظُمَ خُوطبَ به سيِّدُ القوم ورئيسُهم؛ ليكون في ذلك بلاغٌ للناس، وإعلامٌ

(١) الأنفال: ٣٠.

وإنذارٌ يعرفون منه ما ترتب على ذلك المَكْر، وما جَرَى بعد سُوء تآمُرٍ وتدبير.

ويقفُون من دَلالاته على كثير من سُنن الله في خَلْقه، وما يقعُ في حياتهم من نتائج وعواقب.

وكيفَ لا يحفَظُ اللهُ من حَفِظَهُ؟! ومَنْ حَفِظَ اللهَ حُفِظَ..

وكيف لا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله؟!

يعرفون ذلك، ويَرَوْنَهُ في واقعٍ عمليٍّ تُتْلَى فيه آياتٌ وتُرَى فيه نتائجُ، فيأخذون حذرَهُم من سُوء عملهم، قبل أن يأخُذُوه من كَيْد عدوهم

ويَرْقُبُونَ الخيرَ من خالقهم بصِدْقِ وَلائهم لَهُ، وحُسْنِ توكّلهم عليه

ويُصِرُّونَ على التمسك بالحق من ربِّهم مهما اشتدَّت الأحوالُ وبَلَغت المصاعب

ومَنْ تَدَبَّرَ العواقبَ أيْقَنَ أن الحقَّ لا يُهْزَمُ أبداً **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾**(١).

الصُحبة يا رسول الله:

كان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلاً ذا مال وفير، فكان كلما استَأذَنَ رسولَ الله ﷺ في الهجرة، يقول الرسولُ ﷺ له:

لا تَعْجَل لعل الله يجعلُ لك صاحباً.

فطمَع أبو بكر بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه عندما قال له: لعَلَّ الله يجعلُ لك صاحباً.

فابتاع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ راحلتَيْن(٢) فاحتَبَسَهُمَا في داره، يَعْلِفُهما إعداداً لذلك.

---

(١) الأنبياء: ١٨.

(٢) الراحلة: البعير القوى على الأسفار والأحمال.

وها نحن نرى الرسول ﷺ يتوجَّه - في بداية الهجرة - إلى بيت الصديق رضي الله عنه.

عَنْ عَائِشَةَ أمِّ المؤمنين - رَضِي اللَّه عَنْهَا - قَالَتْ:

كان لا يُخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيتَ أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بُكْرَةً وإما عَشيَّةً.

حتى إذا كان اليومُ الذي أذِنَ الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة، أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة[1] في ساعة كان لا يأتي فيها.

قالت: فَلَمَّا رآه أبو بكر قال: ما جاء رسولُ الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حَدَث.

قالت: فَلَمَّا دخل تأخَّرَ له أبو بكر عن سريره.

فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلاَّ أنا وأُختي أسماء بنت أبي بكر

فقال رسول الله ﷺ: أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وما ذاك؟ فداكَ أبي وأُمِّي

فقال ﷺ: إنَّ الله قد أذِنَ لي في الخروج والهجرة.

قالت: فقال أبو بكر: الصُّحْبَةَ يا رسول الله.

قال: الصُّحْبَةُ.

قالت: فوالله، ما شَعُرتُ - قَط قبل ذلك اليوم - أنْ أحداً يبكي من الفَرَح، حتَّى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذ.

الإعداد للهجرة:

ثمَّ قال أبو بكر: يا نَبيَّ الله، هاتان راحلتان قد كنتُ أعددتهُما لهذا.

واستأجرا عبدالله بنَ أُريقط - رجلاً من بني الدَّئل بن بكر وكان مُشركاً - ليَدُلَّهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

---

(١) الهَاجِرَةُ: نصف النهار عند اشتداد الحَرّ.

ولم يعلم بخروج النبي ﷺ أحدٌ حين خرجَ، إلاَّ عليٌّ بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر.

أما عليٌّ رضي الله عنه فإنَّ رسولَ الله ﷺ أخبره بخروجه، وأَمَرَهُ أن يتخلَّفَ بعده بمكة؛ حتَّى يُؤدِّي عن رسول الله ﷺ الودائعَ التي كانت عنده للناس

ولم يكن بمكة أحدٌ عنده شيءٌ يَخْشَى عليه، إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمُ من صِدْقِهِ وأمانته ﷺ.

فَلَمَّا أجْمَعَ رسولُ الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر، فخرجا من خَوْخَةٍ[1] لأبي بكر في ظَهْرِ بيته، ثم عمدا إلى «غار ثَوْرٍ»[2] فدخلاه.

وأمر أبو بكر ابنَهُ عبدَ الله أنْ يَتَسمَّع لهما ما يقولُ الناسُ فيهما نَهَارَه، ثُمَّ يأتيهما إذا أمسى بما يكونُ في ذلك اليوم من الخَبَر.

فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نَهَارَه معهم، يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثُمَّ يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وأمر عَامرَ بنَ فُهَيْرَةَ، مولاه أن يرعى غنمَه نَهَارَه، ثُمَّ يُريحهما عليهما فيأتيهما إذا أمسى في الغار.

فكان عامر بن فهيرة يرعى في رُعْيَان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا.

فإذا خرج عبدُ الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتبع عامرُ ابن فهيرة أَثَرَهُ بالغنم حتَّى يُعَفِّيَ عليه.

كما كانت أسماءُ بنتُ أبي بكر - رضي الله عنها - تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يُصلحهما.

---

(١) الخَوْخَةُ: كُوَّة في البيت تؤدِّي إليه الضوء.
(٢) غار ثَوْرٍ: الغار نَقْبٌ في الجبل، وثورٌ جبل بمكة.

وذات مرَّة أتتهما أسماءُ بسُفْرَتهما، ونَسيَتْ أنْ تجعل لها عِصَاماً[١] فَلَمَّا ارتحلا، ذهبت لتُعلِّق السُفْرَة فإذا ليس لها عِصَام، فحلَّت نطاقَها[٢] فجعلته عصاماً، ثُمَّ علَّقتها به.

قال ابنُ هشام:

وسمعتُ غيرَ واحد من أهل العلم يقولُ: (ذات النطاقين) وتفسيره: أنهما لَمَّا أرَادَتْ أن تُعلِّقَ السُفْرةَ شَقَّت نطَاقَهَا اثنين، فعَلَّقَت السُفْرة بواحدٍ، وانْتَطَقَتْ بالآخَر.

إذْ هُمَا في الغار:

نحنُ مع نُور الغار لم نفارقه بعد، فَلْنَر ما يكون؛ لنأخُذَ من الزَّاد - زاد التقوى - ما تَقَرُّ به العُيُون.

فإنَّ رحلةَ الهجرة إلى الحبيبة المُحبَّبَة المدينة المُنَوَّرَة، فيها دروسٌ ودروسٌ

وإذا كان لكلِّ مَنْ هاجَرَ إليها قصةٌ فيها عِبْرَة أو عبَر، فإن الهجرة مع الرسول الكريم ﷺ ترينا كيف اختارَ الصِّديق ليكون له صاحباً

وكان الصِّديقُ جديراً بالصُّحْبَة، فأكرَمَهُ الله بها.

أخرج الحاكم في مستدركه عن عليّ رضي الله عنه قال: «قال النبيَّ ﷺ لجبريل: من يُهَاجِرُ معي؟ قال: أبو بكر الصديقُ»[٣].

وروَى الإمامُ أحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ»[٤] فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: هَلْ أَنَا وَمَالِي إلاَّ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّه؟

---

(١) العصام: الحبل الذي يُشدُّ على فم المزادة.
(٢) النِّطاقُ: شبه إزارٍ فيه تِكَّةٌ كانت المرأة تَنتَطِق به.
(٣) المستدرك على الصحيحين ٦/٣، حديث رقم ٤٢٦٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد والمتن.
(٤) الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٩٤، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وروى صاحبُ [حليـة الأوليـاء] الحـافظُ أبو نعـيم أحـمـد بن عـبـدالله الأصبهاني بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«لما كانت ليلةُ الغار قال أبو بكر: يا رسول الله، دَعْني فَلأَدْخُل قبلك، فإن كانت حَيَّةً أو شيء كانت لي قبلك.

قال: ادْخُل.

فدخل أبو بكر، فجعل يلتمسُ بيديه، فكلَّما رأى جُحْراً جاء بثوبه، فَشَقَّهُ، ثُمَّ أَلْقَمَهُ الحَجَرَ، حتَّى فعل ذلك بثوبه أَجْمَع.

قال: فبقي جُحْرٌ، فوضع عَقِبَهُ(١) عليه، ثُمَّ أدْخَلَ رسول الله ﷺ

قال: فَلَمَّا أصبحَ قال له النبيُّ ﷺ: فأين ثوبُك يا أبا بكر؟

فأخبره بالذي صنع، فرفع النبي ﷺ يده، وقال:

اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة.

فأوحى الله تعالى إليه: إنَّ الله قد استجاب لك»(٢).

وفي الصحيحين أن أبا بكر رضي الله عنه قال:

«يا رسول الله، لو أن أحَدَهم نَظَرَ إلى ما تحت قدميه لأبْصَرَنا».

فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما. لا تحزن إن الله معنا»(٣).

وكان النبي ﷺ وأبو بكر يَسْمَعان كلامَهم فوق رؤوسهما، ولكنَّ الله - سبحانه - عَمَّى عليهم أمَرهما.

---

(١) العَقِب: مُؤخر القَدَم.
(٢) حلية الأولياء: ١/٣٣.
(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٨٠.

لذلك لم يكن غريباً أن يذكر صاحبُ [حلية الأولياء] هذه الكلمات عن أبي بكر الصديق، وأن يبدأ بها مُصنَّفَه:

«أبو بكر الصِّديق، السَّابق إلى التصديق، المُلَقَّب بالعتيق، المؤيَّدُ من الله بالتوفيق، صاحبُ النبي ﷺ في الحَضَر والأسْفَار، ورفيقُه الشَّفيقُ في جميع الأطوار، وضَجيعُه بعد الموت في الرَّوْضة المحفوفة بالأنوار، المخصوصُ في الذِّكْر الحكيم بمَفْخَرٍ فَاقَ به كافَّةَ الأخيار وعامَّةَ الأبْرَار، وبقي له شَرفُه على كُرُور الأعْصَار، ولم يَسْمُ إلى ذرْوَته همَمُ أولي الأيْد والأبْصَار، حيث يقولُ عالمُ الأسْرار: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات والآثار، ومشهور النصوص الواردة فيه والأخبار التي غَدَتْ كالشمس في الانتشار»[2].

مواقف لأسماء - رضي الله عنها -:

● **الموقف الأول:**

قال ابنُ إسحاق: حُدِّثتُ عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت:

لَمَّا خرج رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتانا نَفَرٌ من قريش فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فَخَرَجْتُ إليهم.

فقالوا: أين أبُوك يا بنت أبي بكر؟

قالتْ: قلتُ: لا أدري - والله - أين أبي.

قالت: فرفع أبو جهلٍ يدَه - وكان فاحِشاً خبيثاً - فَلَطَم خَدِّي لَطْمَةً طَرَح منها قُرْطي[3].

---

(١) التوبة: ٤٠.
(٢) حلية الأولياء: ١/٢٨.
(٣) القُرط: ما يُلبس في الأذن من الحُلي.

إيهٍ.. مَهْلاً يا أبا جهلٍ، فَسَنَرَى كيفَ تكونُ العواقب..

لقد كانت أسماءُ بنتُ الصدِّيق صادقةً عندما أجابتْ أبا جهل حين سألَها: أين أبوك؟ فقالت: لا أدري - والله - أين أبي.

فقد مَكَثَتْ ثلاثَ ليالٍ وما تدري أين وُجِّهَ رسول الله.

قالت: حتَّى أقبل رجلٌ من الجنِّ من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناءَ العرب، وإنَّ النَّاس ليَتَّبعُونَه، يسمعون صوتَه وما يَرَوْنَه.

حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جَزى الله ربُّ النَّاس خَيْرَ جَزائه رفيقَيْن حَلاَّ خَيْمَتي أُمِّ مَعْبَد[1]

همـا نَـزَلا بالبـرِّ ثُمَّ تروَّحَـا فأفْلَحَ مَنْ أمْسَى رفيـقَ مُحَمَّد

ويُروى أن «حسَّانَ بن ثابت»[2] لمَّا بلغه شعر الجنِّ وما هَتَفَ به في مكة، قال أبياتاً مطلعُها:

لقَدْ خَابَ قَوْمٌ غابَ عنْهُم نَبيُّهم وقَدْ سُرَّ مَنْ يَسري إليهم ويَغْتَدي

● **الموقف الثاني:**

قالتْ أسماءُ - رضي الله عنها -:

لَمَّا خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احْتَمَل أبو بكر مالَه كلَّه ومعه خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف، فانطلق بها معه.

قالت: فدخل علينا جَدِّي أبو قحافة - وقد ذهب بصرُه - فقال:

والله، إني لأَرَاهُ قد فَجَعَكُم بماله مع نفسه.

(١) هي أُمّ مَعْبَد بنت كَعْب امرأةٌ من بني كعب من خُزاعة.
(٢) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول ﷺ.

قالت: قلتُ: كلا يا أبت، إنَّه قد تَرَكَ لنا خيراً كثيراً.

قالت: فأخذتُ أحجاراً، فوضعتُها في كَوَّةٍ[١] في البيت كان أبي يضع مالَهُ فيها، ثُمَّ وضَعْتُ عليها ثوباً

ثم أخَذْتُ بيده فقلتُ: يا أبت، ضَعْ يدك على هذا المال.

قالت: فوضَعَ يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أَحْسَنَ، وفي هذا بلاغ لكم.

تقول أسماء: لا والله، ما تَرَكَ لنا شيئاً، ولكني أردتُ أن أُسكنَ الشيخَ بذلك.

أُمُّ مَعْبَد وشأنُها في الهجرة المباركة:

ولنَمْض مع الموْكب الطَّهُور.

أبو بكر الصِّديق يُقرِّب الراحلتين إلى رسول الله ﷺ، ويُقدِّمُ له أفضلَهما..

ويقول لرسول الله ﷺ: فداك أبي وأمي، اركَبْ.

فيقول رسول الله ﷺ: إني لا أركبُ بَعيراً ليس لي.

قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأُمِّي.

قال: لا، ولكن ما الثَّمَنُ الذي ابتعتَهَا بـه؟

قال: كذا، وكذا.

قال: قَدْ أخَذْتُهَا بـه.

قال: هي لك يا رسول الله، فركبا وانطلقا.

وأردف أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عامرَ بن فهيرة، مولاه خلفه؛ ليخدمهما في الطريق.

(١) الكَوَّةُ: الخَرْق في الحائط، والثقب في البيت ونحوه.

وفي الطريق إلى المدينة مرَّ النبي ﷺ بأم معبد هو وأبو بكر، ومولى أبي بكر، ودليلهما.

فما قصتها في الهجرة؟ وماذا لاقت من الخير والبركة بحُلول رسول الله ﷺ خيمتها؟

كانت أُمُّ مَعْبَدٍ بَرْزَةً جَلْدَةً[١] تختبئ بفناء القبة، ثُمَّ تستقي وتُطعِم

فسألوها لحْماً وتَمْراً يشترونه منها، فلم يُصيبُوا عندها شيئاً.

فنَظَرَ رسولُ الله ﷺ بكِسْر[٢] الخيمة فقال:

ما هذه الشاة يا أُمَّ مَعْبَد؟

قالت: شَاةٌ خَلَّفها الجَهْدُ عن الغنم.

فقال: هلْ بها من لَبَنٍ؟

قالت: هي أجهَد من ذلك.

قال: أَتَأْذَنينَ لي أن أحْلبَها؟

قالت: بأبي أنت وأُمّي، إن رأيتَ بها حلباً فاحلبها.

فمسح رسولُ الله ﷺ بيده ضَرْعَها، وسَمَّى اللهَ ودعا، فتفاجَّتْ عليه[٣] ودرَّتْ واجْتَرَّتْ.

فدعا بإناءٍ لها يُرْبِضُ الرهْط[٤] فحلب فيه حتَّى عَلَتْهُ الرَّغْوة، فسقاها، فشربت حتَّى رويَتْ، وسقى أصحابَه حتَّى رَوُوا، ثُمَّ شرب.

---

(١) امرأة بَرْزَةٌ: تَبْرُزُ للقوم، يجلسون إليها، ويتحدَّثون عنها، وقيل: بَرْزَة هي موثوق برأيها وعفافها.
(٢) كسر الخيمة: أي جانبها.
(٣) تفاجَّتْ: أي فتحت رجليها لتُحلَب.
(٤) الرهط: ما دون العشرة من الرجال. ويُربِضُ الرهط: يرويهم ويثقلهم حتَّى يناموا ويمتدوا على الأرض.

وحلب فيه ثانياً حتَّى ملأ الإناءَ، ثُمَّ غادره عندها وارتحلوا.

فما لبثتْ حتَّى جاء زوْجُها أبو معبد يَسُوق أَعْنُزاً عِجَافاً يتساوكْن[1] هُزَالاً، لا نِقَى[2] بهن، فلَمَّا رأى اللَّبن عَجِبَ وقال: من أين لك هذا والشَّاةُ عَازبٌ حيال ولا حَلُوب[3] في البيت؟

فقالت: لا والله، إلاَّ أنّه مَرَّ بنا رجلٌ مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا.

قال: والله إني لأراه صاحبَ قريش الذي تَطْلُبه، صِفيه لي يا أمَّ معبد

قالت: ظاهِر الوَضَاءة[4] أبْلَجُ[5] الوجه، حَسَن الخَلْق، لم تَعِبْه ثُجْلَه[6] ولم تُزر به صُعْلَة[7] وسيم[8] قَسيم، في عينيه دَعَجٌ[9] وفي أشفارِه وَطَفٌ[10] وفي صوته صَحَل[11] وفي عُنقِه سَطَعٌ[12] أحْورُ[13] أكحلُ، أزَجٌّ[14] أقرنٌ[15] شديد سواد الشعر.

---

(١) يتساوكن: يتمايلن من شدة ضعفهن.
(٢) النقى: مخ العظم.
(٣) حَلُوب: ذات لبن.
(٤) الوَضَاءة: الحُسْن والنظافة.
(٥) أبلج الوجه: مُشرقه ومُسفره.
(٦) الثجلة: ضخامة البطن.
(٧) الصعلةُ: صغر الرأس.
(٨) الوسيم: الحسن، وكذلك القسيم.
(٩) الدعج: سواد العين.
(١٠) في أشفاره وطف: أي في شعر أجفانه طول.
(١١) في صوْته صَحَلٌ: أي كالبُحَّة وأن لا يكون حاداً.
(١٢) في عُنقُه سَطَعٌ: أي طُول.
(١٣) الحَوَرُ: أن يَشْتَدَّ بياضُ العين وسَوادُ سَوادِها وتسدير حدقتها وترق جفونها ويبيضَّ ما حواليها.
(١٤) يقال: أزَجَّ في مشيته، أي أسْرَع.
(١٥) أقْرَن: أي مقرون الحاجبين.

إذا صمت عَلاه الوقارُ، وإنْ تكلَّم عَلاه البهاءُ.

أجملُ الناس وأبْهاهم من بعيد، وأحسنُه وأحلاهُ من قريب.

حُلْو المنطق، فَصْلٌ، لا نَزْر ولا هَذْر[1].

كأنَّ مَنْطِقَه خرزاتُ نَظْمٍ يَتَحدَّرنَ.

رَبْعةٌ[2] لا تَقْحمه عينٌ من قِصَرٍ، ولا تَشْنَؤُه من طُول، غُصْنٌ بين غُصنين، فهو أنضرُ الثلاثة مَنْظَرًا، وأحْسَنُهم قَدْرًا.

له رفقاءُ يَحُفُّون به، إذا قال: استمعوا لقوله، وإذا أَمَرَ تبادَرُوا إلى أمره محفودٌ[3] محشودٌ[4] لا عابسٌ ولا مُفْنِد[5].

قال أبو مَعْبَد: هذا - والله - صاحب قريش الذي ذُكِرَ لنا من أَمْره ما ذُكِرَ بمكة.

لقد هَمَمْتُ أن أصْحبه، ولأَفْعَلَنَّ إنْ وجدتُ إلى ذلك سبيلاً.

سُرَاقَة بن مالك وما سعى له وما انتهى إليه:

لَمَّا رأتْ قريشُ أنَّ الله قد أبْطَل سعيَها، وحفظ رسولَه من سُوء تدبيرها.

حَفظَهُ ربُّهُ في أضيق مكان، في غار ثور، وخيَّبهم من قَبْلُ في انتظارهم له وهم يُحيطون بيتَه، وأعمى أبصارَهم وهو يخرج عليهم، كما أعمى أبصارَهم وهو أمام أعينهم، ومعه صاحبه وهما في الغار ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[6].

---

(١) يقال: منطقٌ فَصْلٌ، لا نَزْر ولا هَذْر: أي بَيِّن ظاهر يفصل بين الحق والباطل.
(٢) رَبْعَة: أي مَرْبُوعُ الخَلْق لا بالطويل ولا بالقصير.
(٣) المحفود: الذي يخدمه أصحابه، ويعظمونه، ويسرعون في طاعته.
(٤) المحشود: الذي يجتمع إليه الناس.
(٥) المفنِد: الذي يكثر لومُه.
(٦) التوبة: ٤٠.

والقوم واقفون على بابٍ ليس للغَار غيره.

لما رأت قريش ذلك، لم يبق أمامَها - وقد طار صوابُها - إلاَّ أن تُعلِن عن جائزة كُبرى لِمَنْ يردُّه إليها.

قال ابنُ إسحاق:

وحدثني الزُّهري أنَّ عبدالرحمن بن مالك بن جُعْشُم حدَّثه عن أبيه، عن عمِّه سُراقة بن مالك ابن جُعْشم، قال:

لَمَّا خرج رسولُ الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، جَعَلَتْ قريشُ فيه مئة ناقة لِمَنْ يردُّهُ عليهم.

قال: فبينما أنا جالسٌ في نادي قومي، إذ اقبَلَ رجلٌ منَّا حتَّى وقَفَ علينا فقال:

والله، لقد رأيتُ رَكَبَةً ثلاثةً مَرُّوا عليَّ آنفاً، إني لأَرَاهُم محمداً وأصحابه

قال: فأَوْمَأْتُ إليه بعيني: أنْ اسْكُتْ، ثُمَّ قلتُ:

إنما هُم بنو فلانٍ، يبتغون ضَالَّةً لهم.

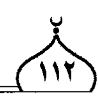
قال: لعلَّه. ثُمَّ سَكَتَ.

قال: ثُمَّ مَكَثْتُ قليلاً، ثُمَّ قُمْتُ، فدخلتُ بيتي، ثُمَّ أمَرْتُ بفرسي، فقُيِّدَ لي إلى بطْن الوادي، وأمرْتُ بسلاحي، فأُخْرِجَ لي من دُبر حُجرتي

ثم أخذتُ قداحي التي أسْتَقْسِمُ بها[١] ثُمَّ انطلقْتُ فلبَسْتُ لأَمَتي[٢] ثُمَّ أخرجتُ قداحي فَاسْتَقْسَمْتُ بها فخرج السَّهْمُ الذي أَكْرَهُ (لا يَضُرُّه) أي: السهم المكتوب فيه هذه الكلمة.

---

(١) الاستقسام بالقداح: هو طلب القسم منها، وهو لون من الشرك بالله.
(٢) اللأْمَةُ: الدرع.



قال: وكنتُ أرجو أن أردَّه على قريش، فآخذ المئة النَّاقة.

قال: فركبتُ على أَثره، فبينما فرسي يشتدُّ بي عثُرَ بي، فسقطتُ عنه

قال: فقلتُ: ما هذا؟!

قال: ثُمَّ أخرجتُ قداحي فاستَقْسَمْتُ بها، فخرج السَّهْمُ الذي أَكْرَهُ (لا يَضُرُّه)

قال: فأَبَيْتُ إلاَّ أن أتَّبعَهُ.

قال: فركبتُ في أثره، فبينما فرسي يشتدُّ بي عثُرَ بي، فسقطتُ عنه.

قال: فقلتُ: ما هذا؟!

قال: ثُمَّ أخرجت قداحي فاستَقْسَمْتُ بها، فخرج السَّهْمُ الذي أَكْرَهُ (لا يَضُرُّه)

قال: فأَبَيْتُ إلاَّ أن أتَّبعَهُ، فركبت في أثره..

فَلَمَّا بَدا لي القومُ ورأيتُهم عثُر بي فرسي، فَذَهَبَتْ يداه في الأرض، وسقطتُ عنه، ثُمَّ انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دُخَان كالإعصار!

قال: فعَرفتُ - حين رأيتُ ذلك - أنَّه قد مُنِعَ مني، وأنه ظَاهرٌ.

قال: فنادَيْتُ القومَ، فقلت:

أنا سراقة بن جعشم، أنظِروني[1] أُكَلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه.

قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قُلْ له: ومَا تبتغي منا.

قال: فقال ذلك أبو بكر.

قال: قلتُ: تكتُبَ لي كتاباً يكونُ آيةً بيني وبينك.

قال: اكتُبْ له يا أبا بكر.

(١) أنظروني: أي أمهلوني.

قال: فكتب لي كتاباً في عَظْمٍ، أو في رُقعَةٍ، أو في خَزَفَةٍ، ثُمَّ ألقاه إليَّ، فأخذتُه فجعلتُه في كنانتي، ثُمَّ رجَعْتُ، فَسَكَتٌّ، فلم أذْكُرْ شيئاً مما كان

حتى إذا كان فَتْحُ مكةَ على رسول الله ﷺ، وفرغ من حُنَيْن والطائف، خرجْتُ ومعي الكتاب لألقاهُ، فَلَقيته بالجِعِرَّانَة[١].

قال: فدخلتُ في كتيبةٍ من خَيْلِ الأنْصَار.

قال: فجعلوا يَقْرعونني بالرِّماح، ويقولون: إليكَ ماذا تريدُ؟!

قال: فدَنَوْتُ من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله، لكأنِّي أنظُرُ إلى سَاقه في غرْزه كأنهَّا جُمَّارة[٢]..

قال: فرفعتُ يدي بالكتاب، ثُمَّ قلتُ: يا رسول الله، هذا كتابُك، أنا سراقة ابن جعشم.

قال: فقال رسول الله ﷺ يوم وفاء وبِرٍّ، أدْنِه.

قال: فدَنَوْتُ منه، فأسلمْتُ، ثُمَّ تذكَّرْتُ شيئاً أسألُ رسولَ الله ﷺ عنه، فما أذكره إلا أني قلتُ:

يا رسول الله، الضَّالَةُ من الإبل تَغْشَى حياضي، وقد ملأتُهَا لإبلي، هل لي أَجْرٌ في أنْ أَسقيَها؟

قال: نعم، في كلِّ ذات كَبدٍ[٣] حَرَّى أَجْرٌ.

قال: ثُمَّ رجعتُ إلى قومي، فسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صَدَقَتي.

*****

(١) الجعْرانَةُ: موضع قريب من مكة، وهي في الحل وميقات الإحرام.
(٢) الغَرْزُ: رِكابُ الرحْل، والجُمَّارَةُ: قلب النخلة وشحمتها، شبَّه ساقه ببياضها.
(٣) ذات كَبدٍ: أي كل ما فيه روح.

لقد كانت المعجزات في هجرته ﷺ معبرةً أصدقَ تعبير عن رعاية الله في كُلِّ شأن من شئونه، ولنستمع إلى الصِّدِّيق وهو يُحَدِّثُ بشيء من ذلك.

في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن أبى بكر الصديق قال:

«... أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا كلَّها، حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَة، وَخَلا الطَّرِيقُ لا يَمُرُّ فيه أَحَدٌ، فَرُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْت عَلَيْه الشَّمْسُ، فَنَزَلْنَا عِنْدَهُ، وَسَوَّيْتُ للنَّبِيِّ ﷺ مكَانًا بِيَدِي يَنَامُ عَلَيْه، وَبسَطْتُ فيه فَرْوَةً، وَقُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ اللَّه، وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ فَنَامَ، وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِه إِلَى الصَّخْرَة، يُرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا

فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلامُ؟

فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَة، أَوْ مَكَّةَ.

قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟

قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ؟

قَالَ: نَعَمْ. فَأَخَذَ شَاةً

فَقُلْتُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التُّرَابِ وَالشَّعَرِ وَالْقَذَى.

قَالَ: فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْه عَلَى الأُخْرَى يَنْفُضُ، فَحَلَبَ فِي قَعْبٍ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ حَمَلْتُهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَرْتَوِي مِنْهَا يَشْرَبُ وَيَتَوَضَّأُ

فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ، فَوَافَقْتُهُ حِينَ اسْتَيْقَظَ، فَصَبَبْتُ مِنَ الْمَاءِ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ

فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّه

قَالَ: فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ.....»(١).

---

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٤٦

من الغار إلى قُبَاء:

كان قُدوم رسول الله ﷺ المدينةَ يومَ الاثنين لاثني عشر من ربيع الأول، وكان خروجه ﷺ من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول..

تلك هي المُدَّة التي قضاها الرَّكْبُ المباركُ من الغار إلى قُبَاء.

أمَّا المسافة فإنها تُقَدَّر بما يَقْرُب من خمس مئة كيلو متراً.

ويستطيع مَنْ نظَرَ في طريق الهجرة - منذ سلَك ابنُ أُرَيْقط أسفل مكة ومضى إلى الساحل حتَّى عَارض الطريق أسفل من عُسْفان[١] - أن يعرف أن الهجرة كانت جهاداً مؤيَّداً بالنَّصْر والتوفيق، وفي سبيل غايتها قد هانت الصِّعَاب.

يذكر ابنُ هشام - بعد بيانه للأماكن التي مَرَّ بها الرَّكْبُ الكريم - فيقول:

هبط بهما العَرْج[٢] وقد أبْطَأ عليهم بعضُ ظَهْرِهم، فَحَمَلَ رسولَ الله ﷺ رجلٌ من أسلَم يُقال له «أوس بن حجر» على جَمَلٍ له يُقالُ له «ابن الرَّداء» إلى المدينة، وبعث معه غُلاماً له يُقالُ له «مسعود بن هُنَيدة»

ثم خرج بهما دليلُهما من العَرْج، فسَلَكَ بهما ثنيَّة العائر[٣] عن يمين ركُوبة، حتَّى هبط بهما بطنَ رِئم، ثُمَّ قدِمَ بهما قُبَاء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خَلَتَ من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين حين اشتدَّ الضَّحَاء[٤] وكادت الشمسُ تعتدل.

قَدِمَ بهما الدليلُ إلى قُبَاء على بني عمرو بن عوف، وكان الانتظار لمَقْدِمِ رسول الله ﷺ، وقد سمع به أصحابُه الذين آوَتْهُمُ المدينةُ المُنَوَّرَة.

---

(١) عُسفان: قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلا من مكة، وهي لخزاعة خاصة.

(٢) العرج: جبل بين مكة والمدينة.

(٣) ويُقالُ لها «ثنيَّة الغائر» فيما قاله ابن هشام.

(٤) الضَّحاءُ: إذا امْتَدَّ النهارُ وقرَبَ أن يَنْتَصِف.

المدينة تستقبل رسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عبدالرحمن بن عويمر بن ساعدة قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا:

لَمَّا سمعنا بمَخْرَج رسول الله ﷺ من مكة وتَوَكُّفْنَا[1] قدومه، كُنَّا نخرج - إذا صلَّيْنَا الصُّبْحَ - إلى ظَاهر حَرَّتِنَا؛ ننتظر رسول الله ﷺ فوالله، ما نَبْرَحُ حتَّى تغلبنا الشمسُ على الظِّلال، فإذا لم نجد ظِلاًّ دخلنا - وذلك في أيام حَارَّةٍ.

حتى إذا كان اليومُ الذي قدمَ فيه رسولُ الله ﷺ جلسنا كما كُنَّا نجلس، حتَّى إذا لم يَبْقَ ظِلٌّ، دخلنا بُيُوتَنَا

وقدمَ رسولُ الله ﷺ حين دخلنا البُيوت، فكان أول مَنْ رآه رجلٌ من اليهود، قد رأى ما كُنَّا نصنع، وأنَّا ننتظرُ قُدُومَ رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلَة، هذا جَدُّكُم قد جَاء.

فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ، هذا صَاحِبُكم قد جاء. هذا جدُّكم الذي تنتظرونه.

فبادر الأَنْصَار إلى السلاح ليتلقَّوا رسولَ الله ﷺ، وسُمِعَتِ الرَّجَّةُ والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبَّر المسلمون فرحًا بقُدُومه

وخرجوا للقائه، فتلقَّوْه، وحَيَّوْهُ بتحية النُّبُوَّة، وأحدقوا به، مطيفين حوله، والسكينةُ تغشاه، والوحي ينزلُ عليه ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[2].

فسار ﷺ حتَّى نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كُلْثُومِ بنِ الهدْم، فأقام في بني عمرو بن عوف أربعَ عشرةَ ليلة، وأسَّسَ مسجدَ قُباء، وهو أولُ مسجد أُسِّسَ بعد النُّبُوَّة.

فلَمَّا كان يوم الجمعة رَكِبَ بأمرِ الله له، فأدركته الجمعةُ في بني سالم بن عوف، فَجَمَّعَ بهم في المسجد الذي في بطن الوادي.

ثم ركب فأخذوا بِخِطَام راحلته: هَلُمَّ إلى العدد والعُدَّة والسِّلاح والمَنَعَة.

---

(١) التوكُّف: التوقُّع والانتظار. (٢) التحريم: ٤.

فقال: خَلُّوا سبيلَها؛ فإنها مأمورة.

فلم تزل ناقتُه سائرةً به، لا تَمُرُّ بدارٍ من دُور الأَنْصَار إلاَّ رَغِبُوا إليه في النزول إليهم، وهو يقول: دَعُوها فإنها مأمورة.

فسارت حتَّى وصلَتْ إلى موضع مسجده اليومَ، وبَرَكَتْ، ولم ينزل عنها حتَّى نهضت وسَارَتْ قليلاً، ثُمَّ التفتَتْ، فرجَعَتْ، فبَرَكَتْ في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار أخواله ﷺ، وكان ذلك من توفيق الله لها؛ فإنَّه ﷺ أحبَّ أن ينزل على أخواله، يُكرمهم بذلك.

وبادر أبو أيوب الأَنْصَاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى رَحْله، فأدْخَلَه بيتَه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: المرءُ مع رَحْله.

وجاء أسعدُ بن زُرَارَة، فأخذ بزمام راحلته وكانت عنده، وأصبح كما قال أبو قيس صِرْمة الأَنْصَاري، وكان ابن عباس يختلف إليه يتحفظ منه هذه الأبيات:

ثَوى في قريشٍ بِضْعَ عشَرةَ حِجَّةً
ويَعْرِضُ في أهلِ المواسمِ نَفْسَهُ

فلَمَّا أتانا واستقرَّت به النَّوى
وأصبحَ لا يخشى ظُلاَمةَ ظَالمٍ

بذلنا له الأموالَ من حلٍّ مالنا
نعادي الذي عادى من الناس كلِّهم

ونعلَمُ أن الله لا ربَّ غيرَهُ
يُذَكِّر لو يَلقَى حبيبًا مُوَاتِيًا

فلم يَرَ مَنْ يُؤوِي ولم ير دَاعِيًا
وأصبحَ مَسْروراً بطَيْبَةَ رَاضِيًا

بعيدٍ ولا يخشى من الناس بَاغِيا
وأنفُسَنَا عند الوغَى والتآسِيَا

جميعًا وإن كان الحبيبَ المصافِيَا
وأن كتاب الله أصبحَ هَادِيًا

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -:

كان رسول الله ﷺ بمكة فأمرَ بالهجرة وأُنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾(١).

وقال قتادة:

أخرجه الله من مكة إلى المدينة مُخْرَجَ صدْق، ونبيُّ الله يَعْلَمُ أنَّه لا طاقة له بهذا الأمر إلاَّ بسُلطان، فسَأَلَ الله سُلطانًا نصيرًا، وأَرَاهُ اللهُ عز وجل دارَ الهجرة وهو بمكة فقال: «أُريتُ دارَ هجرتكم بِسبْخَةٍ(٢) ذات نَخْلٍ بين لابَتَيْن(٣)»(٤).

وأخرج البخاري ومسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«رَأَيْتُ في المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ، يَثْرِبُ...»(٥).

وفى الصحيحين عن الْبَرَاء بْن عَازِبٍ - رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا - قَالَ:

«أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ...»(٦).

وقال أنس رضي الله عنه:

«شهدتُه يوم دخل المدينَةَ، فما رأيتُ يوما - قَطُّ - كان أَحْسَنَ ولا أضوَأَ من يوم دخل المدينةَ علينا، وشهدتُه يوم مات، فما رأيتُ يومًا قَطُّ كان أقْبَحَ ولا أظْلَمَ من يوم مات»(٧).

هكذا استقرت أقدامُه ﷺ على ثَرَى طيبة الطيِّبة، فأشرقت بنور ربِّها، وحَظِيَتْ بما لم تحظ به بقعةٌ سِواها.

---

(١) الإسراء: ٨٠ . (٢) السبخة: أرض ذات ملح.

(٣) اللابة: الأرض التي ألبستها الحجارة السود، وجمعها (لابات).

(٤) البخاري - كتاب الحوالة، حديث رقم ٢١٣٤، كتاب المناقب، حديث ٣٦١٦.

(٥) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٥٢، مسلم - كتاب الرؤيا، حديث رقم ٤٢١٧.

(٦) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٣٢، تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٦٠ .

(٧) مسند أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٣٥٥٠، سنن الدارمي - المقدمة، حديث رقم ٨٨ .

وقائع وأحداث ارتبطت بالمدينة المُنَوَّرَة
منذ هجرة الرسول ﷺ إليها وتأسيس الدولة الإسلامية فيها

أَنْزَل الله تعالى في وقائع المدينة المنورة وأحداثها قُرآناً يُتْلَى يُخاطَبُ به الناسُ إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها، كما كان للرسول ﷺ في شأنها قولٌ أو إقرارٌ أو بيانٌ.

والوقائعُ والأحداثُ إذا نَزَل فيها قرآنٌ أو كان للرسول ﷺ في شأنها بيانٌ، وَجَبَ تدبُّرها والاهتداءُ بهدايتها فيما يَجِدُّ من وقائع وما يقعُ من أحداث على مَرِّ الزمان.

ومن أجل ذلك حُفظ القرآنُ الكريمُ، كما حُفِظَت السُّنَّةُ المُطَهَّرَة؛ ليرى الناسُ هدايةَ القرآن في واقعٍ، ويجدون لهم الأُسْوة في كُلِّ شأن.

وبذلك تنقطع الحُجَّةُ، وتبْطُل المعذِرَةُ، وتكونُ الهداية، وتذهبُ الضلالة. ولنْ يَضِلَّ الناسُ إذا التمسوا هدايتهم من الكتاب والسُّنَّة.

إن المدينة المُنَوَّرَة قد أُعِدَّ لها إنسانُها لتكون - فعلاً - دارَ الإيمان وقُبَّةَ الإسلام، وهُيئي لها مَنْ يكونُ جديرًا بسُكناها قبل هجرة الرسول ﷺ إليها.

وكان الذين استجابوا لله وللرسول قبل الهجرة قِلَّةً في عددهم، كَثْرةً في فضائلهم ومكارم أخلاقهم، ويكفي أن يُذكر الواحد منهم فيُذكر الله، وتُذْكَر بذكره كرائمُ الصِّفَات وجلائلُ الأعمال.

فمن ذا الذي لا يرى ذلك في المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن الذي يجهل شجاعة أبي عبيدة، وخالد، وسعد بن أبي وقاص، ولا يذكر حمزة بن عبدالمطلب، وجعفر بن أبي طالب؟!

بل من ذا الذي لا يذكر مصعب بن عمير، المقري الذي سطع نورُ القرآن بقراءته وتعليمه ومُدارسته قبل أن يصل إليها موكبُ الرسول الكريم ﷺ؟!

ومَنْ تدبَّر الوقائعَ من قبل هجرة الرسول ﷺ ومن بعد هجرته، بل مَنْ صَاحَبَ الرسولَ ﷺ بقلبه مُنذ نشأته وبَعثته، عرف مدى الارتباط الوثيق بين موطن الحرمين الشريفين في مَكَّة المُكَرَّمة والمدينة المُنَوَّرَة.

إنه امتدادُ نورٍ، وإظهار دين ببعثة الرسول ﷺ.

ولم تكن الهجرةُ - في حقيقتها - إلاَّ هجرة أرواح تعارفت وقلوب ائْتَلَفَتْ واعتصمت بحبل الله، فتوحَّدت وجاهدت في سبيل الله.

وكان المهاجرون والأنْصَار - من بعدُ - قد اجتمعت كلمتُهم، وائْتَلَفَتْ قلوبُهم، واسْتَبَانَ صِدْقُهم في وقائع وأحداث كانوا أُسْوَةً وقُدوةً لِمَنْ جاء بعدهم، كما كانوا - بعون الله لهم - أوفياء في إخضاع كُلِّ شيء من أمرهم لإعلاء كلمة ربِّهم..

وتلك هي وقائع المدينة، وهذا حديثها من كتاب الله وبيانها من السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة.

*****

تأسيس المسجد

قال ابن إسحاق:

فأقام رسولُ الله ﷺ بقُبَاء في بني عمرو بن عوف، يومَ الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسَّس مسجدَه.

وقال الزهري:

بَرَكَتْ ناقةُ النبي ﷺ في موضع مسجده، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا لِسَهْل وسُهَيْل، غلامين يتيمين من الأَنْصَار كانا في حجْرِ أسعد بن زرارة.

فسَاوَمَ رسولُ الله ﷺ الغلامَيْن بالمِرْبَد؛ ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نَهبُه لك يا رسول الله.

فأبَى رسولُ الله ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان جدارًا ليس له سقفٌ، وقِبْلَتُه إلى بيت المقدس.

وفيه كان يُصلي «أسعد بن زرارة» ويُجَمِّعُ قبل مَقْدم رسول الله ﷺ

وكان فيه شجرةُ غَرْقَدٍ[1] وَخِرَبٌ، ونَخْلٌ، وقبورٌ للمشركين.

فأَمَرَ رسولُ الله بالقبور فَنُبِشَتْ، وبالخرب فَسُوِّيت، وبالنخل والشجر فقُطعَت، وصُفَّت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، والجانبين مثل ذلك أو دونه

(١) الغَرْقَدَ: ضرب من شجر العِضاه وشجر الشَّوْك.

وجعل أساسه قريباً من ثلاث أذرع، ثُمَّ بنوه باللَّبن.

وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم، وينقل اللَّبن والحجارة بنفسه ويقول:

اللَّهم لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخرة فاغْفِر للأنصار والمُهاجرة

وجعلوا يرتجزن وهم ينقلون اللَّبن، ويقول بعضُهم في رَجْزه:

لئن قعدنا والرسولُ يعمَلُ لذاكَ منَّا العملُ المضَلَّلُ

وجعل الرسولُ ﷺ قبلتَه إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب:

باباً في مُؤخره، وباباً يُقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخُلُ منه رسولُ الله ﷺ وجعل عُمُدَه الجُذوع، وسَقَفَه بالجريد، وقيل له: ألا تُسَقِّفُه؟ فقال: لا. عريشٌ كعريش موسى.

وبنى إلى جنبه بيوتَ أزواجه باللَّبن، وسقَّفُها بالجريدِ والجُذوع، فلَمَّا فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد، وهو مكان حُجْرته اليوم، وجعل لسودة بنتِ زمعة بيتاً آخر.

*****

يُعَدُّ مسجد قُبَاء أول مسجد بُنِيَ في الإسلام، وكان الرسول ﷺ أول مَنْ وَضَعَ حَجَراً في قِبْلَته، ثُمَّ جاء أبو بكر بحَجر، فوضَعَهُ إلى حَجَر رسول الله ﷺ، ثُمَّ أخذ الناسُ في البُنْيان.

وقد كان الرسول ﷺ يزور قُبَاء، أو يأتي قُبَاء راكباً أو ماشياً، فيُصَلِّي فيه ركعتين.

كما كان ابن عمر - رضي الله عنهما - يأتي قُبَاء كلَّ سبت، ويقول: «رأيتُ رسول الله ﷺ يأتيه كلَّ سبت»(١).

ولكنّ.. ما المراد بالمسجد الذي أُسِّسَ على التقوى؟

أهُوَ مسجدُ قُبَاء الذي أسَّسه رسولُ الله ﷺ، وأقامَهُ على تقوى الله ورضوانه من أول أيام تأسيسه؟ أم هو المسجد النبوي بالمدينة المُنَوَّرَة؟

ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري «أن النبي ﷺ سُئِلَ عن المراد من المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى في هذه الآية، فقال: «هو مسجدُكم هذا» يعني: المسجد النبوي بالمدينة»(٢).

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ بَيَّنَ الرِّجَالَ الذين يُحبُّون أن يتطهروا، بأنهم: بنو عمرو بن عوف، أصحاب مسجد قُبَاء.

وذلك يقتضي أن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم هو مسجدهم، لقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾.

يقول صاحبُ تفسير [التحرير والتنوير] العلاَّمةُ الشيخُ الطاهر بن عاشور، في الجَمْع بين القَوْلَيْن:

«ووَجْهُ الجَمْع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ﴾ المسجد الذي هذه صِفَتُه، لا مسجداً واحداً مُعيَّناً، فيكون هذا الوصف كُليَّاً انحَصَرَ في فردين: المسجد النبوي، ومسجد قُبَاء، فأيُّهُمَا صلى فيه رسوُل الله ﷺ - في الوقت الذي دَعوه فيه للصلاة في «مسجد الضِّرَار» كان ذلك أحقُّ وأجْدَرُ، فيحصُل النَّجَاء من حظ الشيطان في

---

(١) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١١١٧، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٨٣.
(٢) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٧٧.

الامتناع من الصَّلاة في مسجدهم، ومن مطاوعتهم أيضاً، ويحصُل الجمع بين الحديثين الصحيحين، وقد كان قيامُ الرسول ﷺ في المسجد النبوي هو دَأْبَهُ.

ومن جليل المنازع من هذه الآية، ما فيها من حُجَّةٍ لصحَّة آراء أصحاب رسول الله ﷺ إذ جعلوا العامَ الذي كان فيه يومُ الهجرة مبدأ التاريخ في الإسلام».

وذلك ما انتَزَعَه السُّهَيْليُّ في [الرَّوْض الأُنُف] في فضل تأسيس مسجد قُبَاء إذ قال:

«وفي قوله سبحانه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وقد عُلِمَ أنه ليس أولَ الأيام كلِّها، ولا أضافَهُ إلى شيء في اللفظ الظاهر - فيه من الفقه صحَّة ما اتَّفَقَ عليه الصحابةُ - رضوان الله عليهم - مع عمر بن الخطاب، حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيُهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة؛ لأنه الوقت الذي عَزَّ فيه الإسلامُ، وَأَمِنَ فيه النبيُّ (فوافَقَ هذا ظاهرَ التنزيل).

وجُملةُ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناءٌ على مؤمني الأَنْصَار الذين يُصَلُّون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قُبَاء.

وأُطلقَت المحبَّةُ في قوله ﴿يُحِبُّونَ﴾ كناية عن عمل الشيء المحبوب؛ لأنَّ الذي يُحبُّ شيئاً مُمكناً يعمله لا محالة.

فقَصَدَ التنْويهَ بهم بأنهم يتطهرون؛ تَقَرُّباً إلى الله بالطهارة، وإرضاءً لمحبة نفوسهم إيَّاها، بحيث صارت الطهارةُ خُلُقاً لهم، فَلَو لَمْ تجبْ عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.

وجملة ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ تذييل.

وفيه إشارة إلى أنَّ نفوسَهم وافَقَتْ خُلُقاً يُحبُّه الله تعالى، وكفى بذلك تَنْويهاً بزكاء نفوسهم.

وروي عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال:

المراد بالمسجد المؤَسَّس على التَّقْوى هو مسجدُ رسول الله ﷺ، والمراد بأنَّه ﴿أُسِّسَ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ هو مسجدُ قُبَاء.

وقال عبدُ الله بن سلام: إن الضميرَ عائدٌ على مسجد قَبَاء، والمراد بنو عمرو بن عوف في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

وفي الحديث الذي رواه أحمدُ في مسنده عن عويم بن ساعدة الأنْصَاري: «أنَّ النبي ﷺ أتَاهُم في مَسْجد قُباء، فقالَ: إنَّ الله تعالى قدْ أحْسَنَ عليكم الثَّنَاءَ»(١).

ورُوى أن الرسول ﷺ قال لهم: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ، فَمَا طُهُورُكُمْ؟

قَالُوا نَتَوَضَّأُ لِلصَّلاةِ، وَنَغْتَسِلُ مِنَ الجَنَابَةِ، وَنَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ.

قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ، فَعَلَيْكُمُوهُ»(٢).

دلالة ذلك لا تغيب.. وهي أنَّ هذا الدِّينِ يَنْشُدُ ما فيه طُهْرٌ للإنسان، والحكمة ضالة المؤمن يطلبُها دون نَظَرٍ لقائِلِهَا أو لِمَنْ يعمل بها.

وهذه القاعدة - وحدَها - تجعل حياة الإنسان مع الإيجابيات النافعة، دون السلبيات الضارة.

---

(١) مسند أحمد - مسند المكيين، حديث رقم ١٤٩٣٨.
(٢) سنن ابن ماجة - كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٣٤٩.

فلَوْ أنَّ أُمَّةً من الأمم أحسنَتْ في أمْرٍ، لَزِم اتِّباعها في الإحْسَان، ولَوْ أنَّ أُمَّةً أخرى أساءَتْ في أمْرٍ، وجَبَ تجَنُّب إساءتها مهما كان شأنُها أو كانت درجة قُرْبها أو بُعدها.

ومَنْ تدبَّرَ ذلك في الكتاب الذي تكفَّلَ الله بحفظه ليُهْدَى به الناسُ في كلِّ شأن للتي هي أقوم، رأى ذلك جليّاً بيِّناً في أكثر من أمْرٍ.

ورأى الشأن كلَّ الشأن، والتقدير كلَّ التقدير للإحسان في الحسِّيات والمعنويات، ورأى النهي عن الخبائث أو السيئات، صَغُرَتْ أو كَبُرَت؛ تقديراً لقيمة الإنسان، وتسديداً لخلافته، وتحقيقاً للتعاون بينه وبين غيره.. التعاون على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعُدْوان.

يحمل ذلك قولُ الله عز وجل: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾[1].

لذا أوَدُّ - ونحنُ نشاهدُ الوقائعَ التي جَرَتْ - بعد أن هَدى النَّاسَ إلى الحقِّ، وآمنوا بالرسول ﷺ وعزَّروه، ونَصَرُوه، واتبعوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ معه، أن نُحسن التدبر.

فإن المسلمين - بعد أن اكتَمَلَ عِقْدُهم بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة - ورأينا الرسولَ ﷺ يَصْدَعُ بما أُمِرَ به في حَرَمٍ آمِنٍ، ويُخاطِبَ المهاجرين والأنْصَار بما أوحى اللهُ به إليه

رأينا عالمية الدعوة - كما أَمَرَ اللهُ - في كلِّ شيء:

في فطرتها، وفي مخاطبة الناس جميعاً بها.

وهذه العالمية التي خُصَّ بها هذا الدِّين، لم تجعل الحقَّ وَقْفاً على فريق دون فريق، بل جعلت هدايتَه ورحمتَه للناس أجمعين.

---

(١) الأعراف: ١٥٧ .

من هنا كـان الاسـتـبـدال والوعـد به قـائـمـاً في حيـاة الناس؛ حـتَّى لا يكون الدِّينِ وَقْفَاً على مَنْ أظْهَرَ التمسُّكَ به دون عمل.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(١).

ولكنَّ اللهَ جعل هداية التوفيق لِمَنْ علم منهم صلاحَهم، وقَبولَهم للحقِّ، وإيثارَهم له، دون أن يحملَهُم شنآن قَوْمٍ على مُجاوزة العدل، والقيام بالقسط.

فهذا الدِّين العالمي ميزانُه العدل مع العدو والصَّديق، والقريب والبعيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

*****

(١) محمد: ٣٨ .
(٢) المائدة: ٨.

المؤاخاة بين المهاجرين والأَنْصَار

قال ابنُ إسحاق:

وآخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأَنْصَار، فقال - فيما بلغَنَا، ونعوذُ بالله أنْ نقولَ عليه ما لم يَقُل -: «تآخَوْا في الله أخوَيْن أخوَيْن».

وقد آخى رسول الله ﷺ بين مئة وخمسين من المهاجرين، وخمسين من الأَنْصَار(١).

ثم أخَذَ ﷺ بيد عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «هذا أخي» فكان رسولُ الله ﷺ - سيِّدُ المرسلين، وإمامُ المتقين، ورسولُ ربِّ العالمين، الذي ليس له خَطيرٌ ولا نَظيرٌ - وعليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخَوَيْن.

وكان حمزةُ بن عبدالمطلب - أَسَدُ الله، وأَسَدُ رسوله ﷺ، وعَمُّ رسول الله ﷺ - وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ أَخَوَيْن، وإليه أوصَى حمزةُ يوم أُحُدٍ حين حَضَرَهُ القتالُ إنْ حَدَثَ به حادثُ الموت كما آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وعثمان وعبدالرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وابن مسعود، وعبيدة ابن الحارث وبلال، ومُصْعَب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وسعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

وقد كان المهاجرون والأَنْصَار يتوارَثُونَ بذلك دون القَرَابات، حتَّى نزلت في وقعة بَدْر: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾(٢).

*****

---

(١) كانت المؤاخاةُ بعد بناء المسجد، وقيل: والمسجدُ يُبْنَى. وقال ابنُ عبد البر: بعد قُدومه ﷺ بخمسة أشهر.

(٢) الأنفال: ٧٥.

إن الإنسان كلَّما أَمْعَنَ النظرَ فيمَنْ آخى بينهم رسولُ الله ﷺ، وَجَدَ نُورَ النُّبُوَّة في التناسُب والاختيار والعلم بطبائع الناس؛ إذْ لا ترى أحداً من أولئك الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ، إلا وتَرَاه سعيداً بأُخوَّة أخيه، شديدَ الحُبِّ له والشَّفَقة عليه.

وفيما يلي نذكر نماذج من هذه المؤاخاة لنتعرف على دلالتها ونقف على عبرتها:

*** المؤاخاة بين جعفر بن أبي طالب وبين معاذ بن جبل:**

وممن آخى بينهم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما -.

فما دلالةُ المؤاخاةُ بين جعفر الطيَّار المهاَجر بأرض الحبشة، والتي لم يَعُدْ منها إلى المدينة إلاَّ في السَّنة السابعة من الهجرة عند فَتْح خَيْبَر، ما دلالة المؤاخاة بينه وبين مُعَاذ بن جبل القائم في المدينة؟

لقد أسْلَمَ جعفرُ قديماً، وهاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، ومعه امرأتُه أسماء بنت عُمَيْس، فلَمْ يَزَلْ هنالك حتَّى قَدِمَ على النبي ﷺ وهو بخَيْبر سنة سَبْعٍ، فقال النبي ﷺ: «مَا أدري بأيِّهما أَفْرَحُ، بِقُدُوم جَعْفر أم بفَتْح خيبر؟!»[1].

ويَا لَهُ من عِزٍّ وشَرَفٍ أنْ يحضُر جعفرُ من أرض الحبشة إلى المدينة في السنة السابعة من الهجرة، وأنْ تكونَ شهادته بمؤتة سنة ثمان من الهجرة!

فقد روى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ نَعَى جعفراً وزيداً، نعاهما قبل أن يجيء خبرُهما وعيناه تذرفان[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ٢٣٠، حديث رقم ٤٩٣١.

(٢) راجع: البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١١٦٩، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٥٨٩.

ألا يدلُّ ذلك أنَّ لهذه المؤاخاة مَعْنىً يجب أن يُسْتَوْعَبَ في نُور الإيمان دون نَظَرٍ لمكان أو زمان.

ولنَقف على سيرة كلٍّ منهما؛ لنَزْدادَ معرفةً بأَمْر المؤاخَاة ونتائجها

جعفر بن أبي طالب: هو جعفر بن أبي طالب ابنُ عمٍّ رسول الله ﷺ، وأخو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان أَسَنَّ من عليٍّ بعَشْر سنين.

له من الولد: عبدالله، وبه كان يُكَنَّى، ومحمد، وعَوف، وُلِدَ بأرض الحبشة. أُمُّهم: أسماء بنت عميس - رضي الله عنها -.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رضي الله عنها - قالت:

لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ: النَّجَاشِيَّ.

أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ، لا نُؤْذَى ولا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا[١] أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ[٢] وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ[٣] مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا[٤] كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا[٥] إلاَّ أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا:

ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

---

(١) ائْتَمَرُوا: اجتمعوا.
(٢) الجَلَد: القوة والصبر.
(٣) مما يُستطرَف: أي مما يظهر فيه الطرف والنعيم.
(٤) الأَدَم: الجلد المدبوغ.
(٥) البطريق: رجل الكنيسة.

قَالَتْ: فَخَرَجَا، فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إلاَّ دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ:

إِنَّهُ قَدْ صَبَا[1] إِلَى بَلَدِ الْمَلِك مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُم، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِك فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا ولا يُكَلِّمَهُمْ؛ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالا لَهُ:

أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ولا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ - مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ - لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ؛ فَهُمْ أَعلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ.

فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا.

قَالَتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ:

لا، هَيْمُ اللَّهِ إِذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلادِي وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ، فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ، أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.

---

(١) الصابئ: الذي يخرج من دين إلى غيره.

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ: وَاللَّهِ، مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا جَاءُوهُ - وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ - سَأَلَهُمْ فَقَالَ:

مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟

قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ:

أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ..

فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ..

وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ..

وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا..

وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ.

فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ..

فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ.

فَلَمَّا قَهَرُونَا، وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ.

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿**كهيعص**﴾

قَالَتْ: فَبَكَى - وَاللَّهِ - النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا - وَاللَّهِ - وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. انْطَلِقَا، فَوَاللَّهِ، لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ:

وَاللَّهِ، لأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -:

لا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا.

قَالَ: وَاللَّهِ، لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الغَدِ، فَقَالَ لَهُ:

أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ.

قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ.

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ - وَاللَّهِ - فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا. هُوَ: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ(١).

قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ.

فَتَنَاخَرَتْ(٢) بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ.

فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ(٣) بِأَرْضِي. مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا(٤) ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ.

رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا؛ فَلا حَاجَةَ لَنَا بِهَا. فَوَاللَّهِ، مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ...)(٥).

وعن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه قال:

أمرنا رسولُ الله ﷺ أنْ ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي، فبلغ ذلك قريشاً، فبعثوا عمرو بن العاص، وعمارةَ بن الوليد وجمعوا للنجاشي هديةً، فأتياه بها فقبلَها.

---

(١) البَتُول من النساء: المنقطعة من الأزواج، وقيل: هي المنقطعة إلى الله تعالى عن الدنيا.

(٢) تناخَرَت: تكلموا كلاماً يشوبه الغضبُ والنفور.

(٣) السيوم: الآمنون.

(٤) الدَّبْرُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ: الجَبَلُ.

(٥) أحمد - مسند أهل البيت، حديث رقم ١٦٤٩، مجمع الزوائد ٢٧/٦، حلية الأولياء ١١٦/١، صفوة الصفوة ٥١٧/١.

ثم قالا: إنَّ ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا، وهم في أرض الملك.

فبعَثَ إلينا، فقال لنا جعفرُ: لا يتكلم منكم أحدٌ. أنا خطيبُكم اليوم

فَلَمَّا انتهيْنَا بدَرَنا مَنْ عنده فقال: اسجُدوا للملك.

فقال جعفر: لا نسْجُدُ إلا لله.

فقال النجاشي: مرحباً بكم، وبمَنْ جئتم من عنده.

وأنا أشهدُ أنه رسول الله، وأنه بشَّرَ به عيسى عليه السلام، ولولا ما أنا فيه من المُلْك لأتيتُه حتَّى أُقَبِّل نعلَه.

وعن عمير بن إسحاق قال: حدثني عمرو بن العاص قال:

لَمَّا أتينا بابَ النجاشي، ناديْتُ: ائذَنْ لعمرو بن العاص.

فنادى جعفر مِنْ خلفي: ائذَنْ لحزب الله، فسَمِعَ صوتَه، فأذِنَ له قبلي.

*****

ذاك جعفر بن أبي طالب الذي آخى الرسولُ ﷺ بينه وبين مُعَاذ بن جبل

فكم بقي جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عودته من الحبشة في المدينة المُنَوَّرَة؟

وكم كانت المُدَّة بين عودته، وبين طيرانه بجناحيه إلى الجنة؟

لقد كانت عودتُه في السنة السابعة من الهجرة، وكانت خيبر في محرم من هذا العام.

وكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة من الهجرة

وكان الرسول ﷺ قد اختار لها:

- زيدَ بن حارثة رضي الله عنه.

- جعفرَ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- عبدَ الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد كتب اللهُ لِمَن اختارَهم الرسولُ ﷺ الشهادةَ جميعاً.

وقد بشَّرَ الرسول ﷺ بمَا نَالَهُم، ونَال جعفرَ الذي كان قد أُصيبَ بـ «مؤتة» من أرض الشام، وهو أميرٌ بيده رايةُ الإسلام، بعد زيد بن حارثة.

فقَاتَلَ في سبيل الله حتَّى قُطعَتْ يداه.

فرأى النبيُّ ﷺ - فيما كُشفَ له: أنَّ له جناحين مُضَرَّجتين بالدم، يطيرُ بهما في الجنة مع الملائكة[1].

وكفى بذلك شرفاً، وإكْراماً، وفوزاً عظيماً.

إنَّ النفوسَ التي هيَّأها اللهُ للدار الآخرة - بعد عودتها إلى الدَّار دار الإيمان، المدينة المُنَوَّرَة - لم تمكث طويلاً للرَّاحة التي يَنْشُدُها كثيرٌ من الناس بعد عَناء وبلاء، بل انطَلَقَتْ مُجاهدةً، صَادقةً، صَابرةً، مُحْتَسبَةً، مُستجيبةً لنداء ربِّها، في تَضَامُن وحُبٍّ وإيثار.

*****

هذا طرف من سيرة جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، الطيَّار في الجنة، فلْنَنْظُر إلى مُعَاذ بن جبل أين كان؟ وما سيرتُه ومكانتُه؟

هو مُعَاذ بن جبل بن عمرو بن أوْس.

يُكَنَّى «أبا عبدالرحمن»

أَسْلَمَ وهو ابن ثمان عشرة سنة.

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٤٢/٣، حديث رقم ٤٣٤٨، مجمع الزوائد ١٦٦/٩، المعجم الكبير ١٠٧/٢، حديث رقم ١٤٦٧.

وشهد العقبة مع السبعين، وشهد بدراً والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ وأرْدَفَهُ(١) رسولُ الله ﷺ وراءه، وبعثه إلى اليمن بعد غزوة تبوك، وشَيَّعه ماشياً في مخرجه وهو راكب.

وكان له من الولد: عبدالرحمن، وأُمٌّ عبدالله، ووَلَدٌ آخر لم يُذْكَر اسمه.

ويبدو لي أن المؤاخاة بين هؤلاء الأبرار الأتقياء الكرام قد بَدَت دلالتها في الأعمال ومكارم الأخلاق، حتَّى قال عمر بن الخطاب فيهم: «إنهم أخوة بعضهم من بعض».

وكان عمر رضي الله عنه قد أخذ أربع مئة ديناراً، فجعلها في صُرَّة، وقال للغلام:

اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تَلَهُ ساعة في البيت؛ حتَّى تنظر ما يصنع.

فذهب الغلامُ، قال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اجعَلْ هذه في بعض حاجتك

قال: وَصلَه الله ورَحِمَه.

ثم قال: تعالَيْ يا جَارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتَّى أنْفَذَها.

فرجع الغلامُ إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعَدَّ مثلَها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى مُعَاذ بن جبل، وتَلَّهُ ساعة في البيت؛ حتَّى تنظر ما يصنع.

فذهب بها إليه، قال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اجعَلْ هذه في بعض حاجتك.

قال: وَصلَه الله ورَحِمَه.

ثم قال: تعالَيْ يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا.

---

(١) الردف: الجلوس خلف الراكب.

فاطَّلعت امرأتُه فقالت: ونحن - والله - مساكين، فأعْطنَا، ولم يبق في الخرقة إلاَّ ديناران، فَدَحَا[1] بهما إليها.

فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره بذلك.

فقال: «إنهم أخوة بعضهم من بعض»[2].

يا الَّلهم، الَّلهم ارْضَ عنهم جميعاً، واحْشُرنَا في زُمرتهم، ووفِّقْنَا - برحمتك - أنَّ نحْظى برفقتهم في جنَّتك.

طاعةٌ، وصِدْقٌ، وثَبَاتٌ.

عن عبدالله بن سَلَمَة قال: قال رجلٌ لمعاذ بن جبل: علمني.

قال: وهل أنت مُطيعي؟

قال: إني على طاعتك لحريص.

قال: «صُمْ وأَفْطِرْ، وصَلِّ ونَمْ، واكتَسبْ ولا تَأْثَمْ، ولا تموتَنَّ إلاَّ وأنت مسلم، وإيَّاكَ ودعوة المظلوم»[3].

وعن معاوية بن قُرَّة قال: قال مُعَاذ بن جبل لابنه:

«يا بُنَيَّ، إذا صليَّتَ فصلِّ صلاةَ مُودِّعٍ، لا تظنُّ أنك تعودُ إليها أبداً. واعلم - يا بُنَيَّ - أنَّ المؤمنَ يموت بين حسنتين: حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أخَّرها»[4].

وعن أبي إدريس الخولاني قال: قال مُعَاذ بن جبل:

---

(١) فَدَحَا بهما إليها: أي أعطاها إيَّاهما.

(٢) حلية الأولياء: ١/٢٣٧.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٧/١٢٦، حلية الأولياء ١/٢٣٣، صفوة الصفوة ١/٤٩٦

(٤) حلية الأولياء: ١/٢٣٤، صفوة الصفوة ١/٤٩٦.

«إنك تُجالسُ قوماً - لا محالَةَ - يخوضون في الحديث، فإذا رأيتَهم غفلوا، فارْغَبْ إلى ربك رغبَات»(١).

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعْلَمُ أُمَّتي بالحلال والحرام مُعَاذ بن جبل»(٢).

وعن الشعبي قال: حدثني فروةُ بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: «إنَّ مُعَاذ بن جبل كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً»

فقيل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾(٣).

فقال: ما نَسيتُ. هل تدري ما الأُمَّةُ وما القَانت؟

فقلتُ: الله أعلم.

فقال: الأُمَّةُ الذي يُعَلِّمُ الخيرَ، والقانت: المُطيع لله وللرسول(٤).

وكان مُعَاذ بن جبل يُعَلِّم النَّاسَ الخيرَ، وكان مُطيعاً لله عز وجل ورسوله.

وعن عمر بن قيس عن جدَّته أن مُعَاذاً قال لَّما حضَرَه الموتُ:

انظروا أَصَبحْنَا؟ قال: فأُتي، فقيل: لم نُصْبح. حتَّى أُتى في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحتَ.

فقال: أعوذُ بالله من ليلة صباحُها النار.

مرحباً بالموت مرحباً، زائرٌ مُغب، حبيبٌ جاء على فَاقة.

اللهم إني قد كنتُ أخافك، وأنا اليوم أرجُوك.

---

(١) حلية الأولياء: ١/٢٣٦، صفوة الصفوة ١/٤٩٦.

(٢) مسند أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢٤٣٧، الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٧٢٣، سنن ابن ماجة - المقدمة، حديث رقم ١٥١.

(٣) النحل: ١٢٠.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢/٥٩١.

اللهم إنَّك تعلمُ أني لم أكُنْ أحبُّ الدنيا وطُولَ البقاء فيها، لكَرْي النهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومُكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذكر(١).

وقد اتفق أهل التاريخ أنَّ معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات في طاعون عمواس، بناحية الأردن من الشام، سنة ثماني عشرة.

واختلفوا في عمره على قولين: أحدهما: ثمان وثلاثون سنة، والثاني: ثلاث وثلاثون سنة.

وعن سعيد بن المسيب قال: قُبضَ مُعَاذ بن جبل وهو ابن ثلاث وثلاثين، أو أربع وثلاثين سنة.

*****

ذاك شيءٌ من سيرة مُعَاذ بن جبل الذي آخى الرسولُ ﷺ بينه وبين جعفر ابن أبي طالب.

وقد رأينَا في أيِّ موضع، ومن أيِّ مكان طار بجناحيه شهيداً إلى الجنة

إنَّ ذلك قد تمَّ في ميدان مؤتة، وهي قرية من أرض البلقاء من الشام.

قال ابن هشام: وحدثني مَنْ أثق به من أهل العلم: أنَّ جعفر بن أبي طالب أخذَ اللواءَ بيمينه، فقُطعَتْ، فأخذه بشماله فقُطعَتْ، فاحْتَضَنَه بعضُديه، حتَّى قُتلَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة، يطيُر بهما حيث شاء.

ذاك هو المكانُ الذي استُشْهدَ فيه جعفر وطار منه بجناحيه إلى الجنة، وعُمره ثلاثٌ وثلاثون سَنَة.

---

(١) حلية الأولياء: ١/٢٣٩، صفوة الصفوة ١/٥٠١.

فما المكان الذي قُبضَ فيه أخُوه في الإسلام مُعَاذ بن جبل؟

مات معاذ في طاعون عمواس بناحية الأردن من الشام، وعُمره - كما ذكر سعيدُ بن المسيب - ثلاثٌ وثلاثون سنة.

ولْنَنْظُر حفاوةَ الرسول ﷺ به وحبَّه لَهُ، كما رَأَيْنَا حبَّه لجعفر وهو يقول عند قدومه من أرض الحبشة: «ما أدري بأيِّهما أفرَحُ، بقدوم جعفر أم بفَتح خيبر؟!».

روى الإمام أحمدُ في مسنده، عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْد، عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَل «قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُوصِيه، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ، وَرَسُولُ اللَّه ﷺ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَته، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: يَا مُعَاذ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لاَ تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي.

فَبَكَى مُعَاذ جَشَعًا[1] لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّه ﷺ، ثُمَّ الْتَفَتَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا»[2].

*** المؤاخاة بين حمزة بن عبدالمطلب وبين زيد بن حارثة:**

وفي المؤاخاة بين المهاجرين والأنْصَار آخى الرسولُ ﷺ بين حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله، وعَمِّ رسوله ﷺ، وبين زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وإليه أوصى حمزةُ يوم أُحُد حين حضَره القتالُ، إنْ حدث به حادثُ الموت.

فمَنْ هو زيد بن حارثة؟ وكيف كان حُبُّ رسول الله ﷺ له؟

هو زيدُ بن حارثة بن شراحيل بن عبدالعزى بن امرئ القيس، ويقال له: «زَيْدُ الحِبِّ».

---

(١) جشعاً: أي خوفاً وحزناً.

(٢) أحمد - مسند الأنصار، حديث رقم ٢١٠٤٠.

وأُمُّهُ: سعدى بنت ثعلبة بن عبدعامر.

زارَتْ قومَها وزيدٌ معها، فأغَارت خيلٌ لبني القين في الجاهلية، فمَرُّوا على أبيات بني مَعْن، فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلامٌ يَفَعة، فوافَوْا به سوقَ عُكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيمُ بنُ حزام لعمَّته خديجة بنت خُوَيْلد بأربع مئة درهم فلمَّا تزوجها رسولُ الله ﷺ وَهَبَتْهُ له.

أمَّا أبوه فأخذ يتحراه في كُلِّ أرض، ويسألُ عنه كُلَّ رَكْب، ويصوغُ حنينَه إليه شعراً حزيناً تتفطَّرُ له الأكبادُ، حيث يقول:

بكيْتُ على زيدٍ ولم أدْرِ ما فَعَل ... أَحَيٌّ فيُرجى أمْ أتى دُونَه الأجَل؟
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالَكَ سهلُ الأرض أمْ غالَكَ الجبل[1]
فيالَيْتَ شعْري هلْ لكَ اليومَ رَجْعَةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تُذكرنيه الشَّمْسُ عند طُلوعها ... وتَعْرض ذكراه إذا غَرْبُها أَفَلْ[2]
وإنْ هَبَّت الأرواحُ هَيَّجْنَ ذِكْرَه ... فيا طولَ ما حُزني عليه وما وَجَل
سأعملُ نَص العِيسِ في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطوافَ أو تسأَمُ الإبل
حياتي أو تأتي عليَّ منيَّتي ... وكُلُّ امرئ فانٍ وإنْ غَرَّه الأمل
وأُوصي به قَيْساً وعمراً كليهما ... وأُوصي يزيداً ثم مَعْن بعده جبل

فحج ناس من كعب، فرأَوْا زيداً، فعرفهم وعرفوه، فقال: أبلغوا أهلي هذه الأبيات؛ فإني أعلم أنهم جزعوا عليَّ، وقال:

ألكي إلى أهلي وإنْ كنتْ نائياً ... فإني قطين البيت عند المشَاعر
فكُفُّوا عن الوَجْد الذي قد شَجاكُمُ ... ولا تعملوا في الأرض نعي الأباعر
فإنِّي بحمد الله في خَيْر أَسْرة ... كرام مَعْد كابراً بعد كابر

---

(١) غالَكَ: سرقك.
(٢) أفَل: غاب.

فانطلقوا فأعلموا أباه، فخرج حارثةُ وكعبُ بن شراحيل بفدائه، فقدما مكةَ، فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا:

يا ابن هاشم، يا ابن سيِّد قومه، أنتم أهْلُ الحَرَم وجيرانُه، تَفُكُّون العاني[١] وتُطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندَك، فامْنُنْ علينا وأَحْسنْ علينا في فدائه؛ فإنَّا سنَرْفَعُ لك في الفداء.

قال: مَنْ هو؟

قالوا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله ﷺ: فهَلاَّ غير ذلك؟

قالوا: ما هو؟

قال: ادْعُوه فخيِّروه، فإنْ اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإنْ اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ على مَن اختارني أحداً.

قالوا: قد زدتنا على النَّصَف وأَحْسَنْتَ.

فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟

قال: نعم. هذا أبي وهذا عَمِّي.

قال: فأنَا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ مَحَبَّتي لك، فاخترني أو اخترهما.

فقال زيدٌ: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً. أنت منِّي بمنزلة الأب والعَمِّ

فقالا: وَيْحَكَ يا زيدُ! أتختار العبوديةَ على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟!!

قال: نعم. إنِّي قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختارُ عليه أحداً أبداً.

---

(١) العَاني: الأسير.

فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أخرجَهُ إلى الحجْر[١] فقال:

«يا مَنْ حَضَرَ، اشهدوا أنَّ زيداً ابني يرثني وأرثُه»

فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت أنفسُهُما وانصرفا.

فَدُعيَ «زيد بن محمد» حتَّى جاء الله بالإسلام، فزَّوجه رسولُ الله ﷺ زينبَ بنت جحش، فلما طلَّقها تزوجها النبي ﷺ، فتكلم المنافقون في ذلك، وقالوا: تزوج امرأة ابنه فنزل قول الله: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ**﴾[٣].

فَدُعيَ يومئذ «زيد بن حارثة»

قال أهلُ السِّيَر: شهد زيدٌ بدراً وأُحُداً والخندق والحديبية وخيبر، واستخلفه رسولُ الله ﷺ على المدينة حين خرج إلى «المريسيع»[٤] وخرج أميراً في سَبْع سرايا، ولم يُسَمَّ أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن الكريم باسمه غيرُه.

وقال الزهريُّ: أول مَنْ أسلم زيدٌ، وكان يُكنَّى أبا أسامة، قُتلَ زيدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة مؤتة، في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

روى البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا - قَالَ:

---

(١) الحِجْر: هو حجر الكعبة، وهو ما حواه الحطيم المُدار بالبيت جانب الشمال.

(٢) الأحزاب: ٤٠.

(٣) الأحزاب: ٥.

(٤) المريْسيع: ماءٌ لبني خزاعة يقع في وادي قديد، بينه وبين المدينة ٢٩٧ كم تقريبًا، وبينه وبين مكة ١٢٠ كم.

«أَمَّرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ. قَالَ عَبْدُ اللَّه: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ»(١).

وروى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّه بْنُ رَوَاحَةَ، فَأُصِيبَ، وَإِنَّ عَيْنَيْ رَسُولِ اللَّه ﷺ لَتَذْرِفَانِ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ فَفُتِحَ لَهُ»(٢).

وفي رواية قال: «خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ ذكر نحوه، وقال في آخره: ومَا يَسُرُّنَا أَنَّهُمْ عِنْدَنَا. قَالَ أَيُّوبُ أَوْ قَالَ: مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»(٣).

الآن يمكننا أن نعرف حكمةَ رسول الله ﷺ في المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ونعرف أن يكونَ فُلانٌ أخاً لفُلانٍ، فهُمَا أخوان.

وعندما نتدبَّر الأعمالَ والعواقبَ نرى مَدَى التَّناسُب والتوافق بين الأخوين حتَّى في العواقب.

فحَمْزَةُ هو من نعرف، سَيِّدُ الشُّهداء، وزيدُ بن حارثة - وقد عرفنا سيرتَه وإيثارَ الرسول ﷺ له، وإيثارَه رسولَ الله على أبيه - ورَأَيْنا العاقبةَ أفضل ما تكون لِمَنْ أحبهم الله ورسولُه.

*****

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٢٨.
(٢) البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١١٦٩.
(٣) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٥٨٩.

*** المؤاخاة بين سلمان الفارسي وبين أبي الدَّرْدَاء:**

وفي المؤاخاة آخى الرسولُ ﷺ بين سلمان الفارسي وبين أبي الدَّرْدَاء - رضي الله عنهما -

يقول صاحبُ [حلية الأولياء] في وصف أبي الدَّرْدَاء رضي الله عنه:

«العارفُ المُتفكِّر، العالِمُ المُتَذكِّر، عَرَفَ المُنْعِمَ والنَّعْمَاءَ، وتَفكَّر في صنائعه السَّرَّاء والضَّراء، دَاوَمَ على العمل استباقاً، وأحَبَّ اللِّقاءَ اشتياقاً.. أبو الدَّرْدَاء، صاحبُ الحِكَم والعُلوم»(١).

وقد سُئِلَتْ عنه أُمُّ الدَّرْدَاء: ما كان أفضل عَمَل أبي الدَّرْدَاء؟

قالت: «التَّفكُّر والاعتبار»(٢).

وقال أبو نعيم في وصف سلمان رضي الله عنه:

«سابقُ الفُرْس، ورائق العُرْس، الحكيم والعابد العليم، أبو عبدالله سلمان، ابن الإسلام، ورافع الألوية والأعلام، أحد الرفقاء والنُّجباء، ومَنْ إليه تشتاقُ الجنَّةُ من الغرباء، ثَبَتَ على القلَّة والشدائد لِمَا نَالَ من الصِّلة والروائد»(٣).

وقال الرسول ﷺ عنه: «سلمان مَنَّا آلَ البيْت»(٤).

وكفى بذلك فضلاً وشرفاً.

وعن أبي الأسود الدؤلي قال:

«كنا عند عليٍّ رضي الله عنه ذاتَ يوم، فقالوا: يا أمير المؤمنين حدِّثنا عن سَلْمَان

(١) حلية الأولياء: ١/٢٠٨.
(٢) حلية الأولياء: ١/ ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ٢/٣٤٨، الزهد لابن المبارك ١/٩٧.
(٣) حلية الأولياء: ١/١٨٥.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٣/٦٩١، حديث رقم ٦٥٣٩.

قال: مَنْ لكم بمِثْل لقُمان الحكيم؟

ذلك امـرؤ منَّا وإلينا أهْلَ البـيت.. أدركَ العِلْمَ الأولَ والعِلْمَ الآخـرَ، وقَـرأَ الكتابَ الأولَ والآخرَ. وبَحْرٌ لا يَنْزف»[1].

وأوصى مُعَاذ بن جبل رجلاً أنْ يطلب العلمَ من أربعة، سلمان أحدهم.

*****

ونَعُود إلى قـضيـة الإخـاء، ونسـتـمعُ إلى الأخـوين اللَّذَيْن آخى الرسـولُ ﷺ بينهمـا: سلمـان وأبي الدَّرْدَاء، ونَرَاهُمـا في سُلوك عمليٍّ نرى فيـه هَدْي القرآن ونُورَ النُّبُوَّة.

عن أبي عثمان النَّهدي، عن سلمان الفارسي قال:

ثلاثٌ أعْجَبَتْني حتَّى أَضْحَكَتْني:

مُؤَمِّلُ دُنيا والموتُ يطلبُه..

وغافلٌ ليس بمَغْفُولٍ عنه..

وضاحكٌ مِلء فِيه لا يدري أساخطٌ ربُّ العالمين عليه أَمْ رَاض عنه.

وثلاثٌ أحزنتني حتَّى ابكتني:

فِراقُ الأحبَّة محمد وصَحبه..

وهَولُ المطلَع..

والوقوفُ بين يدي ربي «ولا أدري إلى جنة أو إلى نار»[2].

---

(١) مجمع الزوائد ١٥٨/٩، حلية الأولياء ١٨٧/١، سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٢.

(٢) الزهد لابن المبـارك: ٨٤/١، حليـة الأوليـاء ٢٠٧/١، صفـوة الصـفـوة ٥٤٨/١، شـعب الإيمان ٣٦١/٧.

وعن أبي الأحوص قال:

افتَخَرَتْ قريشٌ عند سلمان ذات يوم، فقال سلمان:

لكنِّي خُلقت من نُطفة قذرة، ثم أعودُ جيفة نَتنَة، ثم يؤتى بي إلى الميزان، فإنْ ثَقُلَ فأنَا كريمٌ، وإنْ خَفَّ فأنا لئيمٌ(١).

وعن أبي جحيفة قال:

آخى رسولُ الله ﷺ بين سلمان وأبي الدَّرْدَاء، فزارَ سلمانُ أبا الدَّرْدَاء، فرأى أُمَّ الدَّرْدَاء مُتبذِّلة(٢) فقال لها: ما شأنك؟

قالت: إنَّ أخاك أبا الدَّرْدَاء ليست له حاجةٌ في الدنيا.

قال: فلمَّا جاء أبو الدَّرْدَاء قرَّبَ طعاماً فقال: كُل هذا؛ فإني صائم.

قال: ما أنا بآكل حتَّى تأكل.

قال: فأكل.

فلمَّا كان الليلُ ذهب أبو الدَّرْدَاء ليقوم، فقال له سلمان: نم. فنام.

فلما كان من آخر الليل قال له سلمانُ: قُم الآن، فقاما فصلَّيا.

فقال: إنَّ لنفسك عليك حقاً، وإنَّ لربك عليك حقاً، وإنَّ لضيفك عليك حقاً، وإنَّ لأهلك عليك حقاً. فَأَعْطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ.

فأتيا النبي ﷺ فذكرا له ذلك فقال ﷺ: «صَدَقَ سلمان»(٣).

وعن قتادة قال: قال أبو الدَّرْدَاء:

ابن آدم، طَأَ الأرضَ بقدمك؛ فإنها عن قليل تكون قبرك.

---

(١) صفوة الصفوة: ١/٥٤٤.

(٢) متبذلة: أي لابسة ثياب البِذْلة وهي المهنة، والمراد أنها تاركة للبس ثياب الزينة.

(٣) صفوة الصفوة: ١/٥٣٦.

ابن آدم، إنما أنتَ أيامٌ، فكلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك.

ابن آدم، إنَّك لم تَزَلْ في هَدْم عمرك من يوم ولدتك أُمُّك[١].

وعن جبير بن نفير قال:

«لما فُتحَتْ قُبْرُص فُرِّقَ بين أهلها، فبكى بعضُهم إلى بعض، فرأيت أبا الدَّرْدَاء جالساً وحده يبكي، فقلت:

يا أبا الدَّرْدَاء، ما يبكيك في يوم أعَزَّ الله فيه الإسلامَ وأهلَه؟!

قال: وَيْحَكَ يا جُبيرُ! ما أهونَ الخَلْقُ على الله إذا تركوا أمرَه. بينما هي أُمَّةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملك، تركوا أمرَ الله فرأيتهم كما نرى»[٢].

*****

إنَّ هؤلاء الذين آخى الرسول ﷺ بينهم قد عرفوا حكمة خَلْقهم، وغاية وُجودهم، فها نحن نرى أبا الدَّرْدَاء جالساً وحده يبكي في وقت أعَزَّ الله فيه الإسلامَ وأهلَه.

إِنَّهُ يَسْتَبْصرُ بمَا وَقَعَ..

فإنَّ المنتَصر مُخْتَبَرٌ بنَصْر الله: أيشكُرُ أم يكْفُر، أيطغَى أم يعدل.

ومن شُكرِ نعمةِ النَّصْر أنْ يقوم بفريضته، وفريضتُه **﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾**[٣].

ومن الدلالة على شُكر نعمة النَّصْر أنْ يُخضع نعمةَ الله لطاعته، فلا يرى نفسه مُستَغْنٍ بنعمةٍ طارئة - وهو بها مُخْتَبَرٌ - عن استحضار العاقبة في مُداولة الأيام بين الناس والحساب بين يدي الله.

---

(١) حلية الأولياء: ١٥٥/٢، صفوة الصفوة ٦٣٨/١.

(٢) حلية الأولياء: ٢١٧/١، صفوة الصفوة ٦٣٨/١.

(٣) الحج: ٤١.

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾[١].

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ لابد من استحضارها حتَّى يَنْصُرَ الله في نفسه بتغليب أمره على هواه، فلا تكون قوتُه وَبَالاً على نفسه وعلى الناس من حوله، بل تكون القُوَّةُ مُسبِّحَةً بأمر الله، خاشعةً خاضعةً لقُدرته.

من هُنا رأَيْنَا أبا الدَّرْدَاء يبكي في وقت النَّصْر وإعزاز الأُمَّة؛ لأنه يخشى أنْ ينسى الناسُ أن النصرَ من عند الله وحدَه، فلا يؤدُّونَ حقَّه.

يخشى أن يُصابَ الناسُ بما يُصابُ به الغافلون، بإسناد الفضل لأنفسهم، ويغيب عنهم أن الفضْلَ لخالقهم دُون سُواه، وهم عائدون إليه ومحاسَبُون بين يديه.

كُلُّ ذلك وغيرُه يستحضره أبو الدَّرْدَاء، فيبكي في ساعة نَصْر؛ لأنه يعلم ما يترتب عليه.

ولذلك نراه يُجيب مَنْ جاء إليه يطلب وصيَّته، ويقول له:

«اذْكُر الله في السَّرَّاء يذْكُرْك في الشِّدة، فإذا أَشْرَفْتَ على شيء من الدنيا فانظُرْ إلى ماذا يَصير»[٢].

التفكُّر والاعتبار في المقدمات والعواقب، والأعمال والنتائج، تجعل الإنسان لا يَغْتَر بالعطاء، ولا يقْنَط مع الضرَّاء.

بل يظلُّ - دائماً - في ذِكْرٍ لخالقه، ورضىً عنه، دون إعجاب أو غفلة أو نسيان.

ومَنْ ذَكَرَ اللهَ ذَكَرَه، ومَنْ حفظَ اللهَ حفظَه.

وكم من ناس نسُوا الله فأنْساهُم أنفسهم، وذاك أشدُّ عقاب لِمَنْ اسنَدَ الفَضْلَ لنفسه وغفل عن ذكر ربِّه.

---

(١) العلق: ٦ - ٨.

(٢) حلية الأولياء: ٢٠٩/١، صفوة الصفوة ٦٢٩/١.

ومَن استحضر - دائماً - أن ليس من أمره من شيءٌ - في ظاهره أو باطنه - بعيداً عن علم خالقه، داوَمَ على الذِّكر، وسَلِمَ من سُوء الغفلة والنسيان، وعلم أنَّ الله الذي حفظ الذِّكْرَ جعله بين يديه شاهداً على الخَلْق.

روى الإمام أحمدُ عن عليّ بن حوشب، عن أبي الدَّرْدَاء قال:

«أخوف ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: أَعَلِمْتَ أم جَهِلْتَ؟ فإنْ قلتُ: علمتُ، لا تبقى آيةٌ - آمرةٌ أو زاجرةٌ - إلا أُخذْتُ بفريضتها، الآمرةُ هل ائتَمَرْتَ، والزاجرةُ هل ازْدَجَرْتَ. فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يُسمَع»(١).

ذكَرْتُ من قبل أنَّ رسول الله ﷺ قد آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدَّرْدَاء، وقد عرفْتَ عن سلمان ما عرفتَ.

فانْظُرْ إلى ما يقولُه عندما رأى زَحْمَةَ العطاء ووَفْرَةَ النَّعْمَاء.

روى الإمام أحمدُ عن أبي عثمان، عن سلمان قال:

«لما افتتح المسلمون «جَوْخَى»(٢) دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال. قال: ورجل يمشي إلى جنب سلمان، فقال: يا أبا عبدالله، ألا ترى إلى ما أعطانا الله؟ فقال سلمان: وما يعجبك؟! فما ترى على جنب كُلِّ حَبَّةٍ مما ترى حساب»(٣).

إيه.. سلمان وأبو الدَّرْدَاء أَخَوان، فَنِعْم هذا الإخاء الذي لا تغيب دَلالته في أيِّ قول أو عمل، ولا تخفى فضائُله وكُلُّ أخ يرجو مع أخيه العَوْنَ على ذِكْر الله.

*****

(١) حلية الأولياء: ١/٢١٤، صفوة الصفوة ١/٦٣٠.
(٢) جَوْخَى: بلد بالعراق.
(٣) صفوة الصفوة: ١/٥٥٠.

* **المؤاخاة بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة:**

روى مسلمٌ في صحيحه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آخَى بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَبَيْنَ أَبِي طَلْحَةَ - رضي الله عنهما -[١].

فمن هو أبو عبيدة الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي طلحة؟

هو: أبو عبيدة، عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر بن النضر بن كنانة، يجتمع مع النبي ﷺ في «فهر»

أسلم أبو عبيدة مع «عثمان بن مظعون» وهاجر إلى الحبشة الهجرةَ الثانية، وشهد بدراً والمشاهد كُلَّها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ونَزَع - يومئذ - بقيَّة الحلقتَيْن اللتَيْن دخلتا في وَجْنة[٢] رسول الله ﷺ من حِلَقِ المِغْفَر[٣] فوقعت ثنيَّتاه [٤] فكان من أحسن الناس هتماً[٥].

روي مسلمٌ عن حُذَيْفَةَ قَالَ:

«جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلاً أَمِينًا، فَقَالَ: لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ، حَقَّ أَمِينٍ، قَالَ: فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ، قَالَ: فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ»[٦].

وفي رواية أخرى عن أنس عند مسلم:

---

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٩٢.

(٢) الوَجْنة: ما ارتفع من الخدَّين.

(٣) المِغْفرُ: زَرَدٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، وقيل: المِغْفَرُ حِلَقٌ يجعلُها الرجل أسفلَ البيضة تُسْبَغ على العُنُق فتَقيه.

(٤) الثَّنِيّة: من الأضراس أولُ ما في الفم، وثَنَايا الإنسان في فمه الأربعُ التي في مقدم فيه. ثِنْتَان من فوق، وثِنْتَانِ من أسفل.

(٥) الهَتَمُ: انكسارُ الثنايا من أُصولها خاصة، وقيل: من أطرافِها.

(٦) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٤٤.

«أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلاً يُعَلِّمْنَا السُّنَّةَ وَالإِسْلامَ، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقَالَ: هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[1].

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: تَمَنّوا.

فقال رجل: أتمنى لو أنَّ لي هذه الدار مملوءة ذهباً أُنفقه في سبيل الله عز وجل.

ثم قال: تَمَنَّوا.

فقال رجل: أتمنى لو أنهَّا مملوءة لُؤلؤا وزَبرجداً أو جوهراً، أُنفقه في سبيل الله عز وجل وأتصدَّقُ به.

ثم قال: تَمَنَّوا.

فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: ولكني أتمنى لو أنَّ هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح[3].

وروى الإمام أحمد عن هشام بن عروة، عن أبيه قال:

«لما قدم عمرُ الشامَ تلقَّاه الناسُ وعظماءُ أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: مَنْ؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: الآن يأتيك.

---

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٤٣.

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٦١، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٤٢.

(٣) حلية الأولياء: ١٠٢/١، صفوة الصفوة ٣٦٧/١.

فلما أتاه، نزل فاعتنقه، ثم دخل عليه بيته.

فلم يَر في بيته إلا سيفه وتِرسه ورَحْله، فقال له عمر: ألا اتخذْتَ ما اتخذ أصحابُك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المَقيل»[١].

وعن نمران بن مخمر عن أبي عبيدة بن الجراح أنَّه كان يسير في العسكر فيقول:

«ألا رُبَّ مُبَيِّض لثيابه، مُدَنِّسٌ لدينه.. ألا رُبَّ مُكْرِم لنفسه وهو لها مُهين.. بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات؛ فلو أنَّ أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء، ثم عمل حسنةً لَعَلَتْ فوق سيئاته حتَّى تغمُرَهُنَّ»[٢].

عزم الصِّديق على توليته الخلافة، وأشاد به يوم السقيفة[٣].

وكان من أُمراء الأجناد لفتح الشام في عهد أبي بكر، وولاَّه عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قيادةَ الجيش الزَّاحف إلى الشام بعد خالد بن الوليد، فتَمَّ له فتحُ الدِّيار الشامية، وبلغ الفراتَ شرقا وآسيه الصُغرى شمالاً، ورَتَّبَ للبلاد المُرابطين والعُمَّالَ، وتعَلَّقَتْ به قلوبُ الناس لرفْقه وأنَاته وتواضعه.

تُوفي أبو عبيدة في طاعون عمواس بالأردن، وقُبر بـ «بيسان»[٤] وصلى عليه مُعَاذ بن جبل في سنة ثماني عشرة من خلافة عمر، وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

---

(١) حلية الأولياء: ١/١٠١، صفوة الصفوة ١/٣٦٨.

(٢) حلية الأولياء: ١/١٠٢، صفوة الصفوة ١/٣٦٨.

(٣) يوم السقيفة: هو اليوم الذي اجتمع فيه المهاجرون والأنصار بعد موت النبي ﷺ لاختيار من يخلف رسول الله ﷺ في أمر المسلمين.

(٤) بَيْسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي بين حوران وفلسطين.

ولـه في الصحيحين حديثٌ واحدٌ انفرد بإخراجه مسلمٌ.

وذاك هو الحديثُ كما جاء في مسند أبي عبيده، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

«بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً قَالَ: فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟، قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ. وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ[1] ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ، قَالَ: وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ[2] الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ. ثُمَّ قَالَ: لاَ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدِ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا، قَالَ: فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلاَثُ مِئَةٍ، حَتَّى سَمِنَّا، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ[3] عَيْنِهِ بِالْقِلاَلِ الدُّهْنَ. وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ[4] كَالثَّوْرِ، أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ، فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ وَأَخَذَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلاَعِهِ فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا، فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا، وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ[5] فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا» قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ»[6].

ذَكَرْتُ ذلك ليُعْلَم أنَّ الطاعة لله وللرسول، وحُسْنَ الاستجابة فيما أُمِروا به أو نُهوا عنه، كان دلالة الصِّدق الذي وُصفوا به، والثبات الذي ماتوا عليه

(١) الخبط: ما سقط من ورق الشجر.
(٢) الكثيب: الرمل المجتمع.
(٣) وقبُ العين: ما نُقِر منها.
(٤) الفِدْرة: القطعة من كل شيء.
(٥) الوشائق: ما قُطِعَ من اللحم ليُقَدَّد.
(٦) مسلم - كتاب الصيد والذبائح، حديث رقم ٣٥٧٦.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(١).

*****

ذكرنا ما رواه مسلمٌ من أنَّ الرسول ﷺ آخى بين أبي عبيدة وبين أبي طلحة، وقد عرفنا أنَّ أبا عبيدة رضي الله عنه يجتمع مع رسول الله ﷺ في «فهر بن مالك» وقد وقفنا على شيء من فَضْله وسيرته.

فلنقف على شيء من فضائل أبي طلحة الأنْصَاري وسيرته، وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة.

اسم أبي طلحة: زيد بن سهل بن الأسود الأنْصَاري الخزرجي النَّجَّاري.

عَقْبيٌّ، بَدْريٌّ، نقيبٌ. وهو مشهور بكنيته.

وأُمُّه: عبادة بنت مالك بن عدي.

كان رضي الله عنه زوجَ (أُمِّ سُلَيْم) بنت ملحان، أم أنس بن مالك رضي الله عنه.

وفي [أُسْد الغابة]: أنَّه لما خَطَبَ أُمَّ سُلَيْم قالت له:

يا أبا طلحة، ما مثْلُك يُرَدُّ، لكنَّك امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ، ولا يَحلُّ لي أن أتزوجك، فإنْ تسلم: فذلك مهري لا أسألك غيره.

فأسلم، فكان ذلك مهرُها(٢).

قال ثابت: فما سمعت بامرأة كانت أكرم الناس مهراً من أُمِّ سُلَيم.

توفي رضي الله عنه سنة اثنين وثلاثين، أو أربع وثلاثين. وقال المدائني: سنة إحدى وخمسين.

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) موارد الظمآن: ١٨٨/١، حلية الأولياء ٥٩/٢، سير أعلام النبلاء ٣٠/٢، صفوة الصفوة ٦٥/٢.

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ[١] وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ».

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ.

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَخٍ[٣] ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ

فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[٤].

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قَالَ:

«كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَرْمِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْ خَلْفِهِ لِيَنْظُرَ إِلَى مَوَاقِعِ نَبْلِهِ، قَالَ: فَتَطَاوَلَ أَبُو طَلْحَةَ بِصَدْرِهِ؛ يَقِي بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ[٥]»[٦].

وروى الإمام أحمد - أيضاً - عن أنس، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

---

(١) بَيْرُحَاء: اسم حديقة كانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظل بها ويشرب من مائها.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) بَخٍ: كلمة استحسان.

(٤) البخاري - كتاب الزكاة، حديث رقم ١٣٦٨، كتاب الوكالة، حديث رقم ٢١٥٠، كتاب الوصايا، حديث رقم ٢٥٦٢، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤١٨٩.

(٥) نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ: أي عنقي فداءً لعنقك.

(٦) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٥٨٦.

«لَصَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ فِئَةٍ[(١)]»[(٢)].

وأخرج أبو داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ - يَعْنِي يَوْمَ حُنَيْنٍ -: «مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلَبُهُ[(٣)] فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلاً، وَأَخَذَ أَسلابَهُمْ»[(٤)].

قال الواقديُّ: أهل البصرة يرَوْن أنه دُفن في جزيرة، وإنما دُفن في المدينة سنة أربع وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وصلى عليه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)].

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ».

قَالَ: فَجَاءَ، فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً، فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟

قَالَ: لا.

قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ.

قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ تَرَكْتِنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي!

فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا.

---

(١) خير من فئة: أي أشد على المشركين من جماعة، والفئة الجماعة، وجمعها فئات.

(٢) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٥٢، ١١٦٥٨، ١٣٢٤٨.

(٣) سَلَبُ القتيل: ما يؤخذ منه من سلاح ومتاع.

(٤) أبو داود - كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٣٤٣، أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٨٨، ١١٧٨٩، ١٢٥٠٩.

(٥) صحيح ابن حبان: ١٦٦/١١، حديث رقم ٤٨٣٦، المستدرك على الصحيحين ١٤٢/٢.

قَالَ: فَحَمَلَتْ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا[١] فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ [٢] فَاحْتُبِسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ - يَا رَبِّ - إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ، وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدِ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى.

قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ، انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا

قَالَ: وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ[٣] فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ الْمِيسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ، فَلاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا[٤].

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ، قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ)[٥].

في هذا الحديث استجابة دعاء النبي ﷺ، فحملت بعبدالله بن أبي طلحة في تلك الليلة، وجاء من ولده عشرةُ رجال علماء أخيار، وفيه: كرامةٌ ظاهرةٌ لأبي طلحة، وفضائلُ باهرةٌ لأُمِّ سُلَيْم.

*****

---

(١) الطُروق: الإتيان في الليل فجأة.

(٢) المخاض: وَجَع الولادة.

(٣) الميسم: أداة تستخدم في الكي.

(٤) يقال: تَلَمَّظَ الطعام، إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه، وأخرج لسانه فمسح به شفتيه.

(٥) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٩٦.

ألست ترى من سيرة الأخوين: أبي عبيدة بن الجراح، وأبي طلحة الأَنْصَاري، ومن وفائهما لدين الله، وحُبِّهما لرسول الله ﷺ ما يجعلك ترى نُور النُّبُوَّة في هذا الإخاء؟

وهذا أنصاريٌّ من الأَنْصَار، وأبو عبيدة من المهاجرين.

إخاء في الله وفي إعلاء كلمة الله.. به يُنْصَرُ حَقٌّ، ويُبطَل باطلٌ

والله - وهو يُحقُّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ - يصطفي من عباده ويختار؛ ليكونوا معاً أُخوة في الله، يَنصُرون الحقَّ، ويُجاهدون في سبيل الله صابرين محتسبين.

وكذلك كان أبو عبيدة وأبو طلحة، وكذلك كانت المؤاخاة..

قال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[1].

وقال تعالى: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2].

وفي البخاري: «آخى الرسول ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف، وبين سعد بن الربيع الخزرجي».

ومَنْ تدبَّر كيف كان وفاؤُهما لله، وحُبُّهما لرسوله، ورأى كيف جَمعَت المدينةُ المُنَوَّرَة بينهم، لتقوم بهم أُمَّةٌ وُصفَتْ من الله بقوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[3].

---

(١) البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٤٧٧٣.
(٢) الأنفال: ٦٣.
(٣) آل عمران: ١١٠.

رأى أنهم كانوا - باعتصامهم بحبل الله، وجهادهم في سبيله، وصدق اتّباعهم لرسول الله ﷺ وإيثارهم ما عند الله - جديرين بما وصفهم الله به

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

*****

والآن.. هل يمكننا - وقد رأينا نماذج من هذا الإخاء - أن نعرف دلالته؟

وأن نعرف أن صدْقَ الإيمان والوفاءَ لله هو السبيل لأخوة تُفْضي إلى رضا الله والفوْز بالجنة.

لأنَّه الإخاء في الله، وفي سبيل الله، لا في سبيل شيء سواه.

وذلك قد يتمُّ بينَك وبين مَنْ سبقك إلى رضوان الله، ويكون لِمَنْ جاء بعدك؛ حُبَّاً في الله، يُحبُّكَ مَنْ يأتي بعد؛ رغبةً في رحمة الله ومغفرته، وإيثاراً للباقيات الصالحات التي لا تكون إلاَّ لِمَنْ صَدَقَ إيمانُه وتَجَرَّدَ يقينُه، وخلُصَتْ عبادتُه، وصَار عَبْداً لله، لا لأحدٍ سواه.

ولذلك نقرأ في القرآن الكريم هذا الدعاءَ البارَّ الكريم لِمَنْ جاءوا بعد المهاجرين والأنْصَار:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

---

(١) الفتح: ٢٩.　　(٢) الحشر: ١٠.

فإنَّ المؤاخاة تناصُرٌ في الدِّينِ، وتعاوُنٌ على البرِّ والتقوى، وإقامة الحق. وهي باقية.

*****

إنَّ المدينةَ المؤمنةَ قد صارت الجُنَّة الحصينة لأهل الإيمان، وأصبحت داراً للأبرار من كُلِّ مكان.

ولم يكن الإخاء بينهم إخاء على دُنيا أو متاع.

لم يكن إخاء على انتصار شهوات أو أَهْوَاء.

وإنمَّا كان إخاءً في الله، ولله، وفي سبيل الله.

لقد كانت المؤاخاةُ فيها مؤاخاةً على انتصار الفضائل والوفاء لإعلاء كلمة الله.

فطابت - بذلك - نفوسُهم، وعَظُمَتْ فضائلُهم، وبُوركت أعمالُهم وكان من الله - وحده - إيواؤهم ونَصْرُهم وتأييدُهم.

وتحقق وعدُ الله بهم وفيهم **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾**(١).

وقد كان للقرآن الكريم أثرُه البَـيِّن في سُلوكهم وأقوالهم، في ترابطهم وصِدْق جهادهم وإخلاصهم.

وكان لهم في رسول الله ﷺ الأُسْوةُ الحسنة والقُدوةُ الصالحة، فرَأَيْناهُم - اقتداءً به - يُحبون ما يُحب، ويرغبون فيما يرغب.

كما كانوا - بأعمالهم - دلالة صادقة على أنهم حزبُ الله يعبدون الله وحده، ويتوكلون عليه، ولا يتوكلون على أحد سُواه.. فما من عمل يعملونه إلاَّ وترى فيه رُوحَ الإخلاص، ولا قولاً يقولونه إلاَّ وتُبْصرُ فيه نُورَ القرآن وهَدى الأنبياء.

---

(١) غافر: ٥١.

ورأَيْنا الناسَ جميعاً يُخاطَبُون بدعوة عالمية بُعث بها خاتَمُ الأنبياء، يقرأونها في كتاب عزيز، ويَرَوْنَها في سُنَّة مُباركة، ويُبصرونها عملاً صالحاً فيمَنْ آمن وجَاهَد وصَابر وصَبَر.

وكان للمدينة المُنَوَّرَة - عاصمة الإسلام - قَدْرُها، والإيمانُ يأرز إليها، والمسلمون يتآخَوْن فيها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الإيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»(١).

ولَمْ يكُن غريباً في أمرها أنْ يدعو ابنُ الخطاب رضي الله عنه دعوتَه التي سُمِعَتْ منه، وتحققتْ له: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد نبيِّك»(٢).

*****

---

(١) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٣، مسلم - كتاب الإيمان، حديث رقم ٢١٠.
(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٧.

تحويل القبلة إلى الكعبة

وكان من وقائع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها: تحويل القبلة إلى الكعبة.

أخرج البخاري من حديث البراء قال:

صَلَّى رسول الله ﷺ نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمُ اليَهُودُ -: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[1] فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ مَا صَلَّى، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الأَنْصَارِ فِي صَلَاةِ العَصْرِ وهم ركوع نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَقَالَ: هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ. فَتَحَرَّفَ القَوْمُ حَتَّى تَوَجَّهُوا نَحْوَ الكَعْبَةِ[2].

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثُمَّ تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة، ومحنَةٌ للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

* **فأما المسلمون فقالوا:** سمعنا وأطعنا ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾[3] وهم الذين هَدَى الله، ولم تكن كبيرةً عليهم.

* **وأما المشركون فقالوا:** كما رجَعَ محمدٌ إلى قِبلتنا، يوشكَ أن يرجع إلى دِينِنَا، وما رجع إليه إلاَّ أنه الحقُّ.

---

(١) البقرة: ١٤٢.

(٢) البخاري - كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٨٤، كتاب أخبار الآحاد، حديث رقم ٦٧١١.

(٣) آل عمران: ٧.

* **وأما اليهود فقالوا:** خالف محمدٌ قِبْلَةَ الأنبياء قَبْلَهُ، ولو كان نبيًّا حقاً لصلى إلى قِبْلَة الأنبياء.

* **وأما المنافقون فقالوا:** ما يدري محمدٌ أين يتوجه، إنْ كانت الأولى حقًّا، فقد تَركها، وإنْ كانت الثانية هي الحَقُّ، فقد كان محمدٌ على باطل.

وكثُرت أقاويلُ السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ**﴾[(١)].

وكانت محنةً من الله امتحن بها عبادَه، لِيَرَى من يتَّبعُ الرسولُ منهم ممَّن ينقَلبُ على عقبيه.

ولما كان أَمْرُ القبلة وشأنُها عظيمًا، وطَّأَ اللهُ - سبحانه - قبلها أَمْرَ النَّسْخ وقُدرتَه عليه، وأنَّه يأتي بخيرٍ من المَنْسُوخ أو مثله

ثم عقَّب ذلك بالتوبيخ لمن تعَنَّتَ رسولَ الله ﷺ ولم يَنْقَدْ لـه.

ثم ذكَرَ بعده اختلافَ اليهود والنصارى، وشهادةَ بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذَّر عبادَه المؤمنين من موافقتهم واتِّباع أهوائهم

ثم ذكَرَ كُفْرَهم وشركَهم به، وقولهم: إنَّ لـه ولدًا ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً**﴾[(٢)].

ثم أخبر أنَّ لـه - سبحانه - المشرقَ والمَغْربَ، وأَيْنَمَا يُوَلِّي عبادُه وجوهَهم، فثَمَّ وجْهُه

وهو الواسع العليم، فَلِعظمته وسعته وإحاطته، أَيْنَمَا يُوَجِّهُ العبدُ فَثَمَّ وَجْهُ الله.

---

(١) البقرة: ١٤٣.
(٢) الإسراء: ٤٣.

ثم أخبر أنَّه لا يَسأل رسولَه عن أصحاب الجحيم الذين لا يُتَابِعونه ولا يُصدِّقُونه ثم أعْلَمه أنَّ أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - لن يرضَوْا عنه حتَّى يتَّبعَ مِلَّتَهم، وأنَّه إنْ فعل - وقد أعاذَهُ الله من ذلك - فما لَه من الله من وليٍّ ولا نصير.

ثم ذكَّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم؛ ليزكّيهم، ويُعَلِّمَهُم الكتاب والحكمة، ويُعَلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون

ثم أمرهم بذكره وبشكره؛ إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمامَ نعَمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبتَه إيَّاهم

ثم أمرهم بما لا يتمُّ لهم ذلك إلاَّ بالاستعانة به، وهو: الصبرُ والصلاة، وأخبرهم أنَّه مع الصابرين.

وقد أتمَّ نعمتَه عليهم مع القبلة، بأنْ شَرَعَ لهم الأذان في اليوم والليلة خَمْسَ مرات. وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية.

روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قالت:

«الصَّلاَةَ أَوَّلَ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ، فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ، وَأُتِمَّتْ صَلاَةُ الحَضَرِ»(١).

وأخرجه البخاري في الهجرة بلفظ: «فُرِضَتِ الصَّلاَةُ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا»(٢).

*****

(١) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١٠٢٨، مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١١٠٧

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٤٢.

الإذن بالقتال

لم يكن تأسيس الدولة في المدينة المُنَوَّرَة وليدَ لحظة طارئة، بل كان امتدادَ نور لبعثة الرسول الأمين ﷺ الذي حُفظَت برسالته رسالةُ السماء إلى جميع الأنبياء، فلابُدَّ أنْ تكون لهذه الرسالة الجامعة دولةٌ يَشعُّ نُورُها، ويمتدُّ جهادهُا في تبليغ رسالة الله للعالمين.

وكان الزادُّ في تحقيق ذلك كلِّه بعثةُ الرسول ﷺ في مكة قبل أن تُرى آثارُها ووقائِعُها في المدينة المُنَوَّرَة التي اجتمع فيها شَمْلُ المهاجرين والأَنْصَار.

فكانوا - بجمعهم - طلائعُ خير ونُور لأُمَّة الإسلام ﴿**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(١).

ومن مدينة رسول الله ﷺ نصروا الله ورسوله.

ولم يكن ذلك مُجَرَّد نَصْر من الله عز وجل بلا تكاليف، وهم يُواجهون الشدائد، والأعداء يُحيطون بهم من كُلِّ جانب، مع قِلَّةِ عددهم ونُدْرة عُدَدهم.

لم يكن نَصْرُهم إلاَّ بما علَّمهم الله من صِدْقٍ في الأَخْذ بالأسباب التي أَحْسَنُوا تدبُّرها من كتاب ربِّهم وهو يُتْلَى عليه، ومن بيان الرسول ﷺ وهو قائمٌ فيهم.

فكان نَصْرهُم - سواء في هجرة الرسول ﷺ وما وَقَعَ فيها، أو في مواجهة الأعداء وما أكثرهم - بعد أنْ أَذِنَ الله لهم في رَدِّ الكَيْد عن أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ**

(١) آل عمران: ١١٠.

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١].

وقد قالت طائفة: إنَّ هذا الإذن كان بمكة والسورة مكِّية.

وهذا غَلَطٌ لوجوه:

- **أحدهما**: أنَّ الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.
- **الثاني**: أنَّ سياق الآية يدل على أن الإذن كان بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم؛ فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[٢] وهؤلاء هم المهاجرون.
- **الثالث**: أنَّ قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[٣] نزلت في الذين تبارَزُوا يوم بَدْر من الفريقين، فقد أخرج البخاري عن أبي ذَرٍّ أنَّه كان يُقسم قَسَماً أنَّ هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعُتبة وصاحبيه، يوم برزُوا في يوم بَدْر[٤].
- **الرابع**: أنَّ الله تعالى قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ والخطاب بذلك كلُّه مدني، فأما الخطاب بـ ﴿يا أيُّها الناس﴾ فَمُشْتَرك.
- **الخامس**: أنَّه أمَرَ فيها بالجهاد الذي يَعُمُّ الجهاد باليد وغيره، ولا رَيْبَ أنَّ الأمر بالجهاد المُطلَق إنَّما كان بعد الهجرة، فأمَّا جهادُ الحُجَّة فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾[٥] فهذه مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحُجَّة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

---

(١) الحج: ٣٩، ٤٠.
(٢) الحج: ٤٠.
(٣) الحج: ١٩
(٤) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٣٧٤.
(٥) الفرقان: ٥٢.

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لِمَنْ قاتلهم دون مَن لم يقاتلهم فقال - سبحانه-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(١).

*****

لقد أحسَن المؤمنون تدبُّر هذا الإذْن من قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٢).

استوعبوا هذا الإذْنَ وعَرفوا قَدْرَه.

إنه إذْنٌ من خالقهم، أوحى الله به إلى رسوله ﷺ ليُبَلِّغَهم به، وليَكُونَ آية تُتْلَى عليهم وعلى مَنْ جاء بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

إذْنٌ يتطلب منهم الإعداد والاستعداد، دُون تواكُلٍ أو إبطاء.

وبذلك صارت دارُ الهجرة دارَ إعداد لكتائب الإيمان، وصار الجهادُ بهم - في كُلِّ ميدان - جهادًا في سبيل الله، تخضع له الأهواءُ، وتُبْذَلُ الأنفُس والأموالُ ابتغاء مرضات الله.

وقد أيقنوا بالغاية التي يجاهدون في سبيلها، وهي غاية سَلام وبِرٍّ بالإنسانية كلِّها، وقد فهموا ذلك من دَلالة الآية التي أُذنَ لهم فيها.

فهموا - أولاً -: أن نَصْرَهم في أيِّ ميدان كان، لا يكون إلا بنصر الله في أنفسهم، فإنهم قد ظُلموا فكيف يدفعون الظلم عن أنفسهم أو عن غيرهم.

وقد أُمروا من رسولهم أن يكونوا - بإعداد أنفسهم كما أمر الله وبَيَّنَ رسولُه - جنودَ نَصْر يَنْصُرون كُلَّ مظلوم ولو كان من غيرهم، ويأخذون على يد الظالم ولو كان منهم.

كما أيقنوا أنهم لا يُنْصرون في معركة حتَّى يُنصر الله في أنفسهم.

---

(١) البقرة: ١٩٠ .
(٢) الحج: ٣٩.

ولم يكن خافياً عليهم دلالة ما أمرهم به الرسولُ ﷺ من أنَّ الأمرَ كُلَّه يقوم على الوفاء لما أُرسل به المرسلون.

وجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾(١).

إِذَنْ هو العدل الذي يتواصى الناس على القيام به؛ إحقاقاً للحَقِّ، وإبطالاً للباطل في نُصْرَة مظلوم ورَدْع ظالم، دون نَظَرٍ لعَدُو أو صديق وبذلك يتحقق الأمْنُ، ويَعُمُّ السَّلامُ دون أن يكون الحديد - الذي أَنْزَله الله لمنافع الناس سبيلاً - للاستبداد أو الاستعلاء، بل يكون - وفيه بأسٌ شديدٌ - لمنافع الناس، وتحقيق مصالحهم، متعاونين على البِرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان ولن يكون كذلك إلاَّ بالوفاء لله الذي أرسل الرُّسُل، وأنزل معهم الكتابَ والميزان أرسلهم جميعا لغاية واحدة ﴿**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾.

والله قد أنزل الحديد امتحاناً لهم؛ ليُري مَنْ ينصر به الله أو ينصُر به هواه.

ولابُدَّ للأمور من عواقب، فإن الله ليس بحاجة إلى من ينْصُرُه، وإنما هو الامتحان والاختبار ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾(٢).

روى البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال:

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(٣).

---

(١) الحديد: ٢٥ .

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) البخاري - كتاب الإكراه، حديث رقم ٦٤٣٨.

على ضوء ذلك علينا أن نتدبَّر جميعَ الوقائع لِنَفِيَ للحقِّ الذي يُحاسَبُ الناس عليه، ولنَقُوم بالقِسْط في كُلِّ شيء كما أمر الله **﴿ولا يجرمنَّكُمْ شنَآنُ قَوْمٍ علَىٰ ألاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**(١).

بذلك يكونُ صِدْقُ الإيمان بِرُسُل الله وبما أُمِروا به، وبغير ذلك يكون إعلانُ الإيمان بهم مَحْضَ رياءٍ أو ادِّعَاءٍ.

ونحن - بفضل الله - نؤمن برسل الله جميعًا كما أمَرَ الله ورسولُه، ولا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم.

بذلك أُمِرنَا، وبذلك نُشْهِدُ الله، ونُعلن هذه الشهادة للناس أجمعين، ونشهدهم أننا - بإيماننا هذا - مسلمون.

*****

لقد شاء الله تعالى أنْ تكون المدينة المُنَوَّرَة هي العاصمة المختارة لدولة الإسلام، وأنْ تكون جميعُ الوقائع - من سرايا وغزوات - مُوَجَّهَة منها، وعلاجُ الأحداث صادر عنها.

وهي عاصمة قُدْسِيَّةٌ لدَعْوة عالمية، لا تُعْنَى بشئون قبيلة بعينها، بل تُعْنَى بأمور الناس كافَّة، وذاك مما اخْتُصَّ به الرسولُ ﷺ

روى البخاري عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أن النبي قَالَ:

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٢).

---

(١) المائدة: ٨.

(٢) البخاري - كتاب التيمم، حديث رقم ٣٢٣، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤١٩.

وذاك ما أُمر الرسولُ ﷺ أنْ يُبلِّغَه للناس جميعا ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

وكان كلُّ شيء قد هُيِّئ للمدينة المُنَوَّرَة، لكي تقوم برسالتها بعد هجرة المهاجرين إليها وظُهور الأنْصَار فيها، وتآخيهم مع المهاجرين إليهم، واكتمال شئونهم بوصول الرسول ﷺ، وقيامه بتنظيم علاقتهم بغيرهم بمجرد وصوله إليهم، وهدايتهم بهداية السماء وفيهم رسول الله ﷺ.

وقد عرف المسلمون ما فرضه الله عليهم، واعتصموا - جميعا - بالوفاء والصِّدْق فيما عاهَدوا الله عليه، فَمَا وَهَنُوا، وَمَا ضَعُفُوا، وَمَا اسْتَكَانُوا، بل كانوا مُسارعين - في استجابتهم - لله وللرسول في كُلِّ ما دُعوا إليه.

وتلك دَلالةٌ يجب ألاَّ تَغيب عن كلِّ مَنْ يبغي صَلاحًا أو إصْلاحًا، أَنْ يبدأ بإعداد النفوس إعدادًا يجعلها أَهْلاً لشَرَف الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، مع الاعتصام بجناحين لا يصعدُ طائرٌ إلاَّ بهما: التقوى والصبر.

ولن يُغني عن إعداد النفوس شيءٌ من عَدَد أو عَتَاد، قبل إعداد إِنْسَان النَّصْر الذي يعرفُ أنَّ نَصْرَه مُتَوَقِّفٌ على أنْ ينْصُرَ الله - أولاً - في صِدْقِ إخْلاصه وصَالح عمله.

وهذا ما نُودِيَ أهلُ الإيمان له، وقد جُعل شرطاً لطَلَب النَّصْر من الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٢).

فإنَّ النَّصْرَ مقصورٌ على الله، وما عند الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

عندئذ يكون الإمْداد والإعزاز

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) محمد: ٧.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

*****

كُلُّ شيء في مدينة الرسول ﷺ قد هُيِّئ - إذن - للقيام بما أَوْجَبَ اللهُ وفَرَض، وأعني بالتهيئة:

- **أولاً:** إعداد النفوس بصِدْق الاعتقاد، والرَّغْبة الصَّادقة في شَرَف الجهاد في سبيل الله.
- **ثانيًا:** توفُّر الدوافع التي جعلت من الجهاد واقِعًا تُرابِطُ من أجله النفوسُ، وليس متوقَّعًا يُتَرخَّصُ فيه بأدنى قَدْر من التراخي أو التقاعد أو الاعتذار.
- **ثالثًا:** وقد كان لحديث القرآن المجيد، وتَنَزُّلِه في هذه الفترة بالغُ الأثر في إعلان الجهاد، وجَعْله شرفًا رفيعًا يتنافس عليه الشُّرفاءُ، لا من الكبار فحَسْب، بلْ من الصِّغار الذين كان الرسول ﷺ يُشْفِق عليهم، فلا يأذن لهم لصغر سِنِّهم، فيحملهم ذلك على البُكاء، رغبةً في شرف الجهاد وعِظَم الجزاء.
- **رابعًا:** الأُسوة الحَسَنة التي تطيب بها النفوسُ وتؤثرها، الأُسْوة برسول الله ﷺ وهو يُرى في قوله وعمله، وتُرْجى رحمةُ الله في صِدْق طاعته وحُسْن اتباعه.

والرسول ﷺ بينهم وفيهم يتلقى من أمين الوحي ما يَصُونُ به الأمانة في الأرض، والقرآن الكريم يُرى عملاً وخُلُقاً في رسول الله يُغني عن التفسير والبيان، فقد «كان ﷺ خُلُقُه القرآن» كما قالت عائشة - رضي الله عنها - يتخلَّق بخُلُقه، ولا يُرى إلاَّ صادرًا عن أَمْره، متأدبًا بأدبه.

فقد كان الرسول ﷺ هو الأُسْوة الحَسَنةُ لهم في كُلِّ شيء:

يرَوْنَه قائماً في المسجد يَؤُمُّ الناسَ ويَعظُهم..

---

(١) الأنفال: ١٠.

وفي الميدان يَقُودُ المجاهدين وينظِّم صفوفَهم..

ومع اليتيم والضعيف والخادم - في البيت وفي الطريق - يقضي حاجتهم يَرَوْنَهُ في كُلِّ شيء، في بَسْمَته النيِّرة وحقيقته الكاملة..

يَرَوْنَهُ صفحةً مُشْرقةً ليس فيها ما يُطوى أو يُنْكَر؛ لأنها بيضاءُ ناصعةٌ، نقيَّةٌ طاهرةٌ، حنيفيةٌ سَمْحَةٌ..

ولقد استوْقَفَتني شَهادةُ رجل إنجليزي وهو «باسورث سميث» أنقلها من بعض ما أوْرَدَه السيد «سليمان الندوي» في كتابه [الرسالة المحمدية] حيث يقول:

«ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء، تُنير أشعتُها كُلَّ شيء، وتصل إلى كُلِّ شيء.. لاشك أنَّ في الوجود شخصياتٌ لا نعلم عنها شيئاً، ولا نَتبيَّن حقيقتَها أبدًا أو تبقى منها أمورٌ مجهولةٌ.. بَيْدَ أنَّ التاريخَ الخارجيَّ لمحمد ﷺ نعلمُ جميعَ تفاصيله، من نشأته إلى شبابه، وعلاقته بالناس وروابطه، وعاداته، ونعلم أولَ تفكيره، وتطوره، وارتقائه التدريجي، ثُمَّ نزول الوحي العظيم عليه نَوْبَة بعد نَوْبَة.. ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته، وأن عندنا القرآن لا مثيل له في حقيقته، وفي كونه محفوظاً مَصُوناً».

إذا كان هذا وغيره من قراءة ما يُسَطَّرُ عنه أو يُقرأ، فماذا يكون شعور مَنْ آمن به ورآه وعاشره؟

لا غرابة إذًا أنْ نرى الجهادَ حين فُرضَ، كان جهادًا للنفوس قبل أن يكون قتالاً بالسيوف.

كان ثباتاً للحق وعملاً به، يُنْصَفُ المظلومُ، ويُرْدَعُ الظالم.

كان إعلاءً لكلمة الله التي أَرْسَلَ من أجلها المرسلين.

وقد عَلمَ المجاهدون أنَّهم لنْ يستطيعوا أنْ ينْصُروا الله في معركة، قبل نَصْره في أنفسهم، بتغليب أَمْره على أهوائهم.

وأيقنوا - بما علموا وتعلَّموا - أنَّهم ما لم ينتصروا بفَضْلهم، لم يَغلبُوا بقُوتهم.

من هُنا جاءت جميعُ الوقائع دالَّة على الوفاء بما جاء به القرآن الكريم، واشتملت عليه السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة.

وجاء النصرُ فيها نَصْراً لمبادئ وغاية وحكمة.

جاء رجاءً في رحمة الله وابتغاء مرضاته.

عشر سنوات قضاها الرسولُ ﷺ في المدينة قبل وفاته كانت جهاداً متواصلاً في شتى الميادين..

وكانت إعلاماً وبلاغاً للعالمين بأنَّ الرُّسُل قد خُتِمَت بخَاتم النبيين..

وقد حُفظَ الذِّكْرُ الذي نزَّله الله؛ ليُحفظ به البلاغُ الذي جاء من عند الله إرشادًا وإنذارًا للعالمين.

وقد حُفظَت رسالة الرسل - كما جاءت من عند الله - بحفظ الكتاب الذي قال الله عنه: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾**[1].

وقد جاء ذِكْرُ الكتاب مُعَرَّفاً في قوله سبحانه: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾**.

والمراد به القرآن الكريم، فـ (أل) في **﴿الْكِتَابَ﴾** للعهد، أنْزله الله بالحق مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمناً عليه، والمراد بـ (أل) في قوله **﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾** الجنس، فيشمل جميع ما سبق القرآنَ من الكُتُب المنزلة من عند الله على رُسُلِه.

---

(١) المائدة: ٤٨.

فالقرآن الكريم هو الشَّاهد المؤتَمَن عليها الذي يُرجَع إليه، ويُؤخذ بشهادته.

من ذلك يُدرَكُ أنَّ ميدان الدَّعوة إلى الله قد اتَّسَعَ، وأنَّ الله قد أعدَّ رسولَه وأعانه بالحق، ليُكَمل ويُتمِّم البُنيان الذي تآزر على إقامته جميعُ المرسلين.

وتلك هي الحقيقة التي يجب أنْ تُعْلَم، وأنَّ تبلغ للأجيال المتتابعة إلى أنْ يرِثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

وهي أنَّ الدين - من عند الله الواحد الأحد - هو الدين الذي أوحى الله به إلى كُلِّ نبيٍّ ورسول، وذاك جوهره وتلك حقيقته:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(١).

والأنبياء جميعاً مأمورون أن يُقيموه كما جاء من عند الله، ولا يتفرَّقُوا فيه

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٢).

ومَنْ يُحْسن تدبُّر القرآن الكريم يَعْرفُ حقيقة هذا الدين، وأنَّه:

التوجُّه إلى الله ربِّ العالمين في خضوع خالص لا يَشُوبُه شِرْكٌ..

وفي إيمان واثِقٍ مُطمئنٌ بكُلِّ ما جاء من عند الله، على أيِّ لسان، وفي أيِّ زمان أو مكان..

دون تَمَرُّدٍ على حُكْمه، ودُون تمييز شخصيّ أو طائفيّ أو عُنصريّ، أو تَفَرقَه في اعتقاد بين كتاب وكتاب من كُتُب الله، أو بين رسول ورسول.

---

(١) الأنبياء: ٢٥.
(٢) الشورى: ١٣.

وهذا ما أُمِرَ به المسلمون، وما حُفِظَ في القرآن الكريم: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**(١).

وفي سبيل إبلاغ الناس بهذا الحق الذي أُمِرَ الرسولُ ﷺ بتبليغه، لقِيَ الرسولُ ﷺ ما لَقيَه في مكة، وآمن بدعوته مَنْ آمن.

وقد أقام فيها ثلاثةَ عشرَ عاماً حتَّى أذن الله له بالهجرة إلى المدينة المُنَوَّرَة، وأذن له في القتال الذي لم يكن مأذوناً له فيه من قبل، فاتَّسَعَ مجال العمل وتعددت جوانبه وكانت الفترةُ التي سبقت من قَبْلُ إعداداً للنفوس التي تتحمل هذه التَّبعات، وتُؤدِّي ما فَرض اللهُ عليها من واجبات.

وكان الأَصْلُ في ذلك كُلِّه «قضيةَ الإيمان».

وهي قضيةٌ جامعة شاملة، قضيةُ فردٍ، ومجتمع، ودولة..

قضيةُ سِلْمٍ، وحرب.. قضيةُ جهاد وبَذْل..

قضية أمان وأَمْن للناس في الدنيا والآخرة، لا يغيبُ عنها شأن أيُّ شأن.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

فهي ليستْ بمَعْزَلٍ عن الحياة، وإنمَّا هي الحياةُ نفسها، مُمَثَّلة في اتِّساق الإنسان مع هذا الكون وعدم نُفوره منه.

وهي تقومُ في المصنع وفي المتجر بالصِّدق والأمانة، وفي المزرعة بالصَّبْر وحُسْن الرِّعاية، وفي كلِّ عمل بيَقَظة الضَّمير وخَشْية الخالق.

---

(١) البقرة: ١٣٦ . (٢) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

وهي لهذا تقترنُ باليوم الآخر الذي يجب استحضاره لأنَّه واقعٌ لاشك فيه، ولا يمكن لدنيا الناس أن تَصلُح إلاَّ باليقين به والاستعْدَادِ لَهُ.

ولهذا رأيْنَا الرسولَ ﷺ حين بايع الأنْصَار في العقبة، جعل الجزاءَ والوفاءَ بكُلِّ ما عَاهَدَ عليه مُقْترناً بالجزاء في الآخرة، فقال: «فإنْ وَفَّيْتُم فَلَكُمُ الجَنَّةُ».

وقد بايعهم رسولُ الله في العقبة الأخيرة على حَرْب الأحمر والأسود، فأخَذَ لنفسه، واشترط على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

من هُنا نستطيعُ أن نَعْرف ما اقترن بالهجرة إلى المدينة المُنَوَّرَة من جهد وجهاد، وما وقع من مواجهة واستشهاد، وكيف قُوبلت التَّبعات والتَّضحيات بالرضى عن الله، وإيثار مرضاته، حتَّى وجدناهم يُعلنون رضاهم عن ربِّهم وهم يُغْدَرُ بِهِمْ ويُقْتَلُون.

في مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

«جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ، يَتَعَلَّمُونَ وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ[1] وَلِلْفُقَرَاءِ فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا لَهُمْ، فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ، فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا، وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»[2].

*****

---

(١) أهل الصفة: قوم من الصحابة قدموا فقراء على رسول الله ﷺ وما لهم أهل ولا مال، فبُنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ فقيل لهم أهل الصفة.

(٢) مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٥٢٢.

غزوات وسرايا انبَعَثَتْ من المدينة المُنَوَّرَة أو وقَعَتْ فيها وأنْزَلَ الله فيها قُرآناً

١ - **سَرِيَّة[1] عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة:** في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، وقد أنْزَلَ الله بما وقع فيها قُرآناً.

٢ - **غزوة بَدْر الكُبْرَى:** في رمضان من السنة الثانية من الهجرة وقد أنزل الله فيها سورةَ الأنفال، وآياتٍ من سورة آل عمران.

٣ - **غزوة بني قينقاع:** في منتصف شوال من السنة الثانية من الهجرة، وقد أنزل الله فيها قُرآناً الآيتين ١٢، ١٣ من آل عمران.

٤ - **غزوة أُحُد:** في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، وقد أنزل الله فيها ستين آية من سورة آل عمران.

٥ - **غزوة حمراء الأسد:** في الثالثة من الهجرة شوال، وقد أنزل الله فيها الآية ١٧٢ من سورة آل عمران.

٦ - **غزوة بني النَّضير:** في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد أنزل الله فيها سورةَ الحشر.

٧ - **غزوة المُرَيْسِيع (غزوة بنى المصطلق):** في شعبان من السنة الخامسة، وقد أنزل الله فيها آيات من سورة النُّور، وسورة المنافقون.

٨ - **غزوة الأحزاب (الخندق):** في شوال من السنة الخامسة من الهجرة، وقد أنزل الله فيها آيات من سورة الأحزاب.

---

(١) سَمَّى المؤرخون ما خرج فيه الرسول ﷺ بنفسه «غزوة» حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيها أحد قواده «سريَّة».

٩ - **غزوة بني قُرَيْظَة:** في شوال من السنة الخامسة من الهجرة وفيها أنزل الله الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة الأحزاب.

١٠- **غزوة الحُدَيْبِيَة:** في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة وقد أنزل الله فيها سورة الفتح.

١١ - **غزوة خيبر:** في محرم من السنة السابعة من الهجرة، وفيها أنزل الله الآية ٢٧ من سورة الأحزاب.

١٢- **غزوة ذات الرقاع:** في ربيع الثاني من السنة السابعة من الهجرة، وفيها أنزل الله الآيتين ١٠٢، ١٠٣ من سورة النساء.

١٣- **عمرة القضاء:** في ذي القعدة من السنة السابعة، وفيها أنزل الله الآية ٢٧ من سورة الفتح.

١٤- **فَتْحُ مكة:** في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، وفيه أنزل الله الآيات ١ - ٤ من سورة الممتحنة، وسورة النصر كاملة.

١٥ - **غزوة حُنَيْن:** في شوال من السنة الثامنة من الهجرة، وفيها أنزل الله الآيتين ٢٥، ٢٦ من سورة التوبة.

١٦ - **غزوة تَبُوك:** في رجب من السنة التاسعة، وفيها أنزل الله مُعظمَ آيات سورة التوبة.

*****

هذا وإنَّ غزوات الرسول ﷺ أكثر من ذلك، فقد روى مسلمٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَزِيدَ خَرَجَ يَسْتَسْقِي بِالنَّاسِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ اسْتَسْقَى.

قَالَ: فَلَقِيتُ يَوْمَئِذٍ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ. وَقَالَ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ غَيْرُ رَجُلٍ أَوْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ رَجُلٌ. قَالَ: فَقُلْتُ: كَمْ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: تِسْعَ عَشْرَةَ، فَقُلْتُ: كَمْ

غَزَوْتَ أَنْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: سَبْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً. قَالَ: فَقُلْتُ: فَمَا أَوَّلُ غَزْوَةٍ غَزَاهَا؟ قَالَ: ذَاتُ الْعُسَيْرِ أَوِ الْعُشَيْرِ.

قال الإمام النووي:

«اختلف أهل المغازي في عدد غزواته ﷺ وسراياه فذكر ابنُ سعد وغيرُه عددَهُنَّ مُفَصَّلات على ترتيبهنَّ، فبَلَغَتْ سبعاً وعشرين غزاة، وستّاً وخمسين سَرِيَّة. قالوا: قاتَلَ في تسع من غزواته، وهي: بَدْر، وأُحُد، والمرَيْسيع والخندق، وقُرَيْظَة، وخيبر، والفتح، وحُنَيْن، والطائف. هكذا عَدُّو الفتح فيها، وعلى هذا قول من قال: فُتحَتْ مكةُ عُنْوَة»(١).

ونستطيع - ونحن نرى آيات الله تُتْلَى في وقائع وأحداث - أنْ نعرف مُوقنين أنَّ القرآن يُتلى في آيات، وتُرى دَلالته في نفوس الناس وأعمالهم، فلا يقولون مالا يفعلون ولا يفعلون إلاَّ بما يُوقنون.

ومن ذلك يعرفون أنَّ كلمة الله - بالنسبة لهم - هداية ورحمة، يهتدون بها دون حَرَج أو تَكَلُّف، وأنَّها يُسْرٌ لا عُسْرَ في فهمها ولا حَرَجَ في العمل بها؛ لأنَّها ليست في صحائف يمكن أن تُطوى أو تَبلى، وإنما هي في فطرة الخَلْق، يُوقنُ بها حتَّى مَنْ جَحَدَها.

وكَمْ من أُمور قد يَجْحَدها الإنسانُ لغَلَبَة الهوى، وتَسْتَيْقنُها النفوسُ، ويَثْبُت يقينُها حين ترى دلالتها في واقع.

والرسل - صلوات الله عليهم - قد تضيق صدورُهم بما يَسمعون من تكذيبهم ويحزنون، ولكنَّ الله يُطمئنُهُم أنَّ المُتَقَوِّلين عليكم لا يُكذبونكم وأنَّ جُحودهم لرسالتكم ليس مَنْشَؤُه شيئاً فيكم أو فيما تَدْعُونَهم إليه، وإنَّما مَنْشَؤُه ظُلمهم لأنفسهم.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٢/١٩٥.

والإنسان حين يظلم نفسَه يجحد - أوَّل ما يجحد - هداية ربِّه ونِعْمَةَ خالقه، مع أنَّ ذلك مما لا يُمكن أنْ يُجْحَدُ أو يُنْكَرُ.

فالله عز وجل إذا خاطب الإنسانَ بخَلْقه ونعْمَته - وذلك فيه وليس بعيداً عنه - فكيف يَجْحَدُ ما هو واقعٌ فيه، ويُنكرُ ما هو سابغٌ عليه؟!

إنَّ ذلك إذا وقعَ كان ظُلْمًا أيَّ ظُلم، ولا خلاص منه إلاَّ بمداولة الأيام التي تُرَى فيها مصارعُ المكذبين ومنَّةُ الله على المستضعفين:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(١).

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾(٢).

فإنَّ سُنَّة المداولة بين الناس لنْ تُبقى أحداً على دوام حال، بل هي المِنَّةُ من الله التي لا تجعل الناس يُفتنون أو يهلكون دون تَبْصرَة لهم بأنَّ ما في أيديهم لا يدوم، وأنهم - بما يملكون أو يُحرزون - ذاهبون.

ولذا كانت الوقائع والأحداث خيراً لهم؛ من حيث تبصرتُهم ومراجعتُهم لأنفسهم ويقينهم - وهم يَرَوْنَ - أنَّ كُلَّ مَنْ وُلدَ سَيَمُوتُ، وأنَّ الذي لمْ يَلدْ ولَمْ يُولَدْ هو الحي الذي لا يموت، فلا تَوكُل إلاَّ عليه، ولا فرار منهُ إلاَّ إليه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾(٣).

---

(١) الأنعام: ٣٣.
(٢) القصص: ٥، ٦.
(٣) الفرقان: ٥٨.

فتكون الوقائع والأحداث عاملةً في هداية النفوس وتبصرتها، وأنَّ العقبات داعيةٌ إلى محاسبة النفوس على ما عملت، حاثَّة لها على التغيير الذي لابُدَّ منه لإدراك حكمة الخَلْق وغاية الوجود.

من هُنَا لا نَرَى دوامَ لَيْلٍ دون نهار، ولا نَرَى دوامَ نهارٍ بلا لَيْل، بل نَرَى الليلَ والنهارَ - في حكمة الخَلْق - قد جعلهما الله تذكرة للخلق:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(١).

فمَنْ أراد أن يَذْكُرَ أو يَشْكُرَ فتلك آيات التبصرة قائمة له وعاملة فيه.

وا عجباً أنْ تكون إرادة مخلوق في غير ذكْرٍ أو شُكْرٍ، وهو يرى المصائرَ والعواقبَ ويُبْصرُ الأعمالَ مُقْتَرِنَة بالنتائج!

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٢).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣).

على ضوء ذلك نعلم أن الوقائعَ التي جرَت من قبلُ، وأنزل الله فيها قُرآناً قد حُفظَتْ لنا ولِمَنْ جاء بعدَنا، مُقترنةً بأحداثٍ مشفوعةً بآياتٍ مبينات.. بلاغًا وإنذارًا لتقطع الحُجَّة، وتُبطلَ المعذرة.

ولا عُذْرَ بعد بَيَان، ولا حُجَّةَ بعد إعْذارٍ وإنذار.

*****

---

(١) الفرقان: ٦٢.
(٢) الأنعام: ١٠٤.
(٣) فصلت: ٤٦.

غزوة بَدْر الكُبْرَى

في رمضان سنة ٢ هـ

غزوة بدر الكبرى هي أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، خاضها المسلمون بعد الهجرة بقيادة رسول الله ﷺ ضد مشركي مكة[١].

فمنذ هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة بإذن ربِّه، ومعه أولئك الذين عرفوا حكمةَ خلْقهم، وعلَّمهم رسولُهم ﷺ ما لم يكونوا يعلمون من أسباب الفلاح والفَوْز في عاجل أمرهم وآجله.

عرف أصحابُه ما يستوجبه ذلك من جهاد صادق موصول لا ينقطع، وقد حفظوا ما وُصف به المؤمنون في مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[٢].

حَفظَ المهاجرون ذلك وصدَقوا، كما حَفظَ الأنْصار ذلك وأفلحوا، فرَضِيَ الله عنهم جميعًا وأرضاهم.

وها نحنُ نراهم في أُخوَّةٍ بارَّةٍ صادقة، لم يعرف التاريخ لها سبيلاً.

نراهم وقد جمع الله شملَهم في المدينة المُنَوَّرَة يستجيبون لله وللرسول في كُلِّ ما يدعوهم إليه، وقد أيْقَنُوا أنهَّم إنما يُدْعَوْنَ لما يُحييهم حياة عزٍّ وكرامة، وتجنبوا ما يُميتُهُم الموتَ الذي لا يقْبَلُه حُرٌّ كريمٌ.

وكان من فقههم لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٣] أن أوقفوا أنفسَهم على نُصْرة الحق الذي لا نجاة إلاَّ

(١) أنزل الله في بدر سورةَ الأنفال، وتُسَمَّى «سورةُ بَدْر».
(٢) الحجرات: ١٥.
(٣) الأنفال: ٢٤.

بالوفـاء له والرِّضَى به، وهـم يسـمـعـون قـولَ رسـولهم: «انْصُـرْ أَخَـاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا».

ولما قال قائل: نصرته مَظْلُومًا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؟

قَالَ ﷺ: تَحْجُزُهُ، أو تَمْنَعُهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ.

وذاك هو الحديثُ كما رواه البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ إِن كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(١).

أرَأَيْتَ كيف تَحَوَّل العربيُّ الذي كان لا يستجيب لنُصْرة مظلوم إلاَّ في دائرة العصبية الجاهلية التي تَقُودُ صاحبَها إلى نُصْرَة قريبه ولو كان ظالما؟!

حَمِيَّةٌ جاهليةٌ تُسيطرُ على العالم حين يغيبُ الوفاءُ للحَقِّ والقيامُ بالقسط، لكننا - هُنا - في صُحْبة مَن أرْسلَهُ الله رحمة للعالمين.

نرى العربيَّ يتحوَّل هذا التَّحوُّل الذي يُقامُ به أَمْنٌ، ويَسُودُ به سلامٌ، حين يطلب الإجابة من رسول الله ﷺ في أَمْرٍ ذي شأن:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ - أي أخبرني - إن كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟

فأجابه الرسول ﷺ إجابةً يجب أن تُعرف وتُذْكَر، وأن تَسُودَ دلالتها في تحقيق السَّلام والأمن للعالمين.

«تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

وهل يكون أَمْنٌ بغير ذلك؟!

---

(١) البخاري - كتاب الإكراه، حديث رقم ٦٤٣٨.

وهل يُرى بين الناس سلامٌ والظُّلمُ يَسُودُ ويَقُودُ، ويُغري القويَّ معه بالبَغي والاستبداد؟!

إنَّ الرسول ﷺ يأمر بنَصْر المظلوم ولو كان من غيرنا، ويأمُرُ بالأخذ على يد الظالم ولَو كَانَ منَّا.

وتلك آياته في كتابٍ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١] والآية مَدَنِيَّة والسورة مَدَنِيَّة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢] والآية مَدَنِيَّة والسورة مَدَنِيَّة.

ولا يَخْفَى على أحدٍ من الخَلْق كيف أُخرجَ الرسولُ ﷺ من مَكَّة المُكَرَّمة وهو يقول فيما قال عن مكة: «ما أطيبك من بلدة وأحبك إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك»[٣].

ونعرف ما لَقيَه أصحابُه من عَنَت وظُلم وجَوْر، حتَّى هاجروا إلى الحبشة وانتهى أمرُهم بالهجرة إلى المدينة، حتَّى جاء الإذن من الله لهم بأنْ يرُدُّوا عن أنفسهم، وأنْ يجاهدوا في سبيل إرضاء خالقهم الذي ناداهم بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداءَ لله، وناداهم بأن يكونوا قَوَّامين لله شهداء بالقسط.

---

(١) النساء: ١٣٥

(٢) المائدة: ٨

(٣) صحيح ابن حبان ٩/٢٣، حديث رقم ٣٧٠٩،

ونهاهم - وهم يقومون بذلك - أنْ يحملهم العداءُ من غيرهم - مهما بلغ - أنْ يحيدوا عمَّا أُمروا به من القيام بالقسط والوفاء بالعهد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

على ضوء ذلك وفي نُوره نتدَّبرُ ما كان في الوقائع والأحداث، ونرى ما أُنزل فيها من آيات لتكون خطاباً وعظَةً وعبْرَةً وبلاغاً للعالمين؛ لأنها - كما قلتُ كثيرًا - ليست أحداثاً تاريخية مَضَتْ وانْقَضَتْ، وليست وقائعَ تُذْكَرُ في مكان أو زمان فحسب.

وإنما هي وقائع يُرى - في صميمها - رسولُ السماء، الرُّوح الأمين، جبريل عليه السلام، يُرَى يتنزَّل أكثر مما يتنزَّل مع الوقائع بوحي ربِّه وإذنه؛ ليقتَرن تدَبُّر الآيات بوقوع ما يصدقُها من وقائع وأحداث؛ وليُعلم أنَّ آيات القرآن الكريم ليست بمَعْزَل عن واقع، وأنَّ تدبّرها مُيَسَّرٌ لَمَنْ آثرَ الحقّ وابتغاه، وأنَابَ مُخْلصاً إلى الله واتَّقاه.

*****

إنَّ غزوة بَدْر ليست أولى الوقائع بعد الإذن من الله بما أذن به في قوله:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(٢).

---

(١) المائدة: ٨.

(٢) الحج: ٣٩ - ٤١.

والآيات مَدَنِيَّة في سورة مَدَنِيَّة، وهي سورة الحج الذي فُرِضَ - حين فُرِضَ - والمسلمون مع رسول الله ﷺ في المدينة المُنَوَّرَة.

وإذن فغزوة بَدْر - التي نحن بصددها - ليست أُولى الوقائع، وإنْ كانت من أكبرها وأعظمها، وليست وحدَها التي حَظيت بوحي الله يتنَزَّل به الرُّوح الأمين.

بلْ إنَّ جبريلَ - في سماء المدينة - يتَنَزَّلُ بأمر ربِّه مرَّات ومرَّات؛ ليعرف الناسُ أنَّ أحداث الأرض ليست بمَعْزَل عن وحْي السماء.

ففي لحظات ولمحات يُبَلَّغ الوحي، وتُرى الإجابة والاستجابة والسَّمْعُ والطاعة ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[1].

والآيتان مدنيتان في سورة مَدَنِيَّة.

الغزوات والسرايا قبل بدر:

لقد سُبِقَت غزوةُ بَدْر بما سُبِقَتْ به من تنظيم شئون المدينة وإعدادها لتكون عاصمة الإسلام وقلبَه النابض، وقد بارك الله فيها، وبارك في كُلِّ شيء يتَّصلُ بها.

وقد آنَ لنا أن نراها وقد اكتمل شأنُها في حديث القرآن وفي بيان الرسول ﷺ بعيدًا عن قيل وقال؛ لأنها قُدسيَّةٌ ومُسلِمَةٌ، وذاك من أسمائها: المُسْلِمَةُ، والقُدْسيَّةُ، والعاصمةُ، والمخْتَارَةُ.

وكُلُّ ذلك وغيرُه، يدعونا أنْ نحفظها بحفظ القرآن، وأن نتحدثَ عنها بما صَحَّ عن الرسول ﷺ من بيان.

---

(١) النور: ٥١، ٥٢.

وذلك ما قَصَدْتُه حين عَزَمْتُ أنْ أكتُبَ عن المدينة المُنَوَّرَة.. وقائعُها وفضائلُها في حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المُطَهَّرَة.

أمَّا ما وقع قبل غزوة بَدْر الكُبْرَى من وقائع في مغازي الرسول ﷺ وبُعوثه، فهي:

١ - **سَرِيَّة سيف البحر:** كان أوَّل لواء عقده الرسول ﷺ لحمزة بن عبدالمطلب في شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من هجرته.

بعثه الرسول ﷺ في ثلاثين رجلاً من المهاجرين خاصة؛ يعترض عيرًا لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاث مئة رجل، فبلغوا سِيْفَ البحر(١) من ناحية العيص(٢) فالْتَقَوْا واصطفُّوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجُهني - وكان حليفًا للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء حتَّى حَجَزَ بينهم فلم يقتتلوا.

٢ - **سَرِيَّة رابغ:** ثُمَّ بعث الرسول ﷺ عبيدةَ بن الحارث بن المطلب في سَرِيَّة إلى بطن رابغ(٣) في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة، وكانوا في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري.

فلقي أبا سفيان بن حرب وهو في مائتين على بطن رابغ، وكان بينهم الرَّمْيُ، ولم يَسُلُّوا السيوف، ولم يصطفُّوا للقتال، وكان سعدُ بن أبي وقاص فيهم، وهو أول من رَمَىَ بسهم في سبيل الله، ثُمَّ انصرف الفريقان.

٣ - **سَرِيَّة الخرَّار:** ثُمَّ بعث رسول الله ﷺ سعدَ بن أبي وقاص إلى الخرَّار(٤) في ذي القعدة، على رأس تسعة أشهر في عشرين راكبًا، يعترضون عيرًا لقريش، وعَهِدَ أن لا يُجاوزوا الخَرَّار، فخرجوا على أقدامهم فكانوا يكمنُون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتَّى صبحوا المكان صبيحة خمس، فوجدوا العيرَ قد مرَّت.

---

(١) سيف البحر: شَطُّه وما كان عليه من المدن.
(٢) العيص: مكان بين ينبع والمروة من ناحية البحر الأحمر.
(٣) بطن رابغ: واد من الجحفة على عشرة أميال منها.
(٤) الخرَّار: موضع قُرب الجُحْفَة.

٤ - **غزوة الأبواء (ودّان)**: ثُمَّ غزا الرسولُ ﷺ غزوةَ الأبواء، ويُقال لها ودَّان[١] وهي أول غزوة غزاها بنفسه، وكانت في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مُهَاجَرِه.

وحمل لواءه حمزةُ بن عبدالمطلب، واستخلف على المدينة سعدَ بن عباده، وخرج في المهاجرين خاصة يعترض عِيرًا لقريش، فلم يَلْقَ كَيْداً.

وفي هذه الغزوة وادَعَ[٢] عمرو بن مَخْشِيٍّ الضَّمْرِي - وكان سيِّد بني ضَمْرة في زمانه - على ألا يَغْزُو بني ضَمْرة ولا يغزوه، ولا أن يُكثِّروا عليه جَمْعًا، ولا يُعينوا عليه عَدوًّا، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وكانت غيبتُه خمس عشرةَ ليلة.

٥ - **غزوة بواط**: ثُمَّ غزا رسولُ الله ﷺ بُواطَ[٣] في شهر ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهراً من مَهَاجَرِه، وحمل لواءه سعدُ بنُ أبي وقاص، واستخلف على المدينة سعدَ بن مُعَاذ، وخرج في مائتين من أصحابه، يعترض عِيرًا لقريش فيها أُميَّةُ بنُ خلف الجُمحَى، ومئة رجل من قريش وألفان وخمس مئة بعير، فبلغ بُواطاً، فلم يَلْقَ كَيْداً فرجع.

٦ - **غزوة سفوان**: ثُمَّ خرج ﷺ على رأس ثلاثة عشر شهراً من مُهَاجَرِه يَطلب كُرْز بن جابر الفهري، وحمل لواءه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة.

وكان كُرزُ قد أغار على مسرح المدينة فاستَاقَهُ، وكان يرعَى بالحِمى، فطلبه رسولُ الله ﷺ حتَّى بلغ وادياً يُقَال له «سَفَوَان» من ناحية بَدْر، وفاته كُرز ولم يلحقه، فرجع إلى المدينة.

---

(١) ودَّان: موضع بين مكة والمدينة وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً، والأبواء موضع بالقرب من ودان.
(٢) وادَعَ: أي صالَحَ.
(٣) بُواط: جبل من جبال جهينة بناحية رضوى.

٧ - **غزوة ذي العشيرة:** ثُمَّ خرج رسولُ الله ﷺ في جُمَادي الآخرة على رأس ستة عشر شهراً، وحمل لواءَه حمزةُ بن عبدالمطلب، واستخلف على المدينة أبا سَلَمَة بن عبدالأسد المخزومي، وخرج في خمسين ومئة، ويُقال: في مائتين من المهاجرين، ولم يُكره أحداً على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها(١) يعترضون عِيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبرُ بفُصُولها(٢) من مكة - فيها أموالٌ لقريش.

فبلغ ذا العُشَيَرَة(٣) فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العيرُ التي خرج في طلبها حين رجَعَتْ من الشام فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

٨ - **سَرِيَّة نخلة:** ثُمَّ بعث الرسولُ ﷺ عبدَ الله بن جحش الأسدي إلى نخلةَ في رجب، على رأس سبعةَ عشرَ شهراً من الهجرة، في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كُلُّ اثنين يعتقبان على بعير، فوصلوا إلى بطن نخلة، يرصدون عِيراً لِقُريش، وفي هذه السَّرِيَّه سمَّى عبدالله بن جحش «أميرَ المؤمنين» وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا، وأمَرَه أن لا ينظُر فيه حتَّى يسيرَ يومين، ثُمَّ ينظر فيه.

ولما فتح الكتابَ وجد فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا، فَامْضِ حتَّى تنزلَ نَخْلَةَ بين مكة والطائف، فَتَرصُدَ بها قريشاً، وتَعْلَم لنا من أخْبارِهم».

فقال: سَمْعاً وطاعةً.

وأخْبَرَ أصحابَه بذلك، وأنَّه لا يَستكْرِههم، فمَنْ أحبَّ الشهادة فَلْيَنْهَضْ، ومن كَرِه الموتَ فليرجعْ، وأما أنا فَنَاهض.

---

(١) يعتقبونها: أي يخلف بعضُهم بعضاً في ركوبها.
(٢) بفُصُولها: أي بخروجها.
(٣) وقيل: العُشيراءُ بالمدِّ، وهي بناحية ينبع.

فَمَضَوْا كُلُّهُم، فلمَّا كان في أثناء الطريق، أضَلَّ سعدُ بن أبي وقاص، وعُتبةُ بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طَلَبه.

وَبَعُدَ عبدالله بنُ جَحْشٍ حتَّى نزل بنخلة، فَمرَّت به عِيرٌ لقريش تحمل ذَبيباً وأَدَماً وتجارةً فيها عمرو بن الحَضْرَمَيّ، وعثمان ونوفل، ابنا عبدالله بن المغيرة، والحَكَمُ بن كيسان، مولى بني المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا:

نحن في آخر يوم من رجب الشهر المحرم، فإنْ قاتلناهم انتهكنَا الشهرَ الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحَرَم.

ثم أجمعوا على مُلاَقاتهم، فرمى أحدُهم عمروَ بن الحضرمي فقتله، وأسَرُوا عثمانَ والحكم، وأَفْلَتَ نوفل.

ثُمَّ قدموا بالعير والأسيرَيْن، وهو أول خُمُس في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرَيْن في الإسلام.

وأنكر رسولُ الله ﷺ عليهم ما فعلوا.

واشتد تعنُّت قريش وإنكارُهم ذلك، وزعموا أنهم وجدوا مَقَالاً، فقالوا: قد أحَلَّ محمدٌ الشهرَ الحرام!

واشتدَّ على المسلمين ذلك، حتَّى أنزل الله عز وجل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾(١) وهي مَدَنِيَّة.

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم - وإنْ كان كبيراً - فما ارتكبتموه أنتم من الكُفْر بالله، والصَّدِّ عن سبيله وعن بيتِه، وإخراجِ المسلمين الذين هم

---

(١) البقرة: ٢١٧.

أهلُه منه، والشركِ الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به، أكبرُ عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

سبب الغزوة:

ولما كان في رمضان من هذه السَّنَة بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ العير المُقبلة من الشام لقريش صُحبةَ أبي سفيان، وهي العير التي خرجوا في طلبها لَمَّا خرجت من مكة، وفيها أموالٌ عظيمة لقريش[1].

فندب رسولُ الله ﷺ الناسَ للخروج إليها، وأمر مَنْ كان ظَهْرُه حاضراً بالنهوض، ولم يحتَفِل لها احتفالاً بليغاً؛ لأنه خرج مُسرعاً في ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلاَّ فرسان: فَرَسٌ للزبير بن العوَّام، وفَرَسٌ للمقداد بن الأسود الكِنْدي، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد.

جاء في مسند الإمام أحمد من حديث ابن مسعود قَالَ:

«كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ - أي يتعاقبون - كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَقَالا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ. فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلاَ أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا»[2].

الرسول ﷺ يستشير أصحابَه:

وسار رسول الله ﷺ إلى بَدْرٍ[3] وكان قد بلغه خروجُ قريش، فاستشار أصحابه، فتكلَّم المهاجرون، فأحسَنوا، ثُمَّ استشارهم ثانياً، فتكلَّم المهاجرون، ثُمَّ استشارهم ثالثاً، ففهمت الأَنْصَار أنَّه يَعْنيهم.

---

(١) كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ألف بعير موقرة بالأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهب، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً.

(٢) أحمد - مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٣٧٠٦، ٣٧٦٩، ٣٨٠٧.

(٣) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء.

فبادر سعدُ بن مُعَاذ فقال: يا رسول الله، كأنك تُعَرِّضُ بنا؟

وكان إنَّما يَعْنيهم؛ لأنهم بايعوه على أنْ يَمْنَعُوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلمَّا عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم.

فقال له سعدٌ: لعلَّك تَخْشَى أنْ تكون الأَنْصَار ترى حَقّاً عليها ألا ينصُروك إلاَّ في ديارها؟! وإنِّي أقولُ عن الأَنْصَار، وأُجيب عنهم:

فاظْعَنْ حيث شئْتَ، وصِلْ حَبْلَ مَنْ شئْتَ، واقْطَعْ حَبْلَ من شئْتَ، وخُذْ من أموالنا ما شئْتَ، وما أخَذْتَ منَّا كانَ أحبَّ إلينا ممَّا تركْتَ، وما أمَرْتَ فيه من أمْرٍ فأمرُنا تَبَعٌ لأمْرك، فوالله، لئن سرْتَ حتَّى تَبْلُغَ البَرْكَ مِنْ غمدَان، لَنَسيرَنَّ مَعك، ووالله لو اسْتَعْرَضْتَ بنا هذا البحر خُضْنَاه معك.

وقال له المقدادُ:

لا نقول لك كما قال قومُ موسى لموسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾(١) ولكنا نُقاتل عن يمينك، وعن شمالك، ومن بين يديك، ومن خلفك.

فأشْرَقَ وجهُ رسول الله ﷺ وسُرَّ بما سمع من أصحابه، وقال:

«سيروا، وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطَّائفتين، وإني قد رأيت مصارعَ القوم»

أخرج البخاري من حديث ابْنَ مَسْعُودٍ قال:

«شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَاد بْنِ الأَسْوَد مَشْهَداً لأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا**﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ، وَسَرَّهُ قَوْلُهُ»(٢).

---

(١) المائدة: ٢٤ .

(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٦٥٨.

أبو سفيان يُنقذ العير:

أما أبو سفيان فقد لحِقَ بساحل البحر، ولمَّا رأى أنَّه قد نجا وأحْرَزَ العير كتب إلى قريش: أن ارجعوا فإنكم إنمَّا خرجتُم لِتُحْرِزوا عِيركم.

فأتاهم الخبرُ وهم بالجحفة[١] فَهَمُّوا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتَّى نَقْدُمَ بدراً، فنُقيم بها، ونُطْعِمَ مَنْ حَضَرَنا من العرب، وَتخافُنَا العربُ بعد ذلك.

فأشَار الأخْنَسُ بن شُريق عليهم بالرجوع، فَعَصَوْهُ، فرجع هو وبنو زُهرة، فلم يَشْهد بَدْراً زُهريٌّ، فاغتبطت بنو زُهْرَةُ بَعْدُ برأي الأخْنَس، فلمْ يزَلْ فيهم مُطَاعاً مُعَظَّماً.

وأرادت بنو هاشم الرُّجُوع، فاشتدَّ عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقُنا هذه العصابة حتَّى نرجعَ.

الرسول ﷺ يناشد ربَّه:

فساروا، وسَار رسولُ الله ﷺ حتَّى نزل عشيّاً أدنى ماء من مياه بَدْر، فقال ﷺ: أشِيرُوا عَلَيَّ في المَنْزِل.

فقال الحُبَابُ بن المنذر: يا رسول الله، أنا عَالِمٌ بها وبِقُلُبِهَا[٢] إنْ رأيتَ أنْ نَسيرَ إلى قُلُبٍ قد عَرَفنَاها، فهي كثيرة الماء عَذْبة، فننزل عليها، ونَسْبِقَ القومَ إليها، ونُغَوِّر ما سواها من الماء.

فلمَّا طلع المشركون وتراءى الجَمْعَان، قال رسول الله ﷺ:

اللهم هذه قريشٌ جاءت بِخُيَلائها وَفخْرها، جاءت تحَادُّكَ وتكذِّبُ رسولك

وقام ورفع يديه، واستَنْصَرَ ربَّه، وقال:

---

(١) الجُحفة: قرية كبيرة على طريق المدينة، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، فإن مروا بالمدينة فميقاتهم ذو الحليفة.

(٢) قُلُب: جمع قليب وهو البئر.

اللهم أَنْجِزْ لي مَا وَعَدتَني، اللهم إنِّي أَنشُدُك عهدَك ووعدَك.

فالتزمه(١) الصِّديقُ من ورائه، وقال:

«يا رسول الله، أَبْشِر؛ فوَالَّذي نفسي بيده، لَيُنْجِزَنَّ اللهُ لَكَ مَا وَعَدَك».

وأخرج البخاريُّ من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِي اللَّه عَنْهمَا - قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ».

فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾(٢).

واسْتَنْصَرَ المسلمون اللهَ، وأخْلَصُوا له، وتضرعوا إليه، فأوحى الله إلى ملائكته: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**﴾(٣).

وأوحى الله تعالى إلى رسوله: ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾(٤).

وبات رسولُ الله ﷺ يُصَلِّي إلى جذع شجرة هناك، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

لَمَّا تَراءَى الجمعان:

لَمَّا أصبح المسلمون أقبلت قريش في كتائبها، واصطفَّ الفريقان، فمشى حكيم بن حزام، وعتبةُ ابن أبي ربيعة في قريش أنْ يرجعوا ولا يُقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل، وجرى بينه وبين عتبة كلامٌ، وأمَرَ أبو جهل أخا عمرو بن

---

(١) التزمه: أي ضمَّه إليه.

(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٩٩، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٤٩٩. والآية من سورة القمر رقم ٤٥.

(٣) الأنفال: ١٢.

(٤) الأنفال: ٩.

الحضرمي أنْ يطلبَ دَمَ أخيه عمرو، فكشف عن إسْتِه[1] وصرخ: واعمراه، فحمى القوم ونَشَبت الحرب.

وعدَّل رسول الله ﷺ الصفوفَ، ثُمَّ رجع إلى العريش[2] هو وأبو بكر خاصَّة.

وقام سعدُ بن مُعَاذ في قوم من الأَنْصَار على باب العريش يَحْمُونَ رسول الله ﷺ وخرج عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليد بن عُتبة يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأَنْصَار: عبدُ الله بن رواحة، وعوفٌ، ومعوِّذٌ ابنا عفراء فقالوا لهم: من أنتم؟

فقالوا: من الأَنْصَار.

قالوا: أَكْفَاءٌ كِرَامٌ. وإنمَّا نُريد بني عَمِّنَا

فبرز إليهم عليٌّ، وعبيدةُ بن الحارث، وحمزةُ.

فَقَتَل عَلِيٌّ قِرْنَه الوليد، وقتل حمزةُ قِرْنه عُتبة، وقيل: شيبة، واختلف عبيدةُ وقِرْنُه ضربتين، فكرَّ عليٌّ وحمزةُ على قِرْن عبيدة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قُطِعَت رجلُه، فلم يَزَل ضَمِناً[3] حتَّى مَاتَ بالصَّفْراء.

اشتداد القتال ونزول الملائكة:

ثم حمى الوطيسُ، واستدارت رحى الحرب، واشتدَّ القتالُ، وأخذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهال ومناشدة ربِّه عز وجل حتَّى سقط رداؤُه عن منكبيه، فرَدَّهُ عليه الصِّديق، وقال: «بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ ربَّك، فإنّه مُنْجِزٌ لك ما وعدك».

---

(١) الإست: الدُّبُر.
(٢) العريش: ما يُسْتَظَلُّ به.
(٣) ضَمِناً: أي مُبْتَلى.

فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً واحدة، وأخذ القومَ النعاسُ في حالة الحرب ثُمَّ رفع رسولُ الله ﷺ رأسَهُ فقال: «أبْشِرْ يا أبا بكر، هذا جبريلُ على ثناياه النَّقْع»(١).

وجَاءَ النَّصْرُ، وأنزل الله جُنْدَهُ، وأيَّد رسولَه والمؤمنين، ومَنَحَهُم أكتافَ المشركين أسراً وقَتْلاً، فقَتَلُوا منهم سبعين، وأسَرُوا سبعين.

وكانت الملائكةُ - يومئذٍ - تُبادر المسلمين إلى قَتْل أعدائهم.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ - رضيَ الله عنهما -:

«بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ(٢) أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: صَدَقْتَ. ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»(٣).

وأخرج الإمام أحمد من حديث عَليٍّ رضي الله عنه قال:

جاء رجل من الأنْصَار بالعبَّاس بن عبدالمطلب أسيراً، فقال العبَّاسُ: إنَّ هَذَا - وَاللَّهِ - مَا أَسَرَنِي، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ(٤) مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهاً، عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ(٥) مَا أُرَاهُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، فَقَدْ أَيَّدَكَ اللَّهُ تعالى بِمَلَكٍ كَرِيمٍ»(٦).

---

(١) النَّقْع: الغبار.
(٢) خُطِمَ أنفَه: أُصيب وأُوذي.
(٣) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٠٩.
(٤) الأجلح: الذي انحسر الشعر عن مقدم راسه.
(٥) البَلَق: سواد وبياض.
(٦) أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث رقم ٩٠٤، مجمع الزوائد ٦/٧٦.

وَأَسَرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثلاثة: الْعَبَّاس، وعَقِيل، وَنَوْفَل بْنَ الحَارِثِ.

استفتاح أبي جهل ومَصْرَعُه:

وفي هذا اليوم - يوم بَدْر - استَفْتَحَ[١] أبو جهل، فقال: اللهم أَقْطَعنا للرَّحم، وآتانا بما لا نَعْرفه، فأحِنْهُ الغداة[٢] اللهمَّ أيُّنا كان أحبَّ إليك، وأرضي عندك، فانْصُرْه اليوم.

فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

ولَمَّا بردت الحربُ وولَّى القومُ منهزمين، قال رسول الله ﷺ: مَنْ يَنْظُرُ لنا ما صَنَع أبو جهل؟

فانطلق ابنُ مسعود. فوجَدَه قد ضَرَبَهُ ابنا عفراء حتَّى بَرَد، فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبو جهل؟

فقال: لِمَن الدائرةُ اليوم؟

فقال: لله ولرسوله، وهل أخزاك اللهُ يا عدوَّ الله؟

فقال: وهل فوق رجُلٍ قتله قومُه؟[٤].

فقتله عبدُ الله، ثُمَّ أتى النبيَّ ﷺ فقال: قَتَلْتُه، فقال: «الله لا إله إلاَّ هو» فردَّدَها ثلاثا، ثُمَّ قال: «الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعْدَه، ونَصَرَ عبدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحده» انطلق أَرِنيه، فانطلقنا فأريتُه إيَّاه، فقال: هذا فرعون هذه الأمة.

---

(١) الاستفتاح: الاستنصار، واسْتَفْتَحَ الفَتْحَ: سأله.

(٢) الحَيْن: الهلاك.

(٣) الأنفال: ١٩ .

(٤) أي ليس عليَّ عار، فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

النبي ﷺ ينادي قتلى بدر من المشركين:

أخرج مسلم من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِك رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ: يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَف، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».

فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، كَيْفَ يَسْمَعُوا، وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا[١]؟! قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا)[٢].

وعَنْ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّه «أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلاً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ[٣] مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ، خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلاثَ لَيَالٍ».

فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا، ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا: مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلاَّ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ[٤] فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: يَا فُلانَ بْنَ فُلانٍ فُلان، وَيَا فُلانَ بْنَ فُلان، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟!

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: «يَا رَسُولَ اللَّه، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لا أَرْوَاحَ لَهَا!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ. قَالَ قَتَادَةُ: أَحْيَاهُمُ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ؛ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا»[٥].

---

(١) جَيَّفُوا: أي أَنْتَنُوا.

(٢) مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٥١٢١.

(٣) الطَّوِيُّ: البئرُ المَطْوِيَّة بالحجارة.

(٤) الرَّكِيُّ: جِنْسٌ للرَّكِيَّة وهي البئْر.

(٥) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٦٧٩.

الرحيل والدخول إلى المدينة:

بعد النصر المبين أقام رسولُ الله ﷺ بالعَرْصَة[١] ثلاثاً - وكانت تلك عادتُه إذا ظَهَر على قومٍ أقام بعرصتهم ثلاثًا - ثُمَّ ارْتَحَلَ مُؤَيَّداً مَنْصُوراً قَريرَ العين بنَصْر الله له، ومعه الأسارى والمَغَانِم.

فلمَّا كان بالصَّفراء قَسَّم الغنائم، وضربَ عُنُق النَّضر بن الحارث بن كلدة، ثُمَّ لَمَّا نزل بعِرْق الظَّبية[٢] ضرب عنق عقبةَ بن أبي مُعَيْط

ودخل النبي ﷺ المدينةَ مؤيَّداً مُظَفَّراً منصوراً، قد خافه كلُّ عدوٍّ له بالمدينة وما حولها.

فأَسْلَمَ بشرٌ كثيرٌ من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبدُ الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه في الإسلام ظاهِراً.

القتلى من الفريقين:

هذا وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاث مئة وبضعة عشر رجُلاً، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أَحَدٌ وستون، ومن الخزرج مئة وسبعون.

وإنمَّا قَلَّ عددُ الأوس عن الخزرج - وإنْ كانوا أشدَّ منهم وأقوى شوكَةً وأصبر عند اللقاء - لأنَّ منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفيرُ بَغْتَةً.

وقال النبيُّ ﷺ: «لا يَتْبَعْنَا إلاَّ من كَانَ ظَهْرُه حاضِراً».

فاستأذنه رجالٌ - ظهورُهم في عُلُو المدينة - أن يستأني بهم حتَّى يذهبوا إلى ظُهورهم، فأبى ﷺ.

---

(١) العَرْصَة: البقعة الواسعة بغير بناء من دار وغيرها.
(٢) عرق الظبية: موضع بين مكة والمدينة قُرْبَ الروحاء، وقيل: هي الروحاء نفسها.

ولم يكن عَزْمُهم على اللِّقاء، ولا أعدُّوا له عُدَّته، ولا تأهَّبُوا له أُهْبَتَه، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

واستشهد من المسلمين - يومئذ - أربعة عشر رجلا: ستةٌ من المهاجرين، وستةٌ من الخزرج، واثنان من الأوس.

وقد فرغ رسولُ الله ﷺ من شأنِ بَدْر والأسارى في شوال.

وقد أنزل الله عز وجل في غزوة بَدْر سورةَ الأنفال، وتُسَمَّى «سورةُ بَدْر».

من دلائل النبوة في غزوة بدر:

لقد كشفت لنا غزوة بدر - بوقائعها - عن كثير من دلائل النُّبُوَّة، ممَّا يجب أن يُذَكَّر به الإنسانُ؛ ليعرف - دائماً - قَدْرَ الرسالة والرسول، وأنَّ الرُّسُلَ لا يقولون شيئاً من عند أنفسهم، بل هو الوحي الذي اختصَّهم الله به، يُخبرون عن أمْرٍ فتَرَاهُ واقعاً أمام عينك.

وما حدَّث الرُّسلُ بشيءٍ ورأى النَّاسُ ما يخالفُهُ أو يناقضُهُ.

لقد حدَّث الرسولُ ﷺ عن ناس من الكفار يُصْرعون في يوم بَدْر، ذكرَهم بأسمائهم، وحدَّد موضعَ هلاكهم، فكان ما حدَّثَ وأخبرَ عنه واقعاً أمام الناس تُرى فيه دلائل النُّبُوَّة، وأنَّ النبيَّ ﷺ كما أخبرَ الله عنه: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾(١).

روى البخاريُّ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حَدَّثَ عَنْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذ أَنَّهُ قَالَ:

«كَانَ صَدِيقًا لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَف، وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْد، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ الْمَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ: انْظُرْ لِي سَاعَةَ خَلْوَةٍ؛ لَعَلِّي أَنْ

---

(١) النجم: ٣، ٤.

أَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَخَرَجَ بِهِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَلَقِيَهُمَا أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: هَذَا سَعْدٌ. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: أَلا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا وَقَدْ أَوَيْتُمُ الصُّبَاةَ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ؟! أَمَا - وَاللَّهِ - لَوْلا أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا.

فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ - وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ -: أَمَا وَاللَّهِ، لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ، طَرِيقَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ.

فَقَالَ لَهُ أُمَيَّةُ: لاَ تَرْفَعْ صَوْتَكَ يَا سَعْدُ عَلَى أَبِي الْحَكَمِ سَيِّدِ أَهْلِ الْوَادِي

فَقَالَ سَعْدٌ: دَعْنَا عَنْكَ يَا أُمَيَّةُ؛ فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ.

قَالَ: بِمَكَّةَ؟ قَالَ: لا أَدْرِي. فَفَزِعَ لِذَلِكَ أُمَيَّةُ فَزَعًا شَدِيدًا.

فَلَمَّا رَجَعَ أُمَيَّةُ إِلَى أَهْلِه، قَالَ: يَا أُمَّ صَفْوَانَ، أَلَمْ تَرَيْ مَا قَالَ لِي سَعْدٌ؟ قَالَتْ: وَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ بِمَكَّةَ؟ قَالَ: لا أَدْرِي.

فَقَالَ أُمَيَّةُ: وَاللَّهِ لا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ، قَالَ: أَدْرِكُوا عِيرَكُمْ، فَكَرِهَ أُمَيَّةُ أَنْ يَخْرُجَ، فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، إِنَّكَ مَتَى مَا يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ - وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي - تَخَلَّفُوا مَعَكَ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى قَالَ: أَمَّا إِذْ غَلَبْتَنِي، فَوَاللَّهِ لأَشْتَرِيَنَّ أَجْوَدَ بَعِيرٍ بِمَكَّةَ ثُمَّ قَالَ أُمَيَّةُ: يَا أُمَّ صَفْوَانَ، جَهِّزِينِي.

فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَ: لا مَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلاَّ قَرِيبًا فَلَمَّا خَرَجَ أُمَيَّةُ أَخَذَ لا يَنْزِلُ مَنْزِلاً إِلاَّ عَقَلَ بَعِيرَهُ، فَلَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ عز وجل بِبَدْرٍ»[1].

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٦٥٦.

وفي رواية مثله إلاَّ أن فيه: «فَجَعَلَ أُمَيَّةُ يَقُولُ لِسَعْد: لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ، وَجَعَلَ يُمْسِكُهُ، فَغَضِبَ سَعْدٌ، فَقَالَ: دَعْنَا عَنْكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلُكَ.

قَالَ: إِيَّايَ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: وَاللَّهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ.

فَرَجَعَ إِلَى امْرَأَتِه، فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمِينَ مَا قَالَ لِي أَخِي الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَتْ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّه سَمِعَ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلِي. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى بَدْر، وَجَاءَ الصَّرِيخُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَمَا ذَكَرْتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَ: فَأَرَادَ أَنْ لا يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّكَ مِنْ أَشْرَافِ الْوَادِي، فَسِرْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ. فَسَارَ مَعَهُمْ، فَقَتَلَهُ اللَّهُ»(١).

وأخرج البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

«كُنَّا مَعَ عُمَرَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَة، فَتَرَاءَيْنَا الْهِلالَ، وَكُنْتُ رَجُلاً حَدِيدَ الْبَصَرِ، فَرَأَيْتُهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَآهُ غَيْرِي، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِعُمَرَ: أَمَا تَرَاهُ؟ فَجَعَلَ لا يَرَاهُ.

قَالَ: يَقُولُ عُمَرُ: سَأَرَاهُ وَأَنَا مُسْتَلْقٍ عَلَى فِرَاشِي، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالأَمْسِ، يَقُولُ: هَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَئُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَجُعِلُوا فِي بِئْرٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى

---

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٦٠.

انْتَهَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا فُلانٍ بْنَ فُلانٍ، وَيَا فُلانٍ بْنَ فُلانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؛ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا؟

قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لا أَرْوَاحَ فِيهَا؟! قَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا»[١].

وأخرج البخاري ومسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ - رَضِي الله عَنْهمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلاثَ لَيَالٍ»[٢].

ما نزل فيمن عاونوا أبا سفيان:

إنَّ غزوة بَدْر بوقائعها ونتائجها - وَقد حُفِظَ ما أنزلَ اللهُ فيها، كما حُفِظَ الذكرُ كلُّه - ستظَلُّ قائمةً أمام أعْين الناس تُريهم ما يجب أنْ يركنوا إليه، وتُحذّرهم من الرُّكون إلى أهل الظلم والفساد، وهم يَرَوْنَ أنَّ سُنَنَ الله في مداولة الأيام بين الناس لا تُبقى على باغ أو مستبد.

فإنَّ الظالمين - وهم يُصرُّون على ظلمهم - لنْ يُفْلتُوا من عقاب، ولن يَفرُّوا من الإحاطة بهم وأخذهم بذنوبهم

﴿**ولا تركَنُوا إلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فتمسَّكُمُ النَّارُ**﴾[٣].

قال ابنُ إسحاق: قال الله عز وجل: ﴿**إنَّ الَّذينَ كَفرُوا يُنفقُونَ أَمْوَالَهُمْ ليَصدُّوا عَن سبَيلِ اللَّه فَسيُنفقُونَهَا ثُمَّ تكُونُ عليهِمْ حسْرةً ثُمَّ يُغلبُونَ والَّذينَ كَفرُوا إلَىٰ جهنَّم يُحْشرُونَ**﴾[٤].

---

(١) البخاري - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٥١٢٠.
(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٨٣٧، كتاب المغازي، حديث رقم ٣٦٧٩.
(٣) هود: ١١٣.
(٤) الأنفال: ٣٦.

يعني النَّفَرَ الذين مَشَوْا إلى أبي سفيان، وإلى مَنْ كان له مالٌ من قريش في تلك التجارة، فسألوهم أن يُقَوِّهم بها على حرب رسول الله ﷺ ففعلوا.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[1] أي من قُتِلَ منهم يوم بَدْر.

عميرُ بن وهب يسعى لقتل النبي ﷺ:

إن النصرُ من الله للمؤمنين كان له أثرُه في إقبال من أقبَلَ دخولاً في الإسلام.. وقع ذلك في المدينة وما حَوْلها، كما كان له أثرُه في نفوس مَنْ يكيدون أو تضيق صدورُهم بنَصْر الله للمؤمنين.

لكننا نقفُ من هذه النتائج على ما كان عند مَنْ خذلهم الله وهم يندبُون قتلاهم.

لقد رأيْنَا منهم التحريضَ على قَتْل الرسول ﷺ.

ذكر ابن إسحاق قال: حدثني محمدُ بنُ جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزبير، قال: جلس عميرُ بن وهب الجُمحي مع صفوان ابن أُميَّة بعد - مُصاب أهل بَدْر من قريش - في الحجر بيَسير.

وكان «عميرُ بن وهب» شيطَاناً من شياطين قريش، وممَّن كان يُؤذي رسولَ الله ﷺ وأصحابَه، ويَلْقَوْن منه عَناءً وهو بمكة، وكان ابنُه وهب بن عمير في أسارى بَدْر، قال:

فذكر أصحابَ القليب[2] ومُصابَهم، فقال صفوان:

والله إنْ في العيش بعدهم خير - يعني ما في العَيْش بعدهم خير.

فقال عمير: صدقتَ والله، أما والله، لولا دَيْنٌ علي ليس له عندي قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيْعةَ بعدي، لركبتُ إلى محمد حتَّى أقتلَه، فإنَّ لي قِبَلَهم علَّةً، ابني أسيرٌ في أيديهم.

---

(١) الأنفال: ٣٨.

(٢) القليب: البئر العادية، لا يعلم لها صاحب ولا حافر.

قال: فاغتَنَمها صفوانُ، وقال: عَلَيَّ دينُك، أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي، أواسيهم ما بَقُوا، لا يَسَعُني شيءٌ ويعجز عنهم.

فقال له عُميرُ: فاكْتُم شأني وشأنَك.

قال: أفعل. ثُمَّ أَمَرَ عميرُ بسَيْفه، فَشُحِذَ[١] له وسُمَّ.

ثم انْطَلَقَ حتَّى قدم المدينة، فبينما عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في نَفَر من المسلمين يتحدثون عن يوم بَدْر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أرَاهُم من عدوِّهم، إذ نظر عمرُ إلى عُمير بن وهب حين أناخَ على باب المسجد متوشِّحاً[٢] السيف، فقال:

هذا الكلبُ عدو الله، عُمير بن وهب، والله ما جاء إلاَّ لشَرٍّ.

ثم دخل عمرُ على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، هذا عدوُّ الله عمير ابن وَهْب قد جاء متوشحاً سيفَه.

قال: فأدخلْه عليَّ.

قال: فأقبل عمرُ حتَّى أخذ بحمَّالة سيفه في عُنُقِه، فَلَبَّبَهُ بها، وقال لرجالٍ ممَّن كانوا معه من الأنْصَار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ثم دخل على رسول الله ﷺ، فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ وعمرُ آخِذٌ بحمَّالةِ سَيفه في عُنُقِه، قال: أرسلْه يا عمر، أدنُ يا عُمير

فدنا ثُمَّ قال: إنْعَمُوا صباحاً - وكانت تحيَّةَ أهل الجاهلية -

فقال رسولُ الله ﷺ: قد أكرمَنَا الله بتحيَّة خيرٍ من تحيَّتك يا عُمير، بالسَّلام تحيَّة أهل الجنة.

---

(١) يُقال: شَحَذَ السِّكِّينَ، أي: حَدَّه.

(٢) يقال: توشَّح السيف، أي لبِسَهُ.

فقال: أما والله يا محمد، إنْ كنتُ بها لحديث عَهْد.

قال: فما جاء بك يا عُمير؟

قال: جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا إليه.

قال: فما بالُ السَّيْفُ في عُنُقِك؟!

قال: قَبَّحها الله من سيوف، وهل أغْنَتْ عنَّا شيئاً.

قال: أصدُقني، ما الذي جئت له؟

قال: ما جئتُ إلاَّ لذلك.

قال: بل قعَدتَ أنتَ وصفوانُ بن أُميَّة في الحجْر، فذكرتُما أصحابَ القليب من قريش، ثُمَّ قلتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجْتُ حتَّى أقتلَ محمداً، فتحمَّل لك صفوان بدَيْنك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك.

قال عُمير: أشهد أنَّك رسولُ الله، قد كُنَّا - يا رسولَ الله - نُكذِّبك بما كنت تأتينا به من خَبَر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضُره إلاَّ أنا وصفوان.

فوالله، إني لأعْلَمُ ما أتاكَ به إلاَّ الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق.

ثم شهد شهادةَ الحَقِّ، فقال رسولُ الله ﷺ:

فَقِّهُوا أخاكم في دينه، وأَقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيرَه. ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إني كنتُ جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذَى لمن كان على دين الله عز وجل وأنا أُحبُّ أن تأذن لي فَأقدمُ مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام؛ لعَلَّ الله يهديهم، وإلاَّ آذيتُهم في دينهم، كما كنت أُوذي أصحابَك في دينهم.

قال: فأذن له رسولُ الله ﷺ، فَلَحِقَ بمكة، وكان صفوان بن أُميَّة حين خرج عميرُ بن وهب يقول:

أبْشِرُوا بِوَقْعَةٍ تأتيكم الآن في أيام تُنسيكُم وَقْعَةَ بَدْر.

وكان صفوانُ يسأل عنه الرُّكْبانَ، حتَّى قَدِمَ راكبٌ فأخبره عن إسلامه، فَحَلَفَ أنْ لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بِنَفْعٍ أبداً.

فلمَّا قدم عُميرُ مكةَ، أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويُؤذي مَنْ خالفه أذىً شديداً، فأسلم على يديه ناسٌ كثير.

*****

ومن جميل ما يُذكر أنَّ عُمير بن وهب - وقد رأى من دلائل النُّبُوَّة ما رأى وأسلم - كان سبباً في إسلام صفوان بن أُميَّة الذي تعاهد معه في الحِجْر على قَتْل محمد.

كان ذلك عندما فُتحت مكةُ، وكان صفوان بن أُميَّة قد خرج هارباً من جزاءٍ قد يقعُ به.

ذكر ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال:

خرج صفوان بن أُميَّة يريدُ جُدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب:

يا نبي الله، إنَّ صفوان بن أُميَّة سَيِّدُ قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فَأَمِّنْه صلى الله عليك.

قال: هو آمن.

قال: يا رسول الله، فأعطني آيةً يَعرفُ بها أمانَك.

فأعطاه رسولُ الله ﷺ عِمامَته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عميرُ حتَّى أدركه وهو يريدُ أن يركب البحر، فقال:

يا صفوان: فداك أبي وأُمِّي، الله الله في نفسك أنْ تُهلكها، فهذا أمانٌ من رسول الله ﷺ قد جئتك به.

قال: ويحك! أغْرُبْ عَنِّي فلا تُكلِّمني.

قال: أيْ صفوان، فداكَ أبي وأُمِّي، أفْضَلُ الناس، وأبرُّ الناس، وأحْلَمُ الناس، وخير الناس، ابن عَمِّك، عِزُّه عِزُّك، وشرفُه شرفُك، وملكُه مُلْكُكَ.

قال: إني أخافه على نفسي.

قال: هو أحلم من ذلك وأكرَمْ.

فرجع معه حتَّى وقف به على رسول الله ﷺ.

فقال صفوان: إن هذا يَزعُم أنك قد أمَّنتني؟

قال: صَدَقَ.

قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين.

قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر.

ثُمَّ أَسْلَمَ صفوانُ كما أَسْلَمَ عكرمةُ بن أبي جهل بعد أنْ استَأْمَنَتْ أُمُّ حكيم رسولَ الله ﷺ لعكرمة، فأمَّنَهُ، فلحقت به باليمن فجاءت به.

كما أمَّن عميرُ بن وهب صفوانَ بن أُميَّة، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فأسلم بَعْدُ وحَسُنَ إسلامُه.

كما أَسْلَمَ عكرمة وحَسُنَ إسلامُه.. وكانت لهما - بعد إسلامهما - مواقفُ تُذْكَر في الجهاد والثَّبات وتُشكر.

شأن الأسرى في بدر:

ومن الأمور التي يجب ذكرها في فداء الأسرى في بَدْر، أنَّ الرسولَ ﷺ كان يُراعي حالَ مَنْ لا يستطيع الفداء فيعفو عنه أو يطلب منه أن يُعَلِّمَ عَشْرَةً من أولاد المسلمين القراءة والكتابة إن كان يَعْلَم ذلك.

وممَّن مَنَّ الرسولُ ﷺ في الفداء وعفا عنه «أبا عزَّةَ ابن جُمَحٍ».

كان مُحتاجا ذا بنات، فكلَّم رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد عرفت ما ليَ من مال، وإني لذُو حَاجَة وذو عيال، فَامْنُنْ.

فمَنَّ عليه ﷺ، وأخذ عليه ألا يُظَاهر - أي يعاون عليه أحداً، فقال أبو عزَّة في ذلك يمدح رسولَ الله ﷺ، ويذكر فَضْلَه في قومه:

مَنْ مُبَلِّغٌ عن الرسولُ محمدا	بأنَّكَ حَقٌ والمليكُ حميدُ
وأنت امْرؤٌ تَدْعُو إلى الحقِّ والهُدَى	عليك من الله العظيم شَهِيدٌ
وأنت امُرؤٌ بُوِّئْتَ فَينا مَباءةً	لها درجاتٌ سهلةٌ وصعودُ
فإنَّك مَنْ حاربتَه لُمحَاربٌ	شَقيٌ ومَنْ سالمتَه لَسَعيدُ
ولكن إذَا ذُكِّرتُ بَدْراً وأَهلَه	تَأوَّبَ ما بي حسرةٌ وقُعودُ

كانت تلك معاملة الرسول ﷺ لَمَنْ لم يكن يملك فداءً.

فَعَلَ ذلك أبو عزةَ وغيرُه، وكلُّ ما أُخذ على أبي عزَّة من عهد ألاَّ يُظاهر على الرسول ﷺ أحدًا، فأَظْهَرَ الوفاءَ بذلك، وقال شعراً يمدح فيه الرسولَ ﷺ ويذكر فَضْلَه.

ومضت الأيامُ - وما أسرع ما تمضي - وجاءت أُحُدٌ، ووقع فيها ما وقع، وسار الرسولُ ﷺ والمسلمون معه حتَّى بلغوا حَمْراءَ الأسد[١].

وأقبل معبدُ بن أبي معبدالخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأَمَرَهُ أن يلحق بأبي سفيان فيخذِّلَه، فلحقه بالرَّوحاء[٢]، ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبدُ؟

(١) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة.
(٢) الرَّوْحَاء: منازل مُزيَنة.

فقال: محمدٌ وأصحابُه قد تحرَّقُوا عليكم، وخرجُوا في جَمْعٍ لم يخرجوا في مِثْله، وقد نَدِمَ مَنْ كان تخلَّفَ عنهم من أصحابهم.

فقال: ما تقول؟

فقال: ما أرى أنْ ترتحل حتَّى يطلع أولُ الجيش من وراء هذه الأكمة(١).

فقال أبو سفيان: والله، لقد أجمعنا الكَرَّةَ عليهم لِنَستأصلهم.

قال: فلا تفعل فإني لك ناصحٌ.

فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، فقال الرسولُ ﷺ - وهو بحمراء الأسد - حين بلغه أنهم هَمُّوا بالرَّجْعَة:

«والذي نَفْسي بيده، لقد سُوِّمتْ لهم حجارة، لو صُبِّحوا بها لكانوا كأَمْس الذاهب»

وقَبْل رجوع الرسول ﷺ أخذ معاويةَ بن المغيرة بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس، وهو جدُّ عبدالملك بن مروان، أبُو أمِّه عائشة بنت معاوية، وأخَذ أبا عَزَّة الجُمحي، وكان رسول الله ﷺ أسرَه في بَدْر، ثُمَّ مَنَّ عليه كما مَرَّ من قبل، فقال: يا رسولَ الله، أَقِلْنِي.

فقال رسول الله ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خَدَعْتُ محمداً مرتين» اضرب عُنُقَهُ يا زبير، فضرب عُنُقَه.

قال ابن هشام: وبلغني عن سعيد بن المُسيب أنه قال: قال له رسول الله ﷺ: «إن المؤمن لا يُلدَغُ من جُحْرٍ مَرَّتَين»(٢) وأمَرَ ﷺ بضرب عنقه.

---

(١) الأَكَمَة: الموضع الذي هو أَشدُّ ارتفاعاً ممَّا حَوْلَه. ويقال: هو ما اجتمع من الحِجارة في مكانٍ واحد.

(٢) سنن ابن ماجة - كتاب الفتن، حديث رقم ٣٩٧٢.

أما معاوية بن المغيرة - بعد حمراء الأسد - فقد لجأ إلى عثمان بن عفان، فاستَأْمَنَ له رَسولَ الله ﷺ، فأمَّنَهُ على أنَّه لو وُجِدَ بعد ثلاث قُتِل.

فأقام بعد ثلاث وتوارى، فبعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة، وعمارَ بن ياسر، وقال لهما: «إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا» فوجداه فقتلاه.

*****

رأينا ما تمَّ مع أبي عَزَّة الجُمَحِي وما لَقِيَهُ بعد غَدْره وعدم وفائه، وكان الرسولُ ﷺ قد منَّ عليه، وأخذ عليه ألاَّ يُظَاهر عليه.

وها هو ذا يُقْبَضُ عليه، ويُؤخَذُ بغدره وعدم وفائه، وقد جاء مع المشركين في يوم أُحُد وما كان يَظُنُّ أنَّه يُؤخذَ بذنبه، وبخاصة بعد ما توهَّم - مع غيره - أنَّ المشركين قد انتصروا في أُحُد، وأنَّه قد أَفْلَتَ من عقَابٍ.

اذْكُرْ ذلك، واذْكُرْ ما رواه مسلم عن أبي الطُّفيل - رحمه الله - قال: حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ قَالَ:

«مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبو حُسَيْل، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْش، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا. فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إلاَّ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَة وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّه ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ»(١).

هكذا فعل الرسولُ ﷺ، وفَّى لهم بالعهد ولم يَغْدِر.

نعم الوفاء بالعهد، فإنَّه دلالة ثقةٍ في الله، وحُسْنِ توكُّل عليه.

*****

(١) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٤٢.

غزوة بدر وأسباب النصر:

لقد أراد الله - بفَضْله ورحمته - أنْ يُخاطب الناسَ - على مرِّ الزمان - بما كان في غزوة بَدْر الكُبْرَى بآيات تُتْلَى.

وقد عرفنا أنَّ هذه الغزوة لم يكن العَزْمُ فيها على اللقاء، ولا أعَدَّ المسلمون عُدَّتَهم لها، ولا تأهَّبوا أُهبتهم، ولكنَّ اللهَ جمع بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد؛ لأمرٍ يُريدُه، فلم يكن التَّوجُّه إلى بَدْر خروج من المسلمين بإرادتهم لقتال عدوٍّ قد أعدُّوا له، ولكنه كان إخراجاً أرادَهُ الله لرسوله ﷺ.

وقد جاء بيانُه في قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**﴾(١).

والمُخَاطَبُ هو الرسولُ ﷺ ﴿**أَخْرَجَكَ رَبُّكَ**﴾ أخرج اللهُ رسولَه من بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها؛ لأنها موضع هجرته، أخرجه من بيته إلى لقاء المشركين في بدر..

﴿**بِالْحَقِّ**﴾ الذي يُحبُّه الله ويرضاه، وقد قَدَّرَه ومضَاه، وإن كان المؤمنون لم يَخْطُر ببالهم - في ذلك الإخراج - أن يكون بينهم وبين العدو قتال، فحين تبيَّن لهم أنَّ ذلك واقعٌ، جعل فريقٌ من المؤمنين يجادلون النبيَّ ﷺ في ذلك، ويَكرهون لقاءَ عدوِّهم، كأنمَّا يُساقون إلى الموت وهم ينظرون.

﴿**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾(٢).

لكنَّ ذلك لم يَدُم طويلاً بعد أنْ بيَّن الرسولُ لهم أنَّ الله قد وعده إحدى الطائفتين: إمَّا أن تظفروا بالعير التي خَرَجْتُم - في أوَّل الأمر - من أجلها، أو

---

(١) الأنفال: ٥.
(٢) الأنفال: ٦.

بالنفير الذي كره فريقٌ من المؤمنين أن يكون لعدم استعدادهم له ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(١) ولكن الله أَحَبَّ أن تكون ذات الشوكة.

ولما علموا ذلك سرعان ما رأيناهم - جميعاً - قد أَذْعنُوا وانقادُوا للجهاد في سبيل الله، مُوقنين بوعد الله، مُتوكِّلين عليه وحده لا على شيء سواه.

فَرَأَوْا في النتائج أنَّ ما أراد الله لهم خيرٌ مما أرادوه لأنفسهم..

إنَّ ما أراده الله - سبحانه - كان نَصْراً لدينٍ يجب أن يُعرف قَدْره، وحَقٌّ يجب أنْ يُتَّبَع ولا يُتَّبَع غيره.

ما أراده الله كان نَصْراً تُعرف به سُنَنُ الله، ويُوقن مَنْ يُرضى الله أنَّ النَّصْرَ من عند الله لا من عند أحدٍ سواه.

وتلك هي الحقيقة التي يجب أن يَسُودَ العلمُ بها، فلا تغيب دلالتها عن أحد ممَّنْ يؤمن بالله ويَنْشُدُ رضاه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(٢).

وهذه الحقيقة تَستوجبُ الإعدادَ والاستعدادَ.. إعداد النفوس لاستيعاب هذه الحقيقة، والاستعداد لطلب النَّصْر بالأخذ بأسبابه؛ فإنَّ ما عند الله لا يُطلَبُ إلاَّ بطاعته.

وعندما فَهِمَ المؤمنون ذلك واستوعبوه، كان استعدادُهم بفضلهم مُقَدَّماً على استعدادهم بكثرتهم؛ لأنَّهم أَيْقَنُوا أنهم ما لم ينتصروا بفضلهم، لم يَغلبوا بقُوَّتهم.

وقد جاءت بَدْر الكُبْرَى في حديث القرآن الكريم بياناً لحقائقَ عمليَّة واقعة، يجب ألاَّ تغيب أبداً عن المؤمنين في أيِّ زمان أو مكان.

---

(١) الأنفال: ٧.
(٢) الأنفال: ١٠.

وفي سورة بَدْر بيان لأسباب النَّصْر، من إعداد النفوس بصفات لا يُقبَل أن تغيب صفةٌ منها، وقد يتخلفُ النَّصْرُ بتخلف سبب واحد من هذه الأسباب.

وقد اجتمعت في أهل بدراً حتَّى صاروا - بما كانوا - أُسْوةً لمَنْ جاء بعدهم إلى أنْ يرث الله الأرض ومَن عليها.

وقد ترددت هذه الأسبابُ وتلك الصفات في سورة الأنفال مرَّات ومرَّات، مُفصَّلة ومُجْمَلة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

إنَّ سورةَ الأنفال - من أوَّلها إلى آخرها - تَحُثُّ على تحقيق هذه الأسباب، وتأمُرُ بها. وتنهى عما يُناقضها، ولا تَدَعَ سبيلاً لانتقاصها أو التفريط في شيء منها.

وهي الأصل في طَلَب النَّصْر، وبها تُغْلَبُ الكَثْرةُ، وتُنْصَرُ القِلَّةُ بإذن الله

وعلى أساسها يكون الإعداد المادي الذي أمَرَ الله به، فقال - جَلَّ شأنه -: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾**(٢).

وبدُونها يَخْتَلُّ التَّوازُن، وتكون الغَلَبة للقُوة كما قال عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«فإنْ استوينا في المعصية، كان لهم الفَضْل علينا في القُوَّة، وإلاَّ ننتصر بفضلها لم نَغْلب بقُوَّتنا»

---

(١) الأنفال: ٤٥ - ٤٧.
(٢) الأنفال: ٦٠.

وفي الأسباب تحذير للمؤمنين أن يكونوا مثل أعدائهم: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(١).

لا تكونوا مثلهم؛ فإنكم - حينئذ - تفقدون مَيْزتكم التي تستحقون بها النَّصْر من ربكم.

لا تكونوا مثلهم في الحياة اللاهية العابثة، حياة مَنْ لا يعرف نبيًّا، ولا يُؤمن بوَحْي أو رسالة.. حياة من لا يرجو حساباً ولا يخشى مَعَاداً؛ لأنكم إنْ صِرْتُم كذلك سلَّط الله عليكمُ ذُلاً لا ينْزعه عنكم حتَّى ترجعوا - صادقين - إلى دينكم مُخلصين لربكم.

ومَنْ هَانَ على الله لم يُكْرَم عند الناس ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾(٢).

فلا تكونوا مثل أعدائكم في نسيانهم الله ورغْبتهم عن دينه، وانغماسهم في عبادة المادة، وإيثارهم الحياةَ الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة

إنَّكم - حينئذ - ستَرَوْنَ من النتائج ما لا تَرْضَوْنَه لأنفسكم.. ستَفْتَرِقُ كلمتُكم، وتتمزَّقُ صفوفُكم، وتتباين مقاصدُكم، وتُحكم شعوبكم بشرائع الأهواء، لا بشريعة الله التي هي مَصْدَرُ عزِّكم وسبيل أَمْنِكُم.

وهكذا تُرينا سورةُ الأنفال - التي أُنزلَت وآياتها تُرى في واقع - تُرينا آثارَ البَطَر والرياء في ناسٍ آثروا ذلك على مَرْضَات الله، وقد نهانا أنْ نكون مثلهم، فنُؤْثِر الرياءَ على صِدْق الوفاء لله.

لقد رأيتُم - معشرَ المؤمنين - ما جَرَى منهم، وما وقع لهم، وقد يكون لهؤلاء مُدَّة امتحان فيها، يُمَدُّونَ بالعطاء وزينة الحياة، فيُفْتَنُ منكم من يُفْتَنُ دون نظر إلى ما يؤُولُ الأمْرُ إليه، وأنتم تعلمون.

---

(١) الأنفال: ٤٧.

(٢) الحج: ١٨.

لأنَّ لكُلِّ شيء عاقبتَه، ولكُلِّ عمل جزاءَه، فلا يليقُ بمَنْ يُؤمنُ بالعواقب أنْ يُفْتَن بمَنْ ضَلَّ سَعْيُه في الحياة الدنيا، وأن يكون من هؤلاء الذين يُريدون الحياة الدنيا، ويقولون - راغبين - ﴿**يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾(١).

ونَراهُم - وقد جاءت العاقبةُ، ووقعت الواقعةُ - يقولون غيرَ ما كانوا يقولون، وهم يُفْتَنُون بزينة طارئةٍ ومَتَاعٍ ذَاهب.

إنهم يقولون - وهم يَرَوْنَ ما آل إليه أمْرُ قارونُ - ما لم يكونوا يقولون من قبل وهم يتَمَنَّوْن أنْ يكون لهم من زينة الحياة مثل ما أُوتي قارون:

﴿**وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾(٢).

يقولون ذلك بعد أن رَأَوْا ما وقع به ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**﴾(٣).

يقولون ذلك وهم الَّذينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بالأَمْسِ، فهل كانوا مبصرين عندما تَمَنَّوْا مكانَه وهم يعلمون بَطَرَه وجُحودَه وكُفْرَه؟!!

*****

إنَّ مَنْ يتدبَّرَ سورةَ الأنفال، ويَعي العِبَرَ والعظات يرى من الآيات ما يدُلُّه على مراعاة النتائج والعواقب في كُلِّ شأن، وألاَّ يستهين بذلك أو يُفْتَن بإرجاء أو إملاء.

فتلك هي عاقبة العواقب التي لا يُرجَى بعدها أَمَلٌ في رجوع يُستدرك فيه ما ضُيِّع أو فات ﴿**وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾(٤).

---

(١) القصص: ٧٩ .
(٢) القصص: ٨٢.
(٣) القصص:٨١ .
(٤) المؤمنون: ١٠٠.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[١].

تلك آيات من سورة الأنفال، أو قُلْ سورةَ بَدْر، لم تقف بنا عند واقعة مَضَتْ وانْقَضَت، وإنما أَرَتْنَا - بما وقَعَ فيها - أنَّ سُنَنَ الله لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، ولا تجُامل ولا تُحابي..

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[٢].

إنَّ من وقائع المدينة التي تُنسب إليها غزوة بَدْر، أن الرسول ﷺ أُخرج من بيته ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أو من المدينة نفسها، فقد أُخرج منها، وعاد إليها مُؤَيَّداً مُظفَّراً مُنْتَصراً، فكانت الغزوةُ - بأحداثها ونتائجها - دعوةً إلى الله، تدعو على بصيرة ومعها البرهانُ والحُجَّةُ، لا في آيات مُجرَّدة تُتلَى فحَسْب، بل بوقائع مُقترِنَة بآيات، أو بآيات يُرَى صدْقُها، وتُبْصَر دَلالتُها في ماضٍ وحاضر ومستقبل؛ لأن الله هو الله، ولأنَّ سُنَنَه في خَلْقه ماضية واقعة لا تتبدَّل ولا تتحوَّل.

فمن جاء من المتأخرين يبغي فساداً أو بغياً أو تسلّطاً، فماذا ينظر أن يكون في عاقبةٍ أو مصير ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) الأنفال: ٥٠ - ٥٤.

(٢) فاطر: ٤٣.

وقد مرَّت بعادٍ وهُم يُؤخذون بذنبهم ويُعصف بهم، أو يُنْزَعونَ بكبرهم، فماذا كان حالُهم من قبل أن يُرسل الله عليهم ريحاً صَرْصَراً في يوم نَحْس مُستَمر؟

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[1].

لذا فإننا نرى حديثَ القرآن الكريم لا يقف بنا عند ما جرى في بَدْر فحَسْب، بل يجعل ما وقع فيها وفي غيرها تبْصرَةً للمُنيبينَ، وعبرةً للمكذبين المُضلين، في كُلِّ ما يكون من أحداث مُماثلة إلى يوم الدين.

ويأتي بيانُ السُّنة المُطَهَّرَة - فيما وقع في بَدْر وفي غيرها - داعياً إلى الإيمان بالله ورسوله، مُبشِّراً ومُنْذراً

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[2].

وبذلك لا تنفَصلُ أحداثُ الحياة وشئونُها عن هداية لِلَّتي هي أقْوَمُ، ودعوة إلى صراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[3].

*****

(١) فصلت: ١٥، ١٦.
(٢) الأنفال: ٤٢.
(٣) الشورى: ٥٣.

وقفات مع آيات:

إنَّ أحداثَ دار الإيمان لا تنفصل - أبداً - عن الكتاب والسُّنة، وما يُتنَزَّلُ من آيات في هذه الأحداث تراه أوسع دائرة وأشمل - في تبصرة الإنسان وتذكرته - من الوقوف عند حَدَث عارض في أيِّ زمان أو مكان.

وهذا يَدْعُونَا أن نقفَ وقفات عند آيات من سورة بَدْر؛ لنَرَى ما تُقَدِّمه من تَبْصرة للإنسان بحقائقَ يجبُ أنْ تُستَحْضَر دائماً ولا تَغيب.

فمن هذه الحقائق:

١- ما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(١).

إنَّ التذكيرَ بذلك له بالغُ الأثَر في تربية الإنسان؛ حتَّى لا ييأسَ مُستضْعَفُ لِقلَّة، أو يَفْزَع في مواجهة كَثْرة.

ولا يقفُ التذكير عند ما كان من واقع في بَدْر، بل يمتَدُّ ليكون نبراساً لإيمان ودعوةً ليقين.

إنَّ الله قد يَمُنُّ على المستضعفين فيما وقع من وقائع، أو فيما يأتي بعد حين، فلا ينْفَكُّ الإنسانُ - في كُلِّ شأن - عن صِدْق إيمان ويقين.

٢ - ما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾(٢).

فإنَّ الآيةَ تُذكِّر بما جرى مع رسول الله ﷺ، ولا تُذكِّرَه هو ﷺ بذلك فحَسْب، بل تُذكِّر كُلَّ مَنْ آمن به وصَدَّق برسالته.

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) الأنفال: ٣٠.

وتَذَكُّـر - ضـمنَ ذلك - أنَّ المكْرَ السيء لا يحيق إلاَّ بأهله ﴿ **ويمكرُون وَيَمْكُرُ اللَّهُ**﴾ وأنَّ من حَفِظَ الله حُفِظَ، ومن حفظ الله لا يُضَيَّع.

فكم كان تدبير المكر من القوم على حال لا يترك سبيلا لخلاص أو إنقاذ؟!

دارٌ محاصَرَةٌ وفيها مَنْ يُراد قَتْلُه، فتأتي النتائج لتُعَرِّف أن تدبير السوء تدبيرٌ على أهله، تحيق بهم عواقبُه.

وأن من آواه الله قد يُدْفَعُ عنه بنسيج عنكبوت وما أوهنه أو بريح وجنودٍ لا يبصرها العدو ولا يَرَاهَا.

واستحضار ذلك لازم للإنسان دائماً، حتَّى لا يُساق بهواه أو بهوى غيره إلى ما لا يرضاه الله.

وهو لازم لأهل الإيمان حتَّى لا يقع منهم هوان أو ركون لبطلان.

٣ - وما تضمَّنه الحديثُ عن الأسرى، وما خُوطب به الرسولُ ﷺ في شأنهم من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(١).

قد تضمَّن ما يُخاطَبُ به كُلُّ من أسَاء، ثُمَّ رجع فأصلَحَ وأنَابَ، وتلك حقيقة يجب أنْ يعلمها كُلُّ داعٍ إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله، ولا يقبل من أحدٍ غيره.

حقيقة تُعَلِّم المؤمنين به أنَّ هذا الدِّين - بما اشتمل عليه - فَضْلٌ من الله ورحمةٌ، فهو يفتح البابَ لِمَنْ خاصَمَه أو عادَاه، أن يؤُوبَ واثقاً في عَفْو الله ورحمته وهذا ما كان على مَرِّ التاريخ.

فكَمْ من عَدُوٍّ اشتَدَّت عداوتُه له، ثُمَّ لم يَلبَثْ أنْ صار من أقرب الناس إليه!

(١) الأنفال: ٧٠.

وتلك تُعلِّم المؤمنين به:

أنَّ الإسلامَ ليس ضيعةً يملكونها، لا يشاركهم فيها غيرُهم، وإنمَّا هو رحمةٌ للعالمين.

وأنَّه فَضْلُ الله يُعطيه مَنْ يشاء، وأنَّ من أَبْيَن الفَضْل فيه - وكُلُّه بَيِّن - أنَّه لا يُجامل مَن اتَّبعه، ولا يُنقصُ قَدْر منْ عَادَاه، بل يدعو الخَلْقَ جميعاً، ويُبَيِّنُ لهم أنَّ مكانتهم عنده تُوزَنُ بمكارم الأخلاق.

وأنَّ ساحَتَه تتَّسع لهم جميعاً إنْ هُم التَقَوْا - فيما بينهم - على كلمة سَواء، يَرَوْن دَلالتها في خَلْقهم ومَوْتهم وبَعثهم، وأنَّ ذلك قائمٌ فيهم جميعاً، دون تمايز أو استثناء.

وسيظل نداؤُه دائماً بهذه الحقيقة: **﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾**[1].

دعوةٌ مُجرَّدَةٌ عن تمايز بجنسٍ أو لَوْن أو قبيلة أو عشيرة؛ لأن ما هو واقعٌ بهم لا يُفَرِّقُ بينهم، والأرضُ - وهي ساحةٌ لهم - يعرفون جميعاً صِدْقَ ما أُخبروا به عنها:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2].

ومن ذلك يعرفُ الخَلْقُ جميعاً أنَّ محمداً ﷺ رحمةٌ لهم جميعاً، وأنَّ العرب إنْ قالوا: إنَّ محمداً ﷺ منهم، فللْخَلْق جميعاً أنْ يقولوا صادقين: إنَّ محمداً ﷺ لَهم، وأنَّه رحمةٌ مُهداةٌ من الله للعالمين.

٤ - وما تضمَّنه قولُ الله عز وجل: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾**[3].

---

(١) آل عمران: ٦٤. (٢) طه: ٥٥.
(٣) الأنفال: ٧٣.

يُلْزِم المؤمنين، بل يفرضُ عليهم أنْ يُوالي بعضُهم بعضاً؛ لإنصاف مظلوم ولو كان من غيرهم، وأنْ يأخذوا على يد ظالمٍ ولو كان منهم.

بذلك يكونون أصحاب رسالة، وبغير ذلك تقع فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير، وتكون المسئولية عليهم لا على غيرهم؛ لأنهم لم يُوَفُّوا بما عاهدوا اللهَ، فإنَّ إيمانَهم بالله ورسوله عَهْدٌ وميثاقٌ.

والله عز وجل لم يُرَتِّب ما يقع في الأرض من فتنة وفساد كبير على موالاة أهل الكُفْر بعضهم لبعض، وإنَّما رتَّبَ ما يقع من فتنة وفساد كبير على عدم الموالاة بين المؤمنين على الحق، كما أمَرَ الله: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[1].

ويُرى ذلك فيهم قبل أنْ يُرى في غيرهم ﴿**إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾.

وهذه الحقيقة عندما تُدرك على حقيقتها، لا يمكن لأمة تُنْسَبُ إليها أنْ تُرى بعيدة عن قضايا العالم ومشاكله.

ولا يمكن أنْ تَرضَى لنفسها أنْ تكون سبباً فيما يقع في الأرض من فتنةٍ وفساد، لتقصيرها فيما يجب أنْ تكون عليه من: قوة عادلة يستجيرُ بها من يستجير، ولو كان من المشركين

وهي مُهابة في نفسها حتَّى لا تكون سبباً في التكالب عليها؛ فإنَّ من أسباب الواقع المُرِّ أنْ تكون الأُمَّةُ - التي يقوم عليها أَمْنُ الإنسانية وسلامُها - سبباً لما أصابها من ضياعِ أَمْنٍ وفُقْدانِ سِلْم، فتؤاخذ حتَّى على ما يقع عند غيرها؛ لأنها فرَّطت في رسالتها التي لا يقوم للإنسانية أَمْنٌ وسَلامٌ بغيرها.

---

(١) التوبة: ٧١.

وعند بيان هذه الحقيقة أُوَدُّ ألا يقع خَلْطٌ بين واقع المسلمين وبين الإسلام، فلا يُلام الإسلام بتفريط أهله، فإنَّ الإسلامَ لا يُجاملُ المسلمين كما لا يُجامل غيرَهم، ولا يخضع لأمانيهم، كما لا يخضع لأماني غيرهم.

إنَّه العدل الذي لا يُقبل - في ساحته - أن يُعفَى ظالمٌ من حسابٍ لقُربه، أو يُترك مظلومٌ دون إنصافٍ لبُعْده.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾[١].

وتلك كلمة الرسول ﷺ تُدَوِّي في أُفق السماء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: «وأَيْمُ الله، لو أنَّ فَاطِمةَ بنتَ محمد سَرقت لَقَطَعَ محمدٌ يدَها»[٢].

فما يقع من المسلمين مخالفاً لدينهم، يجب أنْ يُحاكمهم العالَمُ بدينهم، لا بشيء سواه، فلنْ يجد العالَمُ كُلُّه ما يريده منهم - من عدل، وبرٍّ، وإحسان، ووفاء، وصدْق - إلاَّ بميزان دينهم.

وعلى المسلمين - أيضاً - أنْ يُدركوا أنَّ عقابَهم عند الله سيكونُ مُضاعفاً عندما يراهم العالَمُ على غير ما يدعو إليه دينُهم.

سيكون العقابُ بين يدي الله عقابَيْن:

عقابٌ لهم؛ لأنَّهم لم يحملوا الدِّين كما ينبغي أن يكون، بل حُمِلوا عليه

وعقابٌ لهم؛ لأنهم - بتفريطهم - أَغْرُوا النَّاس بالفتنة عنه، إذْ ظنُّوه قائماً في حياة أهله، فأعرضوا عنه وهم في أشدِّ الحاجة إليه.

﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٣].

---

(١) النساء: ١٢٣.

(٢) البخاري - كتاب الحدود، حديث رقم ٦٢٩٠.

(٣) الأنفال: ٧٣.

هذه الحقيقة أقولُها إنصافاً لهذا الدين الذي ظُلِمَ من أهله قبل أن يُظلم من غيرهم.

وهو مِنْ ظُلْم هؤلاء وظُلْم أهله بريءٌ.

إنَّه الحقُّ الذي أرسل الله به الرسلَ جميعاً، فمَنْ أعرضَ عنه أو صَدَّ عن سبيله، لقي ما يلْقَاه المعرضون عن الحق أو الذين يصدون عنه.

*****

غزوة بني قينقاع

في منتصف شوال سنة ٢ هـ

لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ صار الكفارُ معه ثلاثة أقسام:

١- قِسْمٌ: صالحهم ووادَعَهُم ألاَّ يُحاربوه، ولا يُظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدُوَّه، وهم - على كُفْرهم - آمنون على دمائهم وأموالهم.

٢- وقِسْمٌ: حاربوه وناصبوه العداوة.

٣- وقِسْمٌ: تركُوه، فلم يُصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يَؤُول إليه أمْرُه وأمرُ أعدائه، ومِنْ هؤلاء من كان يُحبُّ ظهورَه وانتصاره في الباطن، ومنهم مَنْ كان يُحبُّ ظهورَ عدوِّه عليه وانتصارهم، ومنهم: مَنْ دخل معه في الظاهر، وهو مع عدُوِّه في الباطن؛ ليَأْمَنَ الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعَامَل ﷺ كُلَّ طائفة من هذه الطوائف بما أمره به رَبُّه - تبارك وتعالى - فصَالَح يهودَ المدينة، وكَتَبَ بينهم وبينَهُ كتابَ أَمْنٍ.

فما الذي جرى بعد موادعتهم؟ وما الذي وقَعَ منهم؟

لكننا قبل أن نقرأ ذلك ونَعْرِفَهُ، نَوَدُّ أن نذكر مُبادَرَةَ مَنْ بادَرَ منهم إلى اتِّباع الحق الذي يعرفونه.

إسلام عبدالله بن سلام:

قال ابن إسحاق:

وكان من حديث عبدالله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أَسْلَمَ، وكان حَبْرًا[1] عالماً.

---

(١) الحَبْرُ: العالِم ذمياً كان أو مسلماً، ومعناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه، وقيل: الحِبْرِ هو الرجل الصالح.

قال: لَمَّا سمعْتُ برسول الله ﷺ عرفْتُ صفتَه واسمَه وزمانَه الذي كُنَّا نترقب ونتوقع له، فكنتُ مُسراًّ لذلك صامتاً عليه، حتَّى قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ.

فلَمَّا نَزَل بقُباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجلٌ حتَّى أخبرَ بقُدومه وأنا في رأس نخلٍ لي أعمل فيها، وعمَّتي خالدةُ بنتُ الحارث تحتي جالسةً.

فلَمَّا سمعتُ الخبرَ بقُدوم رسول الله ﷺ كبَّرْتُ.

فقالت لي عمَّتي حين سمعت تكبيري: خيَّبك الله. والله، لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادمًا ما زِدْتَ.

فقلت لها: أيْ عَمَّة، هو والله أخو موسى بن عِمْران، وعلى دينه، بُعثَ بما بُعثَ به.

فقالت: أي ابنَ أخي، أهو النبيُّ الذي كنَّا نُخبَرُ أنَّه يُبْعث مع نفس الساعة؟

فقلتُ لها: نعم.

قالت: فذاك إذًا.

قال: ثُمَّ خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ، ثُمَّ رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتُهم فأسلموا.

قال: وكَتَمْتُ إسلامي من يهود، ثُمَّ جئْتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ له:

يا رسول الله، إنَّ يهودَ قوم بُهْت[1] وإنِّي أُحبُّ أنْ تُدخلني في بعض بُيوتك، وتُغَيِّبَنَي عنهم، ثُمَّ تسألهم عنِّي؛ حتَّى يُخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إنْ علموا به بهتُوني وعابوني.

قال: فأدخلني رسولُ الله ﷺ في بعض بُيوته، ودخلوا عليه فكلَّموه وساءَلُوه، ثُمَّ قال لهم:

---

(١) قوم بُهْت: أي قوم كذب وافتراء.

أيُّ رَجُلٍ الحُصين بن سلام فيكم؟

قالوا: سيِّدُنا، وابن سيِّدنا، وحَبْرُنا وعَالِمُنَا.

قال: فلَمَّا فَرَغوا من قولهم خَرَجْتُ عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقْبَلُوا ما جاءكم به؛ فوالله إنَّكم لَتَعْلَمُونَ إنَّه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصِفته، فإني أشهد أنَّه رسولُ الله ﷺ وأُومن به وأُصَدِّقُه وأعرفُه.

فقالوا: كَذَبْتَ. ثُمَّ وقعوا بي.

قال: فقلتُ لرسول الله ﷺ ألَمْ أُخْبِرك يا رسول الله أنَّهم قَوْم بُهت؟!

قال: فأظهَرْتُ إسلامي وإسلامَ أهل بيتي، وأَسلمَتْ عمَّتي خالدةُ بنتُ الحارث فَحَسُنَ إسلامُها.

خَاطِرَةٌ أُسجِّلُها:

عندما وصلتُ إلى قول عبدالله بن سلام «فلَمَّا نزل - يقصُد الرسولَ ﷺ - بقُباء أقبلَ رجلٌ حتَّى أخبر بقُدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعملُ فيها، وعمتي خالدةُ بنت الحارث تحتي جالسةً، فلَمَّا سمعت الخبرَ بقُدوم رسول الله ﷺ كبَّرْتُ» وتذكرتُ ما كان من أَمْر سلمان الفارسي رضي الله عنه حين علم بقُدوم رسول الله ﷺ فقد كان على رأس نخلة يعمل فيها لسَيِّده.

يقول سلمان رضي الله عنه: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تحتي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ، حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يا فُلانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ؛ وَاللَّه إِنَّهُمْ - الآنَ - لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

قَالَ سَلْمَانُ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ، حتَّى ظَنَنْتُ أني سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، فَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لابن عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟

فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ:

مَا لَكَ وَلِهَذَا؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ»

*****

يا لَلَّه! سلمان الفارسي وعبدالله بن سلام كلاهما سمع بقدوم الرسول ﷺ وهو على رأس نخلة، فكان منه ما كان!!

وسلمان فارسي قدم إلى المدينة بعد أن سمع من الأحبار ما سمع، وابن سلام سيِّدٌ من أحبار اليهود، وهو في المدينة ويعرف من أَمْر الرسالة ما يعرف!!

كلاهما يتلقى الخبر وهو على رأس نخلة.

والحديث عن النخلة يُنبئ عن أنَّ المؤمن لَصِيقٌ بصفاتها، وهي الشجرة التي شبَّه الرسول ﷺ المؤمنَ بها[(١)].

بُورِكَتْ نَخْلَةٌ كان سلمان على رأسها، وبُورِكَتْ نَخْلَةٌ كان عبدالله بن سلام على رأسها، وبُورِكَ كُلُّ عطاء لها، و بُورِكَ كُلُّ عمل لسلمان وعبدالله بن سلام.

وأعود بعد هذه الخاطرة إلى من أَسْلَمَ من يهود غير عبدالله بن سلام.

حديث مُخَيْرِيق:

قال ابن إسحاق:

وكان من حديث مُخَيْرِيق، وكان حَبْراً عالِمَاً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النَّخْل، وكان يعرف رسولَ الله ﷺ بصفَته وما يجدُ في عِلْمه.

---

(١) في الصحيحين عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللَّه: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ» البخاري - كتاب العلم، حديث رقم ٥٩، مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم ٥٠٢٧.

وغَلَبَ عليه إِلْفُ دينه، فلم يزل على ذلك حتَّى إذا كان يوم أُحُد، وكان يوم أُحُد يومَ السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنَّكم لَتَعْلَمُونَ أنَّ نَصْرَ محمد عليكم لحَقٌّ.

قالوا: إنَّ اليومَ يومُ السبت.

قال: لا سبتَ لكم.

ثم أخذ سلاحه، فخرج حتَّى أتى رسولَ الله ﷺ بأُحُد، وعَهدَ إلى مَنْ وراءَه من قومه: إنْ قُتِلتُ هذا اليومَ، فَأَمْوالي لمحمد ﷺ يصنعُ فيها ما أراه الله.

فلما اقْتَتَلَ الناسُ، قاتل حتَّى قُتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: «مُخيريق خيرُ زُفُر»(١).

وقَبَضَ الرسولُ ﷺ أموالَه، فعامَّة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لَمَّا رأى يهود بني قينقاع نصرَ المؤمنين في بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة، تميزت قِدَرُ غيظهم، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى.

ذكر محمدُ بن إسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، أن رسول الله ﷺ لَمَّا أصابَ من أهل بَدْر ما أصَابَ، ورجعَ إلى المدينة جَمَعَ اليهودَ في سوق بني قينقاع، وقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يُصيبكُم الله بما أصَابَ قريشاً.

فقالوا: يا محمد، لا يَغُرَّنَّكَ من نفسك أنك قتَلْتَ نَفَرًا من قريش كانوا أغْمَارًا لا يعرفون القتال، إنك - والله - لو قاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أنَّا نحنُ الناس، وأنك لم تَلْقَ مثلَنا.

فأنزل الله في ذلك من قولهم:

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/٥٠١.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

أي: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أيُّها اليهود القائلون ما قُلْتُم ﴿آيَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله مُعِزٌّ دينَهُ، وناصِرُ رسولَه، ومُظْهر كلمتَه، ومُعْلٍ أمْرَه.

﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿ الْتَقَتَا﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم مشركو قريش يوم بَدْر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماءُ - فيما حكاه ابن جرير-: يرى المشركون يوم بَدْر أن المسلمين مِثْلَيْهم في العدد رأيَ العين، أي: جعل الله ذلك فيما رَأَوْه سبباً لنُصْرَة الإسلام عليهم ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: إن في ذلك لَعِبْرة لمن له بصيرةٌ وفَهْمٌ؛ ليهتدي به إلى حُكم الله وأفعاله وقَدَره الجاري بنَصْر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

*****

كان بنو قينقاع - كما ذكرنا - أولَّ من نَقَضَ العهد من اليهود، وحاربوا رسولَ الله ﷺ فيما بين بَدْر وأُحُد وكان سبب الحرب بينهم وبين المسلمين كما ذكر ابن هشام قال:

كان من أمْر بني قينقاع أنَّ امرأة من العرب قَدمت بِجَلَبٍ لها[2] فباعَتْه بسوق بني قَينقاع، وجلست إلى صائغ به، فجعلوا يُريدُونها على كَشْف وجهها، فأَبَتْ فَعَمد الصائغُ إلى طَرَف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت

(١) آل عمران: ١٢، ١٣.
(٢) الجلَب: هو كل ما يُجلب للأسواق ليُبَاع.

سَوْأَتُها، فضحكوا بها فصَاحَتْ، فوثَبَ رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقَتَلَهُ - وكان يهودياً - وشدَّت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمينَ على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قَيْنُقَاع.

حصارُ بني قينقاع وإجلاؤهم:

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال:

فحاصرهم رسول الله ﷺ حتَّى نزلوا على حُكمه، وكانوا خلفاء عبدالله بن أُبي ابن سَلُول رئيس المنافقين، فكَلَّم عبدُ الله بن أُبيٍّ رسولَ الله، وألَحَّ عليه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه.

وذكر ابنُ إسحاق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال:

لما حاربَتْ بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ تَشَبَّثَ بأمرهم عبدالله بن أُبَيّ بن سلول، وقام دُونهم، قال: ومشى عبادةُ ابن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحَدَ بني عوف، وكان لبني قينقاع من حِلْفِه مثلُ الذي لهم من عبدالله بن أُبَيّ، فَخَلَعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرَّأ إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ من حِلْفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسولَه والمؤمنين، وأبْرأُ من حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم.

قال: ففيه وفي عبدالله ابن أُبي نزلت هذه القصة من المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: كعبدالله ابن أُبَيّ، وقوله: إني أخشى الدوائر ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾.

ثم القصة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

وذكر لتولِّي عبادةُ بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا، وتَبَرُّئه من بني قَيْنقاع وحِلْفهم وولايتهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

هذا والمراد بالولاية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ ولاية التناصُر والمحالفة، وقيَّده بعضُهم بكَونها على المؤمنين، وأنَّ النَّهْي لأفراد المسلمين وجماعاتهم دُون جمُلتهم، وأنه يشمل المؤمنين الصادقين وغيرَهم؛ لأنه مُقدِّمة للإنكار على مرضى القلوب الذين يتخذون لهم اليَد عندهم؛ لعدم ثقتهم ببقاء الإسلام وثَبَات أهله.

فالنَّهْيُ هو أن يُوالي أفرادٌ أو جماعاتٌ من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المُعادين للنبي والمؤمنين، ويُعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين؛ رجاء أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خُذِل المسلمون وغُلبُوا على أمرهم.

ونُكْتةُ التعبير عنهم باليهود والنصارى دون أهل الكتاب، هي أن مُعاداتِهم للنبي والمؤمنين إنما كانت بحسب جنسياتهم، لا من حيث أن كتابهَم يأمُرهم بذلك.

هذا النهي عن ولاية أهل الكتاب مثل النهي عن ولاية المشركين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ...﴾(٢).

---

(١) المائدة: ٥١ - ٥٦.
(٢) الممتحنة: ١.

وقد نزلت في «حاطب بن أبي بَلْتَعة» لَمَّا كتب إلى قريش يُخبرهم بعَزْم النبي ﷺ على حَرْبهم، لأن له عندهم مالاً وأهلاً، فأراد أن يتخذ عندهم يداً لأجل حماية أهله.

والنهي عن الشيء - لسبب من الأسباب - لا يتناول من لم يتحقق فيهم، ولا ينافي زوال النهي بزوال سببه.

ولذلك قال تعالى بعد هذا النهي في سورة الممتحنة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

فهذه الآيات نَصٌّ صريحٌ في كَوْن النهي عن الولاية لأجل العداوة، وكَوْن القوم حرباً، لا لأجل الخلاف في الدين لذاته، فإن النبي ﷺ لَمَّا حالف اليهودَ كتب في كتابه: «لليهود دينُهم وللمسلمين دينُهم» كما أمره الله أن يقول لجميع المخالفين ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

ومن البيِّن الواضح أن رأسَ النفاق عبدَ الله بن أُبي هو المَعْنِيُّ - أولا - بقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ والمراد بـ ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين ستروا نفاقَهم بالدخول في الإسلام والانضواء تحت لواء المسلمين؛ ليتخذوا من الإسلام تجارةً يتَّجِرون بها في سُوق السُّحْت والاختلاس، وهذا لا يكون إلا من قلب مريض، يستقبل كُلَّ ضلال دون أن يَغَصَّ أو يَزْوَرَّ عنه.

---

(١) الممتحنة: ٧ - ٩.

(٢) الكافرون: ٦.

والمسارعة فيهم - أي في أهل الكتاب -: الانغماس فيهم، ولهذا جاء اللَّفظ القرآني بتعدية الفعل «سارع» بحرف الجر «في» بَدَلاً من تعديته بحرف الجر «إلى» الذي يتعدى به هذا الفعل غالباً، كقوله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾(١).

وفي تعْديَة الفعل بحرف الجر (في) ما يكشف عن أن هؤلاء المنافقين ينغمسون في أهل الكتاب، ويدخلون فيهم دُخولاً كاملاً، حيث يحتويهم ظرفٌ واحدٌ، إذ هم كيانٌ واحدٌ يألف بعضُه بعضاً.

وفي قوله: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ تشهيرٌ بهؤلاء المنافقين وفَضْحٌ لهم، وأنهم - وإن لبِسُوا كلَّ أثواب التَّخفِّي - لا يلبَث أمرُهم أن ينفضح وينكشف، وأنهم بمرْأَى من النبي والمؤمنين، ولهذا جاء الفعل (ترى) وكأنه يُشير إليهم، ويُحدِّد موقفَهم الذي هم فيه في الجبهة الأخرى، جبهة أهل الكتاب.

وهكذا المنافق دائماً، إن لم يَلتَفتْ إليه أحدٌ، دلَّ - هو - الناسَ عليه بكثْرة التفَاتهِ إليهم وحذَره منهم، وصَدق المَثَلُ الذي يقول: «يكادُ المُريبُ يقول: خُذُوني».

وقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**﴾ هو ترجمةٌ لهذه التصورات المريضة التي يعيش فيها المنافقون، فهم - أبداً - على خوف وقلق، لا يسكنون إلى أمر، ولا يقيمون على رأي، بل تراهم وأعينُهم تَدُورُ هنا وهناك، يريدون أن يجمعوا بين الشيء ونقيضه؛ حتَّى إذا فَاتَهُم هذا لم يَفُتهم ذاك.

فهم مع المؤمنين يخشون أن تكون الكَرَّة لأهل الكتاب، وهم مع أهل الكتاب يخشون أن تكون الدولةُ للمؤمنين. ولهذا فهم يَلبسون الإيمان ظاهرًا، ثُمَّ يُوَادُّون أهل الكتاب باطنًا.

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

وبهذا - كما تُصَوِّر لهم نفوسُهم المريضةُ - يحمون أنفسَهم من أيِّ أذى يصيبهم من أية جبهة غَلَبَت، إذ سُرعان ما يتحولون إلى الجهة الأخرى التي كانوا قد احتفظوا بمكان لهم فيها.

فهؤلاء الذين يُوادُّون غيرَ المؤمنين، ويُلْقُون بأنفسهم في أهل الكتاب، وَيُوَثِّقُون صِلاَتِهم بهم، إنما يفعلون هذا ليكون لهم منه شفيعٌ عند أهل الكتاب إذا كان لهم الغَلَبُ يوماً على المؤمنين، فلا يُصيبهم من الدائرة - وهي الهزيمة وما يلحق أصحابها من أذى - ما يُصيب المؤمنين إذا هم أصابتهم الدائرةُ التي يتوقعها المنافقون لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1] هو وعيدٌ للمنافقين بما يملأ قلوبَهم حسرةً وَنَدماً، إذ جاء تدبيرُهم وبَالاً عليهم وخُسراناً لهم، حتَّى قَدَّروا أن الدائرة ستَدُورُ على المؤمنين، فأَخْلَوا مكانَهم من بينهم، واتخذوا أهلَ الكتاب أولياءَهم.

ثم هو وَعْدٌ كريمٌ من الله يجئ بتلك البُشْرَيات المُسْعِدَة للمؤمنين، وبأنهم هم المنتصرون، وأن الخزي والخُذلان لأعدائهم ولِمَنْ انضوى إليهم من المنافقين.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يُمَكِّن المؤمنين من أعدائهم.

وقد جاء نَصْرُ الله والفتحُ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجًا، فَدَالَتْ دولةُ الشرك، وذهبت ريحُ النفاق والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: تدبير من عند الله يجيء على غير انتظار وعلى غير عمل من المؤمنين، كأن يُوقِع الشِّقاقَ والخلاف بين أحلاف السُّوء ومجتمع الضلال، فيفضح بعضُهم بعضاً، ويخذُل بعضُهم بعضاً، فإذا أولياء الأمس أعداء اليوم، يبرأ بعضُهم من بعض.

---

(١) المائدة: ٥٢.

وحمل هذا الوعد الكريم من الله للمؤمنين على يدي فعل الرجاء «عسى» إنما ليُقيم المسلمين على رجاء وأمل في رحمة الله بهم وفضله عليهم، فتظَلُّ قلوبُهم شاخصةً إلى الله، ذاكرةً له، تَرْقُبُ غُيُوثَ رحمته وفواضل نِعْمَته.

ولو جاء هذا الوعدُ الكريمُ قاطعاً مُنَجَّزاً لَمَّا بعثَ في القلوب المؤمنة تلك المشاعر المتجدِّدة، ولَمَا أمسك بها هذا الزمن الطويلَ مُتَشَوِّفَة - بأبصارها وقلوبها - إلى غُيُوث رحمة الله ومواطر أفضاله ونِعَمِه.

وقوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ هو عَرْض لتلك النهاية التي ينتهي إليها أمْرُ هؤلاء المنافقين، وما يؤُول إليه عاقبةُ مَكْرهم وتدبيرهم، إنه الندم والحسرة والخُسران.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ هو عَرْضٌ لهؤلاء المنافقين في مَعْرض آخر من معارض الخزي والفضيحة، فبعد أن دعا الله - سبحانه وتعالى - كلَّ ذي نَظَرٍ أن ينظر إلى هؤلاء المنافقين، ويشهد كيف يتهالكون على أهل الكتاب، ويَرْتَمُون في أحضانهم؛ خوفًا من أوهامٍ مُتَسلِّطة عليهم، بعد أن عرضهم الله - سبحانه - هذا المعرض الفاضح، وتوعدهم بالخزي والخسران بنَصْر الله المؤمنين، وبخُذْلان الكافرين والمنافقين، جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ تدعو المؤمنين إلى أن يُديرُوا النظر مرَّة أخرى إلى هؤلاء المنافقين، وأن يُقَلِّبُوا صفحات تاريخهم في الإسلام ويَتَتَبَّعوا مسيرتَهم معه، ثُمَّ لِيُصْدِرُوا حُكمَهم عليهم.

وهنا يكْثُر حديثُ المؤمنين عن هؤلاء المنافقين، ويلْقَى بعضُهم بعضًا بما اطَّلعوا عليه من نفاقهم، فتكثر فيهم القَالةُ، ويَكْثُر العُجْب والدَّهش من أمرهم، وإذا الفضيحةُ تُجلْجِلُ بصوتها في كل أُفُق، وتتحرَّكُ بأشباحها في كُلِّ مكان.

وليس ما حكاه القرآن من مَقُولة المسلمين فيهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ ليس هذا كُلُّ ما قيل فيهم، إنما هو مضمون ما

قيل، وضميمُ ما ينبغي أن يُقال في هؤلاء المنافقين؛ إذ إنهم كانوا يحلفون بالله للمؤمنين جَهْدَ أيمانهم، أي: بأَغْلَظ أيمانهم وآكَدِها، إنهم لَمَعَ المؤمنين، ولن يَتَخَلَّوْا عنهم في حربٍ أو سِلْم، وهذا الحَلِفُ نفسُه والمبالغة فيه، هو الذي يكشفُ المستور من أمرهم، ويُعطي الدليلَ على أنهم على غير الإسلام، إذ أنهم لو كانوا مسلمين حقًّا لَمَا حَلَفُوا وأكَّدوا الحلف أنهم مؤمنون ومع المؤمنين، فما دعاهُم أحدٌ أن يحلفوا.

ولكنَّ كائنَ النِّفاق - الذي يعيش في كيانهم - هو الذي حمَلَهم على أن يستروا كَذِبَهُم ونفاقَهم بهذه الأَيْمَان المؤكَّدة، حتَّى لا يُفتَضَح ما في قلوبهم

وهكذا المجرم يَحُومُ حول جريمته، يريد أنْ يُخفى معالِمَها حتَّى ولو لم تكن هناك معالم لها؛ لأنه - لخوفه - يتصوَّر أن كُلَّ ما كان في مكان الجريمة - من كائنات - شاهدٌ عليه يُنادِي في الناس بالإمساك به قبل أن يُفْلِت.

وقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: فسَد تدبيرُهم، وخاب ظنُّهم، وبطل سَعْيُهم، فكان ذلك خُسْرانٌ لهم أيّ خُسْران.

خسروا المؤمنين الذين أصبحوا فيهم وقد افتضح أمرُهم لهم، وخسروا أولياءَهم من أهل الكتاب بعد أن أصابتهم الهزيمةُ، وعلَتْ رايةُ الإسلام، وعَزَّت كلمتُه.

كان على المسلمين - بعد هذا - أن يُراقبوا أنفسَهم، وأن يأخذوا حِذْرَهم من أن يَرِدُوا هذا المَوْرِدِ الآسِن الآثم.

فجاء قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾(١).

---

(١) المائدة: ٥٤.

مُنَبِّهاً لهم ومُحَذِّراً من أن يرْتَدَّ منهم عن دينه كما ارْتَدَّ هؤلاء المنافقون الذين عرفوا أمرَهم ومصيرَهم.

فستكونُ عاقبة المُرْتدِّ منهم هي نَفْس عاقبة أولئك المنافقين: النَّدَم، والحَسْرَة، والخزى، والخسران المبين.

والارتداد معناه: الرجوع إلى وراء، والعودة إلى المكان الذي كان قد تحرَّك منه المُرْتَدُّ إلى الأمام، وهذا يعنى أنه يهدم ما بنى، ويَنْقُضُ ما غَزَل. ولا يفعل ذلك إلاَّ سَفيهٌ أَحْمَقٌ.

وفى إضافة الدين إلى المؤمن، وبلفظ المفرد هكذا ﴿عَن دِينِهِ﴾ ما يلفِت المؤمنَ إلى هذا الدين الذي دخل فيه وأصبح من أهله، وأنَّهُ دينُه هو، وثَمَرَته عائدةٌ عليه وَحْدَه، وأنه الدِّين الذي ينبغي أن يعيش فيه، ويشتدَّ حِرْصُه عليه؛ إذ هو الدين الذي يَدينُ به كُلُّ عاقل.

إنه دينه إن كان من أهل العقل والرشاد.

ويكون معنى الآية هكذا: يا أيها الذين آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه، فَسَيَلْقَى ما لَقِيَ هؤلاء المنافقون الذين ارْتَدُّوا، من نكالٍ وبلاءٍ وسُوء مَصير.

ثم إنه لن يَضُرَّ اللهَ شيئًا، ولن يَضير المسلمين في شئ؛ لأنه سَيُخْلى مكانَه في الإسلام ليَأْخُذَه مَن هو أوْلَى به منه، وأكرَمُ عند الله، وأكْثَرُ نَفْعَاً للمسلمين

وهذا ما يُشير إليه قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

وهؤلاء القوم الذين سيأتي الله بهم، ويُدخلهم في دينه، قد وُصِفُوا بأوصاف أربعة:

أولاً: يُحِبُّهُمْ الله وَيُحِبُّونَهُ:

وحُبُّ الله لهم: دَعوتهم إلى الإسلام، وشَرْح صُدورهم له، وتثبيت أقدامهم فيه؛ لأنه - سبحانه وتعالى - هو الذي أَحَبَّهُم، وهو الذي اختارهم ودَعَاهُم.

وهذا فضلٌ عظيمٌ، ودرجةٌ من الرضَا لا ينالُها إلا من أكرمه الله واستضَافه، وخلَعَ عليه حُلَلَ السَّعَادة والرضوان.

جعَلنَا الله من أهْلِ مَحَبَّته وضيَافَته..

أما حُبُّهم هم لله، فهو في استجابة دعوته، وامتثال أمْره، والولاء له ولرسوله وللمؤمنين.

ثانياً: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ:

إجماع المفسرين على أن هذا الوَصْف، هو وصْفٌ لهؤلاء القوم بعد أن دخلوا في الإسلام، فكانت تلك صفَتُهم وهذا سُلوكهم ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي: متخاضعين للمؤمنين، لا يَلْقونهم إلا باللِّين والتواضع.

﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ أي: أشداء وأقوياء، لا يَلْقَى منهم أهلُ الكفر إلا بلاءً في القتال، واستبسالاً في الحرب، أمَّا في السِّلْم فهم جبالٌ راسخةٌ في الإيمان، لا ينال أحَدٌ منهم نَيْلاً في دينه، ولا يطمَعُ أحَدٌ من أعداء الإسلام في موالاتهم أو تعاطفهم معه.

هذا هو إجماع المفسرين في فَهْم هذا المَقْطَع من الآية.

ويستشهدون لذلك بقوله تعالى ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[1].

هذا وإن قلبي ليستريح إلى أن هذه الأوصاف:

- يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.
- أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.
- أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.

---

(١) الفتح: ٢٩.

- يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.
- وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ.

مع أنها ثابتة للذين كانوا مع رسول الله ﷺ وقد عَنَتْهم الآيةُ الكريمةُ في سورة الفتح ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾.

إلا أن قولَه تعالى في آية المائدة: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ يدُلُّ على تَجَدُّد ذلك ووقوعِه، وأن الآيةَ تُبَشِّرُ بهم، وأنهم يدخلون في الإسلام، وربما كان ذلك بعد طُول عداءٍ وكَيْدٍ.

﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

وهنا تبدو هناك طريقٌ مفتوحةٌ - دائمًا - لِمَنْ يكيدون للإسلام - وهم غالباً أصحابُ دَوْلَةٍ وصَوْلَةٍ في مجتمع الكُفْر والضلال - ينفُذون منها إلى الإسلام، ويُعطون من قوتهم له ما أعطوه من قبل في حَرْبه وعداوته.

وفي تاريخ الإسلام شاهدٌ على ذلك أيُّ شاهد، وحسبُنا أن نذكر خياراً من الناس كانوا أشداءَ على المؤمنين، قد صاروا - من بعد - أشداءَ على الكفار رُحماءُ في حياة المؤمنين.

وحسبُنا أن نذكر ما كان عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما صار إليه.

وأن نذكر خالد بن الوليد، وكم كان حَرْباً على المسلمين في أحد، ثُمَّ صار - من بعد - سيفاً من سيوف الله في نَصْر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وعكرمة بن أبى جهل الذي فَرَّ، ثُمَّ عاد ليستقبله الرسولُ ﷺ في المدينة المُنَوَّرَة بقوله: «مرحباً بالرَّاكب المُهاجِر».

كم وكم في تاريخ الإسلام وقَعَ من ذلك، وقد أتَىَ الله بهم بعد عِنَادٍ وعداءٍ

وهنا يجب على من أَحْسَنَ التدبُّر أن يستحضر دائماً أن الرسول ﷺ قد أرسله الله رحمةً للعالمين، وأن الله قد أبقى دينَه، وحَفِظَ كتابَه ليكونَ بلاغاً للناس، ونذيراً للعالمين في كُلِّ زَمَنٍ وحين.

فلو ذهب جيلٌ جاءت من بعده أجيالٌ، ولو حُصِدَ نَبْتٌ لم يُحْصَد معه كل نَبتٍ قادم للإسلام.

والذين يتصوَّرون أن شمسَ الإسلام يمكن أن تغيبَ بغياب فريقٍ أو ذهاب جيلٍ يُخطئون، وقد يُسيئون ولا يُحسنون؛ فإن شمسَ الإسلام إن بَارَحَتْ رؤوس قَوْمٍ أنَارَتْ عند آخرين، فلا يُضيرُه مَنْ ارْتَدَّ عنه أو تخلَّف عن مُناصرته.

ومن هنا كان النداء من الله لأهل الإيمان أن يستحضروا هذه الحقيقةَ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾.

فالنُّصرة له قائمةٌ في حياة الخَلْق، حاضِرَةٌ في أنباء الغيب ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ وهم الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لَوْمَة لائم.

وقد أجمل الله في حَقِّهم هذه الأوصافَ الأربعة؛ لتكون دليلاً لمن بعدَهم، وليكونوا هم أُسْوَة لَمن يُؤْثرون مرضات الله، ويَنْشُدُون - في كُلِّ شأن - رضَاه.

وقد وَعَدَ الله أن يأتِيَ بمَنْ تكون تلك صفاتهم ولو بعد حين؛ لتبقى رايةُ الجهاد في سبيله مرفوعةً لنُصْرة الحق وإبطال الباطل، وليكون الإخلاص لله رائدَ كُلِّ مَن يبغي صلاحاً أو إصلاحاً في سبيل الله، لا في سبيل أحد سُواه.

ثالثاً: يجاهدون في سبيل الله:

وهذه هي الصفة الثالثة من صفات أولئك الذين يأتي الله بهم، ويدخلون في الإسلام:

فهم المسلمون الجُدُد الذين يدفعون عن الإسلام والمسلمين يد البغي والعدوان، ويُعطون ولاءَهم كُلَّه لدينهم الذي دعاهم الله إليه وارتضاهم له، لا يَضنُّون عليه بأنفسهم ولا بأموالهم.

رابعاً: وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ:

تلك هي الصفة الرابعة، وتُفيد أنهم لا يلتفون إلا إلى نُصْرَة دين الله، لا يُثنيهم عن ذلك لَوْمُ لائم من قريب أو بعيد، أو عدو أو صديق.

إنهم قد باعوا كُلَّ شئ، وتَخَلَّوْ عن كُلِّ شئ إلا إيمانهم بالله ونُصْرَتهم لدين الله.

وفَضْلُ الله لا يَضيق بأَحَدٍ، وخزائن الله لا تَنْفَد من عطاء.

﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾.

فيخطئ أهلُ الكُفْر والجحود إن هُم توهَّموا أن هزيمةً طارئةً قد تقع بالمسلمين يمكن أن ينتهي بها شأنُ إسلامهم.

وعلى العاقل أن يُفَرِّقَ بين تفريط جيل وذَهَاب دين.

إن دينَ الحَقِّ - الذي تكفل الله بحفظه - لا يضيع بضياع مَنْ فَرَّطَ أو ضَيَّعَ، وإنما هو بَاقٍ بعزَّة مَن أَعَزَّه، فلا يقترب من ساحته باطلٌ، ولا يُوقفُ مَدَّه حاسدٌ أو حاقدٌ، ولا يُطفِئ نورَه أو يحبس ضوءَه مَفْتُونٌ بقوَّته أو مأخوذٌ بفتنته مَزْهُوٌّ بزينته.

وهذا وَضْعُهُ وتلك حقيقته: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[١].

ثم يأتي - بعد ذلك - قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٢] ليكون دعوة للمؤمنين جميعاً، يستحضرونها ويطمئنون إليها، ويحذرون أن ينخدعوا لمنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإسلامُ قلبَه.

---

(١) فصلت: ٤١، ٤٢.

(٢) المائدة: ٥٥.

فإن من آثار الإيمان بالقلب أن يقيم المؤمنُ الصلاةَ، وأن يُؤتى الزكاةَ يُقيم الصلاةَ خاشعاً، ويؤتى الزكاةَ راضياً.

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

وقد رأينا النتائج في وقائع عملية، ورأينا ذلك في واقعة بنى قينقاع، وقد كانوا أحلافاً لعبدالله بن أُبَىّ بن سلول ولعُبادة بن الصَّامت

فأما عُبادةُ بن الصَّامت فقد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إني أبْرَأُ إلى الله من حِلْف يهود وولائهم، ولا أُوالى إلا الله ورسولَه.

وكان عبدُ الله بن أُبَىّ حاضراً فقال: أمَّا أنا فلا أبْرَأُ من حِلْفهم، فإني لابُدَّ لي منهم، إني رجلٌ أخافَ الدوائر.

وقد رأينا تحقيق قوله تعالى ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

وذاك ما يُثْمِرُه صدْقُ المولاة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ سُنَّةٌ لا تتعلق بزمان أو مكان، سُنَّةٌ لا تتخلَّف، وإن خَسرَ المؤمنون بعضَ المواقف أو المعارك.

إنَّها سُنَّةٌ لا تُنْقَض بابتلاء أو امتحان، أو إبطاء نَصْر أو تعجيل فَوْز، فإن النَّصْرَ - في حقيقته - مرتبط بالعواقب، ومن تدبَّرَ العواقب أيْقَنَ يقيناً - لا شَكَّ فيه - أن الحقَّ لا يُهْزَمُ أبداً، وأن الباطل - مهما تطاول - زَاهِقٌ إزهاقاً لا ريب فيه.

فَلْتَكُن الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين في كُلِّ حَالٍ.

وذلك إنما يكون باستحضار العواقب، فإن مَنْ يُوالى الله يكون من حِزْبِ الله، ومَن كان في حِزْبِ الله فهو من الفائزين؛ لأنه في ضمان الله وفي جنده الذي لا يُغْلَبُ أبدًا.

---

(١) المائدة: ٥٦.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وإذا كان بنو قيفاع قد أظهروا البغي والحَسَدَ بعد انتصار المسلمين في غزوة بَدْر، ووقع منهم ما استوجَبَ حصارَهم، فقد كانوا أوَّلَ من نقضَ العهدَ من اليهود، وكان الرسول ﷺ قد وَعَظَهم وحذَّرهم، وقال لهم: «يا معشر يهود، إحذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة».

فكان مما قالوه: يا محمد، لا يَغُرَّنَّكَ أنك لَقيتَ قومًا لا عِلْمَ لهم بالحرب فأَصَبْتَ منهم فُرصَةً، إنَّا والله، لئن حَارَبْنَاك لتَعْلَمَنَّ أنَّا نَحْنُ الناس.

فجاءت العاقبة مُخبِرَةً بصدْق ما قاله الله لرسوله ﷺ وأمَرَه أن يُخبرهم به، من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾(٢).

كما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «ما أُنزلت هذه الآيات إلا فيهم» يعنى في بنى قينقاع الذي قالوا حين بلَّغهم الرسولُ ﷺ وحذَّرهم -: إنَّا والله، لئن حَارَبْنَاك لتَعْلَمَنَّ أنَّا نَحْنُ الناس.

وجدير بَمن تدبَّر مُداولَةَ الأيام بين الناس ألا يغيب عنه ما يُوحي به القرآنُ الكريمُ في الوقائع والأحداث التي أَنْزَل الله فيها قُرآنًا يُتْلَى.

جديرٌ بهم أن يأخذوا هدايتَهم من كتاب ربِّهم وبيان رسولهم ﷺ؛ ليَعْصموا أنفسَهم من ضلال أو إضلال ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٣).

«وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ»(٤).

*****

(١) المجادلة: ٢١ .
(٢) آل عمران: ١٢، ١٣.
(٣) الإسراء: ٩ .
(٤) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ٢١٣٧

غزوة أُحُد

في شوال سنة ٣ هـ

كانت في السنة الثالثة من هجرة الرسول ﷺ.

وسُمِّيَتْ غزوة أُحُد باسم الجبل الذي قال عنه الرسولُ ﷺ «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»(١) وهو أشهر جبال المدينة المُنَوَّرَة.

وقد نزلت في شأن غزوة أحد وما جرى فيها آياتٌ من سورة آل عمران.

وقبل أن نتدبَّر حديثَ القرآن الكريم عن هذه الغزوة، نَودُّ أنْ نقف على قِصَّتها؛ لتكون عَوْنًا على حُسْن تدبُّرها وإدراك الحِكَم والأحكام التي تُستفادُ منها لقد سُبِقَتْ هذه الغزوة بغزوة بَدْر الكُبْرَى التي وقَعَت في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

وفي الآيات التي أُنزلت في غزوة أحد قد جاءت هذه الآيةُ: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(٢).

وهي تتحدث عمَّا تمَّ من نَصْر للمسلمين في غزوة بَدْر، وسنرى أنها وثيقة الصِّلة بما أُنزِلَ من آيات تتحدث عمَّا جَرَىَ في غزوة أحد، فقد جاءت مُتناسِبَة ومُتضَامنة مع أخواتها من الآيات في بيان حقيقة النَّصْر ومتى يكون.

فلا غرابة أن يقع ما وقع في أحد، وأن يتِمَّ ما قد تَمَّ في بَدْر.

ومع تَدبُّر حديث القرآن عن بَدْر وعن أُحُد نستطيع أن نعرف سُنَن الله في مُداولة الأيام بين الناس، وهي سُنَنٌ لا تتبدل ولا تتحوَّل، ولا تُجامل أحدًا من الخَلْق ولا تُحَابي.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٧٤، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٧٥، ٢٦٧٩، كتاب الزكاة، حديث رقم ١٣٨٧، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١١٦.

(٢) آل عمران: ١٢٣.

وقد أنزل الله سبحانه سورة الأنفال في غزوة بَدْر، وهي تُسَمَّى «سورةُ بَدْر» كما أُنْزِلَت عشرات الآيات في سورة آل عمران تتحدث عمَّا جرى في غزوة أُحُد.

وإذَنْ فنحن في حاجة أن نعرف ما أُنْزِلَ فيها؛ لتظلّ عِبرتُها قائمةً في حياة الناس ما بقِيَ الليلُ والنهارُ وهي تُتْلَى في القرآن، فلا تقرأ أحداثُها في صفحاتٍ ثُمَّ تُطْوَى، وإنما تُعْرَف من آيات محفوظة باقية تُعين - دائمًا - على التبصرة والذكرى.

ولكن قبل أن نتحدث عن غزوة أُحُد وما جرى فيها من أحداث، جدير بنا أن نتوقف على «غزوة ذات السويق» وكانت بعد بدر بشهرين.

غزوة ذات السويق:

لَمَّا خَذَلَ الله المشركين في غزوة بَدْر، ورجع فُلُّهم إلى مكة مقهورين مَوْتُورين، نَذَرَ أبو سفيان بنُ حَرْب ألاَّ يَمَسَّ رأسَه ماءٌ من جَنَابة حتَّى يغْزُو محمدًا ﷺ.

فخرج في مئة رجل من قريش حتَّى أتى بني النَّضير ليلاً، وبَاتَ ليلةً واحدةً عند سَلاَّم ابن مشكم اليهودي، سيِّد بني النَّضير وصاحب كَنْزهم، فسقاه الخمرَ، وبطن له من خَبَر الناس، ثُمَّ خرج في عَقِب ليلته وأرسل أصحابَه إلى ناحية من المدينة يُقال لها «العُرَيْض»[١] فقتلوا وحرَّقوا صُورًا من النخل، ورأوا رجلاً من الأنْصَار وحليفًا لهما فقتلوهما

وعلم به رسولُ الله ﷺ فخرج في طَلَبه فلم يدْركهم؛ لأنهم فَرُّوا، وأَلْقَوْا سَويقاً كثيراً من أزْوَادهم يتخَفَّفُون به، فسُمِّيَتْ «ذات السَّويق» وكانت بعد بَدْر بشهرين.

وإنما ذكرناها قبل ذِكْر «أُحُد» ليَعْلَمَ القارئُ أنَّ العُدوان من المشركين على المسلمين كان مُتَّصِلاً مُتلاحِقاً.

---

(١) العُرَيْض: موضع من أرجاء المدينة، فيه أصول نخل.

قريش تستعد ليوم أُحُد:

لما رجع أبو سفيان إلى مكة، أخذَ يُؤَلِّبُ على رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان بعد قَتْل صناديد قريش في بَدْر هو السَّيِّد الرئيس فيهم

لذلك كَلَّمَهُ في أَمْرِ المسلمين المَوْتُورون من عظماء قريش، كعبدالله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميَّة؛ ليبذل مال العِير التي كان جاء بها من الشام في أخذ الثَّأْر، فرضِيَ هو وأصحابُ العير بذلك، وكان مالُ العير - كما جاء في السيرة الحلبية - خمسين ألف دينار، رَبِحَتْ مثلَها، فبذلوا الرِّبْحَ في هذه الحرب.

فاجتمعت قريشٌ للحرب حين فعل ذلك أبو سفيان، وخرجت بحَدِّهَا وجَدِّها وأحابيشِهَا[1] ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة وأهل تِهَامة، وكانوا نحو ثلاثة آلاف، وأخذوا معهم نساءَهم التماسَ الحفيظة وألاَّ يَفِرُّوا؛ فإن الفرار بالنساء عُسرٌ وعَارٌ.

وكان مع أبي سفيان - وهو القائد - زوجُه هندُ ابنة عُتبة، فكانت تُحَرِّض الغلامَ وَحْشياً الحبشيَّ الذي أرسله مولاه جُبيرُ بن مطعم ليقتل حمزة عمّ النبي ﷺ بعَمِّه طُعمة بن عدي الذي قُتِلَ في بَدْر، وقد عَلَّقَ عِتْقَه على قَتْلِه

وكان هذا الحبشي ماهراً في الرَّمي بالحَرْبَة على بُعْد، قلَّمَا يُخطئ

فكانت هندُ كلمَّا رَأَتْهُ في الجيش تقولُ له: «وَيْهَا أبا دسمة، أَشْفِ واسْتَشْفِ» تُخاطبه بالكُنية تَكْريماً له.

وذكر الحلبيُّ أنهم سَارُوا - أيضاً - بالقِيَان والدُّفُوف والمعازف والخمور فنزل أبو سفيان بجيشه قريباً من أحد في مكان يُقال له «عينين» وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة.

---

(١) بحدِّها - بفتح الحاء - هنا البأس، وجدِّها: العظمة والغني، والأحابيش: حلفاء قريش من اليهود والمشركين، سُمُّوا بذلك لأنهم تحالفوا بالحُبْشَى - جبل بأسفل مكة - تحالفوا أنهم مع قريش يد واحدة.

الرسول ﷺ يستشير أصحابه:

فلمَّا علم رسولُ الله ﷺ بذلك استشار أصحابَه كعادته أيَخْرُجُ إليهم أم يمكث في المدينة؟

وكان رأيُه هو ﷺ أن يتحصنوا بالمدينة، فإنْ دخلها العدوُ عليهم قاتَلُوه على أفواه الأزِقَّة، والنساء من فوق البُيُوت.

ووَافَقَهُ على هذا الرأي أكابرُ المهاجرين والأَنْصَار - كما في السيرة الحلبية - وعبدُ الله بن أُبَي، وكان هو الرأي.

وأشار جماعة من أصحابه - أكثُرُهم من الأحداث وممَّن فاتَهُم الخروجُ يوم بَدْر - بأن يخرج إليهم لشدَّة رغبتهم في القتال

فما زالوا يُلِحُّون على رسول الله ﷺ حتَّى دخل فلَبِسَ لأْمَتَه[1] بعد صلاة الجمعة، وكان قد أوصاهم في خطبتها ووَعدَهم بأنَّ لهم النَّصْر ما صَبَرُوا.

ثم خرج عليهم وقد نَدِمَ الناسُ وقالوا: اسْتَكْرَهْنَا رسولَ الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك.

وقالوا له: اسْتَكْرَهْنَاكَ ولم يكن لنا ذلك.

فقال ﷺ: «ما كان لنبيٍّ إذا لَبِسَ لأْمَتَه أنْ يضعها حتَّى يحكم الله بينه وبين عدُوِّه».

ابن أُبَيّ يرجع بثُلث الجيش:

وفي سَحَر يوم السبت خرج رسول الله ﷺ بأَلْف من أصحابه، واستعمل عبدَ الله بن أُمِّ مكتُوم الأعمى على الصلاة بمَنْ بَقِيَ فيها.

فلما كانوا بـ «الشَّوْط» بين المدينة وأُحُد، انعَزَل عنه عبدُ الله بن أُبَي بن سَلُول رئيسُ المنافقين بنحو ثُلُث العَسْكَر، وهم ثلاث مئة رجل.

---

(١) اللأْمَةُ: لباس الحرب.

وقال: أطاعهم وعَصَاني. وفي رواية: أطاع الولدان ومَنْ لا رأيَ لَهُ! فما ندري عَلاَمَ نَقْتُلُ أنفسنا هَهُنَا أيُّهَا الناس؟!

فرجع بمَنْ اتَّبَعَهُ من قومه أهلِ النفاق والرِّيَب.

فتبعهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سَلَمَة يقول: أُذكرُكم الله ألا تَخذِلُوا قومَكم ونبيَّكم، تعالوا قاتِلُوا في سبيل الله أو ادفعوا.

قالوا: لو نعلم أنَّكم تُقاتِلون لم نرجع، ولكن نرى ألا يكون قتالٌ.

وهمَّت بنو سَلَمَة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج أن تفشلا، فعصمهما الله تعالى.

وقد كان خروجُ المنافقين منهم خيراً لهم، كما قال الله تعالى في مثل ذلك يوم تبُوك: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾[1].

وإنما ارْتَأَى عبدُ الله بن أُبَي عدم الخروج ليُكفَى أمر القتال وخطره؛ حرصاً على الحياة وإيثاراً لها على إعلاء كلمة الله.

فكان على موافقته للرسول ﷺ في الرأي مُخالفاً له في سببه وعِلَّته، فالرسول ﷺ كان يُراعي - في جميع حروبه التي كانت دفاعاً - قاعدة أخف الضررين وأبْعَد الأمرين عن العُدوان رحمة بالناس، وإيثاراً للسَّلام.

وتعَـزَّزَ رأيُه - المَبْني على هذه السنَّة - برؤيا رَآهَا قبل ذلك، وكان لا يرى رُؤْيَا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبْح[2].

رأى ﷺ في سيفه ثُلْمَةً[3] ورأى أنَّ بَقراً تُذبَح، وأنَّه أَدْخَلَ يده في درعٍ حصينة فتأوَّل الثُّلمةَ في سيفه برَجُلٍ يُصابُ من أهل بيته، فكان ذلك الرجل حمزة عمّه ﷺ.

---

(١) التوبة: ٤٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٣، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٧٢، كتاب التعبير، حديث رقم ٦٤٦٧.

(٣) الثُّلْمَة: الفرجة والشق.

وتأول البقرَ بنَفَرٍ من أصحابه يُقتَلون.

وتأوَّل الدِّرْعَ بالمدينة.

ولكنه على هذا كُلِّه عمل برأي الجمهور من أصحابه؛ إقامةً لقاعدة الشورى التي أَمَرَهُ الله بها.

وهو لم يخالف بذلك قاعدةَ «ارتكاب أخفّ الضررين» بل جَرَىَ عليها؛ لأن مخالفة رأي الجمهور - ولَوْ إلى خَيْر الأمْرَين - هَضْمٌ لحَقِّ الجماعة، وإخلالٌ بالشُورَى التي هي أساسُ الخير كُلِّه.

وإنما كان يكون المُكْثُ في المدينة خيراً من الخروج إلى العدو في أُحُد، لو لم يكن مُخِلاً بقاعدة الشُورَى كما هو ظَاهر.

وسألَ قومٌ من الأنْصَار النبيَّ ﷺ أن يستعينوا بحُلفائهم من اليهود فَأَبَىَ، وكان - في الحقيقة - ضِلْعُ اليهود مع المشركين، ولم يكونوا في عهودهم مَوَفِّين.

الرسول ﷺ يستعد للقتال:

ومضى رسولُ الله ﷺ حتَّى نزل الشِّعْبَ من جبل أحد، في عُدْوَةِ الوادي إلى الجبل، فجعل ظَهْرَهُ وعَسْكَرَهُ إلى أحد، وقال: «لا يُقَاتِلْ أحدٌ حتَّى نَأمَرَ بالقتال».

فلمَّا أصبح يوم السبت تَعَبَّى للقتال في سبع مئة، فيهم خمسون فارساً وظاهر بين درعين - أي لَبِسَ دِرْعَاً فوق دِرْعٍ.

واستعمل على الرُّمَاة - وكانوا خمسين - عبدَ الله بن جُبَيْر، أخا بني عمرو بن عوف، وهو مُعَلَّمٌ يومئذ بثياب بيض.

وقال: «انْضَحْ الخيلَ عنَّا بالنَّبْل، لا يأتُونَنَا من خَلْفِنا، إنْ كانت لنا أو علينا فاثْبُتْ مكانك، لا نُؤْتَيَنَّ من قِبَلِكَ».

ودفع اللواءَ إلى مُصْعَب بن عمير، أخي بني عبدالدار، وجعل على أَحَدِ المَجْنَبَتَيْن الزبيرَ بنَ العوَّام، وعلى الأخرى المنذرَ بن عمرو.

ثم استعرض ﷺ الشبابَ يومئذ، فَرَدَّ مَن اسْتَصْغَرَهُ عن القتال، وهم سبع عشرة، وأجَازَ أفراداً من أبناء الخامسة عشرة؛ لبِنيَتِهم وطاقتهم.

وكان ﷺ قد ردَّ سُمرةَ بن جندب، ورافعَ بن خَديج، ولهما خمس عشرة سنة، فقيل له: يا رسول الله، إنَّ رافِعَاً رَامٍ. فأجازه.

فقيل له: فإنَّ سُمرة يَصْرَعُ رافعاً فأجازه، وروي أنهما تصارَعَا أمامَه.

وردَّ عبدَ الله بنَ عمر، وزيدَ بنَ ثابت، وعمروَ بن حزم، وأسيدَ بن ظهير، والبراءَ بن عازب، ثُمَّ أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة؛ إذ كانوا يُطيقون القتالَ في هذه السِّن، كما هو الغالب في العرب يومئذ.

وتَعَبَّتْ قريشُ وهم ثلاثة آلاف رجل، معهم مئة فرس قد جنَّبُوها، فجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالدَ بن الوليد، وعلى مَيْسَرَتها عكرمةَ بن أبي جهل

وابتدأتْ الحَرْبُ بالمُبَارَزة، ولما اشتبك القتالُ، والتقى الناسُ بعضُهم ببعض، قامت هندُ بنت عُتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذت الدفوفَ يَضربن خلف الرجال، ويُحرضْنَهم، فقالت هند فيما تقُول:

وَيْهاً بني عبدالدار، وَيْهاً حُمَاة الأدبار، ضَرْباً بكُلِّ بَتَّار..

إنْ تُقبِلُوا نُعانِقْ، ونَفْرشُ النَّمَارق[1] أو تُدبروا نُفارِقْ، فراقاً غير وامِقْ

ورُويَ أن النبي ﷺ كان يقول عند سماع نشيد النساء: «اللَّهم، بك أَحُولُ، وبك أصُولُ، وفيك أُقَاتل، حسبي الله ونِعْمَ الوكيل».

وكان أوَّل من بَدَر من المشركين أبو عامر عبدبن عمرو بن صيفي، وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شَرَقَ به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، وخرج من المدينة يُؤلِّب قريشاً على قتله.

---

(١) النَّمَارق: مفارش الرِّحال.

ويزعُم أن قومه إذا رَأَوْه أطاعوه ومالوا معه، وكان يُسَمَّى «الراهب» فسَمَّاه الرسولُ ﷺ بـ «الفاسق».

ولما برزوا نادى قومَه، وتعرَّف إليهم، فقالوا له: لا أَنْعَمَ الله بك عَيْناً يا فاسق.

فقال: لقد أصاب قومي بعدي شَرٌّ.

وقاتَل قتالاً شديداً، وقد كان الظَّفْرُ للمسلمين في المبارزة ثُمَّ في المُلاحَمة

وأبْلَى - يومئذ - أبو دُجَانَة الأنْصَاري الذي أعطاه النبي سَيْفَه، وحمزةُ أسَدُ الله وأَسَدُ رسوله، وعليٌّ بن أبي طالب، والنَّضْرُ بن أنس، وسعدُ بن الربيع، وغيرُهم بلاءً عظيماً، حتَّى انهزم المشركون وولَّوا الأدبار.

وروي أنَّ حمزةَ قتل وحده واحداً وثلاثين مشركاً.

قال ابنُ هشام: حدَّثني غيرُ واحد من أهل العلم أن الزبيرَ بن العوام قال:

وجَدت في نفسي حين سألتُ رسولَ الله ﷺ السيْفَ فمَنَعَنيه، وأعطاه أبا دُجَانَة، وقلت: أنا ابن صَفِيَّة عمَّته، ومن قريش، وقد قُمْتُ إليه فسألته إيَّاه قَبْلَه، وأعطاه وتركني!!

والله، لأنْظُرَنَّ ماذا يصنع، فاتَّبعتُه فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسَه.

فقالت الأنْصَار: أخرج أبو دُجَانَة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول إذا تعصَّب بها.

فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهَدَني خليلي ونحنُ بالسَّفْح لدى النخيل

ألاَّ أقوم الدَّهْر في الكيُّول[1] أضربُ بسيف الله والرسول

قال ابن إسحاق: فجعل لا يلقَى أحداً إلا قَتَلَهُ، إلى آخر ما قال.

---

(١) الكُيُّول: آخر صفوف الحرب.

ومما كان منه أنَّه وصَل إلى هند امرأة أبي سفيان قائد المشركين، فوضع السيفَ على مَفْرَق رأسها، ولم يقتُلها.

قال: رأيتُ إنساناً يحمش[١] حمشاً شديداً، فصمدت له، فلمَّا حَمَلْتُ عليه وَلْوَلَ، فإذا امرأة، فَأَكْرَمْتُ سيفَ رسول الله أن أَقْتُلَ به امرأةً.

ومن فوائد إعطاء السيف أبي دُجَانَة: أن من سياسته ﷺ أنه لم يكن يُحابي قومَه ولا ذي القُربَى على غيرهم من المهاجرين، ولا المهاجرين على الأَنْصَار، ولولا ذلك لما انتُزعَتْ من قلوبهم عصبيَّة الجنسية الجاهلية.

الرُّماة يخالفون أمر الرسول ﷺ:

لَمَّا انهزم المشركون، ووَلُّوا إلى نسائهم مُدبرين، ورأى الرُّماةُ من المسلمين هزيمتَهم، ترك الرُّماةُ مركزَهم الذي أمَرَهُم رسولُ الله ﷺ بحفْظه وألاَّ يَدَعُوه سواء كان الظَّفَرُ للمسلمين أو عليهم، وإنْ رأَوْا الطيرَ تتخطَّفُ العَسْكَر؛ لئلا يَكِرّ عليهم المشركون ويأتُوهم من ورائهم وهو ما يُعَبَّر عنه - في الاصطلاح العسكري بـ «خَطِّ الرَّجْعَة».

وقالوا: يا قوم، الغنيمة الغنيمة.

فذكَّرهم أميرُهم عهدَ رسول الله ﷺ فلم يرجعوا، وظنُّوا أن ليس للمشركين رَجْعَةٌ فذهبوا في طَلَبِ الغنيمة، وأخلوا الثُّغْرَ، فلما رأى فرسانُ المشركين الثُّغْر قد خَلا من الرُّمَاة، كرُّوا حتَّى أقبل آخرُهم، فأحاطوا بالمسلمين، وأبْلَوا فيهم، حتَّى خَلصُوا إلى رسول الله ﷺ، فجرحُوا وجهَهُ الشريف، وكسروا رُباعيَّته[٢] اليُمنى من ثناياه السفلى، وهشَّموا التي على رأسه، ودثوه بالحجارة حتَّى سَقَطَ لِشقِّه، ووقع في حُفْرَة من الحُفَر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها للمسلمين، فأخذ بيده واحتضنه طلحةُ بن عبيد الله.

---

(١) أي اشتد غضبه.

(٢) رباعيته: سِنُّه التي بين الثنية والناب.

وكان الذي تولى أذاه عبدُ الله بن قمئة، وعتبةُ ابن أبي وقاص.

وكان برسول الله ﷺ ذلك اليوم من أَلَم الجراح أن عجز عن الصعود إلى صخرة أراد أن يَعْلُوَهَا، فوضع له طلحة ظهرَه فقام عليه، فنهض به حتَّى صعدها، وحانَتِ الصلاةُ، فصلى بالناس جالساً تحت لواء الأَنْصَار

وقُتِلَ في ذلك اليوم حمزةُ بن عبدالمطلب رضي الله عنه قَتَلَهُ وحشيٌّ الحبشي الراصد له، وقد عرفه وهو خائضُ المعمعة[1] كالجمل الأَوْرَق[2] يقط الرقاب[3]، ويُجَنْدِل الأبطالَ، لا يقف في وجهه أحدٌ، فرماه بحَرْبَته عن بُعْدٍ على طريقة الحبشي، وكان قد أَتْقَنَها، ولو قَرُبَ منه لَمَا نَالَ إلاَّ حَتْفَهُ

وقد شَقَّ على رسول الله ﷺ قَتْل عمِّه، إذ كان - على قُرْبه - من السابقين إلى الإيمان به والمانعين عنه، وكان أشدَّ أهله بأساً وأعظمهم شجاعة.

بل لو قُلنا: إنه كان أشجع المسلمين أو العرب في ذلك العهد لم نَكُنْ مُبالِغين، فقد رُوِيَ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على النبي ﷺ يوم إسلامه خافَهُ المسلمون إلا حمزة، فإنه وطَّنَ نفسه على قتله بلا مبالاة.

ورُوِيَ أن النبي ﷺ حَلَفَ لَيُمَثِّلَنَّ بهم عندما يُظفِرُه الله بهم، فنهاه الله عن ذلك، فكفَّر عن يمينه، وكان ينهى عن التمثيل بالقتلى، فلم يفعله المسلمون.

وخرج نساءٌ من المدينة لمساعدة الجَرْحَى، وكانت فاطمةُ - رضي الله عنها - هي التي دَاوَتْ جُرْحَ والدها - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه بعد أن مَصَّ الدَّمَ منه والدُ أبى سعيد الخُدرى حتَّى أَنْقَاه، تولَّته هى.

ففي الصحيحين عن أبى حَازِمٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّه، إِنِّي لأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ يَسْكُبُ المَاءَ، وَبِمَا دُووِيَ.

---

(١) المعَمَعَةُ: صوتُ الحريق، وصوت الشُّجْعان في الحرب، كلُّ ذلك مَعْمَعَةٌ.

(٢) الأورق من كل شيء: ما كان لونه لون الرماد.

(٣) يَقطُّ الرقاب: أي يقطعها.

كَانَتْ فَاطِمَةُ - رضي الله عنها - بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُهُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ (١) فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لا يَزِيدُ الدَّمَ إِلاَّ كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ.. الحديث)(٢).

وقد انتهت الحربُ بصَرْف الله المشركين عمَّا كانوا يُريدون من استئصال المسلمين، فإن المسلمين كانوا - أولاً - هم الغالبين بحُسْن تدبير الرسول ﷺ، والصبر والثبات، وتَمَحُّض القَصْد إلى الدفاع عن دين الله وأهله.

فلمَّا أخرجهم الظَّفَرُ عن التزام طاعة رسولهم وقائدهم، ودَبَّ إلى قلوب فريق منهم الطمعُ في الغنيمة، فشلوا وتنازعوا في الأمر كما سيأتي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ... الآية﴾(٣).

وزادهم فشلاً إشاعةُ قَتْل الرسول ﷺ حتَّى فَرَّ كثيرون إلى المدينة، منهم: عثمان بن عفان، والوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد، ولكنهم استحيوا من دخولها، فرجعوا بعد ثلاث.

واختلط الأمرُ على كثير ممَّن ثَبَتَ.

ولَمَّا جاءهم خالد بالفرسان من ورائهم صَار يَضْربُ بعضُهم بعضاً على غير هُدَىً، فمنهم الذين استَبْسَلُوا وأرادُوا أن يمُوتُوا على ما مَاتَ عليه الرسولُ ﷺ، ومنهم الذين كانوا معه ﷺ يفدُونَه بأنفسهم، ويتَلَقَّوْنَ السِّهَامَ والسيوفَ دُونَه، حتَّى كان يَعزُّ عليهم أنْ يَرَوه ناظراً إلى جهة المشركين لئلا يُصيبُه سَهْمٌ.

فكان أبو طلحة - الذي تقدَّم ذِكْرُ نِضَاله عنه - يقولُ له: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأُمِّي، لا تنظُر؛ يُصيبُك سَهْمٌ من سهام القوم.. نَحْرِي دُونَ نَحْرِك.

---

(١) المِجَنُّ: الدرع الواقي للمقاتل.

(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٦٧، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٤٥.

(٣) آل عمران: ١٥٢.

ولمَّا علم سائرُ المسلمين ببقَاء رسول الله ﷺ نُفختَ فيهم رُوحٌ جديدةٌ من القُوَّة، فاجتمع أمرُهم حتَّى يئس المشركون منهم، وصرفهم الله عنهم، كما صرَّح بذلك القرآنُ الكريم.

نماذج رائعة من الحُب والتفاني:

* وفي هذا اليوم العصيب قُتِلَ مُصْعَب بن عمير بين يدى رسول الله ﷺ فدفع اللواءَ إلى عليّ بن أبي طالب، ونَشَبَتْ حَلَقتان من حلَق المغفر في وجنته، فانتزعها أبو عبيدة بن الجراح، عضَّ عليها حتَّى سقطت ثنيتاه من شدَّة غَوْصهمَا في وجهه.

* وامتص مالكُ بن سنان، والد أبي سعيد الخدري الدَّمَ من وَجنته.

وطمع فيه المشركون، فأدركوه يريدون منه ما الله عاصم إيَّاه منه بقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾(١).

وحالوا دونه نَفَرٌ من المسلمين نحو عشرة حتَّى قُتلُوا.

ثم جالَدَهم طلحةُ حتَّى أجهضهم عنه، تقول أُمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها-: «قال أبو بكر: لَمَّا كان يوم أُحُد انصرف الناس كُلُّهم عن النبي ﷺ، فكُنْتُ أوَّل من فَاءَ إليه، فرأيتُ بين يديه رجلاً يُقاتِل، فقلت: كُنْ طلحة فداَك أبي وأُمِّي «مرتين» فلم أَنْشَب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح وهو يشتدُّ كأنَّه طَيْرٌ، فدفعنا إلى النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صَريعاً، فقال ﷺ: دُونَكُم أخاكم، فقد أَوْجَبَ». أي: وجبت له الجنة.

* وترَّسَ عليه أبو دُجَانَة بنفسه، فكان يقع النَّبْل على ظهره وهو لا يتحرك حتَّى كثُر فيه.

---

(١) المائدة: ٦٧.

* ودافع عنه بعض النساء االلواتي شهدن القتال.

قال ابنُ هشام: وقاتَلَتْ أُمُّ عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد، فذكر سعيدُ بن أبي زيد الأنصَاري أن أُمَّ سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخَلْتُ على أُمِّ عمارة فقلت لها: يا خالة، أخبريني خَبَرك.

فقالت: خرجتُ أوَّل النهار وأنا أنظرُ ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولةُ والريحُ للمسلمين.

فلمَّا انهزم المسلمون انحَزْتُ إلى رسول الله ﷺ فقُمْتُ أباشِرُ القتالَ، وأَذُبُّ عنه بالسيف، وأرمي عنه القوس، حتَّى خَلُصَت الجراحُ إليَّ.

فرأيتُ على عاتقها جُرحًا أجوف له غَوْرٌ، فقلت مَن أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقْمَأَهُ الله، لَمَّا ولَّى الناسُ عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دُلُّوني على محمد، فلا نَجَوْتُ إن نَجَا. فاعتَرَضْتُ له أنا ومُصْعَب بن عمير وأناسٌ ممَّن ثَبَتَ مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولكنْ ضربتُه على ذلك ضربات، ولكنَّ عدوَ الله كان عليه درعان.

* وأعطَت امرأةٌ ابنَها السيفَ، فلم يُطِق حملَه، فشَدَّتْه على سَاعِده، وأتَتْ به فقالت: يا رسول الله، هذا ابني يُقاتلُ عنك فقال: أيْ بُني، احمل هَهُنَا. فجُرِحَ، فأتى النبي ﷺ فقال له: لعلك جزعت؟ قال: لا يا رسول الله.

قال: وصَرَخَ صارخٌ بأعلى صوته: إنَّ محمداً قد قُتِل.

قال الزبيرُ فيما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق، من وصفه لهزيمة المشركين: والله، لقد رأيتُني أنظر إلى خَدَم هند بنت عُتبة وصواحبها مُشمِّرات هوَارب، ما دُون أخذهن قليلٌ ولا كثيرٌ، إذ مالت الرُّماةُ إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلُّوا ظهورنَا للخيل، فأُتينا من خلفنا، وصَرَخَ صارخٌ: «ألا إنَّ محمدًا قد قُتِل».

فانْكَفَأْنَا، وانكفأ علينا القومُ بعد أن أُصبنا أصحاب اللواء، حتَّى ما يدنو منه أَحَدٌ من القوم، ووقع ذلك في نفوس كثير من المسلمين فانهزموا، وكُسِرَتْ قلوبُهم.

* ومَرَّ أنسُ بن النضر بقوم من المسلمين فيهم عمرُ وطلحةُ قد ألقَوْا بأيديهم، فقال: ما تنتظرون؟

فقالوا: قُتِلَ رسول الله.

فقال: فماذا تصنعون بالحياة بَعْدَه؟ قُومُوا فمُوتُوا على ما مَاتَ عليه رسولُ الله ﷺ.

ثم استقبل القوم، ولقي سعدَ بن مُعَاذ، فقال: يا سعدُ، إني لأجدُ ريحَ الجنة من دُون أُحُد، فقاتل حتَّى قُتِلَ، ووُجدَ به سبعون ضربة.

* وجُرح عبدُ الرحمن بن عوف نحو عشرين جراحة.

وأقبل رسولُ الله ﷺ نحو المسلمين، وكان أوَّل من عرفَه تحت المغفر كعبُ بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار بيده أن اسكت.

واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشِّعْب الذي نزل فيه، وفيهم أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، والحارث بن الصمَّة الأنْصَاري، وغيرُهم.

وأنزلَ الله النُّعَاسَ على المسلمين أَمَنَةً ورحمةً، فكانوا يُقاتِلُون ولا يشعرون بألَم ولا خَوف.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُد فِي سَبْعَة مِنَ الأَنْصَار وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْش، فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ؟ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّة؟ فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار فَقَاتَلَ حتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّة؟ فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار فَقَاتَلَ

حتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا)(١).

وقد زلزل كُلُّ أحد - ساعتئذ - إلاَّ رسول الله ﷺ فإنه لم يتحرك من مكانه.

الرسول ﷺ يقتل أُبيّ بن خلف:

وأدرك رسولُ الله ﷺ أُبَيَّ بن خَلَف وهو مُقَنَّعٌ بالحديد على جواد له يُقال له «العَوْد» كان يعلفُه في مكة ويقول: أقْتُل عليه محمداً.

وكان قد بلغ الرسولَ ﷺ خبرُه فقال: بل أنا أقتُله إنْ شاء الله.

فلمَّا اقترب منه استقبله مُصْعَب بن عمير، فقَتَل مُصْعَباً، وجعل يقول: أين هذا الذي يزعم أنه نبي؟ فَلْيَبْرُز لي، فإن كان نبياً قَتَلَني.

فتناول رسولُ الله ﷺ الحَرْبَةَ من الحارث بن الصمَّة فطعنه بها، فجاءت في تُرْقَوَته من فُرْجَةٍ بين سابِغَةِ الدِّرْع والبَيْضَة، فكرَّ الخبيثُ منهزماً.

فقال له المشركون: والله ما بك من بأس.

فقال: والله، لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لَمَاتُوا أجمعون.

ومات من ذلك الجُرح في «سَرِف»(٢) مرْجِعه إلى مكة، كذا في سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية.

وذكر الأولُ أن رسول الله ﷺ لما أخذ الحَرْبَةَ منه انتفَضَ انتفاضةً تطايرنا منه تطاير الشعراء(٣) عن ظهر بعير، ثُمَّ طعنَهُ طعنةً تَدَأْدَأَ(٤) منها عن فرسه مراراً، وفي [زاد المعاد] أنه مات برابغ.

---

(١) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٤٤.

(٢) سَرِف: موضع على ستة أميال من مكة، وقيل: سبعة، وتسعة، واثني عشر، تزوج به رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث، وهناك بنى بها، وهناك تُوفيت.

(٣) الشعراء: ذباب له لدغ.

(٤) تدأدأ: أي تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج مراراً.

أقول: ولم يَقْتُل النبيُّ في حياته أحداً سُواه؛ لأنه على كونه أشجع الناس وأثبتهم في مواقف القتال كان أرحمَهم وأرأفَهم، ولذلك كان يكتفي بالتدبير والتثبيت والدفاع عن نفسه، ولعله لو رأى مَنْدُوحَةً عن قَتْل أُبَي لَمَا قَتَلَهُ.

ما بعد القتال:

هذا ما كان من حَرْب الثلاثة الآلاف من المشركين للسَّبْع مئة من المسلمين ولما انتهت الحربُ أشرَفَ أبو سفيان على الجبل، فنادى: أَفيكُم محمدٌ؟ فلم يُجيبوه.

فقال: أفيكُم ابن أبي قحافة؟ فلم يُجيبوه.

فقال: أفيكُم عمر بن الخطاب؟ فلم يُجيبوه.

فقال: أمَّا هؤلاء فقد كُفيتموهم.

فلم يملك عمرُ نفسه أنْ قال: يا عدُوَّ الله، إن الذين ذكرتَهم أحياءٌ، وقد أبقى الله لك ما يَسُوءك.

فقال: قد كان في القوم مُثْلَةٌ[1] لم آمُر بها ولم تسُؤْني.

ثم قال: اعْلُ هُبَل[2].

فقال النبي ﷺ: ألا تُجيبُوه؟

فقالوا: فما نقول؟

قال: قولوا: الله أعلى وأَجَلّ.

ثم قال أبو سفيان: لنا العُزَّى[3] ولا عُزَّى لكم.

---

(١) المُثْلَة: تشويه الجسد قبل القتل أو بعده.

(٢) هُبَل: من أعظم أصنام العرب، كان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمني، أدركته قريش كذلك، فجعلت له يداً من ذهب.

(٣) العُزَّى: صنم كان بواد يُقال له حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلي العراق من مكة، اتخذها ظالم بن أسعد.

قال: ألا تُجيبوه؟

قالوا: ما نقول؟

قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بَدْر والحَرْبُ سِجَالٌ.

فأجابه عمرُ: لا سواء، قتْلانَا في الجنة وقتلاكُم في النار. وانصرف الفريقان

الرسول ﷺ يتوجه إلى حمراء الأسد:

ولَمَّا انْكَفَأَ المشركون راجعين، ظنَّ المسلمون أنهم يريدون المدينة فقال النبي ﷺ لعَلِيٍّ: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن هُم جنَّبُوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيلَ وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نَفْسُ محمدٍ بيده، لئن أرادوها لأسيرَنَّ إليهم، ثُمَّ لأُنَاجزهم فيها.

فرآهم عليٌّ قد جنَّبُوا الخيل، وامتطوا الإبلَ، ووجهوا إلى مكة.

ولما عزموا على الرجوع أشرف أبو سفيان على المسلمين وناداهم: موعدُكم الموسم ببَدْر.

فقال النبي ﷺ: قولوا: نعم قد فعلنا.

ولَمَّا كان المشركون في الطريق تلاوَمُوا فيما بينهم، وقال بعضُهم لبعض: لَمْ تصنعوا شيئاً؛ أصبتم شوكتَهم وحدَهم، وتركتموهم وقد بَقِيَ منهم رءوسٌ يجمعون لكم، فارجعوا حتَّى نستَأصلَ شَأْفَتَهم.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فنادى الناس، ونَدَبَهُم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: لا يخرج منا إلاَّ مَنْ شَهِدَ القتال.

فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجُرح الشديد والخوف، وقالوا: (سمعًا وطاعةً).

وذلك من خَوَارِقِ قُوَّة الإيمان وآياته الكُبْرَى؛ فإن هؤلاء المستجيبين كان قد برح بهم التعبُ والجراحُ تبريحًا.

فسار بهم حتَّى بلغوا حمراء الأسد، وأقبل معبدُ الخزاعيُّ إلى رسول الله ﷺ، فأسْلَمَ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيَخْذُلَه، فلحقه بالروحاء، فقال: ما وراءك يا معبدُ؟

فقال: محمدٌ وأصحابُه قد تحرَّقوا عليكم، وخرجوا في جَمْعٍ لم يخرجوا في مثله، وقد نَدِمَ مَنْ كان تخلَّف عنهم من أصحابه.

فقال: ما تقول؟

قال: ما أرى أن ترتحل حتَّى يطلعَ أولُّ الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله، لقد أجمعنا الكَرَّةَ عليهم لنستَأْصلَهم.

قال: فلا تفعل فإني لك ناصحٌ.

فرجعوا على أعقابهم إلى مكة.

ولقيَ أبو سفيان بعضَ المشركين يريد المدينة فقال: هل لك أن تُبَلِّغْ محمداً رسالةً وأوقر لك راحلتَك زَبيبًا إذا أتيتَ إلى مكة؟

قال: نعم.

قال: أبلغ محمداً أنا قد أجْمَعْنَا الكَرَّة لنستأصله ونستأصلَ أصحابَه

فلما بلغ النبي ﷺ والمؤمنين قولُه قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وقد كان النبي ﷺ يدفن الرجلين والثلاثة من شهداء أحد في قبر واحد، وربما كانوا يُلَفّون بثوب واحد؛ لقلَةِ الثياب، ولم يُغَسَّلوا، ولم يُصَلَّ عليهم، كما في صحيح البخاري، وإن زعم بعضُ أهل السير أنه صلى عليهم(١).

*****

(١) أخرج البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه - رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلاءِ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُغَسِّلْهُمْ. أخرجه البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢٦١.

ومما يذكر في هذا الشأن أن النبي ﷺ لما ندب أصحابه للخروج، قال له جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما -:

«يا رسول الله إني أُحبُّ أن لا تَشْهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خَلَفنِى أبى على بناته، فأذَنْ لي أسير معك» فأذن له

قال ابن إسحاق: حدثني بعضُ أصحابنا عن عبدالله بن محمد بن عقل قال: سمعت جابر بن عبدالله يقول: قال لي رسول الله ﷺ: ألا أُبَشِّرُكَ يا جابر؟ قال: قلت: بلى يا نبي الله.

قال: إن أباك - حيث أُصيب بأُحُد - أحياه عز وجل ثُمَّ قال له: ما تحبُّ يا عبدالله بن عمرو أن أفعل بك؟

قال: أىَ ربِّ، أُحبُّ أن تردَّنى إلى الدنيا، فأُقاتل فيك فأُقْتَل مرة أخرى.

الرسول ﷺ يُثني على ربّه:

ولَمَّا أراد ﷺ الرجوعَ إلى المدينة ركب فرسه، وأمر المسلمين أن يصْطفُّوا، فاصطَفُّوا خَلْفَهُ، وعامَّتهم جَرْحَى، واصطفَّ خلفَهُم النساءُ، وهن أربع عشرة امرأة، فقال ﷺ: استَوُوا حتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ:

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لا قَابِضَ لِمَا بَسطْتَ، وَلا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلاَ هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ..

اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَركَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ..

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ..

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، وَالأَمْنَ يَوْمَ الخَوْفِ..

اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ..

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ..

اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلا مَفْتُونِينَ..

اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ..

اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الحَقِّ)[1].

ولما رجعوا قال المنافقون فيمن قُتِلَ: لو كانوا أطاعونا ولم يخرجوا لَمَا قُتِلُوا.

غزوة أُحُد في حديث القرآن الكريم:

إذا تمهَّدَ هذا فلنَشْرَع في تدبُّر حديث القرآن عن هذه الغزوة.

قال الزهري وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيى بن حبان وغيرُهم:

كان يوم أحد يومَ بَلاءٍ وتمحيصٍ، اختبر الله عز وجل به المؤمنين، وأظْهَرَ به المنافقين ممَّن كان يُظهر الإسلامَ بلسانه وهو مُسْتَخْفٍ بالكُفر.

فأكرم الله فيه مَنْ أراد كرامَتَه بالشهادة من أهل ولايته، فكان ممَّا نزل من القرآن في يوم أُحُد ستون آية من آل عمران أولها: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾[2] إلى آخر القصة.

ويطيب لي - في هذا المقام - أن أقول:

إنَّ المؤمنين لم ينكسروا في هذه الغزوة ولم ينتصروا، بل نَالَ العَدوُّ منهم ونالُوا منه، وإنما كَبُرَتْ عليهم؛ لأنهم حُرِمُوا النَّصْرَ وقُتِلَ منهم سبعون، وكانوا يَرْجُون أن يَهزِمُوا المشركين ويَرُدُّوهم مَدْحُورين.

---

(١) مسند أحمد - مسند المكيين، حديث رقم ١٤٩٤٥.

(٢) آل عمران: ١٢١.

قال ابن القيم في [زاد المعاد]:

قال ابنُ عباس: «ما نُصِرَ رسولُ الله في مَوْطنٍ نَصْرَه يوم أُحُد»[(١)].

فأُنْكِرَ عليه ذلك فقال: بيني وبين مَنْ أَنْكَرَ كتابُ الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾[(٢)].

إن من استحضر ذلك، وتدبَّر العواقبَ عرف أن غزوة أحد كانت نَصْراً، لا لمن حضرها فحسب، بل نَصْراً للإسلام وللمسلمين الذين يعملون بما جاء في سورة آل عمران في كُلِّ زمان ومكان، وفيها هذه الآيات التي جمعَتْ من الحِكَم والغايات التي لا يستقيم إسلام مسلم إلا بحُسْن تدبُّرها والعمل بها.

روى مسلم عن النَّوَّاس بْن سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[(٣)] أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ[(٤)] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[(٥)] تُحَاجَّانِ[(٦)] عَنْ صَاحِبِهِمَا»[(٧)].

وقال ابن القيم في [زاد المعاد] من قول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ما نُصِرَ رسولُ الله في مَوطنٍ نَصْرُه يومَ أُحُدٍ».

فلما أُنكر ذلك عليه قال: بيني وبين مَنْ يُنكرُ كتاب الله، إنَّ الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾[(٨)].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤١٣/١.

(٢) آل عمران: ١٥٢.

(٣) شَرَق: ضياء ونور.

(٤) حزقان: أي جماعتان.

(٥) صواف: جمع صافة، وهي طيور تبسط أجنحتها في الهواء.

(٦) تُحاجَّان: أي تدافعان.

(٧) مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١٣٣٨.

(٨) آل عمران: ١٥٢.

قال ابن عباس: والحَسُّ: القتل. ولقد كان لرسول الله ﷺ ولأصحابه أوَّلُ النهار، حتَّى قُتِلَ من أصحاب المشركين سبعةٌ أو تسعةٌ.

ما قاله ابنُ عباس - رضي الله عنهما -: «ما نُصِرَ رسولُ الله في مَوطنٍ نَصْرُه يومَ أُحُد» قد دَلَّلَ عليه بما وقع في أول النهار، وقد أنزل الله عليهم النُّعَاسَ أَمَنَةً منه في غزاة بَدْر وأحد.

والنُّعَاسُ في الحرب وعند الخوف دليلٌ على الأمن، وهو من الله تعالى

وفي الصحيحين عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَوْمَ أُحُد وَمَعَهُ رَجُلانِ يُقَاتِلانِ عَنْهُ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلا بَعْدُ»[١].

ولكن بجانب هذا النَّص الذي ذكره ابن عباس ودَلَّلَ عليه، فإن ما وقع بالمسلمين بعد ذلك كان نَصْراً للحِكَم والغايات، أو قُلْ نَصْراً في إعداد النفوس وتمحيصها، وجَعْلِهَا على فِقْهٍ بدينها وهي تواجه ما تواجهه من مداولة الأيام بين الناس إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وقد عقد ابنُ القيِّم فَصْلاً في [زاد المعاد] بعنوان: [في ذكر بعض الحِكَم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد] وكُلُّها مُسْتَنْبَطَةٌ من تدبُّر الآيات التي نزلت في سورة آل عمران.

«وقد أشار الله - سبحانه وتعالى - إلى أُمَّهاتِهَا وأصولِهَا حيث افتتح القصة بقوله: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾[٢] إلى تمام ستين آية».

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٤٨.
(٢) آل عمران:١٢١.

ثم أخذ ابنُ القيِّم في بيان بعض الحِكَم والغايات التي أفَادها من حديث القرآن الكريم:

[١] فمنها: تعريفهم سُوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشُؤْم ذلك.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

فلما ذاقوا عاقبةَ معصيتهم للرسول ﷺ، وتنازعهم وفشلهم، كانوا – بعد ذلك – أشدَّ حَذَرَاً ويقظةً وتحَرُّزاً من أسباب الخُذْلان.

[٢] ومنها: أن حكمة الله وسُنَّته في رُسُله وأتباعهم جَرَتْ بأن يُدَالُوا مرةً، ويُدَالُ عليهم أُخْرَى، لكن تكون لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادق من غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البَعْثة والرسالة.

فاقتضت حكمة الله تعالى أنْ جَمَعَ لهم بين الأمرين؛ ليتميَّز من يتبعهم ويُطيعهم للحق وما جاءوا به، ممَّن يتبعهم على الظهور والغَلَبَة خاصة.

[٣] ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرَقْلُ لأبي سفيان:

«هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟ قُال: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قُالَ: كَانَتْ دُوَلا وَسِجَالا، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى.... قال هرَقْلُ: وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ» (٢).

---

(١) آل عمران: ١٥٢.

(٢) البخاري – كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٧٢٣.

[٤] ومنها: أن يتميز المؤمنُ الصَّادقُ من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين - لَمَّا أظهرهم الله على أعدائهم يوم بَدْر، وطَارَ لهم الصَّيْتُ - دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً.

فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةً مَيَّزَتْ بين المؤمن والمنافق، فأَطْلَعَ المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مُخَبَّآتهم، وعادَ تلويحُهم تصريحاً، وانقسم الناس إلى: كافر، ومؤمن، ومنافق، انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفَارقونهم فاستعدوا لهم، وتحرَّزُوا منهم.

قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ**﴾(١).

أي: ما كان ليَذَركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتَّى يميز أهلَ الإيمان من أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمِحْنَة يوم أُحُد.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ الذي يُمَيَّزُ به بين هؤلاء وهؤلاء فإنهم متميِّزون في غيبه وعِلْمه، وهو - سبحانه - يريد أن يُمَيِّزَهم تمييزاً مشهوداً، فيقع مَعْلُومُه - الذي هو غَيْبٌ - شهادة.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ استدراكٌ لما نَفَاهُ من اطِّلاَع خَلْقه على الغيب سوى الرسل، فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غَيْبه، كما قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا**﴾(٢).

فحَظُّكُم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطلِع عليه رُسُلَه، فإن آمنتم به وأيْقَنْتُم فلَكُمْ أعظمُ الأجر والكرامة.

---

(١) آل عمران: ١٧٩.
(٢) الجن: ٢٦.

[٥] ومنها: استخْرَاج عُبُودية أوليائه وحِزْبه في السَّراء والضرَّاء، وفيما يُحبون ويكرهون، وفي حال ظَفَرِهم وظَفَر أعدائهم بهم، فإنْ ثبَتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبُّون وما يكرهون، فهُمْ عبيدٌ حقَّاً، وليسوا كمَنْ يعبدالله على حَرْفٍ واحدٍ من السرَّاء والنعمة والعَافية.

[٦] ومنهـا: أنه - سـبحـانه - لو نَصَـرَهم دائمـاً، وأَظْفَـرَهُم بعـدوِّهـم في كُلِّ مَوطِن، وجعل لهم التمكين والقهرَ لأعدائهم أبداً لَطَغَتْ نفوسُهم، وشَمَخَتْ وارتَفَعَتْ.

فلو بَسَطَ لهم النَّصْرَ والظَّفْرَ لكانوا في الحال الذي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرزق، فـلا يُصْلِحُ عـبـادَهُ إلا السَّـرَّاءُ والضـرَّاءُ، والشـدَّةُ والرخـاءُ، والقَـبْضُ والبَسْطُ، فهو المُدَبِّرُ لأمْر عبادِه كما يليق بحكمته، إنه بهم خبيرٌ بصيرٌ.

[٧] ومنهـا: أنه إذا امـتـحنهم بالغَلَبـة والكَسْـرة والهـزيمة، ذَلُّوا وانْكَسَـروا، وخضعوا، فاستَوْجَبُوا منه العِزَّ والنَّصْرَ، فإنَّ خِلْعَةَ النَّصْرِ إنما تكون مع ولاية الذُلِّ والانكسار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(١).

وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾(٢).

فهو - سبحانه - إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه ويجْبُرَهُ وينْصُرَه، كَسَرَهُ أولاً، ويكون جَبْرُه له ونَصْرُه على مقدار ذُلِّه وانكساره.

[٨] ومنهـا: أنه - سـبحـانه - هيَّأ لعـباده المؤمنين منازلَ في دار الكرامـة لم تبلُغْهَا أعمـالُهم، ولم يكونوا بالِغيهَا إلاَّ بالبـلاء، فقَيَّضَ لهم الأسبـابَ التي تُوصلهم إليها من ابتـلائه وامـتحانه، كمـا وفَّقهم للأعمـال الصـالحـة التي هي من جُملة أسباب وُصولهم إليها.

---

(١) آل عمران: ١٢٣ .
(٢) التوبة: ٢٥.

[٩] ومنها: أن النفوس تكتسب العافيةَ الدائمةَ والنَّصْرَ والغنى طُغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مَرَضٌ يعُوقها عن جِدِّهَا في سَيْرِهَا إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها رَبُّهَا ومالكُها وراحمُها كرامَتَه، قَيَّضَ لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لذلك المرض العائق عن السَّيْر الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب، يسقي العليلَ الدواءَ الكَريه، ويقطع منه العُروقَ المؤلمةَ؛ لاستخراج الأدواء منه! ولو تركه لغَلَبَتْه الأهواءُ حتَّى يكون فيها هَلَكَته

[١٠] ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصُّه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّديقية إلاَّ الشهادة

وهو - سبحانه - يُحبُّ أن يتخذَ من عباده شُهداء تُراقُ دماؤُهم في محبَّته ومرضاته، ويُؤثرون رضَاه ومحبَّته على نفوسهم.

ولا سبيل إلى نَيْل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المُفضِيَة إليها من تسليط العدو

[١١] ومنها: أن الله - سبحانه - إذا أراد أن يُهلك أعداءَه ويَمْحَقَهم قَيَّضَ لهم الأسبابَ التي يستوجبون بها هلاكهم ومَحقَهم، ومن أعظمها - بعد كُفرهم - بَغْيهم، وطُغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم.

فيَتَمَحَصُ - بذلك - أولياؤه من ذنوبهم وعُيوبهم، ويزداد - بذلك - أعداؤه من أسباب مَحْقهم وهلاكهم.

وقد قرَّر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(١).

---

(١) آل عمران: ١٣٩، ١٤٠.

فجَمَعَ لهم - في هذا الخطاب - بين تشجيعهم وتَقْوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهِمَمِهم، وبين حُسْنِ التسلية، وذكْر الحكَم الباهرة التي اقتضت إدَالَةَ الكفار، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ﴾

فقد استَوَيْتُم في القَرْح والألم، وتبايَنْتُم في الرَّجاء والثواب، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾[1].

فمَا بَالُكم تَهنُون وتَضْعُفون عند القَرْح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أُصبتُم في سبيلي وابتغاء مرضاتي؟!

ثم أخبر - سبحانه - أنه يُداوُل أيَّام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَقسمُها دُولاً بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة فإن عِزَّهَا ونَصْرَهَا ورجاءَهَا خالصٌ للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهي أن يتمَيَّز المؤمنون من المنافقين، فيَعْلَمهم علْمَ رُؤيَة ومُشاهدة، بعد أن كانوا مَعْلُومين في غَيْبه.

وذلك العِلْمُ الغيبي لا يترتب عليه ثوابٌ ولا عقابٌ، وإنما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صَارَ مُشَاهَداً واقعاً في الحِسِّ.

ثم ذكر حِكمةً أُخرى: وهي اتخاذُه - سبحانه - منهم شُهداء، فإنه يُحبُّ الشهداءَ من عباده، وقد أعَدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلَها، وقد اتخذهم لنفسه، فلابد أن يُنيلَهم درجةَ الشهادة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تنبيهٌ لطيفُ الموقع جداً على كراهته وبُغضه للمنافقين الذين انْخَذَلُوا عن نبيِّه يوم أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يُحبُّهم، فأَرْكَسَهُم ورَدَّهُم ليَحْرِمَهُم ما خَصَّ به المؤمنين في ذلك اليوم وما أعطاه مَنْ استُشهِدَ منهم فثَبَّطَ هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وَفَّق لها أولياءه وحزبه.

---

(١) النساء: ١٠٤.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهي تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس.

وأيضاً فإنه خَلَّصَهم ومحَّصهم من المنافقين، فتميَّزُوا منهم.

فحصل لهم تمحيصان: تمحيصٌ من نفوسهم، وتمحيصٌ ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهي مَحْق الكافرين بطغيانهم وبَغيهم وعُدوانهم، ثُمَّ أنكر عليهم حُسبانَهم وظنَّهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا مُمْتَنِع بحيث يُنكَر على مَنْ ظنَّه وحَسِبَه

فقال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾(١).

أي: ولمَّا يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنه لو وقع لَعَلِمَهُ، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاءُ على الواقع المَعْلُوم لا على مُجَرَّد العِلْم، فإن الله لا يجزي العبدعلى مُجَرَّد علمه فيه دون أن يقع مَعلومُه.

ثم وبَّخَهم على هزيمتهم من أمرٍ كانوا يتَمَنَّوْنَه ويَودُّون لقاءَه، فقال: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾(٢).

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيِّه بما فعل بشهداء بَدْر من الكرامة، رَغِبُوا في الشهادة، فتَمَنَّوْا قتالاً يُستَشْهَدُون فيه، فيَلْحَقُون بإخوانهم، فأراد الله ذلك يوم أُحُد وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾.

---

(١) آل عمران: ١٤٢.

(٢) آل عمران: ١٤٣.

[١٢] ومنها: أنَّ وَقْعَةَ أحد كانت مُقَدمةً وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ، فثبتهم ووبَّخَهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قُتِلَ بل الواجب له عليهم أن يَثْبُتُوا على دينه وتوحيده، ويموتوا عليه أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمدٍ، وهو حَيٌّ لا يموت.

فلو مات محمدٌ أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكُلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ الموت، وما بُعث محمدٌ ﷺ ليُخَلَّد، لا هُوَ ولا هُم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لابد منه، سواء مات رسولُ الله ﷺ أو بَقِيَ.

ولهذا وبَّخَهم على رجوع من رَجَعَ منهم عن دينه لَمَّا صَرَخَ الشيطانُ: «إنَّ محمداً قُتِلَ» فقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[1].

والشاكرون: هم الذين عرفوا قَدْرَ النعمة، فثَبَتُوا عليها حتَّى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثَرُ هذا العتاب وحُكم هذا الخطاب يومَ ماتَ رسولُ الله ﷺ وارتَدَّ مَن ارْتَدَّ على عقبيه، وثَبَتَ الشاكرون على دينهم، فنَصَرَهُم الله وأعزَّهم، وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبةَ لهم.

ثم أخبر - سبحانه - أنه جعل لكُلِّ نَفْسٍ أجلاً لابُدَّ أن تَستَوفيَهُ، ثُمَّ تَلْحَق به، فيَرد الناسُ كُلُّهم حَوْضَ المنايا مَوردِاً واحداً وإن تنوَّعَتْ أسبابُه، ويَصْدُرون عن موقف القيامة مصَادرَ شتَّى.

﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٤٤.
(٢) الشورى: ٧.

ثم أخبر - سبحانه - أن جماعة كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا، وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بَقِيَ منهم لَمَا أصابهم في سبيله، وما ضَعُفوا وما استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام.

فلم يُستَشْهَدوا مُدبرين مُستكينين أذِلة، بل اسْتُشْهِدوا أعِزَّةً كراماً، مُقبلين غير مدبرين. [والصحيح أن الآية تتناول الفريقين كليهما].

ثم أخبر - سبحانه - عمَّا استنْصَرتْ به الأنبياءُ وأُمَمُهم على قومهم، من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم، وسؤالهم ربهم أن يُثَبِّتَ أقدامَهم، وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال: ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾(١).

*****

لَمَّا علم القومُ أن العدُوَّ إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يَسْتَزِلُّهُم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حقٍّ أو تجاوُزٌ في حَدٍّ وأن النُّصْرَةَ منُوطةٌ بالطاعة، قالوا: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا**﴾.

ثم علموا أن ربَّهم - تبارك وتعالى - إن لم يُثبِّت أقدامَهم وينصرهم، لم يقدروا - هم - على تثبيت أقدام أنفسهم ونَصْرِهَا على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونَهم، وأنَّه إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يَثْبُتُوا ولم ينتصروا.

فوفَّوا المقامين حَقَّهما:

مقامُ المقتَضَى: وهو التوحيد، والالتجاء إليه سبحانه.

ومقام إزالة المانع من النُّصْرة: وهو الذنوبُ والإسراف.

---

(١) آل عمران: ١٤٧.

ثم حذَّرهم - سبحانه - من طاعة عدوِّهم، وأخبر أنهم إن أطاعوه خسروا الدنيا والآخرة.

وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لمَّا انتصروا وظَفَرُوا يوم أُحُد.

ثم أخبر - سبحانه - أنه موْلَى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمَنْ والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرُّعْبَ الذي يمنعهم من الهجوم عليهم والإقدام على حَرْبهم، وأنه يؤيِّدُ حِزْبَه بجُنْدٍ من الرُّعْبِ ينتصرون به على أعدائهم.

وذلك الرُّعْبُ بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله..

وعلى قَدْرِ الشرك يكون الرُّعْبُ، فالمشرك بالله أشدُّ شيء خَوْفاً ورُعْباً.

والذين آمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانَهم بالشرك، لهم الأمنُ والهُدَى والفلاحُ، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهم وعْدَه في نُصْرَتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أَمْر الرسول ﷺ لاستمرت نُصرتُهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النُّصْرَةُ، فصرفهم عن عدوهم؛ عقوبةً وابتلاءً، وتعريفاً لهم بسُوء عواقب المعصية، وحُسْن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر - سبحانه - أنه عفا عنهم بعد ذلك كُلِّه، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين.

قيل للحسن: كيف يعفو عنهم وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتَّى قَتَلوا منهم مَن قَتَلُوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نَالُوه؟!

فقال: لولا عَفْوُه عنهم لاسْتَأْصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوهم بعد أن كان مُجمعاً على استئصالهم.

ثم ذكَّرهم بحالهم وقت الفرار مُصْعِدين، أي: جادِّينَ في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل، لا يَلوُون على أحد من نبيِّهم ولا أصحابهم، والرسول ﷺ يدعوهم في أخراهم: «إليَّ عباد الله، أنا رسول الله».

فأثابهم بهذا الهرب والفرار غمّاً بَعْدُ غَمٍّ:

غَمُّ الهزيمة، وغَمُّ صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قد قُتِل.

وقيل: جازاكم غَمَّاً بما غَمَمتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوه، فالغَمُّ الذي حصل لكم جزاء على الغّمَ الذي أوقعتموه بنبيِّه.

والقول الأول أظهر لوجوه:

* [**أحدهما**] أن قوله: ﴿**لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ**﴾[1] تنبيهٌ على حكمة هذا الغَمِّ بعد الغَمِّ، وهو أن يُنسيهم الحُزْنَ على ما فاتَهم من الظَّفَر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا - بذلك - السبب، وهو إنما يحصل بالغَمِّ الذي يعقبه غَمٌّ آخر.

* [**الثاني**] أنه مطابقٌ للواقع، فإنه حصل لهم غَمٌّ فوات الغنيمة، ثُمَّ أعقبه غَمُّ الهزيمة، ثُمَّ غَمُّ الجراح التي أصابتهم، ثُمَّ غَمُّ القتل، ثُمَّ غَمُّ سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ثُمَّ غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غَمَّين اثنين خاصة، بل غَمَّاً متتابعا؛ لتمام الابتلاء والامتحان.

* [**الثالث**] أن قوله (بغَمٍّ) من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غَمَّاً مُتصلاً بغَمٍّ جزاءً على ما وقع منهم من الهروب، وإسلامهم نبيَّهم ﷺ وأصحابَه، وتَرْك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم

(١) آل عمران: ١٥٣.

مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم وكُلٌّ واحد من هذه الأمور يُوجبُ غَمّاً يَخُصُّهُ.

فترادفت عليهم الغُموم، كما ترادفت منهم أسبابُها وموجباتُها، ولولا أنْ تداركهم بعَفوه، لكان أمراً آخر.

ومن لُطفه بهم ورأفَته ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النُّصْرَة المستقِرة، فقَيَّض لهم - بلُطْفِهِ - أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتبت عليها آثارها المكروهة.

فعلموا - حينئذ - أن التوبة منها، والاحترازَ من أمثالها، ودَفْعها بأضدادها أمْرٌ مُتَعَيَّن، لا يتمُّ لهم الفلاحُ والنُّصْرَة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذراً بعدها، ومعرفةً بالأبواب التي دخل عليهم منها «وَرُبَّمَا صَحَّت الأجْسَامُ بالعِلَلِ» ثم إنه تداركهم - سبحانه - برحمته، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبَه عنهم بالنُّعَاس الذي أنزله عليهم أَمَنَاً مِنْهُ ورحمةً.

والنُّعَاسُ في الحرب علامةُ النُّصْرة والأمن، كما أنزله عليهم يوم بَدْر، وأخبر أن من لم يُصبْه ذلك النُّعَاسُ فهو ممن أهَمَّتْهُ نفسُهُ، لا دينُه، ولا نبيُّه، ولا أصحابُه، وأنهم يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية وقد فُسر هذا الظنُّ الذي لا يليق بالله بأنه - سبحانه - لا ينصُرُ رسولَه، وأن أمْرَهَ سيضمحل، وأنه يُسلمه للقَتْل.

وقد فُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقَدَره، ولا حكمة له فيه، ففُسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتمَّ أمْرُ رسوله ويظهره على الدين كُلِّه.

وهذا هو ظَنُّ السَّوْء الذي ظنَّه المنافقون والمشركون به - سبحانه وتعالى - في سورة الفتح.

يقول - سبحانه -: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(١).

وإنما كان هذا ظَنُّ السَّوْء، وظَنُّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظنٌّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المُبرَّأة من كُلِّ عَيْبٍ وسُوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والألوهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلفه، وبكلمته التي سبقت لرُسله أنه ينصرهم ولا يَخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظنَّ بأنه لا ينْصُرُ رسولَه، ولا يُتمُّ أمْرَه، ولا يؤيِّده ويؤيِّد حزْبَه ويُعليهم ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينَه وكتابَه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطلَ على الحقِّ إدَالَةً مستقرَّةً يضمحلُ معها التوحيدُ والحقُّ اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً

فقد ظنَّ بالله ظَنُّ السَّوْء، ونَسَبَهُ إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونُعوته.

فإن حَمْدَهُ وعِزَّتَه وحِكْمَتَه وإلهيَّتَه تأبَىَ ذلك، وتأبَىَ أن يُذَلَّ حِزْبُه وجندُه، وأن تكون النُّصرةُ المستقِرَّةُ والظَّفَرُ الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به.

فمَنْ ظنَّ به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءَه، ولا عرف صفاته وكماله وكذلك مَنْ أنكرَ أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه ولا عرف رُبوبيَّته ومُلْكَه وعظمته.

وكذلك مَنْ أنكر أن يكون قَدَّر ما قَدَّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحِقُّ الحمدُ عليها، وأن ذلك إنما صَدَرَ عن مشيئةٍ مُجرَّدة عن حِكمةٍ وغايةٍ مطلوبةٍ هي أحبُّ إليه من فَوْتِهَا.

---

(١) الفتح: ٦.

وأن تلك الأسباب المكروهة المُفضِيَة إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهةً له.

فما قَدَّرهَا سُدَىً، ولا أنشأها عَبَثاً، ولا خَلَقَهَا باطلاً ﴿**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾[1].

وأكثرُ الناس يظنُّون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَم من ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف مُوجِبَ حَمْدِهِ وحكمته.

فمَنْ قَنَطَ من رحمته، وأَيِسَ من رُوحه، فقَد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء.

ومَنْ جوَّز عليه أن يُعذِّب أولياءه - مع إحسانهم وإخلاصهم - ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقَد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء.

ومَنْ ظَنَّ به أنه يترك خَلْقَه سُدَىً مُعَطَّلِينَ عن الأمر والنَّهي، ولا يُرسلُ إليهم رُسُلَه، ولا يُنَزِّلُ عليهم كُتُبَه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام، فقَد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء.

ومَنْ ظَنَّ أنه لنْ يجْمَعَ عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يُجازَى المحسنُ فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويُبَيِّنُ لخَلْقه حقيقةَ ما اختلفوا فيه، ويُظهِرُ للعالمين - كُلِّهم - صِدْقَه وصِدْقِ رُسُلِه، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقَد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء.

ومَنْ ظَنَّ أنه يُضيِّعُ عليه عملَه الصالح - الذي عَمِلَهُ خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره - ويُبْطله عليه بلا سَبَبٍ من العبد، أو أنه يُعاقبه بما لا صُنْعَ فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة في حُصُوله، بل يُعاقبه على فِعْله هو سبحانه.

---

(١) ص: ٢٧.

أو ظَنَّ أنه يجوزُ عليه أن يَؤَيِّد أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يُؤَيِّد بها أنبياءَه ورُسُلَه، ويُجريها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عبادَه.

وأنه يَحْسُنُ منه كُلُّ شيء حتَّى تعذيبَ مَنْ أَفْنَى عُمْرَه في طاعته، فيُخَلِّده في الجحيم أسفل سافلين، ويُنَعِّمُ من استنفدَ عُمْرَه في عداوته وعداوة رُسُله ودينه، فيرفَعُه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحُسْن سواءٌ، ولا يُعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخَبَرٍ صَادقٍ، وإلا فالعقل لا يقضي بقُبْح أحدهما وحُسْن الآخر.. فقَد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء.

ومن ظَنَّ به أنه أخْبَرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظَاهرُه باطلٌ، وتَشْبيهٌ، وتمثيلٌ، وتَرَكَ الحقَّ لم يُخبِرْ به، وإنما رَمَزَ إليه رُمُوزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلغزة، ولم يُصَرِّحُ به، وصَرَّح - دائماً - بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خَلْقه أن يُتعِبُوا أذهانَهم وقُواهُم وأفكارَهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتَطَلَّبُوا له وجوهَ الاحتمالات المُسْتَكْرَهَة والتأويلات التي هي الألغاز والأحَاجي، وأحالهم - في معرفة أسمائه وصفاته - على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم ألا يحملوا كلامَه على ما يعرفون من خطابهم ولُغتهم، مع قدرته على أن يُصَرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريحُ به، ويُريحهم من الألفاظ التي تُوقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سَلَكَ بهم خلافَ طريق الهُدَى والبيان.. من ظنَّ ذلك فقَد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوْء.

فإنَّه إنْ قال: إنه غيرُ قادرٍ على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عَبَّرَ به هو وسَلَفُه، فقد ظَنَّ بقُدرته العَجْزَ.

وإنْ قال: إنَّه قادرٌ، ولم يُبَيِّن، وعَدَلَ عن البيان وعن التصريح بالحقِّ إلى مَا يُوهِمُ، بل يُوقِعُ في الباطل المُحَال والاعتقاد الفاسد، فقد ظَنَّ بحِكْمَته ورحمته ظَنَّ السَّوْء، وظَنَّ أنَّه هو وسَلَفُه عَبَّرُوا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهُدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم، وأمَّا كلامُ الله فإنه يُؤْخَذُ من ظاهر التشبيه والتمثيل والضلال.

فكل هؤلاء من الظَّانِّين بالله ظنَّ السَّوْء، ومن الظَّانِّينَ به غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهلية(١).

ثم قال صاحب [زاد المعاد] بعد مَزيد من بيان فيمَنْ ظَنَّ بالله ظَنَّ السَّوْء:

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾(٢).

ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنِّهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾.

فليسَ مقصودُهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القَدَر وردٍّ الأمر كُلّه إلى الله، ولو كان ذلك مَقْصُودُهم بالكلمة الأولى لما ذُمُّوا عليه، ولَمَا حَسُنَ الرَّدُّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظَنُّ الجاهلية.

ولهذا قال غيرُ واحد من المفسرين: إن ظنَّهم الباطل - هاهنا - هو التكذيب بالقَدَر، وظنُّهم أنَّ الأمرَ لو كان إليهم، وكان رسول الله ﷺ وأصحابُه تَبَعَاً لهم يسمعون منهم، لَمَا أصابهم القَتْلُ، ولَكَانَ النَّصْرُ والظَّفْرُ لهم.

فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظَنِّ الباطل، الذي هو ظَنُّ الجاهلية، وهو الظَنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون - بعد نَفَاذِ القضاء والقَدَر الذي لم يكن بُدٌّ من نَفَاذه - أنهم كانوا قادرين على دَفْعه، وأنَّ الأمر لَوْ كان إليهم لما نَفَذَ القضاءُ.

فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤُه وقَدَرُه، وجَرَى به علْمُه وكتابُه السَّابق.

---

(١) زاد المعاد: ٢/١٤٤ - ١٥١

(٢) آل عمران: ١٥٤.

وما شاء اللهُ كانَ وَلاَبُدَّ، شاء الناسُ أم أَبَوْا، وما لم يَشَأ لم يَكُن، شاءَه النَّاسُ أم لم يَشَاؤوه.

وما جَرَى عليكم من الهزيمة والقَتْل، فأمْرُه الكَوْني الذي لا سبيل إلى دَفْعه، سواءٌ كان لكم من الأمْر شَئٌ أو لم يكن لَكُم، وأنَّكُم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القَتْلُ على بعضكم، لخَرَجَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ من بيوتهم إلى مضاجعهم ولابُدَّ، سَواءٌ كان لهم من الأمر شئ أو لم يكن.

وهذا من أظْهَر الأشياء إبطالاً لقَول القَدَريَّة النُّفَاة الذين يُجَوِّزُونَ أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر الله عن حِكَمةٍ أخرى في هذا التقدير: هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافق ومَنْ في قلبه مَرَضٌ، لابُد أن يَظْهَر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكْمَةً أخرى: وهى تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصها وتنقيتها وتهذيبها، فإنَّ القلوبَ يُخالطها - بغَلَبَات الطبائع، ومَيْلِ النُّفُوس، وحُكْم العادة، وتزْيين الشيطان، واستيلاء الغفلة - ما يُضادُ ما أُودِعَ فيها من الإيمان والإسلام، والبِرِّ والتقوى، فلو تُرِكَتْ في عافيةٍ دائمةٍ مُسْتَمِرَّة لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تَتَمَحَّصْ منه.

فاقتضتْ حِكْمَةُ العزيز أن قَيَّضَ لها من المِحَن والبلايا ما يكون كالدواء الكَريه لَمَنْ عرض له دَاءٌ، إنْ لم يتداركه طبيبُه بإزالته وتنقيته من جسده وإلاَّ خِيفَ عليه منه الفساد والهلاك.

فكانت نعمتُه سبحانه عليهم - بهذه الكَسْرة والهزيمة، وقَتْل مَنْ قُتِلَ منهم - تُعَادلُ نعمتَه عليهم بنَصْرهم وتأييدهم وظَفْرهم بعدوِّهم.

فلَهُ عليهم النِّعْمةُ التَّامَّة في هذا وذاك.

ثم أخبر - سبحانه وتعالى - عن تَولِّي مَنْ تَولَّى من المؤمنين الصَّادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كَسْبهم وذُنوبهم، فاسْتَزَلَّهُم الشيطانُ بتلك الأعمال حتَّى تَوَلَّوا، فكانت أعمالاً جنداً عليهم، ازدادَ بها عدُوهم قُوَّةً.

فإنَّ الأعمالَ جندٌ للعبدوجُنْدٌ عليه ولابُدَّ، فللعبدكُلَّ وقت سَرِيَّةٌ من نفسه تَهزِمُه أو تَنْصُره، فهوَ يَمُدُّ عَدُوَّه بأعماله من حيث يظُنُّ أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سَرِيَّةً تغْزُوه مع عَدُوِّه من حيث يظُنُّ أنه يغْزُو عَدُوَّه.

فأعمالُ العبدتَسُوقُه - قَسْراً - إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبدُ لا يَشْعُر أو يَشْعُر ويتعامى.

ففرَار الإنسان من عَدُوٍّ - وهو يُطيقُه - إنما هو بجُنْدٍ من عمله بَعَثَهُ له الشيطانُ واستَزلَّهُ به.

ثم أخبر - سبحانه -: أنه عَفَا عنهم؛ لأنَّ هذا الفرَارُ لم يكن عن نِفَاقٍ ولا شَكٍّ، وإنما كان عارِضَاً عفَا الله عنه، فعادت شجاعةُ الإيمان وثباتُه إلى مركزها ونِصَابها.

ثم كرَّرَ عليهم - سبحانه - أن هذا الذي أصابهم إنما أُتُوا فيه من قِبَل أنفسهم وبسبب أعمالهم، فقال - سبحانه -: **﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(١).

وذكر هذا بعينه فيما هو أعَمُّ من ذلك في السور المَكيَّة، فقال - سبحانه -: **﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾**(٢).

وقال: **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾**(٣).

---

(١) آل عمران: ١٦٥ .
(٢) الشورى: ٣٠.
(٣) النساء: ٧٩.

فالحسنةُ والسيئةُ هَاهُنَا: النعمةُ والمصيبةُ، فالنعمةُ من الله منَّ بها عليك، والمصيبةُ إنما نشَأَتْ من قِبَل نفسِك وعَمَلِك.

فالأولُ فَضْلُه، والثاني عَدْلُه، والعبديتقلَبُ بين فَضْله وعَدْله، جَارٍ عليه فَضْلُه، ماضٍ فيه حُكْمُه، عَدْلٌ فيه قَضَاؤه.

وختَمَ الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ إعلاماً لهم بعُموم قُدرته مع عَدْله، وأنه عَادلٌ قَادرٌ.

وفي ذلك إثبات القَدَر والسبب، فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم، وذَكَرَ عُموم القُدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثانى ينفي القول بإبطال القَدَر، فهو يُشاكل قولَه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾(١).

وفي ذكر قُدرته هاهنا نُكتةٌ لطيفةٌ، وهى أن هذا الأمر بيده وتحت قُدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصَرَفَه عنكم، فلا تطلبُوا كشفَ أمثاله من غيره، ولا تتَّكلوا على سواه.

وكشف هذا المعنى وأوضَحَه كُلَّ الايضاح بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٢).

وهو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني، كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٣).

ثُمَّ أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهو أن يَعلَمَ المؤمنين من المنافقين عِلْمَ عيانٍ ورؤية يتميَّز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تميُّزاً ظاهراً.

---

(١) الإنسان: ٣٠.
(٢) آل عمران: ١٦٦.
(٣) البقرة: ١٠٢.

وكان من حكمة هذا التقدير تَكَلُّمُ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَ الله عليهم وجوابَه لهم، وعرفوا مؤدَّ النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحَرِمُ صاحُبه سعادةَ الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة فللَه.. كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة، ونعمةٍ على المؤمنين سابغه.

وكم فيها من تحذير وتخويف، وإرشاد وتنبيه، وتعريف بإسباب الخير والشر ومالهما وعاقبتهما.

ثم عزَّى نبيَّه وأولياءه عمَّن قُتل منهم في سبيله أحسنَ تعزية وألْطفَها وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال - سبحانه -: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلةَ القُرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين - باجتماعهم بهم - يتمُّ سرورهم ونعيمُهم، واستبشارهم بما يُجدَّد لهم كُلَّ وقت من نعمته وكرامته.

وذكَّرهم - سبحانه - في أثناء هذه المِحْنَة - بما هو من أعظم مِنَنِه ونعمه عليهم التى إن قابلوا بها كُلَّ مِحْنَة تنالهم وبليَّة، تلاشت في جنب هذه المنَّة والنعمة، ولم يبق لها أثرٌ البتَه، وهي منَّته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم اليهم، يتلو عليهم آياته، ويُزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويُنقذهم من الضلال - الذي كانوا فيه قبل إرساله - إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النُّور، ومن الجهل إلى العلم.

---

(١) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.

فكُلُّ بليَّةٍ ومحنة تنالُ العبدَ بعد حصول هذا الخير العظيم له، أمرٌ يسيرٌ جداً في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير.

فأعلمهم أن سببَ المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحَدوا ويتكلوا، ولا يخافوا غيرَه.

وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم، لئلاً يتهموه في قضائه وقَدَره، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته.

وسلاَّهم بما أعطاهم ممَّا هو أجلُّ قدراً وأعظم خطراً ممَّا فاتهم من النصر والغنيمة.

وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته، لينافسوهم فيه ولا يحزنوا عليهم.

فله الحمدَ كما هو أهلُه، وكما ينبغى لكرم وجهه وعزِّ جلاله[1].

*****

غزوة أُحُد في بيان السنة المطهرة:

وبعد حديث القرآن الكريم عمَّا جرى في غزوة أُحُد، وقد رأينا دلالة آيات الكريم في واقع، وأبصرنا في جميع ما رأينا كيف يُبَصّرنا القرآن لنَنْعَم بنعمة الثبات على الإيمان في مداولة الأيام، لتكون العاقبة لنا.

وهى لن تكون إلا لمّن خشي الله واتَّقاه، والعاقبة للمتقين.

وبعد.. تعالوا بنا لنرى بيان السُّنَّة المُطَهَّرَة في ذلك، ولتكون دراستنا لوقائع المدينة المُنَوَّرَة دراسة تبصرة وذكرى نستحضرها في كُلِّ شئ، ولا تغيب عنَّا في سرَّاء أو ضرَّاء.

---

(١) زاد المعاد: ٢/١٥٤ - ١٥٧.

وبذلك ومن ذلك نعرف حكمةَ الحياة وغايةَ الوجود، ولا نتأمل أىَّ أمر - صَغُرَ أو كَبُرَ - بعيداً عمَّا حفظه الله لنا من هداية وأبقاه من تبصره.

روى البخارى ومسلم عن زيد بن ثابتٍ قال:

«لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُد، رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابه، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لا نَقْتُلُهُمْ، فَنَزَلَتْ ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ**﴾[١] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الحَدِيدِ)[٢].

ورى البخارى وأبو داود عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: لا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلا تُعِينُونَا.

فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنَّ.

فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهِدَ إِلَيَّ ﷺ أَنْ لا تَبْرَحُوا.

فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صرفَ وُجُوههم، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلاً

وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟

فَقَالَ: لا تُجِيبُوهُ

فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟

قَالَ: لا تُجِيبُوهُ.

فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟

---

(١) النساء: ٨٨.

(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥١.

فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لأَجَابُوا.

فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَجِيبُوهُ.

قَالُوا: مَا نَقُولُ؟

قَالَ: قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلا عُزَّى لَكُمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَجِيبُوهُ.

قَالُوا: مَا نَقُولُ؟

قَالَ: قُولُوا: اللَّهُ مَوْلانَا ولا مَوْلَى لَكُمْ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي)(١).

وروى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ لَهُ(٢) وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلاً رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْعِ، كَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاثًا.

وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ بِجَعْبَةٍ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ.

قَالَ: وَيُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ.

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٣٧

(٢) مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ لَهُ: أي يقيه بدرع من جلد.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا، تُنْقِزَانِ[1] الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ.

وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاثًا)[2].

وروى البخارى ومسلم والترمذى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ.

قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ؟

قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ.

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[3]»[4].

وروى البخارى ومسلم عن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ:

---

(١) النقز: الوثب والقفز، والمراد أنهما كانتا تحملان القِرَبَ وتقفزان بها.

(٢) البخاري – كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٥٧.

(٣) الأحزاب: ٢٣.

(٤) البخاري – كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٥٩٥.

«قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُد: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: فِي الجَنَّةِ. فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ»(١).

وروى البخارى ومسلم عَنْ عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمُ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّه ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُد، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا. قَالَ: مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلاً. قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ)(٣).

قال الحافظ بن كثير: «وهذا السياق غريب جداً، فإن المشهور عند أصحاب المغارى أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد كُلُّ مَن شهد أُحُداً، وكانوا سبعمائه، قُتل منهم سبعة، وبقى الباقون».

قال الشامي: «والظاهر أنه لا تخالُف بين قول عائشة وأصحاب المغازي؛ لأن معنى قولها: فانتدب لها، فانتدب لها سبعون أنهم سبقوا غيرهم، ثم تلاحق الباقون».

*****

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٤٠.
(٢) آل عمران: ١٧٢.
(٣) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٦٩.

غزوة بني النضير

في ربيع الأول سنة ٤ هـ

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرَّقون على الإسلام والمسلمين، إلاَّ أنهم لم يكونوا أصحاب حَرْبٍ وضَرْبٍ، بل كانوا أصحاب دَسٍّ ومؤامرة، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعاً من الحيل لإيقاع الأذى بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال.

ولكنهم بعد وقعة أُحُد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وهاهم بنو النضير ينقضون عهدهم مع رسول الله ﷺ وكان ذلك بعد بَدْر بستة أشهر، كما ذكر البخاري.

سبب الغزوة:

قال عروةُ: لَمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، وكلَّمهم أن يُعينوه في دِيَةِ الكلابِيَّيْن اللَّذَيْن قَتَلَهما عمروُ بن أُميَّة الضمرى.

قالوا: نفعل يا أبا القاسم، أجلس هَاهُنا حتَّى نقضي حاجَتَك.

ثُمَّ خلا بعضُهم ببعض، وسَوَّل لهم الشيطانُ الشَّقَاءَ الذي كُتِبَ عليهم فتآمَرُوا على قَتْله ﷺ وقالوا: أيُّكُم يأخُذُ هذه الرَّحَا، ويصعد فيُلقيها على رأسه، يَشْدَخُهُ بها؟

فقال أشقاهم عمروُ بن جحاش: أنا.

فقال لهم سَلاَّمُ بن مِشْكَم: لا تفعلوا؛ فوالله ليُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنَقْضُ العهد الذي بيننا وبينَه.

وجاء الوحي على الفَوْر إليه من ربِّه - تبارك وتعالى - بما هَمُّوا به، فنهض مُسرِعاً، وتوجَّه إلى المدينة، ولحِقَهُ أصحابُه، فقالوا: نَهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما هَمَّت يهودُ به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخْرُجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتُكم عشراً، فمَن وَجَدْتُ بعد ذلك بها ضَربتُ عُنُقَهُ».

ابن أُبَي يحرض اليهود على عدم الخروج:

أقام بنو النضير أيَّاماً يتجهزون، فأرسل إليهم المنافقُ عبدُ الله بنُ أُبَيّ: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألْفَيْن يدخلون معكم حِصْنَكم، فيموتون دُونكم، وتنصُركم قُرَيْظَة وحُلفاؤكم من غَطَفَان.

وطَمع رئيسُهم حُيَيُّ بنُ أَخْطَبُ فيما قال له، وبعث إلى رسول ﷺ بقوله: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بَدَا لك.

فَكَبَّر رسولُ الله وأصحابُه، ونهضوا إليه، وعليٌّ بن أبى طالب يحمل اللواءَ، فلمَّا انتهى إليهم، قاموا على حصونهم يرمون بالنَّبْل والحجارة، واعتزلتهم قُرَيْظَة، وخَانَهم ابنُ أُبَيٍّ وحُلفاؤهم من غَطَفَان، ولهذا شبَّه - سبحانه وتعالى - قصَّتَهم، وجعل مثَلهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾[1].

فإن سورة الحشر هي سورةُ بنى النَّضير، وفيها مَبْدَأُ قصتهم ونهايتها.

الرسول ﷺ يُحاصر بني النضير:

أخرج البخاريُّ ومسلم من حديث عَبْد اللَّه - رَضِي اللَّه عَنْهما - عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضير وَقَطَعَ وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ[2])[3].

فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[4].

---

(١) الحشر: ١٦ .

(٢) الْبُوَيْرَةُ: موضع نخل بنى النَّضير.

(٣) البخاري - كتاب المزارعة، حديث رقم ٢١٥٨، كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٢٨، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٠٥، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٢٨٤.

(٤) الحشر: ٥.

فأرسلوا إليه ﷺ: نحن نخرج عن المدينة.

فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبلُ إلا السلاح، وقبض النبي ﷺ الأموالَ والحَلْقَةَ

وكانت بنو النَّضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسَها؛ لأن الله أفاءَهَا عليه، ولم يوجَفُ[1] المسلمون عليها بخَيْل ولا رِكَاب.

أخرج البخارى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلاحِ وَالْكُرَاعِ[2] عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[3].

ما نَزَلَ في بنى النَّضير من القرآن:

نزل في بنى النَّضير سورةُ الحشر بأَسْرِهَا، يُذْكَرُ فيها ما أصَابهم الله به من نِقْمَته، وما سَلَّط عليهم رسولَهُ ﷺ وما عمل به فيهم:

فقال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾**[4].

ثم قال الله عن المنافقين: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾** يعنى عبدالله بن أُبَىّ وأصحابه ومَنْ كان على مثل أمرهم **﴿يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ**

---

(١) الإيجاف: سرعة السير، وهو كناية عن الجهاد والقتال.

(٢) الْكُرَاعِ من الإنسان: ما دون الركبة إلى الكعب، ومن الدوابّ: ما دون الكَعْب.

(٣) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٨٩، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٠٦، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٠١.

(٤) الحشر: ٢.

الْكِتَابِ﴾ يعنى بنى النَّضير ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١].

إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]. يعنى بنى قينقاع، إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقد ذكر ابن إسحاق أن بنى النَّضير لم يُسْلِم منهم إلا رجلان: أبو كعب ابن جحاش «يامين بن عمير» وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما، فأحرزاها.

قال: وقد حدثني بعضُ آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: ألم تَر ما لقيتُ من ابن عَمِّك، وما هَمَّ به من شأني؟

فجعل يامينُ ابن عمير لرجل جُعْلاً على أن يَقْتُلَ له عمرو بن جحاش، فقتله فيما يزعمون.

هكذا يذكر ابنُ إسحاق.. ولكنَّ الأمْرَ أعظمُ من ذلك في دَلالته وعِبْرَته، ويكفي أن يتدبَّر الإنسانُ سورةَ الحَشْر؛ ليعرف ما اضْمَرَ القومُ وما أظهروه، ويرى كَمْ أساءَ النِّفَاقُ إلى أهله، وما أَوْقَعَهُ بهم وبمَنْ صَدَّقهم أو رَكَنَ إليهم

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[٤].

---

(١) الحشر: ١١.
(٢) الحشر: ١٥.
(٣) الحشر: ١٦، ١٧.
(٤) الحشر: ٢.

فإن ما وقع لا يراه إلا أصحابُ الأبصار النَّافذة إلى حقائق الأمور وإلى مواقع العِبْرة والعِظَة، فقد جاء في السورة قولُه تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾(١).

إنها حالةٌ تدعو إلى النَّظَر، النَّظَر إلى أولئك الذين يجمعهم نَسَبٌ من الكُفْر والضلال.

المنافقون وفريق من أهل الكتاب يقولون لإخوانهم الذين كفروا، وهى أُخُوَّةٌ قد تُرَى آثارُها في تداول الأيام، حيث يركَنُ هؤلاء إلى أولئك، ولا تلبَث الأيامُ أن تكشف ما هُم عليه من كَذِبٍ وبُهْتَان، وأن يرى الناسُ منهم ما أَخْبَرَ الله به.

ففي الوقت الذي نزلت فيه هذه الآياتُ كان المنافقون - وعلى رأسهم عبدالله بن أُبَىّ بن سلول - يمشون إلى بنى قُرَيْظَة الذين لم يأتِ مصيرُهم بَعْدُ، وإلى غيرهم من يهود المدينة، ويُنْذِرونهم مما يُمكنُ أن يَفْعَلَ بهم محمدٌ ﷺ كما فَعَلَ ببني النَّضير، ويُعطونَهم العَهْدَ كما أعْطَوْا بنى النَّضير.

ولقد جاءت الأيامُ بما يَنْطِقُ بصِدْق آيات الله، وبما يُخزِى اليهودَ ويَفْضَحُ المنافقين.

لقد قال المنافقون لإخوانهم من بنى النَّضير: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾**(٢).

---

(١) الحشر: ١١.
(٢) الحشر: ١١، ١٢.

لا وفاءَ بِعَهْدٍ، ومن لم يَفِ لله كيف يُرْجَى منه أنْ يَفِيَ للناس؟!

فلو أُخْرِجَ حُلفاؤهم ما خَرجُوا معهم، ولو قُوتِلُوا ما قَاتَلُوا إلى جانبهم، ولو قَاتَلُوا إلى جانبهم لَمَا صَبَرُوا على القتال ولَمَا ثَبَتُوا عند اللقاء؛ لأنهم إن قَاتَلُوا إنَّما يُقاتِلُون بأجسامهم لا بقُلوبهم، فإذا اشتدَّ البأسُ وَلَّوا الأدبارَ، وكانت الدائرةُ عليهم وعلى مَنْ حَالَفَهم.

وهذه الآياتُ من أنباء الغَيْب التي كَشَفَت الأيامُ - فيما بَعْدُ - عن تأويلها على الوجه الذي أخبرتْ به، والتي سَجَّل بها التاريخُ مُعجزةً ناطقةً بأن هذا القرآنَ العظيمَ من لَدُنْ عليمٍ خبير.

*****

ومما يجب علينا - ونحن نتدبَّرُ سورةَ الحشر - أن نرى حديثَ القرآن في هذه السورة عن أُخُوَّة وأُخُوَّة:

أُخُوَّة الأنْصَار والمهاجرين والذين جاءوا من بعدهم: في الآيات (٨ - ١٠) من هذه السورة وأُخُوَّة المنافقين وطوائف من يهود: في الآيات (١١-١٧) من هذه السورة لِنَرَى ما يُحَقِّقه صِدْقُ الإخلاص لله والوفاءُ، وما يجنيه أصحابُ الكفر والرِّياء نرى هذا وذاك لنَقِفَ عند أَمْرٍ ذي بَالٍ في صَلاح الإنسان، وهو النَّظَر في كُلِّ أمْرٍ إلى العاقبة والجزاء، فإنَّ لكُلِّ أَمْرٍ عاقبتَه، وإنَّ لكُلِّ عَمَلٍ جزاءَه.

والقرآن الكريم يُلْفِتُ النَّظَر إلى ذلك دائماً وهو يُحدثنا بالوقائع، ويُرينَا نتائجَ الأعمال وهو يُخاطب رسولَه ﷺ؛ ليجعلَ العاقبةَ - دائماً - نُصْبَ عينيه

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

ولهذا جاءت الآيات الخاتِمَة من سورة الحشر على هذا النحو:

---

(١) هود: ٤٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

جاءت دعوة مُجَدِّدَة إلى تقوى وإلى إخلاص العبودية لله وحده، وإلى أن يخلى المؤمن من نفسه من كُلِّ واردةٍ من وَارِدَاتِ النفاق الذي إن تمكَّن من صاحبه قَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ، وصَارَ بِه إلى أَسْوأ مَصير.

وذلك يكون بأن ينظر المؤمنُ في أعماله وما يُقدمه لغيره من خَيْر يجده عند الله، وألاَّ يكون حاضره وعاجل أَمْره هو الذي يحكُم أعمالَه، ويُوجِّه تصرُّفاته، كما هو الشأن عند المنافقين والضالين.

وتقوى الله هي خَوْفُهُ، واتِّقاء مَحَارمه، ومن تقوى الله: مُحاسبة المرء نفسَه ومراجعتها في نوازعها ورغباتها

وإن هذه المحاسبة وتلك المراجعة لا تُعطيان ثَمَراً طيباً إلاَّ إذا وقف المرءُ من نفسه موقفًا حَذِراً، حازماً؛ حتَّى يقهَر هواهَا، ولا تغلبه على أَمْرِه، وذلك لا يكون إلا باستحضار تقوى الله والخوف من عقابه.

---

(١) الحشر: ١٨ - ٢٤.

وفي قوله: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ دلالة على سُوء عاقبة أولئك الذين نَسُوا الله، لا في أُخراهم فحسب، بل في أنفسهم وهم يتقلبون فيما زُيِّن لهم.

ومَنْ أنساه الله نفسَه خسر دنياه وآخرته؛ لأنه عندما يُنسيه الله نفسَه يقع في السيئات والموبقات وهو يحسب أنه أحرز ما يَرغَبُه ويَهْواه من زينة الحياة

وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[(١)].

يُحذِّر الله أهلَ الإيمان أن يقعوا فيما وقع فيه غيرُهم، فيُصيبهم من سُوء العاقبة ما أصابهم ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

وهذا لا يكون إذا اتقى الإنسانُ ربَّهُ، وحاسب نفسَه

والذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم هم أهل الضلال من المنافقين واليهود الذين خَلَتْ قلوبُهم من تقوى الله وخشيته، فلم ينظروا فيما يُقَدِّمُون لغَدٍ، بل شُغِلُوا بما هم فيه من متاع الحياة الدنيا، ونَسُوا الله ولم يذكروا عقابَه، ولم يستحضروا جلالَ الله وعظمتَه.

فكان هذا النسيان لله ولجلاله وعظمته سببًا في نسيانهم لأنفسهم، فلم ينظروا إلى المصير الذي هم صائرون إليه، ولم يَرَوْا البلاءَ المُحْدِقَ بهم من هذا الضلال الذي هم فيه.

ولو أنهم ذكروا الله وذكروا حسابَه وعقابَه، لذَكَرُوا وجودَهم هذا الذي يَسْبَحُ في بحار الضلال، ولَعَمِلوا - جاهدين - على إنقاذ أنفسهم مما هم فيه،

---

(١) الكهف: ١٠٣ - ١٠٥.

فكان نسيانُهم لله هو الدَّاءُ الذي رَانَ على قلوبهم وأعمى أبصارَهم، فلم يَرَوْا حقًا، ولم تَقْبَل نفوسُهم ما هو حَقٌّ.

والفاسقون: هم الخارجون عن طريق الحق الذي قام عليه الوجود كُلُّه، وهم الخارجون على فطرتهم التي فطر الله الناسَ عليها.

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

تلك هي العاقبةُ التي لا مَفَرَّ منها، فمَن اتَّقَى الله، ونَظَرَ إلى ما قَدَّمَ لَغَدٍ، وحاسب نفسَه على ما قَدَّم، وراقبَها في كُلِّ ما يُظهِرُ أو يُبْطِنُ، فقد أَعَدَّ نفسَه ليكون من أصحاب الجنة، وذلك هو الفوز العظيم

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[1].

وشتَّان بين من يُعَذَّب في النَّار، ومَنْ يُنَعَّم بنعيم الجنة.. نسألُ الله أن يجعلنا من أهلها.

ثم تجيء هذه الآية لتُشير إلى أسباب الهداية التي حفظها الله لمَنْ تفكَّرَ وتدبَّرَ واهتدى للتي هي أَقْوَم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2].

وهل تكون النجاةُ إلا لَمن استقام واهتدى، لا لمن اتَّبَعَ هواه، وأعرَضَ عن ذِكْرِ ربِّه؟

ذاك شأنُ القرآن وتلك مكانتُه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

---

(١) آل عمران: ١٨٥.
(٢) الإسراء: ٩.
(٣) الحشر: ٢١.

فإن خَيْرَ مُذَكِّر يُذكِّرُ بالله، ويدعو إلى خشية وتقواه، هو القرآن الكريم الذي يقول الله - سبحانه وتعالى - عنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

من أجل هذا ورحمةً بالخَلْق تكفَّل الله بحفظه، وأبقاه لتنقطع الحُجَّةُ، وتبطل المعذرة.

فمن قرأ القرآنَ واستمع إليه، ولم يخشع قلبُه له، ولم يَنْضَح بقطراتٍ من الخير والإحسان، ولم تَبْرُق في سمائه بُرُوقُ الهُدَى والإيمان فلْيَعْلَم - إن كان له أن يعلم - أنه دون بعض الأحجار قُبولاً للخير وتأثراً به.

*****

وبعد.. فإن الآيات الخاتمة قد خَلُصَت لذكر بعض أسماء الله - سبحانه - وصفاته، لم يُذكَر مع أسماء الله تعالى وصفاته غيرها.

فهل من مُتَدَبِّر لها؛ فإنها زادُ لخشوع القلوب أيُّ زاد.

إنها ثماني صفات جاءت متتابعة من غير حَرْف عَطْفٍ؛ لأنها - جميعاً - صفاتٌ واحدةٌ لمَوْصُوف واحد، فكما أن الله واحدٌ في ذاته - سبحانه - هو كذلك واحدٌ في صفاته.

فإذا تعامل الإنسان مع الله - سبحانه - بأسماء يدعوه بها، وَجَبَ أن تكون هذه الأسماء دالةً على ما لله - سبحانه وتعالى - من كمال وعظمة وجلال وسلطان ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾(٢).

وقد جاءت الآيات الثلاث التي عرضت هذه الأسماء الكريمة لله سبحانه، جاءت متلاحمةً، لها جلالُها وكمالُها من أن يدخل بينها، أو يدخل إليها ما ليس منها.

---

(١) القمر: ١٧.
(٢) الأعراف: ١٨٠.

إنها صفاتٌ وكُلٌّ صفة منها تجمع جميع الصفات، وهذه السورة - سورة الحشر - قد بُدئت بالتسبيح وخُتمَتْ باستمرار التسبيح ودوامه:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] هذه الآية في بدايتها.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] وتلك خاتمة السورة.

كما اقترنت الآيتان الأولى والأخيرة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ففي هذه الآية رَدُّ العَجُز على الصَّدْر؛ لأن صَدْرَ السورة مماثلٌ لآخرها.

خَتَمَهَا بالتسبيح كما ابتدأها به، إشارةً إلى أنه المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة لله تَنْزِيهُهُ عمَّا لا يليق به.

وهكذا يتلاقى المَطْلَعُ والختامُ في تناسقٍ والتئام، تسبيحٌ في ماض وحاضر ومستقبل، تتجاوب فيه الخلائقُ جميعاً بفطرتها

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[3].

ومَنْ قرأ هذه السورةَ، وعرف ما تحدثت عنه، أَيْقَنَ أن الوقائع والأحداث لا تَحْسُن معرفتُها أو الإفادةُ منها بعيداً عن تدبُّر ما أُنزل فيها من آيات، لأن الوقائع التي أنزل الله فيها قرآنًا لا يُخاطِبُ بها من وقعت الوقائع فيهم أو في عصرهم فحسب.

وإنما يُخَاطَبُ بها الإنسانُ حيث كان في أيِّ زمان أو مكان، ومن أجل ذلك حُفِظَ القرآن فحُفِظَتْ به دلالةُ الوقائع لمخاطبة الإنسان، فإن الوقائع - التي تُتْلَى آياتُها - تُعْرَفُ بها سُنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول في جميع الأحوال.

*****

(١) الحشر: ١.
(٢) الحشر: ٢٤.
(٣) الإسراء: ٤٤.

ومن وقائع المدينة التي تُتْلَى آياتُها واقعةُ بنى النَّضير، فقد نزل في بنى النَّضير سورة الحشر بأسْرِهَا، وفيها يَذكر ما أصابهم الله به من نقْمَته، وتُعْرَف - بتلاوتها - المقدماتُ والنتائجُ والأسبابُ والعواقب **﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾**(1).

بدأت السورة بالإخبار بأن الله سبَّح له ونزَّهَهُ عما لا يليق به كُلُّ شئ في السماوات والأرض، وأنه العزيز الذي لا يُغْلَبُ، الحكيم في كلِّ تصرفاته وشئونه ومن آثار عِزَّته وحِكْمَته ما تحدثت عنه السورةُ من عاقبه بنى النَّضير، وهم من يهود المدينة.

وكانوا قد صالحوا النبي ﷺ بعد الهجرة على ألاَّ يكونوا عليه ولا لَهُ.

فلمَّا كانت وقائعُ المسلمين في بَدْر وأُحُد نكثوا عهدهَم، وحالَفُوا قريشًا عليه ﷺ، ووقع منهم ما وقع من قول وفعل.

فحاصرهم الرسول ﷺ في حصونهم التي ظنُّوا أنها ما نِعَتُهم، فلم تمنعهم، ثُمَّ أجلاهم الرسولُ ﷺ عن المدينة.

وقد بيَّنتْ السورةُ حُكْمَ الفيء، فذكرت أنه لله ولرسوله ولذي القُرْبَى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وللفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم.

ثم تحدثت عن الأَنْصَار وفضلِهم، وإيثارهم المهاجرين على أنفسهم ولو كانت لهم حاجةٌ إلى ما آثروهم به.

ولَفَتَتْ النَّظَرَ إلى ما كان من وُعُود المنافقين لبنى النَّضير، في قولهم: **﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾** وفضحت كذِبَهم وتغريرَهم في ذلك.

---

(1) الأنفال: ٤٢.

ثم خلصت السورة إلى تذكير المؤمنين بما ينبغي أن يكونوا عليه من تقوى الله والتزوُّد للمستقبل القريب والبعيد، ولا يكونوا كالذين أعرضوا عن الله فأنساهم أنفسَهم.

وخُتمت السورةُ ببيان شأن القرآن وعظيم تأثيره ذلك لأن الله الذي أنزله هو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماءُ الحُسْنَى.

وجاءت خاتمتُها كبدايتها في تنزيه الله عمَّا لا يليق، وقد سبَّح ويُسَبِّحُ له كُلُّ ما في السماوات والأرض، وهو الغالب الذي لا يُعجزه شئٌ، الحكيم في تدبيره وأفعاله.

فما من دلالة في آية إلا ويراها المتدبِّرُ في واقعة وواقع.

عندئذ تكون دراسة الوقائع مُقْتَرِنَةً بعِبْرَتها وتبصرتها، غير مُنفصلة عن آياتها، فهي - في حقيقتها - ليست أحداثًا وقعت وانتهت، وإنما هي أحداثٌ ماضيةٌ تُرينَا سُنَنَ الله الباقية، وكفي بذلك بلاغًا وذكرى ونذيرًا للعالمين.

﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

*****

(١) إبراهيم: ٥٢.

غزوة المُرَيْسيع (بني المُصْطَلِق)

في شعبان سنة ٥ هـ

تُعدُّ هذه الغزوة من الوقائع التي أنزل الله فيها قرآناً يجب أن تُتَدبر آياتُه وتُعرفَ عظتُه وحكمته.

سبب الغزوة:

وسبب هذه الغزوة أنَّ النبي ﷺ قد بلغه أن الحارثَ بن أبي ضِرار - سيِّد بني المصطَلِق - قد سار في قومه ومن قَدَر معه من العرب؛ يريدون حرب رسول الله ﷺ.

ولما عرف رسولُ الله خبرَهم وما عزموا عليه، نَدَبَ الناسَ، فأسرعوا في الخروج إليهم وباغتهم، وخرج معهم جماعةٌ من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها.

وبَلَغَ الحارثَ بن أبي ضرار ومَنْ معه مسيرُ رسول الله ﷺ، فخافوا خوفًا شديدًا، وتفرَّق عنهم مَنْ كان معهم من العرب.

وانتهى رسولُ الله ﷺ إلى المُرَيْسِيع - وهو مكان الماء - فضرب عليه قُبَّتَهُ، ولم يكن بينه ﷺ وبين بني المصطلق قتالٌ، وإنما أغار عليهم على الماء، فسَبَى ذراريهم وأموالَهم، كما في الصحيح.

روى البخاري عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنَّ النبي ﷺ: أَغَارَ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ[1] وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ)[2].

(١) غَارُّونَ: غافلون.

(٢) البخاري - كتاب العتق، حديث رقم ٢٣٥٥.

وقد كانت جُوَيْرِيَةُ - رضي الله عنها - من جملة السبي، وهي بنت الحارث سيِّد القوم، وقعت في سَهْم ثابت بن قيس، فكاتبها، فأدَّى عنها رسولُ الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون - بسبب هذا الزواج - مئة أهلِ بيت من بني المصطلِق قد أسلموا، وقالوا: أصهارُ رسول الله ﷺ.

قالت عائشة - رضي الله عنها -: «فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، أُعْتِقَ فِي سَبَبِهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ»(١).

ابن أُبي يتطاول على رسول الله ﷺ:

ذكر ابن إسحاق قال:

وبينا رسولُ الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غِفَار يُقال له: جهجاه ابن مسعود، يقودُ فرسَه، فازدحم جهجاهُ وسِنَانُ بن وَبَر الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجُهني: يا معشر الأنْصَار، وصرخَ جهجاهُ: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدُ الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول، وعنده رَهْط من قومه فيهم زيدُ بن أرقم غلام حَدَث، فقال: أوَقَد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلاَّ كما قال الأولُ: سمِّن كلبَك يأكلك، أما والله، لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ.

ثم أقبل على مَنْ حضر من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادَكم، وقاسمتموهم أموالَكم، أما والله، لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم.

(١) مسند أحمد - باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٥١٦١، سنن أبي داود - كتاب العتق، حديث رقم ٣٤٢٩.

فسمع ذلك زيدُ بن أرقم: فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ الرسول ﷺ من عَدُوِّه، فأخبره الخبرَ وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مُرْ به عبادَ بن بشر فليَقْتُله.

فقال له رسولُ الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يقتُلُ أصحابَه؟! لا. ولكن أذِّن بالرحيل.

فكان ذلك في ساعةٍ لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتَحلُ فيها، فارتَحَلَ النَّاسُ.

اعتذار ابن أُبيّ:

وقد مشى عبدُ الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول إلى رسول الله ﷺ حين بَلَغه أن زَيد ابن أرقم قد بَلَّغَه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قُلتُ ما قال ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفًا عَظيمًا.

فَقَالَ مَنْ حضَر رسول الله ﷺ من الأَنْصَار من أصحابه: يا رسولَ الله، عسى أن يكون الغلامُ قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حَدَبًا على ابن أُبَيّ ودفْعًا عنه.

موقف الرسول ﷺ من مقالة ابن أُبَيّ:

قال ابنُ إسحاق:

فَلَمَّا استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لَقِيَه أُسَيْدُ بن حُضَيْر، فحيَّاه بتحية النُّبُوَّة، وسَلَّمَ عليه، ثُمَّ قال: يا نبيَّ الله، والله لقد رُحْتَ في ساعةٍ مُنْكَرة ما كنتَ تروح في مثلها.

فقال له رسولُ الله ﷺ: أوَ مَا بلغك ما قال صاحبُكم؟

قال: وأيُّ صاحب يا رسول الله؟

قال: عبدالله بن أُبَيّ.

قال: وما قال؟

قال: زعَم أنَّه إنْ رجع إلى المدينة لَيُخْرِجنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ.

قال: فأنت - يا رسولَ الله - تُخرجُه منها إنْ شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنَّ قومَه لَيَنْظمونَ له الخَرزَ لِيُتَوِّجُوه، فإنه يرى أنَّك قد استلبتَهُ مُلْكًا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومَهم ذلك حتَّى أمسى، وليلَتهم حتَّى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذلك، حتَّى آذتْهم الشمسُ، ثُمَّ نزل بالناس، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مَسَّ الأرض، فوقعوا نيَامًا.

وإنما فعل ذلك رسولُ الله ﷺ لِيَشغل النَّاسَ عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أُبَيّ.

ما نزل في ابن أُبَيّ من القرآن:

ونزلت السورةُ التي ذَكر الله فيها المنافقين في ابن أُبَيّ ومَنْ كان على مِثْل أمره، فلمَّا نزلت أخذَ رسولُ الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثُمَّ قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه.

وَبَلَغَ عَبدَ الله بن عبدِ الله بن أُبَيّ الذي كان من أمْر أبيه فقال:

يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تُريدُ قَتْلَ عبدالله بن أُبَيّ فيما بلغك عنه، فإنْ كنتَ لابُدَّ فاعِلاً فمُرني به؛ فأنا أحمل إليك رأسَه!!

فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ نَترفَّقُ ونُحْسِنُ صُحْبتَه ما بَقيَ معنا»

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدَث كان قومُه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويُعَنِّفونه.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم:

«كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قَتَلْتُه يوم قُلْتَ لي اقتُله، لأُرعدت له أُنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتَلَتْهُ».

قال عمر: قد والله علمتُ لأَمْرُ رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أَمْري.

حادثة الإفك:

وأقبل رسولُ الله ﷺ من سفره حتَّى إذا كان قريباً من المدينة، وكان معه عائشة - رضي الله عنها - في سفره، قال فيها أهلُ الإفك ما قالوا:

وكان الذي تَوَلَّى كبره منهم عبدُ الله بن أُبَيّ بن سَلُول، وهو الذي نزلت فيه وفيمَنْ كان على مثْل أَمْره سورة المنافقون.

وها هو ذا يتولَّى ما هو أشدُّ، ويَنْزل فيه ما نزل من سورة النُّور.

فإنَّ النفاقَ هو النفاقُ، وذاك عملُه..

ولكن قبل أن نعرض لحديث الإفك علينا أن نقف - أولاً - وقْفَةً يسيرة عند سورة المنافقون التي بُدئت بقوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾(١) وهي سورة مَدَنِيَّة، وآياتُها إحدى عشرة آية.

تحدثت السورةُ عن المنافقين بصورة عامة، ثُمَّ ذكرت ما وقع من رأس النفاق عبدالله بن أُبَيّ بن سَلُول من قوله: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾(٢).

وقوله هو ومَن كان على شاكلته: ﴿**لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا**﴾(٣).

---

(١) المنافقون: ١.

(٢) المنافقون: ٨.

(٣) المنافقون: ٧.

والآيات التي نزلت في ذلك تُقدِّم عظتَها للمؤمنين؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم في كُلِّ شأن من شئونهم.

فما الذي دفع أهلَ النفاق أن يقولوا مِثْلَ هذا القول؟

إنَّنا لو أحسنَّا التدبُّر لوَجدنَا أنَّ حديثَ القرآن الكريم يُشير إلى أمرين يجب الاحتراس منهما والحَذَر من آثارهما.

يُؤخَذُ ذلك من حديث القرآن الذي يُبيِّن أن الفَخْرَ الذي يَفْخَرُ به المنافقون راجع إلى رُكونهم إلى المال الذي يتواصون فيه مع غيرهم ألاَّ يُقدِّموا منه أيَّ عَوْن للمهاجرين ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا**﴾.

يا الله!! أَغَابَ عن هؤلاء أنهُّم وما يُنفقونه على أنفسهم أو على غيرهم، هو من عند الله؟ فلا فخر لهم من ذلك بشيء

﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ**﴾

ونرى القرآنَ - هنا - لا يذكر متعلَّق ﴿**لا يَفْقَهُونَ**﴾ لا يفقهون ماذا؟

لتذهب النفسُ في تقديره كُلَّ مَذْهَب.

وكفَاهُم أنَّهم لا يفقهون أنفسَهم، ولا يفقهون شيئاً وهم يُبصرون نَصْرَ الله لهم، وأنَّهم - بهجرتهم - قد انتصروا على أهوائهم، وأحصوا كُلَّ أمرهم لخالقهم، فعَظُم شأنُهم، إذْ لا يَعْظُم شأن مَنْ يَعظُم عند ربِّه إلاَّ من انتصر على هَوى نفسه

والمنافقون يَرَوْن دَلالةَ ذلك في كُلِّ مَنْ هاجر في سبيل الله، وصَدَق الله في جميع أمره من المهاجرين ومَنْ أحبهم وآثرهم من الأَنْصَار

ويُؤخذ - أيضاً - من قولهم وهم يقولون: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾ فهُم يَرَوْن عزَّتهم في عِزْوتهم، وأنهم أصحاب هذه الدَّار.

وكذبوا وضلُّوا؛ لأنَّ الأرض لله وحده، يُورثها مَنْ يشاء من عباده، ولا يستوي عند الله من أفْسَدَ فيها ومَنْ أصلَحَ.

والكُلُّ راجعٌ إليه وحده لا إلى أحد سواه

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾(١).

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

ولو أننا تدبَّرنا التناسبَ بين الآيات، ووقفنا عند قول الله - تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٣) لعرفنا أنَّ النهي عن ذلك تحذيرٌ من الوقوع في النفاق الذي أودى بأصحابه وساقهم إلى عذاب أليم.

نَهْيٌ عن الفتنة بالعزوة والمال، وكم من ناس في دنيا الناس قد يغفلون عن فتنة المال، فيضلون ويُفسدون ويُهلكون، ولا يرون ذلك إلاَّ عندما يُحاط بهم فلا يُنصرون بعزوة أو مال، وما كانوا منتصرين، وليسْ أمامهم إلا الندم والحسرة والخسران.

من أجل ذلك نادى الله أهلَ الإيمان أنْ يعملوا بمقتضى إيمانهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾

لأنَّ مَنْ أَلْهَاهُ مالُه أو ولدُه عن ذِكْر ربِّه، فُتِنَ بِمَا هُو فيه، ونَسيَ ما هو مُقبلٌ عليه، فَعُوقِبَ من اللهِ بعقابٍ يُفقده الرُّشدَ في جميع أمره

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(٤).

ومن نَسِيَ نَفْسَه - عقاباً من ربِّه - أوقَعَها في جميع الموبقات وهو يحسب أنه يجلب لها النافعات.

---

(١) مريم: ٤٠.
(٢) المنافقون: ٨.
(٣) المنافقون: ٩.
(٤) الحشر: ١٩.

يسيء وهو يحسبُ أنَّه يُحسِن، ويَضِل وهو يظن أنه يُصلح!

وصدق الله العظيم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

ذلك ما يترتب على عقاب مَنْ نسى الله فأنْسَاه الله نفسَه، وذاك ما وقع فيه المنافقون وساءت به عاقبتهُم.

فلا تكونوا - مَعْشَرَ المؤمنين في أيٍّ زمان أو مكان - مثلهم؛ فإنَّ سُنَّة الله لا تُجاملُ أحدًا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2].

ولن تَسْلَمَ النفوسُ من ذلك إلاَّ إذا سَلمَتْ من هَواها، وجعلت من مرضات الله والإخلاص له سبيلَ عزِّهَا.

ويَا لَهَا من دلالة أن تُختَم السورة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

*****

والآن تعالوا بنا لنرى ما وقع من أولئك المنافقين عندما أقبل رسولُ الله ﷺ من سفره في غزوة بني المصطلق، وكان قريباً من المدينة، وكانت معه عائشةُ - رضي الله عنها -.

قال فيها أهل الإفك ما قالوا، ولا يغيب عن أحد ما يريده رأسُ النفاق من حديث الإفك..

---

(١) الكهف: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) المنافقون: ٩.

(٣) المنافقون: ١٠، ١١.

إنَّه يريدُ أن يصيب الدَّعْوَةَ إلى الإسلام في مَقْتَلٍ، فلم يكن الافتراء الذي وقع من المنافقين مجرد كَذِبٍ يُقال ثُمَّ يمضي، وإنَّما كان نَيْلاً من الرسالة والرسول في أخَصِّ خصائصه.

ولكن الله - سبحانه وتعالى - أبْطَلَ كيْدَ الكائدين، وسَلِمَتْ المدينةُ المُنَوَّرَة من إشاعة الخُبْث، وعادَتْ رَمْيَةُ القوم إلى نُحورهم.

وأراد الله - بما أنزل من الذكر الحكيم - أن يظلَّ هذا الحديث مذكورًا ومَتْلُوّاً إلى يوم الدِّين؛ لأنَّ ما فيه من عِبَرٍ وعظاتٍ لا يقف عند وَقْتٍ بعينه، وإنما يمتدّ؛ ليرى الناسُ ما يجب أن يكونوا عليه عندما يقولون أو يسمعون.

ويُريهم - في الوقت نفسه - أنَّ الأحداثَ والوقائع - صغُرت أو كبُرت في أيِّ زمان أو مكان - ليست بمعزل عن علم وحساب وجزاء.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١).

قالت عائشةُ - رضي الله عنها -:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سَفَرًا أقرع بين نسائه، فأيَّتُهُنَّ خرج سَهْمُها خرج بها معه.

فلما كانت غزوة بني المصْطَلِق أقْرَع بين نسائه كما كان يَصْنع، فخرج سَهْمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذْ ذاك يأكُلْنَ العُلَقَ، لم يَهِجْهُنَّ اللَّحمُ فَيَثْقُلْنَ، وكنتُ إذا رُحِّلَ لي بعيري جَلَسْتُ في هَوْدَجي(٢) ثُمَّ يأتي القوم الذين يُرَحِّلُون لي ويحملونَني، فيأخذون بأسفل الهَوْدج فيرفعونَه، فَيَضَعُونَه على ظهر البعير، فينطلقون به.

---

(١) يونس: ٦١.

(٢) الهودج: ما تركبه المرأة فوق الدابة في السفر.

قالت: فلما فرغ رسولُ الله ﷺ من سفره، وجَّه قافلاً، حتَّى إذا كان قريباً من المدينة نزل مَنْزلاً، فبات به بعض الليل، ثُمَّ أذَّن في الناس بالرَّحيل، فارتحل الناس.

وخرجتُ لبعض حاجتي وفي عُنقي عِقْدٌ لي فيه جَزْع ظَفار[١] فلمَّا فرغتُ انْسَلَّ من عُنقي ولا أدري، فلمَّا رجعت إلى الرَّحْل ذهبتُ أَلْتَمِسُه في عُنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعتُ إلى مكاني الذي ذهبتُ إليه، فالتمستُه حتَّى وجدتُه، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلُون لي البعيرَ وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودجَ وهم يَظُنُّون أنِّي فيه كما كنتُ أصنع، فاحتملُوه، فَشَدُّوه على البعير، ولم يَشُكُّوا أنِّي فيه، ثُمَّ أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعتُ إلى العسكر وما فيه من داعٍ ولا مُجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فَتَلَفَّفْتُ بجلبابي، ثُمَّ اضطجعتُ في مكاني، وعرفتُ أن لو قد افتقدتُ لَرُجِع إلَيَّ.

قالت: فوالله، إني لَمُضطجعة إذ مَرَّ صفوان بن المعطَّل السُّلَمي، وقد كان تخلَّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سَوادي، فأقبل حتَّى وقف عَلَيَّ، وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب علينا الحجابُ.

فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة[٢] رسول الله ﷺ! وأنا متلفِّفة في ثيابي.

قال: ما خَلَّفَك يرحمك الله؟

قالت: فما كلَّمْتُه. ثُمَّ قرَّب البعيرَ فقال: اركبي، واستأخر عنّي.

قالت: فركبتُ، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس.

فوالله، ما أدركْنَا الناسَ، وما افتُقِدْتُ حتَّى أصبحتُ ونزل الناس، فلمَّا اطمأنّوا طلع الرجلُ يقود بي، فقال أهلُ الإفك ما قالوا، فارتَجَّ العسكرُ، ووالله، ما أعلمُ بشيءٍ من ذلك.

---

(١) جَزْع ظَفار: أي خرز بلاد ظفار.

(٢) الظعينة: المرأة في السفر.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبَثْ أن اشتَكَيْتُ شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويَّ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيرًا، إلاَّ أني قد أنكرتُ من رسول الله بعضَ لُطْفِه بي.

كنتُ إذا اشتكيت رَحمني، ولَطَفَ بي، فلم يَفْعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرتُ ذلك منه. كان إذا دخل عَلَيَّ وعندي أُمِّي تمرضني، قال: كيف تيكُمْ؟ لا يزيد على ذلك.

قالت: حتَّى وجدتُ في نفسي، فقلتُ: يا رسول الله - حين رأيتُ ما رأيتُ من جَفَائِه لي - لو أذنتَ لي فانتقلتُ إلى أُمِّي فمرَّضتني؟

قال: لا عليك.

قالت: فانتقلتُ إلى أُمِّي ولا عِلْمَ لي بشيءٍ مما كان، حتَّى نَقِهْتُ[١] من وَجَعي بعد بضعٍ وعشرين ليلة.

وكنَّا قومًا عَرَبًا لا نَتَّخِذُ في بُيُوتِنَا هذه الكُنُف[٢] التي تَتَّخذُها الأعاجمُ؛ نعافُهَا ونكرهُها، إنما كنَّا نذهب في فُسَح المدينة، وإنما كانت النساء يَخْرُجْنَ كُلَّ ليلة في حوائجهن.

فخرجتُ ليلةً لبعض حاجتي، ومعي أمُّ مِسْطح بنتُ أبي رُهم بن المطَّلب بن عبدمناف، وكانت أمُّها بنتُ صَخْر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالةَ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

قالت: فوالله، إنها لَتَمْشي معي إذ عَثُرت في مِرْطها[٣] فقالت: تَعِس مسطح ومسطح لقب واسمه عَوف.

(١) نَقِهْتُ: شُفيتُ واستعدت صحتي.
(٢) الكُنُف: جمع كنيف، وهو موضع قضاء الحاجة.
(٣) المرط: كساء من صوف.

قالت: قلتُ: بِئْسَ لَعَمْرُ الله ما قُلْتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا

قالت: أوَمَا بَلَغَكِ الخبرُ يا بنتَ أبي بكر؟

قالت: قلتْ: وما الخبر؟

فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك.

قالت: قُلْتُ: أوَ قَدْ كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان.

قالت: فوالله، ما قَدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعتُ، فوالله ما زلتُ أبكي حتَّى ظننتُ أن البكاء سيصدع كبدي.

قالت: وقُلتُ لأُمِّي: يغفرُ الله لك، تحدَّث الناسُ بما تحدَّثوا به، ولا تَذكرين لي من ذلك شيئًا.

قالت: أيْ بُنَيَّة، خَفِّضي عليك الشأنَ، فوالله، لقَلَّمَا كانت امرأةٌ حسناءُ، عند رجلٍ يحبُّها، لها ضرائر، إلا كثَّرنَ وكثَّر الناس عليها.

قالت: قُلتُ: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟!!

قالت: فبكيتُ تلك الليلة، حتَّى أصبحتُ لا يرقأُ لي دَمْعٌ[1] ولا أكتَحِلُ بنوم، ثُمَّ أصبحتُ أبكي وأبواي يظُنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي[2].

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأْذَنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنْصَار، فأذنْتُ لها، فجلسَتْ تبكي.

قالت: فقام رسولُ الله ﷺ على المنبر، فاستَعْذَر من عبدالله بن أُبَيّ بن سلُول.

قالت: فقال رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، مَنْ يَعْذِرُني من رَجُلٍ قد بَلَغَ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله، ما علمتُ على أهلي إلاَّ

---

(١) رقأ: أي انقطع.
(٢) فالق كبدي: أي شاق.

خيرًا، ولقد ذكروا لي رجلاً ما علمت عليه إلاَّ خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعدُ بن مُعَاذ الأَنْصَاري فقال: أنا أَعْذِرُك منه يا رسول الله، إنْ كان من الأوس ضربنا عُنُقَهُ، وإنْ كان من إخواننا الخزرج أمرتنا فَفَعلنا أمرَك.

قالت: فقام سعدُ بن عبادة - وهو سيِّدُ الخزرج، وكان رجلاً صالحًا، ولكن اجْتَهَلَتْه الحَميَّةُ - فقال لسعد بن مُعَاذ: كذبتَ، لعَمْرُ الله، لا تقتله، ولا تَقْدِرُ على قتْله.

فقام أسيدُ بن حضير - وهو ابنُ عمِّ سعد بن مُعَاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لَعَمْرُ الله، لنقتُلَنَّه، فإنَّك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيَّان الأوسُ والخزرجُ، حتَّى هَمُّوا أن يقتتلوا ورسول الله قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا، وسكتَ.

قالت: ثُمَّ دخل عليَّ رسولُ الله وعندي أبواي، وعندي امرأةٌ من الأَنْصَار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال:

يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإنْ كُنْتِ قد قارَفْت سوءً مما يقولُ الناسُ فتُوبي إلى الله؛ فإنَّ الله يقبل التوبة عن عباده.

قالت: فوالله، ما هو إلا أن قال لي ذلك، فَقَلَصَ دمعي(١) حتَّى ما أُحس منه شيئًا، وانتظرتُ أبويَّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ، فلم يتكلَّما!

قالت: وأَيْمُ الله، لأنا كنتُ أحْقَر في نَفْسي وأصغَرَ شأنًا من أن يُنْزِلُ اللهُ فِيَّ قرآنًا يُقْرَأُ في المساجد ويُصَلَّى به، ولكني كنت أرجو أن يرى رسولُ الله ﷺ في نومه شيئًا يُكذِّب به الله عنِّي لما يعلم من براءتي، أو يُخْبَر خبرًا، أمَّا قُرآنٌ يَنْزل فِيَّ فوالله، لَنَفْسي كانت أحقَرَ عندي من ذلك.

---

(١) قَلَصَ دمعي: أي جفَّ وذهب.

قالت: فلما لَمْ أرَ أبويَّ يتكلمان قُلتُ لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟

قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نُجيبه.

قالت: ووالله، ما أعلَم أهلَ بيت دخل عليهم ما دخل على آل بكر في تلك الأيام..

قالت: فلمَّا استعجما عَلَيَّ، استعبرتُ فبكيتُ.

ثُمَّ قلتُ: والله، لا أتوبُ إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إني لأعلم إنْ أقْرَرْتُ بما يقول الناس - والله يعلم أني بريئة - لأقُولَنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني.

قالت: ثُمَّ التمست اسم يعقوب فما أذكره، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[١].

فقالت: فوالله، ما بَرح رسولُ الله ﷺ مجلسَه حتَّى تَغَشَّاه من الله ما كان يتغَشَّاه، فَسُجِّي بثوبه، وَوُضِعَتْ له وسَادة من أدَم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله، ما فَزِعتُ ولا بَاليتُ، قد عرفتُ أني بَريئة، وأن الله عز وجل غَيرُ ظالمي.

وأما أبواي: فوالذي نفس عائشة بيده، ما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ حتَّى ظننتُ لتخرجنَّ أنفسهما؛ فَرَقًا من أنْ يأتيَ من الله تحقيقُ ما قال الناس.

قالت: ثُمَّ سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ فجلس وإنَّه لَيَتَحَدَّر منه مثلُ الجُمان[٢] في يوم شَات؛ من ثِقَل القَوْل الذي أُنزل عليه فجعل يمسح العرقَ عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءَتك.

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) يتحدر منه: أي يقطر ويتصبب، والجُمان: حبَّات من اللؤلؤ، والمراد ينزل منه العَرَق على هيئة اللؤلؤ.

قالت: قُلتُ: بحمد الله، ثُمَّ خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك.

قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾[1] عشر آيات.. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي[2].

قالت: فقال أبو بكر - وكان يُنْفِقُ على مسطح لقرابته منه وفَقْرِه -: والله لا أُنفِقُ عليه شيئًا أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[3].

فقال أبو بكر: والله، إني لأُحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقةَ التي كان يُنفقُ عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة - رضي الله عنها -:

وكان رسول الله ﷺ سأل زينبَ بنت جحش زوج رسول الله ﷺ عن أمري: ما عَلِمت، أو ما رأيتِ؟ فقالت: يارسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلاَّ خيرًا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[4] من أزواج النبي ﷺ، فَعَصَمَهَا الله بالورع، وطفقت أُختُها «حَمْنَه بنت جحش» تحاربُ لها، فهلكت فيمن هَلَك.

*****

وبعدُ.. فهذه كلماتٌ موجزةٌ يسيرةٌ عن الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق - رضي الله عنها - تزوَّجها رسولُ الله ﷺ بمكة في شوَّال قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث وهي

(١) النور: ١١.
(٢) البخاري - كتاب الشهادات، حديث رقم ٢٤٦٧، كتاب المغازي، حديث رقم٣٨٢٦.
(٣) النور: ٢٢.
(٤) تساميني: أي تنافسني وتضاهيني.

بنت ست سنين، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين، وبقيت عنده تسع سنين، ولم يتزوج بكرًا غيرها.

في الصحيحين عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قالت:

قال رسول الله ﷺ: «أُرِيتُك فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ وَرَجُلٌ يَحْمِلُك فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ[1] فَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (يُمْضِهِ)»[2].

وأخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لأمِّ سَلَمَةَ:

«يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ؛ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ، مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا»[3].

وورد أن ابن عباس - رضي الله عنهما - استأذن على أُمِّ المؤمنين عائشة وهي في مرض وفاتها، فقال لها فيما قال:

أبشري، فما بينك وبين أن تلْقي رسول الله والأحبَّة إلاَّ أن تخرج الرُّوح من الجسد، كنت أَحبَّ نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسولُ الله يُحبُّ إلا طيباً. وسَقَطَتْ قلادتُك ليلة الأبْواء، فأصبح رسول الله ﷺ في المنزل يلتقطها، وأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله - تبارك وتعالى - أن تيمموا صعيداً طيبًا، فكان ذلك من سببك ما أنزل الله لهذه الأمة من الرخصة، ثم أنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله، يُذكر فيه الله إلا تتلى فيه براءتك آناء الليل وآناء النهار.

فقالت - رضي الله عنها -: دَعْني منك يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده، لوددت أني كنت نسياً مَنْسيًّاً[4].

---

(١) سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ: أي شقة من الحرير الجيد.

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٠٦.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٩١.

(١) حلية الأولياء: ٢/٤٥، سير أعلام النبلاء ٢/١٨٠، صفوة الصفوة ٢/٣٨، الطبقات الكبرى ٨/٧٥، مسند أبي يعلى ٥/٥٧، فضائل الصحابة لابن حنبل ٢/٨٧٣.

وذكر ابن الجوزي في كتابه [صفة الصفوة] عن القاسم قال:

«كنت إذا غَدَوْتُ أبدأ ببيت عائشة أسلّم عليها، فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تقرأ ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾[١] وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتَّى مللتُ القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثُمَّ رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي»[٢].

وقد تُوفيت - رضي الله عنها - ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من رمضان، سنة ثمان وخمسين، وهي ابنة ستٍّ وستين سنة.

*****

أَرَأَيْتَ معي أنَّ أحداث المدينة ووقائعها يجب أن تُتدبَّر في آيات الذكر الحكيم؛ لتظَلّ - دائماً - موضع أُسْوَة وتقدير، فما أكثر وقائع الحياة التي تُذكر وتذهب.

أما الأحداث والوقائع التي يُنَزِّل الله فيها قرآناً يُرينا سُنَنَ الله في واقع، فإنها لا تذهب بذهاب زمنها، ولا يتوقف عطاؤها بوفاة أهلها.

إنَّ سورةَ النُّور كلَّها يجب أن تُحفظ وفيها ما فيها من تبرئة البريئة الطاهرة عائشة ومن أحكام يجب أن تُذكر ولا تُنسى.. وهي السورة التي بُدئت بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وخُتمت بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

*****

(١) الطور: ٢٧.
(٢) صفوة الصفوة: ٢/٣١.
(٣) النور: ٦٤.

غزوة الأحــزاب

في شوال سنة ٥ هـ

وقعت غزوة الأحــزاب في شـوال من السنـة الخامســة للهجـرة، وسُــميت بـ «غزوة الخندق» لأجل الخندق الذي حُفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ.

وأمـا تسميتهـا بـ «غزوة الأحزاب» فـلاجتماع طوائف مـن المشركين على حرب المسلمين، وهم: قريش، وغطفان، وآخرون من قبائل العرب، واليهود ومَن تبعهم.

سبب الغزوة:

شرع اليهود - من جديد - في التآمر على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها، ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خـرج عـشـرون رجـلاً من زعـمـاء الـيـهـود وسـادات بني الـنـضـيـر إلـى قـريش بمكة، يحـرضـونهم على غـزو رسـول الله ﷺ منهم: سـلاَّم بن أبي الحـقـيق النَّضَري، وحُيَيُّ بن أخطب النَّضَري، وكنانه بن أبي الحقيق النَّضَري، وهَوْذَة بن قيس الوائلي، وأبو عمَّار الوائلي، في نَفَرٍ من بنـي النَّضير، ونَفَرٍ من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجـوا حتَّى قدموا علي قـريش مكة، فدعوهم إلي حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم حتَّى نستأصله.

فـقـالـت لهم قـريش: يا مـعـشـر يهـود، إنكم أهل الكتـاب الأول والعـلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أَفَدِينُنا خَيْرٌ أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

فهم الذين أنزل الله فيهم: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**

﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(١).

فلما قالوا ذلك لقريش سَرَّهم ونَشَطُوا لمَا دَعَوْهم إليه من حَرْب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتَّعَدوا له.

ثُمَّ خرج أولئك النَّفَرُ من يهود حتَّى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدَعَوْهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

الرسول ﷺ يُشارك في حفر الخندق:

لَمَّا سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار أصحابه فيما يجب عمله، فأشار سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بحفر خندق حول المدينة يُقاتِلون من خلفه فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق، وشارك فيه بنفسه؛ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يستترون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجه التي لابُدَّ له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللُّحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجَتَه رجع إلى ما كان فيه من عمله؛ رغبة في الخير واحتسابًا له.

فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

---

(١) النساء: ٥١ - ٥٤ .

(١) النور: ٦٢.

نزلت هذه الآيات فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

ثم قال الله تعالى، يعنى في المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ:

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

فُلول الشرك تطوق المدينة:

قال ابن إسحاق:

لَمَّا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتَّى نزلت بمجتمع الأسيال من رومه، بين الجُرُف(٢) وزغابة، في عشره آلاف من أحابيشهم ومَن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتَّى نزلوا بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتَّى جعلوا ظهورَهم إلى سَلْع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكَرَه، والخندق بينه وبين القوم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابنَ أُمِّ مكتوم.

وقال ابن إسحاق: وأمَرَ بالذراري والنساء فجُعِلُوا في الآطام، أي الحُصون.

---

(١) النور: ٦٣.

(٢) الجُرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

الرسول ﷺ يرسل أصحابه لاستطلاع الأمر:

لمَّا انتهى خبر الأحزاب وتجمعهم إلى رسول الله ﷺ بادر إلى التحقق منه، فأرسل وفداً من الصحابة فيهم سعد بن مُعَاذ، وأمرهم إن وجدوا الخبر صحيحاً أن يُلحنوا له، أي يقولون قولاً يعرف من الرسولُ ﷺ ما وقع ولا يعرفه الناس، وتلك حكمة الرسول ﷺ

قال الرسول ﷺ لمن بعثهم إلى قُرَيْظَة: «انطلقوا حتَّى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحْنَاً أعرفه[1] ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس».

فخرجوا حتَّى أتَوْهُم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه ولا عقد، فشاتمهم سعد بن مُعَاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حِدَّة.

فقال له سعد بن عُباده: دَعْ عنك مَشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثُمَّ أقبل السعدان ومَن معهما إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، ثُمَّ قالوا: عَضَلٌ والقارة، أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه.

فقال رسول اله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين».

فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الحُزن، وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتَّى ظنَّ المؤمنون كُلَّ ظَنٍّ، ونَجَم النفاق من بعض المنافقين.

مناورات على شفا الخندق:

أقبل فوارس من قريش منهم عمرو بن عَبْدُ وُدٍّ، أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها.

---

(١) اللَّحْن: اللُّغز، وهو أنه يخالف ظاهر الكلام معناه.

ثُمَّ تَيَمَّمُوا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجَالَتْ بهم خيلُهم في السَّبخة بين الخندق وسَلْع، ودعوا إلى البِرَاز

فانتدب لعمرو عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان عمرو بن عَبْدُ وُدٍّ قد قاتل يوم بَدْر حتَّى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحُد

فلما كان يوم الخندق خرج، وقد جعل لنفسه علامة يُعرَف بها؛ ليُرَى مكانُه، فلما وقف هو وخَيْلُه قال: مَن يُبارز؟

فبَرَزَ له عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا عمرو، إنك قد كنتَ عاهدتَ الله ألا يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلا أخذتَها منه.

قال له: أَجَلَ.

قال له عليٌّ: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى النِّزَال.

فقال: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أُحِبُّ أن أقتلك.

قال له عليٌّ: لكني والله أُحبُّ أن أقتلك.

فحمى عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره، وضرب وجهه، ثُمَّ أقبل عَلَى عَلِيٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقَتَلَه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرجت خيلُهم مُنهزمة حتَّى اقتحمت من الخندق هاربةً.

*****

هذا وقد حاول المشركون - في بعض الأيام - محاولة بليغة لاقتحام الخندق، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل، وناضلوهم أشد النضال.

وفي هذه المراماة قُتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع: ستة من المسلمين، وعشرة من المشركين.

وقد كانت عائشة - رضى الله عنها - في حصن بنى حارثة يوم الخندق، وكان من أحْرَز حُصون المدينة، وكانت أُمُّ سعد بن مُعَاذ معها في الحصن، فقالت عائشة - وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب -:

فَمَرَّ سعدُ وعليه درع له مُقَلَّصَة[1] قد خرجت منها ذراعُه كُلُّها، وفي يده حربتُه يَرْقُد بها: أي يُسرع - ويقول:

لبِّث قليلاً يَشْهد الهيجا جَمل   لا بأس بالموت إذا حَان الأجَل

فقالت له أُمُّه: الحَق أي بنى، فقد والله أخَّرت.

قالت عائشة - رضى الله عنها -: فقلت لها:

يا أُمَّ سعد، والله لَوَدَدّت أن درع سعد كانت أَسْبغ مما هي[2].

قالت: وخِفْت عليه حيث أصاب السهم منه، فَرُمِيَ سعد بن مُعَاذ بسهم، فقطع منه الأكحل[3] رماه حبَّانُ بن قيس بن العَرِقة، فلما أصابه، قال: خُذها منى وأنا ابن العَرِقة.

فقال له سعد: عَرَّق الله وجهَك في النار. اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحبّ إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولَك وكذَّبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنتَ قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتَّى تقرَّ عيني من بنى قُرَيْظَة.

---

(١) مُقَلَّصَة: أي قصيرة.
(٢) أسبغ مما هي: أي أكمل وأطول.
(٣) الأكحل: عرق في الذراع.

وقد كان من تقدير الله أن أبقى سعداً وهو جريح، ليحكم فيهم حُكْماً قال الرسول ﷺ عنه: «لقد حَكَمَت فيهم بحُكم الله من فوق سبع سماوات».

مشاورة النبي ﷺ السَّعدين:

لَّما اشتد َّعلى الناس البلاءُ بعث رسولُ الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بَدّر، وإلى الحارث بن عوف بن أبى الحارثة المري - وهما قائدا غطفان - فجرى بينه وبينهما الصلح على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمَن معهما عنه وعن أصحابه، وكتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المُراوضة في ذلك.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن مُعَاذ وسعد بن عُباده، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له:

يا رسول الله، أمراً نُحبُّه فنصنَعَه، أم شيئاً أمَرَك الله به لابُدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال: بل شئ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رَمَتْكُم عن قَوْس واحدة وكَالَبُوكُم من كُلِّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما.

فقال له سعد بن مُعَاذ:

يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبدالله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلا قِرَى أو بيعاً، أَفَحِين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه، نُعطيهم أموالنا؟!! والله، مالنا بهذا من حاجة، والله لا نُعطيهم إلا السيف حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك.

فتناول سعد بن مُعَاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثُمَّ قال:

ليجهروا علينا، وكان النساء والأطفال في حصون يُخشَى عليهم من غدر الذين غدروا، والمسلمون مشغولون بمواجهة الأحزاب، وهم في الوقت نفسه لا يغيب ما قد يقع بأطفالهم ونسائهم.

نعيم بن مسعود وحيلته الناجحة:

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو وهزم جموعَهم وفَلَّ حدَّهم - فكان هيَّأ من ذلك: أن رجلاً من غطفان يُقال له نُعَيم بن مسعود بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني قد أسلمتُ، فمُرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنا ما استطعتَ، فإن الحرب خدْعة.

فذهب من فَوره ذلك إلى بنى قُرَيْظَة - وكان عشيراً لهم في الجاهلية - فدخل عليهم وهم لا يعلمون إسلامَه، فقال:

يا بنى قُرَيْظَة، إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فرصةً انتهزوها، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً فانْتَقَمَ منكم.

قالوا: فما العمل يا نُعَيْم؟

قال: لا تُقاتلوا معهم حتَّى يُعطوكم رهائن.

قالوا: لقد أشَرْتَ بالرأي.

ثم مضى على وجهه إلى قريش فقال لهم: تعلمون وُدِّي لكم، ونصحي لكم

قالوا: نعم.

قال: إن يهودَ قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسَلُوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثُمَّ يُمالِئُونَه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.

ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلةُ السبت من شوال، بعثوا إلى اليهود: إنَّا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاعُ والخُفُّ[1] فانهضوا بنا حتَّى نُناجز محمدًا

فأرسل إليهم اليهودُ: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب مَنْ قبلَنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنَّا لا نقاتل معكم حتَّى تبعثوا إلينا رهائن.

فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت: قريش: صدقكم والله نُعَيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتَّى نُناجز محمداً.

فقالت قُرَيْظَة: صَدَقَكُم والله نُعَيم.

فتخاذل الفريقان، وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح فجعلت تُقَوِّض خيامَهم، ولا تَدَع لهم قِدْرَاً إلا كَفَأتْها، ولا طُنُبًا[2] إلا قلعته، ولا يَقِرُّ لهم قَرَارٌ، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرُّعْبَ والخوف.

وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيئوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رَدَّ الله عدوَّه بغيظه، لم ينالوا خيرا، وكفاه الله قتالَهم، فصَدَق وعدَه، وأعزَّ جُنْدَه، ونَصَرَ عبدَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه.

فدخل ﷺ المدينة، ووضع السلاح، فجاءه جبريل عليه السلام وهو يغتسل في بيت أُمِّ سَلَمَة، فقال: أَوَضَعْتُم السلاحَ؟ إن الملائكة لم تضع بعد أسلحَتَها. أنْهَضْ إلى غزوة بنى قُرَيْظَة.

فنادى رسول الله ﷺ «مَنْ كان سامعاً مُطيعاً، فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلى في بنى قُرَيْظَة».

---

(١) الخُفُّ: واحد أخفاف البعير، والكُراع: بالضم في البقر والغنم وفي المَثَل: «أُعْطِيَ العبدُ كُراعاً فطلب ذراعاً» لأن الذراع في اليد وهو أفضل من الكُراع في الرجل.

(٢) الطُنُب: بضمتين حَبْل الخباء.

فخرج المسلمون سِراعاً، وكان من أمره وأمر بني قُرَيْظَة ما قدَّمناه، واستُشهد يوم الخندق ويوم قُرَيْظَة نحو عشرةٌ من المسلمين.

ولَمَّا انصرف أهلُ الخندق عن الخندق، قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» فلم تغزُهم قريش بعد ذلك، وكان هو الذي يغزُوها، حتَّى فتح الله عليه مكة.

ما ظهر أثناء الحفر من المعجزات:

قال ابن إسحاق:

وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عِبْرة في تصديق رسول الله ﷺ وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، منها:

*** أمْرُ الصخرة:**

فكان مما بلغني أن جابر بن عبدالله كان يُحَدِّث: أنه اشتدَّت عليهم في بعض الخندق كُدْيَةٌ[1] فَشَكَوْها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء، فتَفِلَ فيه، ثُمَّ دعا بما شاء أن يدعو به، ثُمَّ نضح ذلك الماء على تلك الكُدْيَة، فيقول مَنْ حَضَرَها: فوالذي بعثه بالحق نبيًا، لانْهَالَت - أي تفتت - حتَّى عادت كالكثيب لا تَرُدُّ فأسا ولا مسحاةً.

*** البركة في تَمْر ابنة بشير:**

قال ابن إسحاق: وحدثني ابنُ مينا أنه حُدِّث أن ابنةً لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير قالت:

دعتني أُمِّي عَمْرةُ بنت رواحة، فاعطتني حِفْنَةً من تَمْر في ثوبي، ثُمَّ قالت: أي بُنَيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بغذائهما.

---

(١) الكُدْيَةُ: القطعة الصلبة من الأرض.

قالت: فأخذتها، فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا التمس أبى وخالي، فقال: تعالَيْ يا بُنَيَّة، ما هذا معك؟

قالت: فقلت: يا رسول الله، هذا تَمْرٌ، بعثتني به أُمِّي إلى أبى بشير بن سعد وخالي عبدالله بن رواحة يتغذَّيَانه.

قال: هَاتيه.

قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ، فما ملأتْهُمَا، ثُمَّ أمر بثوب فبُسط له، ثُمَّ دَحَا بالتمر عليه، فتبدَّد فوق الثوب، ثُمَّ قال لإنسان عنده: «اصرُخ في أهل الخندق أن هَلُمَّ إلى الغداء».

فاجتمع أهلُ الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتَّى صَدَرَ أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

*** البركة في طعام جابر:**

قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن مينا، عن جابر بن عبدالله قال:

عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، فكان عندي شُوَيْهة - غير جِدّ سمينة[1].

قال: فقلت: لو صنعناها لرسول الله ﷺ، قال: فأمرت امرأتي فطحَنَتْ لنا شيئاً من شعير، فصنعَتْ لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة، فشويناها لرسول الله ﷺ.

قال: فلمَّا أمسينا، وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق - قال: - وكنَّا نعمل نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا - قال: قلت:

---

(١) أي غير كاملة السِّمن.

يا رسول الله، إني قد صنعت لك شُوَيْهةً كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فَأُحِبُّ أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده.

قال: فلما أن قلت له ذلك، قال: نعم.

ثم أمر صارخاً: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبدالله

قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال: فأقبل رسول الله ﷺ وأقبل الناس معه.

قال: فجلس وأخرجناها إليه

قال: فبرك وسمَّى الله، ثُمَّ أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قومُ قاموا وجاء ناسٌ، حتَّى صدر أهل الخندق عنها

*** ما أرى الله رسولَه من الفتح:**

قال ابن إسحاق: وحُدثت عن سلمان الفارسي أنه قال:

ضَرَبتُ في ناحية فغَلُظَت عليَّ صخرةٌ، ورسول الله ﷺ قريب منى، فلما رآني أضرب، ورأى شدَّة المكان عليَّ، نزل فأخذ المِعْوَل من يدي، فضرب به ضربة لَمَعَت تحت المعول بَرْقَةٌ، قال: ثُمَّ ضرب به ضربةً أخرى، فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى، قال: ثُمَّ ضرب به الثالثة فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى.

قال: قلت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لَمَعَ تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟

قال: قلت: نعم.

قال: أمَّا الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليَمَن.

وأما الثانية: فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب.

وأما الثالثة: فإن الله فتح عليَّ بها المشرق.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتَّهم، عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فُتِحَتْ هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده:

«افتتحوا ما بدَا لكم، فوالذي نفس أبى هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينه، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله - سبحانه - محمداً مفاتيحَها قبل ذلك»[1].

حديث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب:

يجب أن يُستَحْضَر القرآن الكريم، كما تُسْتَحْضَر السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة في دراسة الوقائع والأحداث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ؛ ليجدَ الناسُ هدايتَهم من كتاب الله وبيانه من السنة المُطَهَّرَة.

وما من شئ قد وقع في غزوة الأحزاب إلا وفيه قرأن يُتْلَى، وفيه حضور الرسول ﷺ.

ومن هنا تكون الإفادة من القرآن والسنة في وقائع وأحداث، ولا تكون بعيداً عن حُسْن تدبُّر وصِدْق اتباع، فإن جميع ما يقع في هذا الكون - أرضه وسمائه - ليس بمَعْزل عن مشيئة وإرادة يجب أن يُذكَر بها الله ولا يُنْسَى.

كما يجب ألا يكون علاج ما يقع مُنفصلاً عمَّا يحمله القرآن الكريم من هداية وتبصرة، أو تدعو إليه السنة المُطَهَّرَة من صِدْق ورُشْد وإخلاص في رؤية النتائج والعواقب.

ومن ذلك نعرف كيف يُمتَحَن الإنسان بالوقائع والشدائد، وكيف تكون العاقبة سُوءاً لمَنْ أساء، وخيراً لمَن أتَّقى وأحْسَنَ.

---

(١) تاريخ الطبري: ٩٢/٢.

ونرى الأخذ بالأسباب لا ينفصل عن الرُّشْد في اليقين والإيمان، فإن الأخذ بالأسباب - كما أمر الله - طاعةٌ، والتقصيرَ في أمره معصيةٌ، والركونَ إليه دون استحضارٍ ويقينٍ لعلْم الله وقُدرته ومشيئة، وإسناد الفَضْل إليه وحدَه دون سُواه في تأييد ونَصْرٍ ومحاسبة النفس على التقصير أو الإهمال عند تأخُّر النَّصْر أو وقوع الهزائم، والتوكل الذي لا تواكل فيه وهو الذي يصح به الأخذ بالأسباب، يجب أن يقوم في النفس دائمًا ولا بغيب.

ودون ذلك يقع الإنسان في مَضْيَعَةٍ ومفسدة ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

القرآن الكريم وما يُستفاد منه في مواجهه جميع الطوائف التي تكيد للإسلام، وما يجب أن يكون المسلمون عليه في رُشْد وثَبَات.

أولاً: الآيات من سورة النساء من [١ - ٥٥]

فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[2].

والآيات - مع أنها قد أُنزلت في ناس بعيهم، ولكن ما ذُكر من صفاتهم يدعو إلى الاحتراز من الاتصاف بشيء من هذه الصفات:

١ - الكذب، ومُعاداة الحق عن معرفة وقَصْد.

---

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) النساء: ٥١ - ٥٥.

٢ - الحسد، والإصرار على الجحود والكَيْد.

٣ - الغفلة السَّادرة عن حكمة الله في امتحان الخَلْق فيما أعطاهم وفَاوَتَ بينهم.

٤ - الشعور بل السرور بأن الله لم يجعل لأولئك الذين يحسدون الناس سبيلاً لإعطاء الناس شيئاً لأنهم لا يملكون.

٥ - من أعظم النعم التي يجب الاعتصام بها «الكتاب والحكمة».

٦ - تنوُّع الناس في قَبول ما جاء من الحق، فمنهم من آمن به ومنهم من صَدَّ عنه.

٧ - العاقبة وحدها هي التي يتحدَّد بها الفوزُ أو الخسران.

٨ - استحضار الجزاء على ما يكون من مقاصد وأعمال، وأخطرها الجُحود والنُّكران، والكذب على الله بعد بيان وإعذار.

٩ - وكفي بنقمة الله على مَنْ نقض عهداً أو قصد غدراً أو طلب فوزاً ونصراً بأعمال استوجَبَت لعنًا، ويرى الناسُ عاقبتَها فيما وقع من نقمة وسُوء مصير.

١٠ - استحضار الجنة والنار - وهما لا يستويان - ضروري لإحسان الناس وصلاحهم.

كُلُّ ذلك وغيرُه يُمكن أن يُستفاد ممَّا وقع من أولئك الذين بدأوا التحريض، وجمعوا الأحلاف لغزو المدينة المُنَوَّرَة، وحصار المسلمين فيها، والكيد للرسول الكريم الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

ثانياً: الآيات التي أُنزلت في غزوة الأحزاب، والتي يُقال لها غزوة الخندق، وما جاء - أيضًا - في غزوة بنى قُرَيْظَة التي كان لهم هم وبنو النَّضير شأنٌ أيُّ شأن في تحريض قريش.

فقد جاء نَفَرٌ من رؤساء اليهود، وقالوا لقريش: إنا سنكون معكم حتَّى نستأصله ونُخرجه من المدينة، فنشطت قريشُ، وأخذت تستعدُّ للحرب، وتدعو أحلافَها.

ثم جعل اليهود يُثيرون القبائل لهذه الحرب، فاستجابت لهم قبائلُ كثيرة، وخرجوا في جيش كثيف مقداره عشره آلاف مقاتل.

أما اليهود فقد استعدُّوا في داخل المدينة ليأخذوا النبيَّ والمسلمين من ظهورهم إذا التحم القتال بينهم وبين قريش.

وقد أُنزلت الآيات من سورة الأحزاب من قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾**(١).

إلى قوله تعالى: **﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾**(٢).

أُنزلت هذه الآيات لتُقدِّم عظتها وتبصرتها على مَرِّ الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، في سورة مَدَنِيَّة، لتُرينا ما وقع من وقائع وما كان من نتائج في المدينة المُنَوَّرَة؛ ليعرف الناس أنَّ مَن حفظه الله لا يُضَيَّع، وأن المكر السيئ - مهما بلغ - لا يحيق إلا بأهله.

فتعالوا بنا لنَستَبْصر بالآيات، ونرى دَلالتها في الوقائع والأحداث.

أولاً: بدأت الآيات بالتذكير بنعمة الله، تذكير المؤمنين حيث كانوا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن هذا النداء **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** لا يُقصَدُ به الذين رَأَوا هذه الوقائع أو عاشوا في عصرها فحسب، وإنما يُقصد به أهلُ الإيمان حيث كانوا، وفي هذا النداء تشريف وتكليف **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

---

(١) الأحزاب: ٩ . (٢) الأحزاب: ٢٧.

ومن أجل ذلك حُفِظَ القرآن لتُتَدَبَّرَ آياتُه وليتذكر أولوا الألباب.

ومن أَحْسَنَ التدبُّر عرف أن كل نعمة أجراها الله على أسلافنا لنصر دينه، هي نعمة علينا نُطَالَب بتدبُّرها وشُكرها.

ثانياً: لقد أُجملت هذه الآية، وكان في إجمالها إفادة بما يجب أن يستحضره الناس في كُلِّ شأن ولا يغيب.

من هنا وجب تذكير أهل الإيمان به؛ لأن في تحصيله غنىً للنفس وحِمَىً لها من أسباب الهوان والضعف والنفاق والشرك، ودعوةً لها أن تعتصم بالله ولا تركن لشيء سُواه.

عندئذ ينَالُ هؤلاء ما أخبر الله به ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1].

فهناك جنود قد جاءوا إلى المسلمين يريدون حربَهم والقضاءَ عليهم، فدفعهم الله عنهم، وتلقَّاهم بجنود من عنده.

وهذه نعمة الله على المؤمنين تستوجب الشُكر ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾.

إن الريح التي أرسلها الله جندٌ من جنود الله التي رآها الناس عيانًا، وأدرك أثرَها المؤمنون خيراً لأنفسهم وكَيْداً لأعدائهم.

وهناك جنودٌ أخرى لا يراها أحدٌ، وهذه الجنود غير المَرْئيَّة كثيرة لا حَصْرَ لها ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ دلاله لها تأثيرها في العمل والاعتقاد والرُّكون إلى الله بحُسْن التوكل عليه والخشية منه.

---

(١) الحج: ٣٨.
(٢) المدثر: ٣١.

وقد جاء ختام الآية بعد إخبار عمَّا وقع مما لم يكن يعلمه أحد إلا الله؛ فإن الجنود الخفيَّة التي أحدثَتْ هذه الآثار لم يكن يعلم أمرَها إلا من أرسلها ليُنصَر بها من يريد الله أن ينصره، ويُخْذَلَ بها من يريد الله أن يخذله.

وهذه الجنود - وما أكثرها - مأمورةٌ بأمر خالقها، فما على الناس إلا أن يُخلصوا القَصْدَ لله، وأن يكونوا في السَّراء والضَّراء حيث يحبُّ ورسولُه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فما يقع في دُنيَا الناس من أحداث، وما يكون بينهم من تداول يجب أن يعرف المؤمنون من أنفسهم أين موقِعَهم من مرضات الله، وأين هم من الأخذ بأسباب نُصْرته ورضاه، وأن لا تَشْغَلهم الأحداثُ عن مُناصرة الحق ونُصرته من أنفسهم، قبل أن يطلبوا ذلك من أعدائهم، وأن يُوقنوا أنهم لا يستطيعون أن ينصروا الله في معركة حتَّى ينصروه في أنفسهم، وهم إذا لم ينتصروا بفضلهم لم يَغلبوا أحداً بقوَّتهم.

إن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ نرى دلالتها في كُلِّ ما أحاط بالمسلمين من شدَّة وبلاء، وأن الذين أحاطوا بهم، ورغِبُوا في استئصالهم قد ردَّهم الله في كُلِّ موقف لم ينالوا خيراً، وجزى الله الصادقين بصدقهم، وكفاهم قتال عدوهم.

وتعالوا بنا لنرى كيف كانت الإحاطة بالمؤمنين، لنعرف أن التذكير بالنعمة والشعور بها لم يكن ليُتَخيَّل، وإنما كان واقعاً في كُلِّ لحظة، يراه المؤمنون ويحيونه برُشد وثَبَات.

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[2].

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) الأحزاب: ١٠، ١١.

هنا نرى الآيات تُفَصِّل ما أجملته الآية الأولى من أحداث هذه الغزوة، فهؤلاء الجنود الذين جاءوا إلى المسلمين قد جاءوهم من فوقهم من نَجْد، ومن أسفل منهم من تِهامة، وهذا يعنى أنهم قد أطبقوا على المسلمين من كُلِّ جهة، فتمكَّنوا منهم، وسدَّوا منافذ النجاة عليهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ بيانٌ للحال التي استولَتْ على المسلمين من هذا الخطر الزاحف

ولا ننسى زَيَغَانَ الأبصار في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ فإن زَيَغَانَ الأبصار دَلالةٌ على الكَرْب الذي دخل على المسلمين، حتَّى غابت وجوه الرأي عنهم، فلم يتبيَّنوا ماذا يأخذون أو يَدَعُون من أمرهم، وقد بلغ الكَرْبُ مبلغاً جعل القلوب - في خَفَقَاتها - تبلغ الحناجر ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ هكذا وتظنون بالفعل الدَّال على الاستقبال دليلٌ على تجدُّد أحوال الكرب ودوامها بلا انقطاع، مما جعل المؤمنين يترددون بين اليأس والرجاء، وبين الشك واليقين، مع اختلاف ذلك من شخص إلى آخر، فهناك من المؤمنين مَنْ هُم على يقين من أمر ربِّهم، فلا يظنون إلا خيراً، وأن الله مُنْجز لهم ما وعدهم في عدوهم، وهناك من المؤمنين من لم يعصمهم إيمانُهم من ظنون السُّوء، فظنوا بالله غير الحق.

وتكفي هنا الإشارة إلى الموقف الذي واجه فيه المؤمنون الأحزاب، إنه موقف امتحان في الإيمان، موقف ابتلاء شديد، لا يصبر عليه، ولا يخلص منه - ناجيًا بدينه، سليمًا في اعتقاده، مُعَافىً في إيمانه - إلا من اطمأن قلبُه بالإيمان، وعَرَف ما لله في عباده من سُنَنٍ وابتلاء.

وفي قوله ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ بيانٌ لما في هذا الابتلاء من شدةٍ هَزَّت كِيَان المسلمين هزَّاً عنيفاً، ولكنه ابتلاء تتميَّز به الصفوف وكَمْ لله من مِنَّةٍ في طَيِّ المكاره، وكم في العقبات من عطاء لا تحقّقه الرغبات في الوثبات، فإن

العقبات التي تكون أمام الماء تزيد في مَدِّه، وتجعله يُعطى عطاءه من نَمَاءٍ ونُور بإذن ربِّه.

فمن ذا الذي يستطيع أن يَفْرز الصفوف، ويُمحِّص النفوس غير المداولة التي سنَّها الله، ليَعلم الذين آمنوا ويتخذَ منهم شهداء، وليمُحِّص الله الذين آمنوا، ويمحَق الكافرين.

فهذه الشدة البالغة قد كشفت ما تطويه نفوسٌ طالما تطاولت وأظهرت الإيمان وهى تُبطِنُ الكفر.

لقد أنطقتها الشدَّةُ، وأظهرت حقيقتَها **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾**(١).

فهؤلاء قد كانوا من الذين ظنُّوا بالله ظَنَّ السَّوْء، فكان قولُهم في مواجهة هذا الابتلاء هو الكُفر الصريح **﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾** أي: أباطيل وأكاذيب وأماني من الخداع والتغرير.

وهكذا تكشف الشدائدُ عن معادن الناس وما تنطوي عليه الضمائر، وما تخفيه الصدور.

ولا يقف الأمر عند هذا الحَدِّ، بل نرى طائفةً من أهل النفاق تُجَاوِز هذا إلى العمل - في تيئيس النفوس وزعزعه الإيمان - فينادون في الناس بهذا النداء:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾(٢).

يا أهل يثرب: يالله!! عودةٌ إلى الجاهلية، ونداءٌ يُغرى بالردَّة إلى الشرك والكُفر، وانسلاخٌ من الاسم الذي اتخذته المدينة في ظلِّ الإسلام.

---

(١) الأحزاب: ١٢.

(٢) الأحزاب: ١٣.

وكأن هذه الطائفة من أهل النفاق تُعين - بما تفعل - الطوائفَ المتعددة التي أحاطت بالمدينة وتآمرت عليها.

ولم تكتف بذلك هذه الطائفةُ، بل منهم من استجاب - فوراً - للرجوع دون استئذان، دون مراجعة للنفس أو رجوع للنبي ﷺ.

ومنهم من أراد أن يُدارى نفاقَه، ويستُر ضَعْفَ إيمانه بعُذرٍ كاذب يعتذر به، وهو أن بيته مُهَدَّد بمن يعتدي عليه ويهتك سِتْرَه ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وما أسرع ما جاء التكذيب لهذه القولة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

وما يجرى على بيوتهم يجرى على بيوت المسلمين، فلو دخل المشركون المدينة لَمَا استباحوا بُيوت هؤلاء المنافقين فحسب، بل إنهم يستبيحون بيوت المسلمين وأهل النفاق.

ما قالوا ذلك وهم يريدون أنفسهم فحسب، بل هو قولٌ فاجر يُراد به تدمير التماسك والثبات في مواجهه الكُفْر المتآمر والجحود المتطاول.

فإن هؤلاء المنافقين على استعداد أن يستجيبوا لدواعي الفتنة التي يلوذون بها؛ فراراً من خَطَر يخافونه ولحُوقاً بأمن يتوهمونه.

مع أنهم - في حقيقتهم - طلابُ منافع حين أظهروا إسلامهم، طلابُ منافع في تبدِّل مواقفهم.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾.

إن هؤلاء المنافقين - بما جُبِلُوا عليه من حِرْصهم على حياة أي حياة، دون حِرْص على حرمات بيوتهم ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ بالبناء للمجهول دون بيان للداخل على بيوتهم، فإنهم – لحرصهم على حياتهم – يُسلمون بيوتَهم لأي داخل عليهم فراراً بأنفسهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾.

وهكذا نرى أن من يُفرِّط في أيِّ حُرمة من الحُرمات، نراه على استعداد للتفريط فيها جميعاً؛ فراراً بحياته التي لا تدوم، فلا يحفظ وُدًّا، ولا يحترم عهداً وكم رأيناهم يُعلنون عن أنفسهم أنهم أهلُ ثبات ووفاء، وأهل طاعة وجهاد!! ولكن.. جزى الله الشَّدائدَ كُلَّ خَيْر.

فكفانا أن نرى من آثارها هذا الغُثاء الذي توارَى مع سكون الماء، فلم يلبث طويلاً عندما تحركت الأمواج، بل أُلقِيَ به ليذُوبَ متلاشياً، دون نفع أو بقاء

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾(١).

فيَالخَيْبَةِ مَنْ يركَنُ إليهم، أو يثق في عهدهم، أو يُصغي لقولهم.

يَالخَيْبَته وخَيْبَتهم إن هو ركن إليهم رُكُون من يرى فيهم رجولةً أو نُبلاً أو وفاءً.

إن المنافع تصرفهم، وتجعل منهم مُسْخَةً بشرية لا وَزْنَ لها ولا بقاء، مع أن ما رغبوا فيه لن يدوم، وما طلبوه من حياة لا تطول، فلن ينفعهم ما رغبوه أو طلبوه، ولن يُنقذهم من الموت فرارٌ منه؛ فالموت سيُدركهم ولو كانوا في بُروج مشيدة.

ولو أُتيحت لهم منفعةٌ عاجلةٌ يتوهمونها، تحقيقاً لما يُؤثرونه ويرغبونه، فلن يطول أمَدُ هذه المنفعة، بل ستعصف بها الأيامُ، وتبقى المساءلة على العهود، دون فرار من مَقْدُور ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٢).

فهذا الفرار على أيِّ لَوْن كان إلى أين ينتهي به المسير؟

---

(١) الأحزاب: ١٥.
(٢) الأحزاب: ١٦.

إنه مُنْتَهٍ إلى الموت، إن لم يكن اليوم فغدًا أو بعد غدٍ.

إنه أَمْرٌ آتٍ لا ريب فيه، وحقيقةٌ واقعةٌ لا مَفَرَّ منها.

ومَن تدبَّر هذه الحقيقة لزم الحق والصِّدْق، وآثر الثبات في كُلِّ حال على مكارم الأخلاق.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[1].

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2].

والموت على أيِّ صورة هو الموت، ولكن شتَّان ما بين موت وموت.. شتان ما بينهما عند من يقف عند الدوافع والعواقب، فلا يرضى أن يُباع لغير خَالقه، ولا يمكن أن يعيش في دنياه مُنفَصلاً عن اليقين بأخراه، فإن ذلك يُودي بالدنيا والآخرة جميعاً، وذلك هو الخسران المبين.

فَلِمَ الفرارُ من جهاد وَجَبَ؟

لِمَ الركونُ لهَوى النفس بعيداً عن الاستجابة للحق؟

وَمَن استبَدَّ به الهَوى عَبَدَ الهَوَى　　　ومَن استجابَ لمَنْطِق الحق اهتدى

وهذا نداء الله للمؤمنين ليكونوا في وفائهم لله صادقين، واستجابتهم للحق مُلَبِّين.

لا يغيبون في نُصْرة مظلوم أو رَدْع ظالم، بل هم في جميع الأحوال للحقِّ والعدل ناصرون؛ استجابة لما قاله الرسول الكريم ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ إن كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[3].

---

(١) الجمعة: ٨.

(٢) النساء: ٧٨.

(٣) البخاري - كتاب الإكراه، حديث رقم ٦٤٣٨.

فالإنسان على هذا يكون مجاهداً مُدركاً لحكمة خَلْقه وغاية وجوده.

ينْصُرُ المظلومَ ولو كان من غير أهله، ويأخذ على يد الظالم ولو كان من أهله وحزبه.

عندئذ تستقيم الحياةُ للناس، ولا يستبدُّ بهم ظالمٌ أو متكبرٌ.

وبذلك يتحقق الأمنُ بلا ادِّعاء، ويقوم الناس بالقسط دون احتيال أو استبداد

وتلك أكرم تجارة يُدْعَى إليها المؤمنون الصادقون

وذاك أعظم رِبْح يتحقق معه الفوزُ العظيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

فعَلامَ الفرارُ وتلك هي العواقب والنتائج لِمَنْ أحْسَنَ التدبُّر وسَلَك الطريق، طريق الاستقامة كما أمر الله، وعرف ما كرَّمه الله به، فلم يسلك سبيلاً إلا سبيل الوفاء له والرِّضَى عنه؟!

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾[٢].

لا وجه يفِرُّ إليه أولئك الفارُّون من قضاء الله فيهم، ولا عصمة لهم إلا بصِدْق وفاءٍ، وإخلاصِ قَصْد، وحُسْن استجابة لله وللرسول، فتلك هي الحياة

---

(١) الصف: ١٠ - ١٣ .
(٢) الأحزاب: ١٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١).

إنك لترى عمل المنافقين في صفوف المسلمين وإضعافهم مُمْتَدّ ومُتَّصل، طالما يَرَوْنَ أن الحصار قائمٌ والخَطَرَ واقعٌ

ولا تكاد تطَّلع منهم على رؤوس مرفوعة برجائها في الله، ونفوسٍ تقيَّة تخشاه، ولا تخشى أحدًا سواه.

ولو وقفنا عند كلمة واحدة لَرَأينَاهَا جامعةً لما غُيِّبَ عنهم، دافعةً لزيادة الثقة في نَصْر الله، مانعةً من الوقوع فيما سقط فيه المنافقون والذين في قلوبهم مرض.

وتلك هي الكلمة ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾.

قَدْ يَعْلَمُ على التحقيق، إنه يعلم وهى كلمة كافية في إخبار المؤمنين بأنهم في حِمَى الله، وأن أيَّ تدبير سيئ - من أهل الشرك والنفاق - قد أُحيط به.

فليس الإخبار بعلم الله بهؤلاء مجرد إخبارٍ لا تُعرَف دلالته ولا يُحيط به من تدبَّر حكمته وغايتَه، بل هو إخبار بما يقع بهم، وبما ينتهي إليه أمرُهم؛ لأنه أخبارٌ بعلم مَنْ يملك كُلَّ شئ، ولا يَخْفَي عليه من الأمر أيٌّ شئ.

فإن موسى عليه السلام - ومعه أخوه - وقد كُلِّفَا أن يذهبا إلى فرعون ليُبَلِّغَاه رسالةَ الله ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾(٢).

وكان موسى عليه السلام يحتاط لكُلِّ شئ ليؤدى ما أُمِرَ به كما يجب أن يكون، فقال مجيبًا لخالقه - جَلَّ وعَلا - راغباً في نُصْرته، قال عن نفسه وعن أخيه هارون، وقد قال الله لهما ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا

---

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) طه: ٢٤.

لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(١).

فكان هذا القول الدَّالُ على عِلْم الله بما يقع معهما كافيًا في يقين موسى وهارون أنَّ فرعون لن يستطيع - ولو جَمَعَ مع قوَّته قوةَ من في الأرض جميعاً - لن يستطيع أن ينالَ منهما فكلمة ﴿**أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ من قِبَلِ الله يُدرك دَلالتَها الأتقياء الذين يفقهون ويعلمون وهنا - أيضاً - لا يغيب عن المؤمنين الذين يسمعون إخبار الله عن المنافقين بقوله (قد يعلمُ) إنه إخبارٌ بأن هؤلاء الذين يخبر الله عن علمه بهم ويعلمهم، يفيد أنهم يؤْخَذون بأعمالهم، وليكن عملُهم - في خطورته - ما يكون، فلن يكون تدبيرهم - في استدعاء غيرهم أن يكونوا مثلهم في التعويق - إلا وبَالاً عليهم وفَضْحًا لأمرهم.

ويكفي في الإخبار عن النتائج قولُ الله ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ**﴾.

فإن ريح الفوز عندما تُرْسَل من قبَل الله ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾ ستُغير مواقف هؤلاء، ولكن الإخبار بها في القرآن يُعَرِّف الناس - على مَرِّ الزمان - أن لا خفاء ولا مراء ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**﴾(٢).

فلنقرأ عن كُلِّ ما فعلوه، ولنَسْتَحْضِرِ العاقبة؛ لنقف من ذلك على النتائج والعواقب التي تُحسُّ - بتدبرها والعمل بها - المقدمات قبل أن تقع العواقب، وتطييب الروابط بين الخَلْق - دون كَيْد - لتطييب النتائج وتلك عظتنا من قصة غزوة الأحزاب التي وقعت في المدينة الطاهرة المُطَهَّرَة، والتي نراها كما أخبر الرسولُ ﷺ تنفي خَبَثَهَا.

---

(١) طه: ٤٣ - ٤٦.
(٢) آل عمران: ٥.

لقد حبط كُلَّ عمل لأهل النفاق، وبطل كُلَّ سعى لمن كان مع الأحزاب، وبَقِيَ الحديثُ عنهم محفُوظاً في آيات ما بقيت الأرضُ والسماوات ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾(١).

فأهل النفاق هذا حالُهم وذاك حديثُ القرآن عنهم، ولا تغيب دلالة ما وقع منهم وما هم عليه مما فعلوه أو أضمروه ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً**﴾(٢).

والمُعَوِّقُون: هم الذين يُمسكون غيرَهم عن الخروج مع المؤمنين إلى القتال بدءاً، بعد أن فعلوا هذا بأنفسهم أولاً، فهم لم يخرجوا إلى القتال، ثُمَّ ثبَّطُوا غيرَهم، وزيَّنوا لهم القعود، فهذا دأبُهم إن خرجوا أو لم يخرجوا، وذاك ما أخبر الله به عنهم، وهو شئ من مواقفهم في بعض المواقع، لكنها صفاتٌ قائمةٌ فيهم ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾(٣).

ومما يُلفت النَّظَر في حديث القرآن عن المنافقين، أنه حديثٌ ذو طَابَع خاص، تطول آياتُه وهى تكشف عن أعمق ما تُخفيه نفوسُهم، فترى الحديث عن المؤمنين الصادقين تكفي فيه كلمات، وكذلك الحديث عن الكافرين

---

(١) الأنفال: ٤.

(٢) الأحزاب: ١٨ - ٢٠.

(٣) التوبة: ٤٦، ٤٧.

الجاحدين، ولكن الحديث عن المنافقين في أيّة سورة يطُول، ويعطى من الدلالات ما لا يحتاج إلى تفسير أو بيان.

ترى ذلك في سورة البقرة من بدايتها، كما ترى ذلك في هذه السورة، سورة الأحزاب، فقد بدأ الحديث عنهم من هذه الآية ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ إلى الآية ٢٠، وختامها: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

تسعُ آيات متتابعات ليست مُوجَزه أو قصيرة، بل هي في السورة من أطول الآيات.

واقرأ - مثلاً - مرَّةً أُخرى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾.

والعَجَب عندما ننظر إلى العواقب، نرى كُلَّ مَن استعان بهم أو رَكَنَ إليهم خُذِلُوا، ولم يلق من صُحبتهم إلا الخسران والبوار.

فعلوا ذلك فيما نحن فيه مع «قينقاع» وقد عرفنا ما فعلوه وما انتهى إليه حال هذا الفريق، وحالهم عندما ظهرت النتائج واستبانت العواقب.

وفعلوا أشد من ذلك مع «بنى النَّضير» وقد قرأنا حديث القرآن عنهم في سورة الحشر من بداية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وما حدث مع «بنى قُرَيْظَة» كان كذلك أشد، وسنرى عاقبه بنى قُرَيْظَة، بل عاقبة الأحزاب في آيات سورة الأحزاب؛ لنعرف أن سُنَّة الله مع أهل النفاق ومَن والوهم أنهم لا يُنصَرون.

فبئس حال من اتخذ من دون وليّاً، بئس ما يكونون عليه في دنياهم، وبئس ما يصيرون إليه في أخراهم..

إنهم أولياء الشيطان وتلك عاقبه الشيطان ومن والاه **﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾**[١].

ومن فضل الله ورحمته أن نرى صفات من يحبُّهم الله ومن يبغضُهم في حديث القرآن؛ ليعرف الناس من أنفسهم ما هم عليه عندما يختارون أو يرغبون.

وآيات القرآن الكريم تُرينَا العاقبةَ في كُلِّ أمر، وتذكر النتائج لكُلِّ فعل، وتخبرنا أن الإنسان - الذي ينْشُدُ الفوزَ والنجاةَ - عليه أن يُصلح من قَصْده وعمله، مع استحضار أن كُلَّ شئ من عمله سيكون حاضرًا في عاقبته **﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾**[٢].

*****

الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ:

والآن.. تعالوا بنا لنقرا - ونحن ما زلنا مع حديث القرآن - عن غزوة الأحزاب وبنى قُرَيْظَة قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾**[٣].

---

(١) الحشر: ١٧.
(٢) الكهف: ٤٩.
(٣) الأحزاب: ٢١.

والأسوة في رسول الله ﷺ: هي التأسي به في موقفه من أمر ربِّه وامتثاله له، وجهاده في سبيل الله.

وفي وَصْف الأسوة بأنها أسوة حسنة إشارة إلى أن هناك أسوة سيئة يقوم على رأسها كبير من كبار المنافقين، يدعو إلى النكوص على الأعقاب، والفرار من مواجهة الأحزاب.

والدَّعوة هنا عامة للمؤمنين أن يتأسَّوْا برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وأن يكونوا من ورائه جندًا مجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله

فذاك هو طريق الفوز والخير والنجاة، لا ييسره الله إلا لمن كان يؤمن بالله ويرجو رحمته، وكان ذكرُ الله ملءَ فيه، حتَّى يجد من هذا الذِّكر ما يستحضر به - دائماً - عظمةَ الله وفضلَه وإحسانَه، فيصبر على البلاء، ويَصْدُق عند اللقاء، وهو يذكر الله كثيراً ولا ينساه.

آيةٌ واحدةٌ ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾(١).

آيةٌ تُرَى دلالتها كما تُرى الشمسُ في وَضَح النهار، ويُعرَف من تأسى به - دُون تَكَلُّف - كما يُعرَف أثر الشمس في جنات وأزهار.

فسُبحَان من أرسله رحمةً للعالمين، وخاطبه خطاباً مباشراً فيه تكريم له أيُّ تكريم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً**﴾(٢).

فلنستمع إلى حديث القرآن عمَّن تأسى به واهتدى بهُداه:

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) الأحزاب: ٤٥ - ٤٨.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(١).

هذه صورة من صور التأسي برسول الله ﷺ، يراها من ينظر إلى المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فهؤلاء المؤمنون - حين رَأَوْا الأحزاب - لم يهنوا ولم يضعفوا، ولم ترهبهم كثرةُ العدو، ولم يُفزعهم الموتُ المُطِلُّ عليهم من كُلِّ مكان، فالموت - في هذا الموطن - هو أمنيتهم التي كانوا يتمنَّوْنَها على الله، ويقدمونها ثمنًا لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته، ولهذا فإنهم لمَّا رَأَوْا الأحزابَ، رأوا فيهم تحقيق ما وعدهم الله به ورسوله من الابتلاء.

والمؤمنون - دائماً - على طريق الجهاد، فهم في رباط لحماية دين الله، ودَفْع ما يَرمى به أعداء الله من تَسَلُّط واعتداء.

وما زادهم ما رَأَوْه من الأحزاب وكثرة عددهم، ما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً..

إيمانا بالله، وتصديقاً لوعده، وتسليما بما يقضى به الله بينهم وبين أعدائهم.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ بيانٌ يُغرى بالتأسي والاقتداء؛ فإن هؤلاء الذين يُخبرُ الله عنهم قد سلموا من النفاق، وتخلَّصُوا من كذب السُّمْعة والرِّياء، وأخلصوا قَصْدَهم لله.

ففي قوله تعالى ﴿رِجَالٌ﴾ إشارةٌ إلى ما كمَّلهم الله به، فكانوا رجالاً حقاً وصدقاً، أوفياء شرفاء، ترى فيهم - مع نُبْل القَصْد - طهارةَ الإيمان وشرفَ اليقين.

---

(١) الأحزاب: ٢٢، ٢٣.

وكفاهم أن يكونوا - بصفاتهم وأعمالهم - جنوداً للحق والعدل، قد تحررت عقولُهم من الضلالات، وسلمت نفوسُهم من الأهواء والشهوات، وصَفَتْ أرواحُهم، فلم تخدعهم زينةُ حياة أو متاع فإن في تنكير كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ ما يدُلُّ على عِظَم مكانتهم في ميزان الله، فإن في التنكير معنى التفخيم والتعظيم، وهذه الكلمة ﴿رِجَالٌ﴾ إنما تذكر مواطن لها شرفها وقدرها في مواطن يجب أن تُعرَف ولا تغيب.

ففي سورة النُّور نقرأ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾(١).

وفي سورة التوبة نقرأ قوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(٢).

وهؤلاء الرجال هم الذين رأينا منهم من رأينا في مواجهة الأحزاب وهم يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾: المراد به انقضاء الأجل، فإن النَّحْبَ هو النَّذْر المحكوم بوجوبه، يُقال: فُلانٌ قضى نَحْبَه، أي وفَّى بنَذْره وهو على إيمان وثيق بربه.

وفي موقف الجهاد ما يدلُّ على ذلك، فإن المجاهد في سبيل الله قد وفَّى بما نَذَره الله وعاهدَ الله عليه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي: ينتظر قضاءَ الله ونَحْبَه، موتاً أو استشهاداً في سبيل الله، فهو على تَرقُّب وانتظار لليوم الذي تُتاح له الفُرصة للوفاء بعهده ونذره.

---

(١) النور: ٣٦، ٣٧.
(٢) التوبة: ١٠٨.

وفي كلمة ﴿يَنْتَظِرُ﴾ إشارةٌ إلى أن المؤمن الصادق ينتظر لقاء رَبِّه وهو في شَوْق إلى هذا اللقاء.. اللهم اجعل خيرَ أيَّامنا يوم نلقاك..

﴿وَمَا بدَّلُوا تبديلاً﴾ كهؤلاء الذين يُبدلون موقفَهم توهماً لمنفعة أو خوفاً من ضرر يَلحق بهم.

لكن هؤلاء المؤمنين يُخبر الله عنهم وعن إيمانهم به، أنهم ثابتون، وأن يقينَهم بلقاء الله لم يزايل مكانَه من قلوبهم لحظةً، ولم ينحرف عن موضعه أيَّ انحراف فهُم على حال واحدة من أمر ربهم، ومن ثقتهم بما وعدهم الله به على يد رسوله ﷺ وهذا الثبات من أَلْزَم اللوازم للفوز والنجاة، وهو السبيل للرجاء في حُسْن الجزاء.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ وهذه اللام في قوله ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هي لام العاقبة لقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ أي: أنهم فعلوا ذلك رجاءَ أن تكون تلك عاقبتُهم

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ في إيمانهم وفي وفائهم بعهودهم، فما أجَلَّ الصدق مع الله وما أعظمَه.

وجميل أن يُترَك تحديدُ ما يُجزيهم الله به، فهو جزاءٌ من الله لا يحتاج إلى تحديد أو بيان، ولا يمكن حصرُه في حساب، أو يُطلَب له برهان، فما يُجزى المحسنون إلا إحساناً.

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يُجمل الجزاءَ لمثل هؤلاء؛ تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره.

كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) السجدة: ١٧.

لنعرف منه عِظَمَ الجزاء، فلا يضنٌّ مؤمنٌ في الجود بنفسه، أو يتوقف عن الوفاء لربِّه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

أطماع في رحمة الله وفي مغفرته للعصاة والمذنبين أيًّاً ما كانوا فيه من ضلال، فرحمة الله واسعة، ومغفرته عامة لمن طمع في رحمته ومغفرته.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾(٢).

وهؤلاء قد غفلوا - وهم يصنعون ما يصنعون - عن أن للكون ربًّاً قد أحاط بكُلِّ شيء علمًا

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾(٣).

ولن يفلت أحد من حساب أو جزاء..

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾(٤).

وإذن فأين الإنسانية لكي تتدبَّر هذا النداء من خالقها، وهي ترى - بنفسها - بوادرَ زلازل وتتابُع نَكَبَات على الأرض التي تحملهم، وهذا نداؤه لهم جميعاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(٥).

إن الزلازل التي تقع أمام أعينهم ليست شيئاً بالنسبة لما يُحذّرهم الله منه، ويَعظُهم أن يتقوه بالاستقامة والخشية من خالقهم.

---

(١) الأحزاب: ٢٤.
(٢) طه: ٨٢.
(٣) يونس: ٦١.
(٤) إبراهيم: ٤٢.
(٥) الحج: ١.

وإنني لأسْأَلُ نفسي.. لماذا حَفِظَ اللهُ هذه الأحداثَ الكبار التي وقعت من قبل وأنزل فيها قرآنًا يُرى الناسَ هذه الأحداثَ وعواقبَها في يُسْرٍ، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً:

وبعد.. فما الذي جنَاهُ أولئك الذين تحالفوا وتآمروا، واجمعوا أمرَهم على إطفاء نُور الله؟

وما الذي جرى لأولئك الذين نَقضوا العهد وآثروا الغدر؟

لقد عرفنا ما كان من تدبير الله لهؤلاء وأولئك فيما ذكرناه من أمرهم، فلنستمع إلى آيتين في ختام ما نزل في شأن الأحزاب ومَن ظاهرهم، فإن فيهما ما يغنى في معرفة العواقب والنتائج التي يُوقَظ بها الناس إلى يوم الدين، نتائج الصدق والإيمان، وعواقب الجُحود والكُفران

جيشٌ من عشره آلاف مقاتل حُوصرت به مدينةُ الإيمان، يسُوقهم من يُسَوِّلُ لهم ويُغريهم بما تهواه نفوسُهم

ولم تكن قد عُرفت - من بعد - أسلحةُ النَّدَالة التي يملكها من يملكها، ويتيه بإحرازها من يَتيه.

وأسلحة الندالة هي التي تراها تقترف من الأعمال، وتحقق من الخراب ما لا يُعْفَى منه رضيعٌ أو شيخٌ كبيرٌ، وما لا يبقى معه حَجَرٌ ولا شجرٌ يكون به إيواء أو إطعام.

والفخرُ عند من يستعملون هذه الأسلحة، وهى أسلحة الدمار الشامل - كما يُسَمُّونَها - أنهم قانعون بالتهديد والتخويف والهيمنة والاستبداد والإملاء على الخَلْق، دون نَظَرٍ لعاقبةٍ أو جزاءٍ.

---

(١) القمر: ١٧.

لقد جاءت قريش ومن حالفها، فلم تُرَد بأسلحة يملكها أهل طيبة، ولم تستعنْ بمن يملك - في دنيانا - السِّلاح، وإنما استعانت بمَن لا يُستَعانُ إلا به ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١).

فإذا بريح تؤمَر فتردَّ أهل الكفر بأمر ربِّها، تردُّهم بغيظهم خائبين ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾.

فهذا الغيظ هو محصلتُهم من هذه الغزوة التي كانوا يُمَنُّونَ أنفسَهم فيها بالنَّصر والغنيمة.

لم يعودوا إلا بالخري والذلة والعار.

ورأينا كثيراً منهم - من بعد - من استنَارت حياتُه بنُور الإسلام.

وفي قوله: ﴿لم ينَالُوا خيراً﴾ تأكيدٌ لما أصاب الأحزابَ من خزي وعار، فإن هزيمتهم كانت بـ (ريح) أرسله الله عليهم.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: كفاهم القتال من لا يملك أحدٌ مع سلطانه سلطانٌ، وهو الله.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ وهذا ما يجب أن يُستَحْضَرَ دائماً؛ ليكون ذلك هو الأصل الأصيل في الأخذ بالأسباب؛ لأن النَّصْرَ الذي يُطلَب من الله، لا يُطْلَبُ إلا بأسباب، ولا يكون إلا بطاعته، فقد يتحقَّق النَّصْرُ أحياناً، أو يأتيَ الخيرُ بمجرد صدِق القلوب والعزم على القيام بما أوجبه الله وأَمَرَ به.

فإذا علم الله ذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢) جاءت النتائج مُحقَّقَة لما يُرْجَى من فوز وتأييد.

---

(١) الفاتحة: ٥.
(٢) البقرة: ٢٨٢.

وَقَعَ ذلك في صُلح الحُدَيْبِيَة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(١).

وأخبر أسارى بَدْر - وهم لم يُفَكُّ أسْرهم بعد - وأمرَ الرسول ﷺ أن يخاطبهم بما أمره الله به: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

وتلك هي البدايات لما يُرجَى من خير في عاجل أو آجل، وذاك وعْدُ الله عز وجل الذي يخاطب به عبادَه المؤمنين ليكونوا على ثقة بنَصْر الله إذا هم نصروه في أنفسهم، بتغليب أمره على أهوائهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٣).

ولكن بماذا أخبر الله عن أولئك الذين ظاهروا الباطل، وآثروا الغدر، واستخفُّوا بالعهد؟

أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾(٤).

وهم يهود المدينة من بنى قُرَيْظَة وبنى النَّضير، الذين ظاهروا المشركين، أي كانوا ظهراً لهم في هذا الكَيْد الذي أرادوه بالنبي ﷺ والمسلمين.

فهؤلاء اليهود أنزلهم الله من صياصيهم، وأزالهم من أماكنهم التي تحصنَّوا فيها ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: ملأ قلوبَهم فَزعًا ورُعْبَاً، وأراهُم أنهم قد أصبحوا في يد النبي والمسلمين، بعد أن انقلب المشركون مدحورين مذمومين.

---

(١) الفتح: ١٨ .
(٢) الأنفال: ٧٠.
(٣) محمد: ٧.
(٤) الأحزاب: ٢٦.

«والصياصي» هي الحصون التي يتحصَّن فيها اليهودُ بالمدينة، وكانت حُصونًا حصينة يعيش فيها هؤلاء القوم، ويجدون - في ظلِّها - الحمايةَ من كل عدو يريدهم.

فهل أغنت عنهم شيئاً، أو حالت بينهم وبين إنزالهم منها، ليجدوا جزاء غدرهم؟

إن ذاك هو ما انتهى إليه أمرهم في هذه الغزوة، فقد مكَّن الله منهم، وأنزلهم على حُكم النبي فيهم، فقَتَل من قَتَل، وأَسَر من أَسَر

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

وهذا إخبار من الله بما كان لله من نعمة على المسلمين بعد أن أجلوا من المدينة، فقد ورث المسلمون ما كان لهم من أرض وديار وأموال..

وهذا فضل من الله على المؤمنين يجب أن يُذكر دائما ولا يُنسَى، حتَّى يكون لأهل الإيمان - دائماً - تبصرةً وذكرى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ إشارة إلى ما سوف يُورِّث الله المسلمين بعد هذا من أرض لم يطئوها من قبل، وقد رأى الناس مصداق ذلك في واقع، ورأى الناس - من بعد - ما أخبر به وهم في حفر الخندق، مما رواه ابن إسحاق حيث قال:

وحُدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضَرَبتُ في ناحية فغَلُظَت عليَّ صخرةٌ، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدَّة المكان عليَّ، نزل فأخذ المِعْوَل من يدي، فضرب به ضربة لَمَعَت تحت المعول بَرْقَةٌ، قال: ثُمَّ

---

(١) الأحزاب: ٢٦، ٢٧.

ضرب به ضربةً أخرى، فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى، قال: ثُمَّ ضرب به الثالثة فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى.

قال: قلت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لَمَعَ تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أَوَقَدْ رأيتَ ذلك يا سلمان؟

قال: قلت: نعم.

قال: أمَّا الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليَمَن.

وأما الثانية: فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب.

وأما الثالثة: فإن الله فتح عليَّ بها المشرق.

وقد ذكرنا ما رُوى عن أبى هريرة حين فُتحت الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده حيث قال: «افتتحوا ما بدَا لكم، فوالذي نفس أبى هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله - سبحانه - محمداً ﷺ مفاتيحَها قبل ذلك»

وكم من بلاد فُتحت وأرضٍ واسعةٍ شاسعةٍ تحقَّق بها ما وعد الله به من ميراث المسلمين لها.

وذاك ما رواه مسلم عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ... الحديث»[1].

قال القرطبي: «هذا الخبر وُجِدَ مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن مُلْكَ أُمَّته اتَّسع إلى أن بلغ أقصى طنجة[2] الذي هو منتهى

---

(١) مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ٥١٤٤.

(٢) طنجة: مدينة على ساحل بحر المغرب.

عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السِّند والهند».

وقولُه «وأُعطيت الكَنْزَين الأحمرَ والأبيضَ» قال القرطبي: يعنى به كنزَ كسرى وهو مَلك الفرس، وكَنْزَ قَيْصَر وهو مَلك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقد قال «وَلَتُقْسَمَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...»[1].

ومن الخير - وقد ذكرنا ذلك - أن نذكر تتمه الحديث حتَّى نستحضرَ دلالته فيما يقع فينا، وأنه من أنفسنا وليس من كَيْد عدونا، حيث قال الرسول ﷺ كما رواه ثوبان رضي الله عنه:

«... وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَة عَامَّة، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيح بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَة عَامَّة، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَو اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

فمن أين يأتي الخطر على المسلمين؟

هل يأتيهم من كَيْد عدوهم؟ أم يأتيهم من معاصيهم ومخالفتهم لخالقهم؟

ذاك ما يجب أن نتدبَّره من حديث القرآن الكريم ونحن نستمسك به ونهتدي بهُداه

﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2].

*****

(١) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٨٠٣.
(٢) الأنفال: ٤٦.

غزوة بني قريظة

في شوال سنة ٥ هـ

وأما قُرَيْظَة، فكانت أشدَّ اليهود عداوةً لرسول الله ﷺ وأغلظَهم كُفْرًا..

سبب الغزوة:

وكان سببُ غَزْوِهم أن رسول الله ﷺ لمَّا خرج إلى غزوة الخندق والقوم معه، جاء حُيَيُّ بنُ أخطب إلى بني قُرَيْظَة في ديارهم فقال:

قد جئتكم بعِزِّ الدَّهْر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشَّوْكة والسلاح، فهَلُمَّ حتَّى نُنَاجِز محمدًا ونفرغ منه.

فقال له رئيسُهم: بل جئتني والله، بِذُلِّ الدَّهْر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه فهو يَرْعُدُ ويَبْرُق فلم يزل حُيَيٌّ يخادعه ويَعِدُهُ ويُمَنِّيه حتَّى أجابه بشرط أن يدخل معه في حصنه يُصيبه ما أصابهمَ، ففعل ونقضوا عهدَ رسول الله، وأظهروا سَبَّهُ.

فبلغ رسولَ الله ﷺ الخبَرُ، فأرسل ﷺ يستعلم الأمرَ، فوجدهم قد نقضوا العهدَ فكَبَّرَ ﷺ وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين».

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يكن إلا أن وضع سلاحَه، فجاءه جبريلُ، فقال: أَوَضَعْتَ السِّلاحَ؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتَها! فانهض بمَنْ معك إلى بني قُرَيْظَة، فإني سائر أمامك أُزَلْزِلُ بهم حُصونهم، وأقْذفُ في قلوبهم الرُّعْبَ.

فسار جبريل في كَوْكَبَةٍ من الملائكة، ورسولُ الله ﷺ على أثره في مَوْكبه من المهاجرين والأنْصَار.

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ:

« .... فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلاحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ، فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ. وَاللَّه مَا وَضَعْتُهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَيْنَ؟ فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ...»[1].

لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة:

وقال الرسول ﷺ لأصحابه يومئذ: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[2].

فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فَوْرِهم، فأدركتهم العصرُ في الطريق، فقال بعضُهم: لا نُصليها إلا في بنى قُرَيْظَة كما أَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ، فصلُّوهَا بعد عشاء الآخرة.

وقال بعضُهم: لم يَرِدْ الرسولُ ﷺ منَّا ذلك، وإنما أراد سُرعةَ الخروج. فصلُّوهَا في الطريق.

فلم يُعَنِّفْ الرسولُ ﷺ واحدةً من الطائفتين.

واختلف الفقهاءُ: أيُّهُمَا كان أصْوَب؟

فقالت طائفة: الذين أخَّرُوها هم الُمصيبُون، ولو كنَّا معهم لأخَّرناها كما أخَّروها، ولَمَا صلَّينَاها إلا في بنى قُرَيْظَة؛ امتثالاً لأمره ﷺ وتَركاً للتأويل الُمخالف للظاهر.

وقالت طائفةٌ أخرى: بل الذين صَلُّوها في الطريق في وقتها حازوا قَصَبَ السَّبْق، وكانوا أسعدَ بالفضيلتين؛ فإنهم بادروا إلى امتثال أمره ﷺ في

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٨١٣، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣١٥.
(١) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ٨٩٤.

الخـروج، وبادروا إلى مـرضـاتـه في الصـلاة في وقـتـهـا، ثُمَّ بادروا إلـى اللحـاق بالقـوم، فـحـازوا فـضـيلة الجـهـاد وفـضـيلة الصـلاة في وقـتـهـا. وفـهـمـوا مـا يُراد منهم، وكـانوا أفْـقَـه مـن الآخـرين، ولا سـيَّـمـا تلـك الصـلاة، فـإنهـا كـانت صـلاة العصـر، وهـى الصـلاة الوُسْطَى بنَصٍّ حديث رسـول الله ﷺ الصـحيح الصـريح الذي لا مَدفَع له ولا مَطْعَن فيـه[1] ومـجـيء السُّنَّة بـالمحـافـظـة عليـهـا، والمبـادرة إليها، والتكبير بها، وأن من فاتته فقد وَتَرَ أهلَه ومالَه، أو قد حَبِطَ عملُه.

أخـرج البـخـارى من حـديث بريدة أن رسـول الله ﷺ قـال: «مَنْ تَرَكَ صَلاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»[2].

وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ[3] أَهْلُهُ وَمَالُهُ»[4].

فالذي جاء فيها أمرٌ لم يجئ مثلُه في غيرها.

وأمـا المؤخِّرون لهـا فـغـايتُـهم أنهم مـعـذورون، بل مـأجـورون أجـراً واحـداً؛ لتمسكهم بظاهر النَّصِّ وقَصْدُهم امتثال الأمر.

وإمـا أن يكونوا هـم المصـيـبـين في نَفْس الأمـر، ومَنْ بَادَرَ إلى الصـلاة وإلى الجهاد مُخطئاً فحاشاً وكَلاَّ، والذين صَلُّوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحصَّلوا الفضيلتين، فلَهُم أجران، والآخرون مأجورون أيضاً - رضى الله عنهم -.

فإن قيل: كان تأخيـر الصـلاة للجهـاد حينئذ جائزاً مشـروعـاً، ولهـذا كـان تأخيـر النبـي ﷺ العصـر يوم الخندق إلى الليـل، فتـأخيـرهم صـلاة العصـر إلى

---

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى، صَلاةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً. ثُمَّ صَلاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ» مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٩٩٦.

(٢) البخاري - كتاب مواقيت الصلاة، حديث رقم ٥٢٠.

(٣) وتر: أي فَقَدَ.

(٤) مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٩٩١.

الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولا سيَّما أن ذلك كان قبل شروع صلاة الخوف، فالكُلُّ مأجور بما فعل؛ لأن أحداً لم يتعمد المخالفة فيما فعل، ولم يُنكِر الرسولُ ﷺ على أحدهم، وبخاصة أنهم - جميعاً - قد حضروا حصارَ العدو، وقاموا بما أُمروا به مستجيبين طائعين، ولم تكن من أحد منهم مخالفة لَمَا أمر الرسولُ ﷺ من قوله: «مَنْ كان سامعًا مُطيعًا، فلا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إلا ببنى قُرَيْظَة».

الراية في يد علي رضي الله عنه:

استعمل الرسولُ ﷺ على المدينة ابنَ أُمِّ مَكتوم فيما قال ابنُ هشام، وأعطى الراية عليَّ بن أبى طالب رضي الله عنه وقدَّمه إلى بنى قُرَيْظَة.

فسار عليٌّ بن أبى طالب حتَّى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحةً لرسول الله ﷺ، فرجع حتَّى لَقِيَ رسولَ الله ﷺ بالطريق، فقال:

يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث.

قال: لِمَ؟ أظُنُّك سمعت منهم لي أذى؟

قال: نعم يا رسول الله، قال: لو رَأَوْني لم يقولوا من ذلك شيئاً.

فلما دنا رسولُ الله ﷺ من حُصونهم قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمتَه؟

قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

حصارُ بني قريظة:

وتلاحق به الناسُ، وحَاصَرَ رسولُ الله ﷺ بنى قُرَيْظَة خمسًا وعشرين حتَّى جَهَدَهُم الحصارُ، وقذف الله في قلوبهم الرُّعْبَ.

وقد كان حُيَيُّ بنُ أخطب دخل مع بنى قُرَيْظَة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عَاهَدَه عليه.

فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غيرَ مُنْصَرِفٍ عنهم حتَّى يُناجزهم، قال كعبُ بن أسد لهم:

يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثاً، فخذوا أيَّها شئتم

قالوا: وما هي؟

قال: نُتابع هذا الرجل ونُصَدِّقه، فوالله، لقد تبيَّن لكم أنه لنبي مُرسَل، وأنه لَلَّذِي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم

قالوا: لا نفارق حُكْمَ التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيرَه.

قال: فإن أبَيْتُم على هذه، فهُلُمَّ فلنَقْتل أبناءنا ونساءنا، ثُمَّ نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلَتين السيوف، لم نترك وراءنا ثَقَلاً حتَّى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نَسْلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنَجدَنَّ النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خَيْرُ العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم على هذه، فإن الليلة ليلةُ السبت، وإنه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابُه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعَلَّنَا نُصيب من محمد وأصحابه غرَّة.

قالوا: نُفسد سبتَنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يُحْدِث مَنْ كان قبلَنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المَسْخ.

قال: ما باتَ رجلٌ منكم - منذ ولدته أُمُّهُ - ليلةً واحدةً من الدهر حازماً.

بنو قريظة يستشيرون أبا لبابة:

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ إن بني قريظة بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبدالمنذر، أخا بني عمرو بن عوف - وكانوا حُلفاء الأوس - لنَسْتَشيرَه في أمرنا.

فأرسله رسولُ الله ﷺ إليهم، فلما رَأَوْه قام إليه الرجال، وَجَهَشَ إليه النساءُ والصبيانُ يَبْكُون في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا له:

يا أبا لُبابة، أترى أن ننزل على حُكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حَلْقِهِ، إنه الذَّبْح.

قال أبو لُبابة: فوالله، ما زالت قدماي من مكانهما حتَّى عرفت أني خُنْتُ الله ورسوله ﷺ.

ثم انطلق أبو لُبابة على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتَّى أتى المسجد، مسجدَ المدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يَحُلَّه إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قُرَيْظَة أبداً.

فلمَّا بلغ رسولَ الله ﷺ خَبَرُه - وكان قد استبطأه - قال: أمَّا إنه لو جاءني لاستغْفَرْتُ له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أُطلقه من مكانه حتَّى يتوب الله عليه.

قال: فحدثني يزيد بن عبدالله بن قُسَيْط أن توبة أبي لُبابة نزلت على رسول الله من السَّحَر وهو في بيت أُمِّ سَلَمَة.

فقالت أم سَلَمَة: فسمعت رسولَ الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك.

قال: فقلت: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ أضْحَكَ الله سِنَّك.

قال: تيبَ على أبي لُبابة.

قالت: قلت: أفلا أُبَشره يا رسول الله؟

قال. بلى إن شِئْتَ.

قال: فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يُضْرَب عليهن الحجاب - فقالت: يا أبا لُبابه، أبْشِرْ؛ فقد تاب الله عليك.

قالت: فثار الناس إليه ليُطلقوه.

فقال: لا والله حتَّى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني، فلمَّا مَرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أَطْلَقَهُ.

نزول بني قريظة على حُكم رسول الله ﷺ:

ثم إن بني قريظة نزلوا على حُكم رسول الله ﷺ، فقامت إليه الأوس فقالوا:

يا رسول الله، قد فَعَلْتَ في بنى قينقاع ما قد عَلمتَ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأَحْسِنْ فيهم.

فقال ﷺ: ألا تَرْضَوْنَ أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟

قالوا: بلى.

قال: فذاك إلى سعد بن مُعَاذ.

قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن مُعَاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم لجُرْحٍ كان به، فأُرْكِبَ حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ فجعلوا يقولون له وهم كَنَفَتَاهُ: يا سعد أجمِلْ إلى مواليك، فأحسن فيهم؛ فإن رسول الله ﷺ قد حكَّمَك فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال:

لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومةُ لائم.

فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضُهم إلى المدينة، فنَعَى لهم القوم، فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: قوموا إلى سيدكم.

فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حُكْمك قال: وحُكمى نافذٌ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟

قالوا: نعم. قال: وعلى من هَاهُنَا؟ وأعرضَ بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً وتعظيماً.

قال: نعم، وعلَى.

قال: فإني أحكم فيهم أن يُقتَلَ الرجال، وتُسْبَى الذُّريةُ، وتُقَسَّم الأموال

فقال رسول الله ﷺ: «لقد حَكَمْتَ فيهم بحُكْم الله من فوق سبع سماوات».

ولما جيء بحُيَيٍّ بن أخطب بين يديه، ووقع بصرُه عليه قال: أما والله، ما لُمْتُ نفسي في معاداتك، ولكن من يُغالِب الله يُغْلَب.

ثم قال: يا أيها الناس لا بأس، قَدَرُ الله وملحمَةٌ كُتبت على بنى إسرائيل. ثم حُبِسَ فضُربت عنقُه

رجلٌ نجّاه الوفاءُ:

وأَسْلَمَ منهم تلك الليلة نَفَرٌ قبل النزول، وهرب عمروُ بن سُعْدَى عنه، فانطلق فلم يعلم أين ذهب، وكان قد أبَىَ الدخولَ معهم في نَقْض العهد.

قال ابنُ إسحاق:

وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعْدَى القُرَظي، فمَرَّ بحرس رسول الله ﷺ، وعليه محمد بن مَسْلَمة تلك الليلة.

فلما رآه قال: مَنْ هذا؟

قال: أنا عمرو بن سُعْدَى.

وكان عمرو قد أبَى أن يدخل مع بنى قُرَيْظَة في غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغْدُر بمحمد أبدًا.

فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عَثَرَات الكرام ثم خلَّى سبيلَه فخرج على وجهه حتَّى أتى باب مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثُمَّ ذهب فلم يَدْر أين توجَّه من الأرض إلى يومه هذا.

فذكَرَ لرسول الله ﷺ شأنه فقال: «ذاك رجلٌ نجَّاه الله بوفائه».

أما أصحابُ الغَدْر فقد أُخذوا بغدرهم، وحُفرَتْ لهم خنادقُ في سُوق المدينة، وضُربت أعناقُهم، ولم يُقتَل من النساء أحدٌ سُوى امرأةٌ واحدة كانت طرحت على رأس سُوَيْد بن الصَّامت رَحَىً فقتلته.

وقد قالوا لرئيسهم كعبِ بن أسد - وهم يؤخذون إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً -: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟

فقال: أفي كُلِّ مَوطن لا تعقلون؟

أما ترون الدَّاعِي لا يَنْزِع، والذاهبَ منكم لا يرجع؟! هو والله القتل.

عبرةٌ تحكيها الأحداثُ والمواقف:

وبعد.. فإننا نتساءل: ما الذي جرى من بنى قُرَيْظَة حتَّى كانت تلك عاقبتهم؟

ولماذا نزل القرآنُ الكريمُ مُبيِّنًا ما كانوا عليه وما صَاروا إليه، فلم يَعُد الحديث عمَّا وقع بهم حديث ماض مضى وكَفي، بل أصبح حديثاً تُتْلَى آياتُه؟

لقد نزلت آيات القرآن الكريم على هذا النحو ليكون للناس فيما يُتْلَى عليهم عظاتٌ وعِبَرٌ يُفيدون منها في مقاصدهم وأعمالهم.

ولا عذر بعد بلاغٍ، ولا حُجَّة بعد إعذار وإنذار.

إن غزوة بنى قُرَيْظَة قد حُفظ التذكير بها؛ ليقف الناسُ على أمرين يَرَوْنَهُمَا في النتائج والعواقب:

١ - أَمْرُ الخلائق عندما تتسلط عليهم الأهواءُ فيُفسدون ولا يُصلحون.

٢ - وتدبير الخَلاَّق العليم وهو يجزى الذي أساءوا بما عملوا، وينَصّر الذين أحسنوا وصدقوا في استجابتهم لربِّهم وتوكلهم عليه.

يقف الناس من ذلك على بعض النتائج في دنياهم قبل أخراهم، فيعينهم ذلك على الاستقامة في الدنيا كما أمرهم الله، وهم يستحضرون عاقبة من أَحْسَنَ ومَنْ أساء في العاجلة

وأما في الآخرة فستكون النتائج وافية لا يفلت من الحساب شئٌ، ولو كان مثقال ذَرٍّ:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[2].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[3].

إن مداولةَ الأيام بين الناس تمرُّ فيها أحداث وتقع وقائع، وقد حَفِظَ الله الذكر ليستبصر الناس به في كُلِّ شأن، فعندما يقع ما أخبر به رسولُ الله ﷺ من التدَّاعي على المسلمين في قوله ﷺ:

«يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا... الحديث»[4].

---

(١) الزلزلة: ٦ - ٨ .
(٢) لقمان: ١٦,
(٣) النجم: ٣١ .
(١) سنن أبي داود - كتاب الملاحم، حديث رقم ٣٧٤٥.

نستطيع أن نعرف ما يجب أن يكون علينا - إذا نحن بهداية القرآن الكريم اهتدينا - حتَّى لا نَتُوهَ أو نَضلَّ أو نَذِلَّ أو نُذَلَّ.

وقد قال لنا الرسول ﷺ «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ»[1].

وحَفِظَ الله الكتاب كما حفظ لنا بيانَه؛ لنُهْدَى - في كُلِّ شَأن - للتي هي أقوم ولن تكون الأحداث المتجددةُ بِمَنْأًى عن الوقائع التي أنزل الله فيها قرآناً، فلو أن سائلاً سأل: هل مَرَّت بالمسلمين وقائعُ وأحداثٌ أُحْكِمَ فيها الحصارُ، وتداعت الأممُ في ماض، كما هو واقع في حاضر؛ حتَّى نُفيد مما وقع في ماض لحاضر أو مستقبل، في رُشد ويُسر، دون تكلُّف أو حرج؟

أقول: نستطيع أن ندرك ذلك إذا ما تدبَّرنا حديثَ القرآن في ذلك، وأَحْسَنَّا الاتباع في الأخذ بالأسباب، دون تَوَانٍ أو تقاعد.

ولا تكون دراستنا للوقائع التي أنزل الله فيها قرآنًا مجرد دراسة لأحداث تاريخية منفصلة عن تدبير الخالق ومعرفة سُنَنه في النَّصْر أو الهزائم من الكتاب الكريم والسُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة.

فإن سُنَن الله في خَلْقه لا تُجامل أحداً، ولا تحابى بشراً، ولا تغيب دلالتها - مُقْتَرنَةً بالوقائع - عمَّن جمع بين الأسباب والنتائج، والمقدمات والعواقب.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[2].

****

(١) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ٢١٣٧ .   (٢) فاطر: ٤٣، ٤٤.

وقعة الحُدَيْبِيَة

في ذي القعدة سنة ٦ هـ

سبب الغزوة:

لقد رأى الرسولُ ﷺ رؤياه التي قال الله عنها: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾(١).

رأى الرسولُ ﷺ في منامه أنَّه يدخل المسجد الحرام وأصحابُه آمنين مُحلِّقين رؤسَهم ومُقصِّرين.

فأخبرهم ﷺ بنيَّة العُمرة - ورؤيا الأنبياء حَقٌّ - فخرجوا لذلك، وساق أمامَه الهَدْيَ(٢) بُرهاناً على النيَّة والقَصْد أنَّ المسلمين ما خرجوا إلاَّ لإرادة العُمرة.

لكنَّ قريشاً منعت المسلمين من دخول مكة، وكان من نتيجة ذلك «بَيْعة الرضوان» التي قال الله عنها: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾(٣) وانتهت بصلح الحُدَيْبِيَة(٤).

فهل كانت الحُدَيْبِيَة - بما تمَّ فيها - فَتْحاً؟

ذاك ما نقف عليه ونراه كيف كان فتحاً مُبيناً.

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) الهَدْي: ما يُهْدَى من النَّعَم إلى الحرم تقرباً إلى الله تعالى.

(٣) الفتح: ١٨.

(٤) الحُدَيْبِية: قرية متوسطة سُمّيَت ببئر هناك، وقيل سُمّيَت بذلك نسبة إلى شجرة حدْباء كانت في ذلك الموضع

يقول الزهري فيما ذكره ابن إسحاق:

فما فُتِح في الإسلام فتحٌ قبلَه كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدنة، ووُضعَت الحرب، وأَمِنَ الناسُ بعضُهم بعضاً، والتَقَوا فَتَفَاوضوا في الحديث والمُنَازعة، فلم يكلِّم أحدٌ بالإسلام - يعقلُ شيئًا - إلاَّ دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنَك السَّنتين مثلُ مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحُدَيْبِيَة في ألفٍ وأربع مئة في قول جابر، ثُمَّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

ولكنْ لماذا ذُكرت بيعة الرضوان هنا؟ وما سببُها؟ وما الذي جرى فيها؟ وما الذي يُؤخَذُ منها؟

بيعة الرضوان:

خرج الرسولُ ﷺ بمَنْ معه من المسلمين، فلما كانوا بـ «ذي الحُلَيْفَة»[1] قَلَّد رسول الله ﷺ الهَدْي وأشعره[2] وأحرم بالعُمرة، وبعث بين يديه عيْناً له من خُزَاعَةَ يُخبره عن قريش.

حتَّى إذا كان قريباً من عُسْفَان، أتاه عينُه فقال: إني تركتُ كعبَ بنَ لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت الحرام.

فسار النبيُّ ﷺ حتَّى إذا كان بالثنية التي يُهْبَط عليهم منها، بَرَكت به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ، حَلْ، فألحَّت[3] فقالوا: خَلأت[4] القَصْواء، خلأت القَصْوَاءُ.

(١) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ومنها ميقات أهل المدينة.
(٢) إشعار الهَدي: جرحها ليسيل دمها دلالة على كونها هدي.
(٣) ألحَّت: لزمت مكانها ولم تتحرك.
(٤) خلأت: امتنعت عن المشي.

فقال النبي ﷺ: «ما خَلأتِ القَصْوَاء، وما ذاك لها بِخُلُق، ولكن حبَسَها حابسُ الفيل».

ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعظِّمُون فيها حُرماتِ الله، إلا أعطيتُهم إياها»

ثم زجرها، فوَثبت به، فعدل حتَّى نزل بأقصى الحُدَيْبِيَة على ثَمَد[1] قليل من الماء إنما يتبرَّضُه الناس تبرُّضاً[2] فلم يُلبثْه الناس أن نزحوه، فَشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً مِنْ كِنَانَتِه، ثُمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه.

قال: فوالله، مازال يجيش لهم بالرِّي حتَّى صَدَرُوا عنه.

وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس لي بمكة أحدٌ من بني كعب يغضب لي إن أُوذيتُ، فأرسل عُثمانَ بن عفان؛ فإنَّ عشيرتَه بها، وإنَّه مُبلِّغ ما أردتَ.

فدعا عثمانَ بنَ عفان، فأرسله إلى قريش، وقال ﷺ: أخبرهم أنَّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا، وادعُهم إلى الإسلام.

وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات، فيدخُلَ عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أنَّ الله عز وجل مظْهِرٌ دينَه بمكة؛ حتَّى لا يُسْتَخْفَى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فمَرَّ على قريش ببلدح[3] فقالوا: أين تريد؟

فقال: بعثني رسولُ الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، وأُخبركم أنَّا لَمْ نَأتِ لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا.

---

(١) الثمد: الحوض.

(٢) يتبرَّضُه الناس تبرُّضاً: أي يأخذون منه قليلاً قليلاً، والبَرَضُ: اليسير من العطاء.

(٣) بلدح: واد قبل مكة من جهة المغرب.

فقالوا: قد سمعنا ما تقول، فانْفُذ لحاجتك.

وقام إليه إبانُ بن سعيد بن العاص فرَحَّبَ به، وأسَرَجَ فرسَه، فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره، وأردفَهُ أبان حتَّى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خَلَصَ عثمان قبلنا إلى البيت وطافَ به.

فقال رسول الله ﷺ: ما أظنُّه طاف بالبيت ونحن محصورون.

فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله، وقد خَلَصَ؟

قال: «ذلك ظنِّي به ألاَّ يطوف بالكعبة حتَّى نطوف معه»

وبلغ رسولَ الله أنَّ عثمانَ قد قُتلَ، فدعا ﷺ إلى البَيْعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألاَّ يفرُّوا، فأخذ رسولُ الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه بيعة عثمان»

ولما تمَّت البيعةُ رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيتَ يا أبا عبدالله من الطواف بالبيت.

فقال رضي الله عنه: بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثتُ بها سنةً، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طُفْتُ بها حتَّى يَطُوفَ بها رسولُ الله ﷺ، ولقد دعتني قريشٌ إلى الطواف بالبيت فأبيتُ.

فقال المسلمون: رسول الله كان أعْلَمَنا بالله، وأحسننا ظنًّا.

رُسُل قريش إلى النبي ﷺ:

وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبَيْعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كُلُّهم إلاَّ الجدَّ بنَ قيس.

فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيلُ بن ورقاءَ الخزاعي في نَفَرٍ من خُزَاعة فقال:

إني تركتُ كعبَ بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعدادَ مياه الحُدَيْبِيَة، معهم العُوذُ المطافيل[١] وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا مُعتمرين، وإنَّ قريشًا قد نَهَكَتْهُم الحربُ وأضَرَّت بهم، فإنْ شَاءوا مادَدْتُهم وَيُخَلُّوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخُلُوا فيما دَخَل فيه الناسُ فَعَلوا، وإلاَّ فقد جَمُّوا[٢] وإنْ هم أبَوْا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده لأقَاتِلَنَّهم على أمري هَذَا حتَّى تنفرد سَالِفَتِي[٣] أو لَيُنْفِذَنَّ الله أمرَهُ.

قال بُدَيل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتَّى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجلَ، وقد سمعتُه يقول قولاً، فإن شئتم عرضتُه عليكم.

فقال سفهاؤهم: لا حاجَة لنا أن تُحَدِّثَنَا عنه بشيء.

وقال ذووا الرأي منهم: هاتِ ما سمعتَه.

قال: سمعتُه يقول: كذا وكذا، فحدَّثهم بما قال النبيُّ ﷺ.

قال عروةُ بن مسعود الثقفي: إنَّ هذا قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْد فاقبلوها، ودعوني آتِه.

فقالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلِّمُه.

فقال له النبي ﷺ نحوًا من قوله لِبُدَيل.

فقال له عروةُ عند ذلك: أيْ محمد: أرأيتَ لو استأصلتَ قومَك، هل سمعتَ بأحدٍ من العرب اجتاح أهلَه قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله، إني لأرى وجوهاً وأرى أوشاباً[٤] من الناس خليقاً أن يَفِرُّوك ويدعوك.

---

(١) العوذ: جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: النُّوق التي معها أبناؤها.
(٢) جَمُّوا: استراحوا من جهد الحرب.
(٣) السالفة: صفحة العنق، والمراد «أُقتَل.
(٤) أوشاباً: أي أخلاطاً.

فقال له أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: امصُصْ بَظْر اللاَّتِ[١] أنحن نفرُّ عنه ونَدعه؟!

قال: من ذا؟

قالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يَدٌ كانت لك عندي، لم أُجْزِكَ[٢] بها لأجبتُك وجعل يُكلِّم النبي ﷺ، وكلَّما كلَّمه أخَذَ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيفُ، وعليه المغفَرُ، فكُلَّما أهوى عروةُ إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنَصْل السيف، وقال: أخِّر يَدَك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروةُ يده، وقال: مَنْ ذا؟

قالوا: المغيرةُ بن شعبة.

فقال: أي غُدَرُ، أوَلستُ أسعى في غَدرتك؟

وكان المغيرةُ صَحِبَ قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهَم، ثُمَّ جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلامُ فَأَقْبَلُ، وأما المالُ فلست منه في شيء»

ثم إن عروةَ جعل يَرْمُقُ أصحابَ رسول الله بعينيه، فوالله ما تنخَّم[٣] النبيُّ نُخَامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٌ منهم، فَدَلَكَ بها جلْدَه ووجهَهُ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره[٤] وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له.

فرجع عروةُ إلى أصحابه، فقال:

أيْ قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت مَلِكًا يُعظِّمُه أصحابُه كما يُعظِّم أصحابُ محمدٍ محمداً، وقد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها.

---

(١) العبارة قيلت للإهانة والاحتقار.

(٢) الجزاء: المكافأة والمثوبة.

(٣) تنخم: أي دفع بشيء من صدره أو أنفه، واسم ذلك الشيء «النُّخامة»

(٤) ابتدروا أمره: أي أسرعوا إلى تنفيذه.

فقال رجل من كنانة: دعوني آتِه، فقالوا: ائتِه، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: هذا فلانٌ، وهو من قومٍ يعظّمون البُدْنَ، فابعثوها له.

فبعثوها له، واستقبَله القوم يُلبُّون، فلمَّا رأى ذلك قال:

سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت.

فرجع إلى أصحابه فقال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَت وأُشعِرت، وما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

إبرام معاهدة الصلُح:

أرسلت قريش «سهيل بن عمرو» للتفاوض مع رسول الله ﷺ على شروط الصلح والتوقيع على المعاهدة.

فلما رآه النبي ﷺ قال: قد سُهِّلَ لكم من أمركم،

فقال سهيل: هاتِ أكتب بيننا وبينكم كتاباً.

فدعا النبيُ ﷺ الكاتب: فقال: اكتُب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سُهيل: أمَّا الرحمن فوالله، ما ندري ما هو، ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنتَ تكتُب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم.

ثم قال: اكتب هذا ما قاضي عليه محمدٌ رسولُ الله

فقال سُهيل: فوالله، لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صَدَدْنَاك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله.

فقال النبي ﷺ: إني رسولُ الله وإن كذَّبتموني، اكتب محمد بن عبدالله،

فقال النبي ﷺ: على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوفَ به

فقال سهيلُ: والله لا تتحدثُ العرب أنَّا أُخِذْنا ضغطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

قال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجلٌ - وإنْ كان على دينك - إلا رددتَه إلينا.

وهكذا جرى الصُّلح بين المسلمين وأهل مكة على وَضْع الحرب عشر سنين، وأنْ يأمن الناسُ بعضُهم من بعض، وأنْ يرجع الرسولُ ﷺ ومَنْ معه عنهم عامَه هذا، حتَّى إذا كان العامُ المُقبل، قَدِمها وخَلَّوا بينه وبين مكة، فأقام فيها ثلاثاً، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب.

ردّ أبي جندل إلى المسلمين:

فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يَرْسُفُ في قيوده[١] قد خرج من أسفل مكة حتَّى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين

قال سهيل: هذا يا محمدُ أول ما أقاضيكَ عليه أن تَرُدَّه إليَّ.

فقال النبي ﷺ: إنا لم نفض الكتاب بعد.

فقال سهيل: فوالله، إني لا أصالحك على شيءٍ أبدًا.

فقال النبي ﷺ: فَأجِزْه لي.

قال: ما أنا بمُجيزه لك.

قال: بلى فافعل.

---

(١) يرسُف في قيوده: أي مَشَى مشْيَ المُقيَّد.

قال: ما أنا بفاعل.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيتُ؟! وكان قَدْ عُذِّب في الله عذاباً شديداً.

قال عمرُ بن الخطاب: والله، ما شككت - منذ أسلمتُ - إلاَّ يومَئِذ، فأتيت النبي ﷺ: فَقُلْتُ: يا رسول الله، ألستَ نبي الله حقّاً؟

قال: بلى.

قلت: أَلَسْنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟

قال: بلى.

فقلت: عَلامَ نُعْطي الدَّنيَّةَ في ديننا إذًا؟ ونرجعُ ولما يحكمُ الله بيننا وبين أعدائنا؟

فقال: إني رسولُ الله، وهو نَاصري، ولَسْتُ أعْصِيه.

قلت: أَوَلَسْت كنتَ تحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى، أفأخبرتُك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنَّك آتيه ومُطَوِّفٌ به.

قال: فأتيت أبا بكر، فقلتُ له كما قلتُ لرسول الله، وردَّ عليَّ أبو بكر كما ردَّ عليَّ رسولُ الله ﷺ سواء، وزاد: «فاستمسك بِغَرْزه حتَّى تَموتَ، فوالله، إنَّه لعَلَى الحق».

قال عمرُ: فعملتُ لذلك أعمالاً، أي: أعمالاً صالحة ليُكَفَّر عنه ما حضر من التوقف في الامتثال ابتداء.

وفي رواية ابن إسحاق:

وكان عمرُ يقول: «ما زلت أتصدَّقُ وأصومُ وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذ؛ مخافة كلامي الذي تكلمتُ به»

تباطؤ المسلمين في الحلق والنحر:

فلما فرغ النبي ﷺ من قضية الصلح قال: قُوموا فانحروا، ثُمَّ احلِقُوا فوالله، ما قام منهم رجلٌ واحدٌ حتَّى قال ذلك ثلاثَ مرات.

فلمَّا لم يَقُم منهم أحدٌ، قام فدخل على أمِّ سَلَمَة، فذكر لها ما لَقِيَ من الناس.

فقالت أمُّ سَلَمَة: يا رسول الله: أتُحِبُّ ذلك؟ اخرج ثُمَّ لا تكلِّم أحداً منهم كلمةً حتَّى تنحر بُدْنَك وتدعو حَالِقَك فَيَحْلِقَك.

فلم يُكلِّم رسول الله ﷺ أحدًا منهم حتَّى فعل ذلك، فلما رأى الناسُ ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يَحْلِقُ بعضاً حتَّى كاد بعضُهم يقتُلُ بعضًا غمًّا.

ثُمَّ رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله عليه:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1].

فقال عمرُ: أَوَفَتْحٌ هو يا رسولَ الله؟

قال: نعم.

فقال الصحابةُ: هنيئًا لَكَ يا رسولَ الله، فما لَنَا؟

فأنزل الله عز وجل: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[2].

---

(١) الفتح: ١ – ٣.

(٢) الفتح: ٤.

إسلام أبي بصير:

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو بصير - رجلٌ من قريش - مُسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرَّجُلين، فخرجا به حتَّى بلغا ذا الحليفَةَ، فنزلوا يأكلون من تَمْرٍ لهم.

فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله، إني لأرى سيفَك هذا جَيِّدًا، فاستَلَّهُ الآخر فقال: أجَلْ والله، إنَّه لجَيدٌ، لقد جرَّبتُ به ثُمَّ جرَّبت

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمْكَنَه منه، فضربه به حتَّى برد، وفرَّ الآخر يعدو حتَّى بلغ المدينة، فدخل المسجد.

فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعْراً.

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإني لمقتول.

فجاءه أبو بصير، فقال: يا نبيَّ الله، قد والله، أوفَى الله ذِمَّتَك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم.

فقال النبي ﷺ: ويلُ أُمِّه مِسْعَرَ حَربٍ لَوْ كان له أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنَّه سيَرُدُّه إليهم، فخرج حتَّى أتى سِيفَ البحر، وينفلتُ منهم أبو جندل بن سهل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أَسْلَمَ إلا لحق بأبي بصير، حتَّى اجتمعت منهم عصابة، فوالله، لا يسمعون بعيرٍ لقريش خرجت إلى الشام إلاَّ اعترضُوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريشٌ إلى النبي ﷺ تناشِدُهُ اللهَ والرَّحم لما أرسل إليهم، فمَنْ أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾(١).

وكانت حميتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبي الله، ولم يُقِرُّوا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

*****

من وقائع الحديبية:

وكان مما وقع في الحُدَيْبِيَة أمورٌ يجب أن تُذْكَر.

١ - عَطِشَ الناسُ يوم الحُدَيْبِيَة:

روى البخاري عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

«عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ يَتَوَضَّأُ منها، إِذْ جَهِشَ النَّاسُ(٢) فقال ﷺ: مَالَكُمْ؟ قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلاَ نَشْرَبُ إِلاَّ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ أَمْثَالَ الْعُيُونِ، فَشَرِبُوا وَتَوَضَّأُوا، وكانوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَة»(٣).

٢ - نزول المطر:

وفي هذه الغزوة أصابهم ليلة مطرٌ، فلما صلى النبي ﷺ الصُّبح قال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ

---

(١) الفتح: ٢٤ - ٢٦.

(٢) جهش الناس: أي أسرعوا لأخذ الماء.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣١١.

بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ[1] كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[2].

٣ - نزول سورة الفتح:

وفيها أُنْزلت سورةُ الفتح، نزلت بعد مُنصرفه ﷺ من الحُدَيْبِيَة، وذلك عند كراع الغميم[3] فقرأها ﷺ وهو على راحلته، ومثل ذلك يُعَدُّ مدنياً على المشهور. وهو أن المدني ما نزل بعد الهجرة.

٤ - دخول خُزاعة في عهد رسول الله:

وفيها دخلت خزاعةُ في عهد وعَقْد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عَقْد قريش وعهدهم، وكان الشرط أنَّ مَنْ شاء أن يدخل في عَقْده ﷺ دخل، ومَنْ شاء أن يدخل في عَقْد قرش دخل.

الحديبية والفتح العظيم:

هذا .. وقد خَفِي كون ما في الحُدَيْبِيَة فتحاً على بعض الصحابة، حتَّى بيَّنَهُ رسولُ الله ﷺ.

أخرج البيهقي عن عُروة قال:

أقبل رسولُ الله ﷺ راجعاً، فقال رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: والله، ما هذا بفَتْح، لقد صُدِدْنَا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنَا، وعكَفَ رسولُ الله بالحديبية، وردَّ رجلين من المسلمين خرجا.

فبلغ رسولَ الله ﷺ ذلك فقال: بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتح، لقد رشي المشركون أن يدفعوكم بالرَّاح عن بلادهم ويسألونكم القضية، ويرغبون

---

(١) الأنواء: كواكب كانوا ينسبون نزول المطر إليها.

(٢) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٨٠١، كتاب الجمعة، حديث رقم ٩٨٠.

(٣) الغميم: مكان قرب مكة.

إليكم في الأمان، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم، وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح.

أنسيتم يوم أُحُد، إذ تُصعِدُون ولا تَلوُون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟!

أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا؟!

قال المسلمون: صدقَ الله ورسولُه هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله، ما فكَّرنا فيما ذكرتَ، ولأنْتَ أعلم بالله وبالأمور منَّا.

وذكر ابن القيم في كتابه [زاد المعاد] فَصْلاً في الإشارة إلى بعض الحِكَم التي تضمنتها هذه الهُدنة، قال:

وهي أكبر وأجلُّ من أن يُحيط بها إلا الله الذي أحْكَم أسبابَها، فوقعت الغايةُ على الوجه الذي اقتضته حكمته وحَمدُه.

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسولَه وجندَه، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنةُ بابا لَه، ومفتاحاً ومُؤذِناً بين يديه، وهذه عَادةُ الله - سبحانه - في الأمُور العظام التي يقتضيها قَدراً وشرعاً، أن يوطِّئَ لها بين يديها مقدمات وموطِّئات تُؤْذِنُ بها وتدلُّ عليها.

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفتوح، فإنَّ الناس أَمِن بعضُهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وبادءوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جَهْرة آمنين.

وظهر مَنْ كان مُختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مُدَّة الهُدنة مَنْ شاء أنْ يدخل، ولهذا سمَّاه اللهُ فتحًا مبينًا. قال ابن قتيبةَ: قضينا لك قضاءً عظيما، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية.

وحقيقة الأمر أن الفتح - في اللغة - فَتْحُ المُغْلَق، والصُّلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مُغلقًا حتَّى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صَدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت.

وكان - في الصورة الظاهرة - ضيماً وهضماً للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا.

وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءهُ من الفتح العظيم والعزّ والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يُعطي المشركين كُلَّ ما سألوه من الشروط التي لم يحتملْها أكثرُ أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

ورُبَّما كان مكروهُ النفوس إلى مَحْبُوبِها سبباً ما مثلُه سَبَبٌ، فكان يدخُلُ على تلك الشروط دخولَ واثقٍ بنصر الله له وتأييده، وأنَّ العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عينُ النصر، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون ونَصبُوه لحربهم وهم لا يشعرون، فَذَلُّوا من حيث طلبوا العِزَّ، وقُهِرُوا من حيثُ أظهروا القدرة والفخر، وعزَّ رسول الله ﷺ وعساكرُ الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضَّيْم له وفيه، فَدَار الدَّوْر، وانعكس الأمر، وانقلب العِزُّ بالباطل ذُلاً بحق، وانقلبت الكسرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياتُه وتصديقُ وَعْده، ونصرةُ رسوله على أتمَّ الوجوهِ وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سبَّبَهُ الله - سبحانه - للمؤمنين من زيادة الإيمان، والإذعان والانقياد على ما أحبُّوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرِّضى بقضاء الله، وتصديق مَوْعُودِهِ، انتظار ما وُعدوا به، وشهودِ منَّةِ الله ونعمته عليهم بالسَّكينة التي أنزلها في قلوبهم، أحوج ما كانوا إليها في تلك الحال التي

---

(١) البقرة: ٢١٦.

تَزَعْزَعُ لها الجبالُ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبُهم، وقويت به نفوسُهم، وازدادوا به إيماناً.

ومنها: أنَّه سبحانه جعل هذا الحُكم - الذي حُكم به لرسوله وللمؤمنين - سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نعمته عليه، ولهدايته الصراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، وانشراح صدره به، مع ما فيه من الضيم وإعطاء ما سألوه كان سبباً من الأسباب التي نال بها الرسولُ ﷺ وأصحابُه ذلك، ولهذا ذكره الله - سبحانه - جزاءً وغايةً، وإنما يكون ذلك على فِعْلٍ قام بالرسول والمؤمنين عند حُكمه تعالى وفتحه.

وتأمل كيف وصف - سبحانه - النَّصْر بأنه عزيزٌ في هذا الموْطن، ثُمَّ ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوبُ، وقَلِقَتْ أشَدَّ القلق، فهي أحوجُ ما كانت إلى السكينة، فازْدَادُوا بِهَا إيمانًا إلى إيمانهم.

ثم ذكر - سُبحانه - بيعتَهم لرسوله، وأكَّدها بكونها بيعَةً له - سبحانَه - وأن يَدَهُ تعالى كانت فوق أيديهم، إذ كانت يدُ رسول الله ﷺ كذلك - وهو رسولُه ونبيُّه - فالعقد معه عَقْدٌ مع مُرسِلِه، وبيعته بيعته، فمَنْ بايعه فكأنما بايع الله، ويَدُ الله فوق يده.

ثُمَّ أخبر أنَّ ناكثَ هذه البيعَة إنَّما يعودُ نكثُه على نَفْسه، وأنَّ للموفِّي بها أجرًا عظيمًا، فكُلُّ مؤمن قد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكِث ومُوفٍ.

ثم ذكر سبحانه حال من تخلَّف عنه من الأعراب، وظنَّهم أسوأ الظَّنّ بالله أنه يخذلُ رسوله وأولياءَه وجندَه، ويُظْفِرُ بهم عَدُوَّهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم، وذلك من جهلهم بالله وأسمائِه وصفاتِه وما يليقُ به، وجهلهم برسوله وما هو أهْلٌ أنْ يُعَامِلَهُ به ربُّه ومولاه.

ووعدهم - سبحانه - مغانمَ كثيرةً يأخذونها، وأخبرهم أنَّه عجَّل لهم هذه الغنيمة وفيها قولان:

أحدهما: أنها الصُّلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم، والثاني: أنها فتحُ خيبر وغنائمُها.

ثم قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾(١).

فقيل: أيدي أهل مكة أنْ يُقاتلوهم.

وقيل: أيدي اليهود حين هَمُّوا بأن يغتالوا مَنْ بِالمدينَة بعد خروج رسول الله ﷺ بمَنْ معه من الصحابة منها.

وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أَسَد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هذه الفعلة التي فعلها بكم، وهي كفُّ أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنَّهُمْ - حينئذ وهم أهلُ مكة ومَنْ حولها، وأهلُ خيبر ومَنْ حولها، وأسدٌ وغَطَفَانَ، وجمهورُ قبائل العرب كانوا أعداءً لهم - وهم بينَهم كالشَّامَةِ، فلم يَصلُوا إليهم بسوء.

فمن آيات الله - سبحانه - كفُّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلُوا إليهم بسوء مع كثرتهم وشدة عداوتهم، وتوَلَّى حراستهم وحفظَهم في مشهدهم ومغيبهم.

وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آيةً لعباده المؤمنين وعلامةً على ما بعدها من الفتوح.

فإنَّ الله - سبحانه - وعدهم مغانم كثيرة، وفُتوحاً عظيمة، فعجَّل لهم فتح خيبر وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لصبرِهم ورضاهم يوم الحُدَيْبِيَة وشكراناً،

---

(١) الفتح: ٢٠.

ولهذا خَصَّ بها وبغنائمها مَن شهد الحديبية ثُمَّ قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[١].

فجمع لهم - إلى النَّصْر والظَّفر والغنائم - الهداية، فجعلهم مَهْديين منْصُورين غانمين.

ثُمَّ وعدهم مغانمَ كثيرة وفتوحًا أخرى لم يكونوا - ذلك الوقت - قادرين عليها، فقيل: هي مكةُ، وقيل: هي فارس والروم، وقيل: الفتوحات التي بعد خَيْبَر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أن الكفار لَوْ قاتَلوا أولياءَه لَوَلَّى الكفارُ الأدبار غير منصورين، وأن هذه سُنَّتَه في عباده قبلهم، ولا تبديل لسنَّته.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - أنه هو الذي كَفَّ أيدي بعضهم عن بعض، من بعد أن أظْفَرَ المؤمنين بهم لِمَا له في ذلك من الحِكَم البالغة التي منها:

- أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا، وهم يكتمون إيمانَهم، لم يعلم بهم المسلمون، لو سلَّطَكم عليهم لأصبتم أولئك بمَعَرَّة الجيش[٢] وكان يصيبكم منهم معرَّة العدوان والإيقاع بمَن لا يستحق الإيقاع به.

وذكر - سبحانه - حصول المَعَرَّة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم، لأنها مُوجب المَعَرّة الواقعة منهم بهم.

وأخبر - سبحانه - أنهم لو تزيلوا، وتميَّزوا منهم لعَذَّبَ أعداءَه عذابًا أليمًا في الدنيا، إمَّا بالقتل والأَسْر وإمَّا بغيره.

ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ورسولُه بين أظهرهم.

---

(١) الفتح: ٢٠.

(٢) مَعَرَّة الجيش: وطْأَتُهم مَنْ مَرُّوا به وإِصابتهم إِياهم في حَرِيمِهم وأَمْوالِهم وزُروعِهم بما لم يؤذن لهم فيه.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عمَّا جعله الكفارُ في تحولهم من حَمِيَّة الجاهلية التي مصدرها الجهلُ والظلمُ، والتي لأجلها صدُّوا رسولَه وعبادَه عن بيته، ولم يُقرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يُقرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صِدْقَه وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مُدَّة عشرين سنة.

وأضاف هذا الجَعْلَ إليهم وإن كان بقضائه وقَدَره، كما يُضاف إليهم سائرُ أفعالهم التي هي بقُدرتهم وإرادتهم.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حَمِيَّة الجاهلية.

فكانت السكينةُ حظَّ رسوله وحِزْبه، وحَمِيَّة الجاهلية حَظُّ المشركين وجندهم ثُمَّ ألزم عبادَه المؤمنين كلمةَ التَّقْوَى، وهي جنسٌ يعُمّ كُلَّ كلمةٍ يُتَّقَى الله بها، وأعلى نوعها كلمةُ الإخلاص وقد فُسِّرت ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي الكلمة التي أبَتْ قريشٌ أن تلتزمها، فألزمها اللهُ أولياءَه وحزبَه.

وإنما حَرَمها أعداءه صيانةً لها عن غير كُفئها، وألزمها من هو أحقُّ بها وأهلها، فوضعها في موضعها، ولم يضيعها بوضعها في غير أهلها، وهو العليم بمحالِّ تخصيصه ومواضعه.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنه صَدَق رسولَه رؤياه في دخولهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آنَ وقت ذلك في هذا العام، والله - سبحانه - عَلِم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والربُّ - تعالى - يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه، فقدَّم بين يدي ذلك فَتْحاً قريبًا، توطئةً له وتمهيدًا.

ثُمَّ أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كُلِّه، وقد تكفَّل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار مع جميع أديان أهل الأرض.

ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبشارة لهم وتثبيت، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بُدّ أن يُنْجِزَه، فلا تظنوا أن ما وقع - من الإغماض والقهر يوم الحديبية - نُصْرَةً لعَدوه، ولا تخلِّياً عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق، وَوَعَدَه أن يُظْهِرَه على كُلِّ دين سواه.

ثُمَّ ذكَّر - سبحانه - رسولَه وحِزْبَه الذين اختارهم له، ومدَّحهم بأحسن المَدْح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صِدْق مَن جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم[١].

*****

(١) زاد المعاد: ١٨٩/٢ - ١٩٢.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

وقد جزم العلاَّمة «المنصورفوري» أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل في غُرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام.

وهكذا كانت هُدنة الحديبية فتحاً مُبيناً، بعثَ الرسول ﷺ بعدها أُمراءهُ وعماله إلى كُلِّ ما أوطأ الإسلام من البلدان، وتحقق لطابا أن تُؤدِّي رسالتَها كعاصمة جامعة تُرسل وتستقبل، وتُبَلِّغ وتُعذِّر دون عقبات أو عوائق، بعد ما تحقق لها من نعمة النَّصْر واختيارها بمَنْ فيها أن تكون بلاغاً للعالمين.

وكان ممَّن أرسلهم الرسولُ ﷺ إلى الملوك:

١- دَحْيَةُ بن خليفة الكلبي: إلى مَلِك الروم «هرقل».

٢- عبدالله بن حذافة السهمي: إلى ملك الفرس «كسرى».

٣- عمرو بن أُميَّة الضمري: إلى ملك الحبشة «النجاشي».

٤- حاطب بن بلتعة: إلى حاكم مصر «المقوقس».

وكان الكتاب الذي أُرسل إلى هؤلاء وغيرهم جامعاً، مع بلوغ الناس ما أمر الرسول ﷺ بتبليغه.

ويكفي أن نقف على كتاب واحدٍ من ذلك، وهو ما أرسله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وقد جاء فيه:

«بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. مِنْ مُحَمَّد عَبْدِاللَّه وَرَسُوله، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ»[1].

---

(١) الأريسيُّون: الفلاحون والزراعون، ومعناه: أنَّ عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبَّه بهؤلاء على جميع الرَّعايا؛ لأنهم الأغلب ولأنهم أسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١)، (٢).

وقد شاء الله أن يأتيَ هذا الكتاب الذي حمله دَحْيَة بن خليفة الكلبي إلى هرقل وأبو سفيان بن حرب موجود في تجارة له بالشام.

وفي هذا الكتاب وما ترتب عليه دلالات يجب أن تُذكر، وأن يُستبصَرَ بها في معرفة المقدمات والعواقب، وما يصير الأمر إليه في الصراع بين الحق والباطل، وإنَّ الحقَّ ظاهر لا محالة.

ولنستمع إلى ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخْبَرَهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيهِ قَالَ:

«انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّامِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ، يَعْنِي عَظِيمَ الرُّومِ، وَكَانَ دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ.

فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ، فَأَجْلَسَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ.

قَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:

فَقُلْتُ: أَنَا. فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) البخاري - كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٦.

ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِه، فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللَّهِ، لَوْلا مَخَافَةُ أَنْ يُؤْثَرَ عَلَيَّ الْكَذِبُ لَكَذَبْتُ

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟

قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟

قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟

قُلْتُ: لا.

قَالَ: وَمَنْ يَتَّبِعُهُ.. أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟

قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟

قَالَ: قُلْتُ: لا، بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟

قَالَ: قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟

قَالَ: قُلْتُ تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالاً، يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟

قُلْتُ: لا. وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا.

قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟

قَالَ: قُلْتُ: لا.

قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ، فَزَعَمْتَ أَنْ لا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ.

وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ، فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَزَعَمْتَ أَنْ لا، فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَهُ سَخْطَةً لَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَدْ قَاتَلْتُمُوهُ فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالا، يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لا، فَقُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟

قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ.

قَالَ: إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ...)[1].

*****

(١) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٢٢.

غزوة خَيْبَر

في محرم سنة ٧ هـ

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بُعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال.

سبب الغزوة:

ولما كانت خيبر هي موطن الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت جديرة بالتفات المسلمين إليها.

ولا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين، فألقوا المسلمين - بإجراءاتهم هذه - في محَن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ.

وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بُعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل: سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن زارم.

مسير النبي ﷺ إلى خيبر:

قال ابن إسحاق:

حدثني الزُّهري عن عروة عن مروان بن الحكَم والمِسوَر بن مَخْرَمة، أنهما حدَّثاه جميعًا قالا:

انصرف رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبية، فنزلت عليه سورةُ الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خَيْبَر ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ**﴾[1].

---

(١) الفتح: ٢٠.

فقدم رسول الله ﷺ المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خَيْبَر في المحرّم، فنزل بالرَّجيع[1] فتخوَّف أن تمدَّهم غَطَفَان، فبات حتى أصبح فَغَدا إليهم.

وقد ذكر ابن إسحاق أن غَطَفَان لَمَّا سمعت بمَنْزِل رسول الله ﷺ من خَيْبَر، جمعوا له، ثُمَّ خرجوا ليُعاونوا يهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلةً سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسًّاً، ظنُّوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخَلَّوْا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

دعاء الرسول ﷺ على مشارف خيبر:

قال ابن إسحاق:

حدثني من لا أتّهم عن عطاء بن أبى مَرْوان الأسلمي، عن أبيه عن أبى مُعَتِّب بن عمرو أن رسول الله ﷺ لَمَّا أَشْرَف على خَيْبَر قال لأصحابه - وأنا فيهم - قِفُوا، ثُمَّ قال:

«اللهم ربَّ السماوات وما أظْلَلْن، وربَّ الأرضينَ وما أقْلَلْنَ، وربَّ الشياطين وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرياح وما أذْرَيْنَ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخيرَ أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشرِّ أهلها وشر ما فيها، أقدمِوا بسم الله».

قال: وكان يقولها ﷺ لكل قرية دخَلَها.

الرسول ﷺ يعطي الراية لعلي:

ومن أخبار خَيْبَر أن رسول الله ﷺ لَمَّا كانت ليلة الدخول إليها قال: لأعطين هذه الرَّاية غدًا رَجلاً يُحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسولُه، يفتح الله على يديه.

---

(١) الرجيع: وادٍ بين خَيْبَر وغَطَفَان.

فبات الناسُ يَدُوكُون[١] أيُّهم يُعطَاها، فلما أصبح الناسُ، غَدَوْا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يَرْجون أن يُعطاها.

فقال رسول الله ﷺ: أينَ عليُّ بن أبى طالب؟

فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكى عينَه.

قال: «فأرسلوا إليه» فأُتىَ به، فبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فَبَرَأَ حتَّى كأنْ لم يكن به وَجَعٌ.

فأعطاه الرَّايةَ، فقال: يا رسول الله، أقَاتلُهم حتى يكونوا مثلَنا؟

قال: انْفُذ على رِسْلك حتَّى تنزلَ بسَاحتهم، ثُمَّ ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله، فوالله، لأن يهدى الله بك رَجُلاً واحداً خيرٌ من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم[٢].

افتتاح حصون خيبر:

افتُتِحَتْ حُصون خَيْبَر حصنًا حصنًا، فكان أوَّلُ حصن من حصونهم افتتح «حصن ناعم» وعنده قُتِلَ محمد بن مسلمة، أُلقيت عليه منه رَحَىً فقَتَلَتْه، ثُمَّ «القَمُوص» حصن بنى أبى الحُقيق.

وأصاب رسول الله منهم سبايا، منهن: «صفيةُ بنت حُيَى بن أخطب» سباها النبي ﷺ يوم خَيْبَر، فاصطفاها لنفسه، فأسلمتْ وأعتقها، وجعل عِتْقَها صداقها، وكان رسول الله ﷺ قد خيَّرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها، أو تُسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسولَه.

قال ابن إسحاق:

---

(١) يدوكون: يخوضون في الحديث.

(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٧٢٤، ٢٧٨٧، كتاب المناقب، حديث رقم٣٤٢٥.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حَاز، انتهوا إلى حصنيهم «الرَّطيح والسَّلالم» وكانا آخر حصون أهل خَيْبَر افتتاحًا، فحاصرهم رسول الله بضعَ عشرة ليلة، فخرج مرحبُ وهو يقول:

أنا الذي سَمَّتْنى أُمِّي مرحبُ   شاكى السلاح بطلٌ مُجرَّبُ

فبرز إليه علىٌّ بن أبى طالب وهو يقول:

أنا الذي سَمَّتْني أُمِّي حَيْدَره   كليث غاباتٍ كَريـه المَنْظَره

أُوفيهم بالصَّاع كَيْلَ السَّنْدَره[1]

فضرب مَرْحَباً ففلق هامته وكان الفتح[2].

ولما دنا على رضي الله عنه من حصونهم، اطلع يهودىٌّ من رأس الحصن، فقال: من أنت؟

فقال: أنا علىٌّ بن أبى طالب.

فقال اليهودي: علوتُم وما أُنْزلَ على موسى.

وقال الحاكم في المستدرك: «إن الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة أنَّ قاتل مرحب أميرُ المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه»[3].

رجل صَدَق الله فصدقه:

ومن أخبار خيبر أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ.

فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٧٢.
(٢) المعنى أقتل الأعداء قتلا واسعا ذريعا، والسندرة: مكيال واسع.
(٣) المستدرك على الصحيحين: ٣/٤٩٤.

فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟

قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ

فَأَخَذَهُ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَسَمْتُهُ لَكَ.

قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ، فَأَدْخُلَ الجَنَّةَ. فَقَالَ: إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ

فَلَبِثُوا قَلِيلا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَهُوَ هُوَ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلاتِهِ: اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ)[1].

أمر الشاة المسمومة:

ومن أحداث هذه الغزوة أن زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مِشْكم أهدت لِلنَّبِيِّ ﷺ شاةً قد سَمَّتها، وسألت: أيُّ اللحم أحبّ إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثرت من السُّمِّ في الذراع.

فلما انتهي الرسول من ذراعها، أخبره الذراع بأنه مسموم، فَلَفَظ الأكلة، ثُمَّ قال ﷺ:

اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ. فَجُمِعُوا لَهُ.

فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَبُوكُمْ؟

---

(١) النسائي - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٩٢٧

قَالُوا: فُلانٌ.

فَقَالَ: كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ. قَالُوا: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟

فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا.

فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟

قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا.

ثُمَّ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟

فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟

قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ)(١).

وجئ بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ. قَالَ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَيَّ. قَالُوا: أَلا نَقْتُلُهَا؟ قال: لا، ولم يتعرض لها، ولم يُعاقِبْها(٢).

مقْدم أصحاب السفينة:

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابنُ عمِّه جعفرُ بن أبى طالب وأصحابُه ومعهم الأشعريون، عبدالله بن قيس أبو موسى وأصحابُه، وكان فيمن قدم معهم أسماء بنت عُميس.

---

(١) البخاري – كتاب الجزية والموادعة، حديث رقم ٢٩٣٣، كتاب الطب، حديث رقم ٥٣٣٢.

(٢) مسلم – كتاب السلام، حديث رقم ٤٠٦٠.

روى مسلمٌ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

«بَلَغَنَا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمَا، أَحَدُهُمَا: أَبُو بُرْدَةَ، وَالآخَرُ: أَبُو رُهْمٍ. إِمَّا قَالَ: بِضْعًا، وَإِمَّا قَالَ: ثلاثَةً وَخَمْسِينَ، أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي

قَالَ: فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ.

فَقَالَ جَعْفَرٌ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا هَاهُنَا، وَأَمَرَنَا بِالإِقَامَةِ، فَأَقِيمُوا مَعَنَا

فَأَقَمْنَا مَعَهُ، حتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا

قَالَ: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا، أَوْ قَالَ: أَعْطَانَا مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا، إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ، إِلاَّ لأَصْحَابِ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ، قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ.

قَالَ: فَكَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ -: نَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ.

قَالَ: فَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ - وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا - عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ..

فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟

قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ؟ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟

فَقَالَتْ: أَسْمَاءُ نَعَمْ.

فَقَالَ عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ.

فَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ كَلِمَةً:

كَذَبْتَ يَا عُمَرُ، كَلاَّ وَاللَّه، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ - أَوْ فِي أَرْضِ - الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ فِي الْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ.

وَأَيْمُ اللَّه، لا أَطْعَمُ طَعَامًا، ولا أَشْرَبُ شَرَابًا، حتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ، وَأَسْأَلُهُ.

وَوَاللَّهِ لا أَكْذِبُ، وَلا أَزِيغُ، وَلا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّه، إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ ولأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ - أَهْلَ السَّفِينَةِ - هِجْرَتَانِ».

قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً، يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الحَدِيث، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ

قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الحَدِيثَ مِنِّي[1].

وقد ذكرت هذا الحديثَ من قبل، وها أنا ذا أذكره، وهو مما أُحِبُّ أن يُذكَرَ ولا يُنسى، وأن تُعرف دَلالتُه فيما نحن بصَدده من وقائع المدينة المُنَوَّرَة وفَضَائلها.

فإن الله قد جمع لها من ألَّف بين قلوبهم، فأحياهم، وجعل لهم نُوراً يمشون به في الناس، ففتح لهم، وفتح بهم، فكان تنافسهم في جميع أمرهم على مرضات ربِّهم لا على شيء سواه.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٠٥، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٥٨.

وقد رأينا في هذه الغزوة كيف كانت مقاصدهم، وعلى أيِّ شيء كان تنافُسُهم.

رأينا ذلك عندما قال الرسول ﷺ: «لأعطين هذه الرَّاية غدًا رَجلاً يُحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسولُه».

فباتوا يتشوَّقون إلى هذه الراية، وينتظرون أيُّهم يُعْطَاهَا، وكُلٌّ واحد منهم يَرْجو أن يُعطَاهَا.

ورأينا رجلاً من الأعراب آمن، وصَدَقَ في إيمانه، واتَّبعَ الرسولَ ﷺ، وطلب أن يُهاجر مع رسول الله، وأوصى الرسول به بعضَ أصحابه.

فلما كانت غزوةُ خَيْبَر، وغَنِم رسول الله ﷺ، فقَسَمه، وقَسَم لهذا الأعرابي، فلما أخذ قسمه جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: قَسْم قسمته لك.

قال: ما على هذا بايعتك، أو ما على هذا اتبعتُك، ولكن اتبعتُك على أن أُرْمَى هاهُنا - وأشار إلى حلْقه - بسهم، فأموت، فأدخل الجنة. فقال رسول الله ﷺ: إن تصدق الله يصدقك. ثُمَّ نهض إلى قتال العدو، فأُتى به إلى النبي ﷺ وهو مقتول: فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم. قال: صدق الله فَصَدقه.

وها نحن نرى من عَاد من هجرة طويلة، من عاد من الحبشة إلى المدينة المُنَوَّرَة عند فتح خَيْبَر.

ها نحن نراهم حين افتتح رسول الله ﷺ خَيْبَر، يُسْهم لهم وكأنهم كانوا حاضرين؛ لأن هجرتَهم وما أصابهم كان في الله وفي رسول الله.

جاءوا من هجرتهم إلى دار الإيمان وقُبَّة الإسلام، لا ليأخذوا راحتَهم، ويركَنُوا إلى رعاية أُسَرهم، وإنما جاءوا ليكونوا - حيث يُطلَب منهم - مُبَلِّغين

رسالةَ الله في العالمين، وهم يحفظون ما أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾(١).

فبهؤلاء يكون البلاغ، وبهم يُعرف الحق عملاً وخُلُقًا، كما عُرف عن رسول الله ﷺ ورُئِيَ فيه «كان خُلُقُه القُرآن».

لا بد أن تكون المدينة المُنَوَّرَة - وفيها رسول الله ﷺ - جامعة لهم وموفدة لبُعوثهم مجاهدين، مُعَلِّمين، فاتحين، راشدين.

وأن تكون المدينة المُنَوَّرَة - وقد جمعت في وقائعها بين القرآن والسُّنَّة - حديثا ممتداً لا ينقطع للأجيال كلها، يدرسون الوقائع، ويقرءون ما أُنزل فيها من قرآن، ويرون ما كان للرسول ﷺ من بَيَان، فلا تكون دراستُهم لوقائع المدينة كدراستهم لأيِّ وقائع في أيِّ مكان أو زمان، بل تكون دراسة رُشْدٍ وعملٍ وحُسن تدبُّر لمَا أُرسل به الرسول ﷺ، وجاء به القرآن.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(٢).

فكيف تكون الأسوة به ﷺ بدون أن نعرف ما أُرسِلَ به وما دَعَى إليه، وما وقع له وما انتصر به؟!

إذن.. لا بُدَّ من الوقوف على الوقائع التي كانت في مكة من قبل، وما كان في المدينة بعد أن هاجر الرسول ﷺ إليها، ولم يَحُل بينه وبين العالم في البلاغ والتبشير والإنذار، وهو يخاطب الناس جميعًا بما أُمر به.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ١٥٨ .
(٢) الأحزاب: ٢١ .
(٣) الأعراف: ١٥٨ .

لذلك كان الفتح بالحديبية أو بعدها، فتحاً في امتداد البلاغ، وكان جهادُ الرسول ﷺ ومَنْ معه قد اتَّسعت ساحتُه، وكان لا بُدَّ له من إعداد إنسانه، إنسانِ النَّصْر بصفاته وثباته.

وقد تمَّ ذلك في المدينة المُنَوَّرَة، إذ لم ينقطع عملُ مَنْ هاجر إليها، من جهاد صَادقٍ، وتدبير راشد يُرى فيه التعاون على البِّر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ولا يكاد الإنسان - وهو يُحسن التدبُّر - يجد لحظةً واحدةً - لأولئك الذين صدقوا الله فصدقهم الله - بَعُدُوا فيها عن غايتهم، أو استُدرِجُوا ليكونوا تَبَعًا لهواهم أو هوى غيرهم، فلم تزدهم الشدائدُ وتتابُعُ الوقائع إلاَّ ثباتًا وإيمانًا وتسليمًا.

وما نذكره من وقائع المدينة لا نُريد به الحَصْرَ، وإنما الذي يعنينا أن نعرف ما تشتمل عليه بعض هذه الوقائع من بيان لسُنَن الله، وسُنَنُ الله في خَلْقه لا تتبدَّل ولا تتحوَّل ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾[1].

وإذا عُلِمَ ذلك استطاع الإنسان - بفضل ربِّه - أن يعرف سُبُلَ الفوز والنَّصْر، فيأخذ نفسَه به استقامةً واتباعًا، وأن يعرف سُبُل الهزيمة والبوار والخسران، فيستعيذ بالله - قولاً وعملاً - من اتِّبَاع هذه السُبُل التي تُؤدى إلى البوار والخسران.

وذاك هو البيان الذي أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن يبلغه وأن يدعو إليه

﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[2].

---

(١) فاطر: ٤٣.
(٢) الأنعام: ١٥٣.

وكلَّما لازَمْنَا الرسولَ ﷺ وأَحْسَنَّا اتباعَه، عرفنا كيف كان تقديرُ الوقت عنده، وكيف كان العملُ في مواجهة الأحداث وهو يستقبل وحيَ السماء ويقوم بأداء ما أُمر به من إعداد النفوس وإبلاغها ما جاء من عند الله.

فلا نرى الرسولَ ﷺ ومَنْ معه - في أيِّ أمْرٍ كان - إلاَّ عابدين لخالق يعرفون فضلَه، ويُحسنُون ذِكْرَه، فلا يشغلون أنفسهم إلاَّ به، ولا يَرغبون في شيء إلاَّ في رجاء رحمته وابتغاء مرضاته، فلا يغيب عنهم في أيِّ أمرٍ - صَغُر أم كَبُر - أنَّهم خَلْقُه، وأنهم عائدون إليه ومحاسَبون بين يديه.

فكان عملُهم للآخرة إصلاحًا لدنياهم وطهارةً لحياتهم، في عدل واعتدال، ويُسْرٍ لا حَرَجَ فيه ولا تَكَلُّفَ معه.

بذلك لم تكن العبادة عندهم تكاليف في أوقات محدودة ودقائق معدودة، وإنَّما كانت العبادة لله في كُلِّ شيء: في نيَّاتهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وروابطهم، وعلاقتهم بأنفسهم وبغيرهم.

كانت شاملة جامعة لكُلِّ شيء، فلا يُرى أحدٌ منهم ساجدًا في صلاة ومُفَرطًا في سَعْي أو عطاء.

بل يُرى كُلُّ شيء من أمرهم - حتى ما يُسِرُّونَه في أنفسهم - خالصًا لله، لا لأحدٍ سواه.

بذلك بلَّغُوا كما بلَّغ رسولُهم، وحُفِظ لهم الذكرُ ليحفظوه منهج عمل للحياة ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[1].

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

غزوات وسرايا بعد خيبر:

لقد كان بين غزوة خَيْبَر وعُمرة القضاء فترة زمنيَّة مُحَدَّدة، عمل فيها المسلمون أعمالاً لا يكاد الوقت يتَّسع لها، لولا ما أعطاهم من عزائم لا تَمَلُّ ولا تَهُون، ولا تتوقف عن صِدْق الاستجابة لله وللرسول.

قال ابن إسحاق:

فلمَّا رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من خَيْبَر، أقام بها شهري ربيع وجُمَادَيَيْن ورجباً وشعبانَ ورمضانَ وشوَّالاً، يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه.

ثم خرج في ذي القعدةَ - في الشهر الذي صَدَّه فيه المشركون - مُعتمراً عُمرة القضاء مكان عُمْرَته التي صَدُّوه عنها.

وهذه السرايا هي:

١- **سريَّة أبى بكر الصديق** رضي الله عنه: إلى نَجْد قِبَل بنى فزارة ومعه سلمةُ بن الأكوع، فوقع في سهمه جاريةٌ حسناءُ، فاسْتَوْهَبَهَا رسول الله ﷺ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة.

٢- **سريَّة عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: في ثلاثين راكبًا نحو هَوَازن، فجاءهم الخَبَرُ فهربوا، وجاءوا محالَّهُم، فلم يلق منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة.

٣- **سريَّة عبدالله بن رواحة:** في ثلاثين راكبًا إلى يسير بن رزام اليهودي.

٤- **سريَّة بشير بن سعد الأنصاري:** إلى بنى مُرَّة بفَدَك في ثلاثين رجلاً.

ولنقف وقفةً يسيرة عند سريَّة من هذه السرايا - وما أكثرها - قبل أن نصل إلى عُمرة القضاء.

نقف عند سريَّة عبدالله بن حذافة السَّهْمي.

ثبت في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «نزل قول الله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ**

مِنْكُمْ﴾ فِي عَبْدِاللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ»(١).

وفي مسلم عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا، فَأَغْضَبُوهُ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوا، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَسْمَعُوا لِي وَتُطِيعُوا؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَادْخُلُوهَا. قَالَ: فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالُوا: إِنَّمَا فَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّارِ. فَكَانُوا كَذَلِكَ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، وَطُفِئَتِ النَّارُ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»(٢).

وهذا هو عبدالله بن حذافة السهمي.

فإن قيل: فلو دخلوها دخلوها طاعة لله ورسوله في ظنِّهم، فكانوا متأوِّلين مُخطئين، فكيف يُخلَّدون فيها؟

قيل: لما كان إلقاءُ نفوسهم في النار معصيةً يكونون بها قاتلي أنفسهم؛ فهمُّوا بالمبادرة إليها من غير اجتهاد منهم، هل هو طاعةٌ وقربة، أم معصية كانوا مُقْدمين على ما هو محرَّمٌ عليهم؟

ولا تَسُوغُ طاعةُ وليِّ الأمر فيه؛ لأنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق

فكانت طاعة مَنْ أمرهم بدخول النار معصيةً لله ورسوله.

فكانت هذه الطاعة هي سببُ العقوبة؛ لأنها نَفْس المعصية، فلو دخلوها لكانوا عُصاةً لله ورسوله، وإن كانوا مطيعين لولى الأمر.

(١) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٢١٨، مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٤١٦.
(٢) مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٤٢٥.

فلم تدفع طاعتُهم لولى الأمر معصيتَهم لله ورسوله؛ لأنهم قد علموا أن من قَتَل نَفْسه فهو مُستَحقٌّ للوعيد، والله قد نهاهم عن قَتْل أنفسهم، فليس لهم أن يُقْدموا على هذا النَّهي طاعةً لَمن لا تجب طاعتُه إلاَّ في المعروف.

فإذا كان هذا حُكْمُ مَنْ عَذَّب نفسه طاعة لولى الأمر؛ فكيف مَن عذَّب مسلمًا لا يجوز تعذيبُه طاعة لولى الأمر؟

وأيضا فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لَما خرجوا منها - مع قَصْدهم طاعةَ الله ورسوله بذلك الدخول - فكيف بمَنْ حَمَلَهُ على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبةُ الدنيويةُ؟

«إنما الطاعة في المعروف» ضوابط وحدود، لا يمكن أن تُتَعدَّى أو يُطاع من يُريد أن يتعدَّى.

*****

عمرة القضاء

في ذي القعدة سنة ٧ هـ

قال سليمان التَّيمى: لمَّا رجع رسول الله ﷺ من خَيْبَر بعث السرايا، وأقام بالمدينة حتى استهلَّ ذو القعدة، ثم نادى الناس بالخروج.

وقال موسى بن عقبة: ثم خرج رسول الله ﷺ من العام المُقبِل من عام الحديبية مُعتمرًا في ذي القعدة سنة سبع، وهو الشهر الذي صَدَّه فيه المشركون عن المسجد الحرام.

وقال ابن إسحاق:

وخرج معه المسلمون ممَّن كان صُدَّ معه في عُمرته تلك، وهي سنة سبع، فلمَّا سمع به أهل مكة خرجوا عنها، وتحدثت قريش بينها أن محمدًا وأصحابَه في عُسْرة وجَهْد وشِدَّة، وكانت عُدَّةُ المسلمين ألفين سوى النساء والصبيان.

فلمَّا قدم رسول الله ﷺ أمر أصحابَه فقال: «اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف» ليرى المشركون جَلدهم وقُوَّتَهم.

فوقف أهل مكة، الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبدالله بن رواحة آخذ بخِطَام ناقته يقول - وهو يَرْتَجز متوشِّحًا سيفَه -:

خلُّوا بنى الكفار عن سبيله   خلُّوا فكلُّ الخير في رسوله

يا ربِّ إني مؤمنٌ بِقيلِه   أعرف حقَّ الله في قبوله

وتغيب رجالٌ من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ حَنَقاً وغيظاً، فأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثا.

فلما أصبح من اليوم الرابع أتاه سُهيلُ بن عمرو وحُويطبُ بن عبدالعُزَّى، ورسول الله في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة.

فصاح حُويطب: نُناشدك الله والعقد؛ لَمَا خرجتَ من أرضنا، فقد مضت الثلاث.

فقال سعد بن عبادة: كَذَبْتَ لا أُمَّ لك، ليست بأرضك ولا أرض آبائك، والله لا نخرج.

ثم نادى رسولُ الله ﷺ حُويطبًا أو سُهيلاً، فقال: «إني قد نكحتُ منكم امرأةً، فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها، ونضع الطعام، فنأكل وتأكلون معنا».

فقالوا: نُناشدك الله والعقد إلاَّ خرجت عنَّا.

فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذَّن بالرحيل، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بطنَ سَرِف، فأقام بها، وخلَّف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حتى يُمْسي، فأقام حتى قَدِمَتْ ميمونةُ ومَنْ معها، وقد لَقُوا أذىً وعناءً من سُفهاء المشركين وصبيانهم.

وكانت ميمونة - رضى الله عنها - قد جعلت أمرَها إلى أُختها أُمِّ الفَضْل، وكانت أُمُّ الفَضْل تحت العبَّاس، فجعلت أُمُّ الفَضْل أمرَها إلى العبَّاس، فزَوَّجها رسولَ الله ﷺ بمكة، وأصْدَقَهَا عن رسول الله ﷺ أربعَ مئة درهم.

*****

ولَمَّا أراد النبي ﷺ الخروج من مكة تبعتهُم ابنةُ حمزة تنادى: يَا عَمِّ، يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب رضي الله عنه، فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، فحَمَلَتْهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ.

فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي.

وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتُهَا تَحْتِي.

وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي.

فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ.

وَقَالَ لِعَلِيٍّ: أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ.

وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي.

وَقَالَ لِزَيْدٍ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا[1].

*****

قال ابن هشام: فأنزل الله عز وجل عليه - فيما حدَّثني أبو عبيدة -:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[2] يعنى خيبر.

*****

(١) البخاري - كتاب الصلح، حديث رقم ٢٥٠١.

(٢) الفتح: ٢٧.

غـزوة مؤْتَـة

في جمادى الأولى سنة ٨ هـ

تُعد غزوة مؤتة من أعظم المعارك التي خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، ومُؤْتَة قرية من أرض البلقاء من الشام بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

سبب الغزوة:

وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله ﷺ بَعَثَ الحارث بن عُمَير الأزْدي أحدَ بنى لِهْب، بكتابه إلى الشام على ملك الروم أو بصرى.

فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسَّانى - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر - فأوثَقَه رباطًا، ثم قدَّمَهُ فضرب عُنُقَه، ولم يُقْتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره.

فاشتدَّ ذلك عليه حين بلغه الخَبَرُ، فجهز جيشاً في ثلاثة آلاف رجل، وبعثه إلى مؤتة.

الرسول ﷺ يُعيِّن أمراء للجيش:

روى البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِي الله عَنْهمَا - قال:

«أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ»[1].

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٢٨.

النبي ﷺ يودع الجيش ويوصيه:

وخرج رسول الله ﷺ يودع الجيش ويوصيه، فكان مما قاله لهم:

«اغزُوا باسم الله، قاتِلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً»

وخرج أهل المدينة يُودعون جيش رسول الله ﷺ فبكى عبدُ الله بن رواحة. فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حُبُّ الدنيا، ولا صبابةٌ بكم، ولكنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأُ آيةً من كتاب الله يَذْكر فيها النار: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾[1] فَلَسْتُ أدرى كيف لي بالصَدَّر بعد الوُرود؟

فقال المسلمون: صحبكم الله بالسَّلامة، ودفعَ عنكم، وردَّكم إلينا صالحين. ثم مضوا حتى نزلوا «معانٍ»

توقُّف الجيش الإسلامي للاستشارة:

وفي أثناء سير الجيش، بلغ الناسَ أن هِرَقْلَ بالبلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم - من لخَم وجذام وبلْقين وبَهْراء وبَلَى - مئة ألف.

فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على مَعَانٍ ليلتين، ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبرَه بعدد عدوِّنا، فإمَّا أن يُمِدَّنا بالرجال، وإمَّا أن يأمرنَا بأمره، فنمضي له.

فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة قائلاً:

يا قوم، والله إن الذي تكرهون للَّتي خرجتُم تطلبون «الشهادة» وما نُقاتل الناسَ بعدد ولا قُوَّة ولا كثرة، ما نقاتلُهم إلاَّ بهذا الدِّين الذي أكرَمَنَا به الله، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحُسنَيَيْن: إما ظفرٌ وإما شهادة.

---

(١) مريم: ٧١.

بدء القتال وتناوب القُوَّاد:

فمضى الناس، حتى إذا كانوا بتُخُوم[1] البلقاء، لقيتهم الجموعُ بقرية يُقال لها: مَشَارف، فدنا العدوُّ، وانحاز المسلمون إلى مُؤْتَة، فالتقى الناس عندها، فَتَعبَّى المسلمون، ثم اقتتلوا والرَّاية في يد زيد بن حارثة، فلم يزل يُقَاتل بها حتى شَاطَ في رِمَاحِ القوم، وخَرَّ صَريعاً.

وأخذها جعفرُ، فقاتَل بها حتى أَرْهَقَهُ القتالُ، اقتحم عن فرسه، فعَقَرَهَا، ثم قاتَل حتى قُتِل، فكان جعْفَرُ أوَّل من عَقَرَ فَرَسَهُ في الإسلام عند القتال.

فقطعت يمينُه، فأخذ الرَّايةَ بيساره، فقُطِعَتْ يسارُه، فاحتضَنَ الرَّايةَ حتى قُتِلَ، وله ثلاثٌ وثلاثون سَنَة.

ثم أخذها عبدُ الله بن رواحة، وتقدَّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزلُ نفسَه، ويتردد بعض التردُّد، يقول محدثاً نفسه:

أقسمتُ بالله لتنزلنَّه كارهة أو لتطاوعنَّه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة؟

ويقول:

يا نفسُ إلاَّ تُقْتلي تموتي هذا حِمام الموتِ قد صَلِيت

وما تمنَّيت فقد أُعْطيت إن تفعلي فِعْلَهما هُديت

يريد صاحبَيه: زيداً وجعفراً.

ثم نزل، فأتاه ابنُ عمٍّ له بِعَرق من لحم، فقال: شُدَّ بها صُلْبَك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت.

(١) التخوم: جمع «التَّخْم» وهو منتهى كل قَرْية أو أرض.

فأخذها من يده، فانْتَهَسَ منها نَهْسَةً، ثم سمع الحَطْمة في ناحية الناس فقال: وأنتَ في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفَه وتقدَّم، فقاتَل حتى قُتِل

الراية إلى سيف من سيوف الله:

ثم أخذ الرَّايةَ «ثابتُ بن أقْرَم» أخو بني عجلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلمَّا أخذ الرَّايةَ، دافع القومَ، وحاش بهم، ثُمَّ انحاز بالمسلمين، وانصرف الناس.

قال ابن هشام: فأمَّا الزهري فقال - فيما بلغني عنه -: أمَّر المسلمون عليهم خالدَ بن الوليد، ففتح الله عليهم، وكان عليهم حتَّى قَفَلَ إلى النبي ﷺ.

وقد ذكر ابنُ سعد أن الهزيمة كانت على المسلمين، والذي في صحيح البخاري أن الهزيمة كانت على الروم.

الرسول ﷺ يُخبِر بسير المعركة:

ويتلقى الرسول ﷺ من وحي السماء أخبار المعركة، ويُبَلِّغ المؤمنين؛ ليكونوا دائمًا - وهم يَسْعَوْن في سبيل الله - موصولين بوحي السماء.

قال ﷺ لأصحابه: «لقد رُفِعُوا إليَّ في الجنَّة - فيما يرى النائم - على سُرُرٍ من ذهب، فرأيتُ في سرير عبدَ الله بن رواحة ازْوِرَاراً عن سرير صاحبيه، فقُلتُ: عَمَّ هذا؟ فقيل لي: مَضَيَا وتردَّد عبدالله بعض التردُّد ثُمَّ مضى».

وقَدِم يعْلَى بن منْية على رسول الله ﷺ بخبر أهل مُؤْتَة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتُك» قال: أخبرني يا رسول الله، فأخبره ﷺ خبرَهم كُلَّه، ووصفهم له. فقال: والذي بعثك بالحق، ما تركْتَ من حديثهم حرفًا واحداً لم تذكره، وإن أمرهم لكَمَا ذكرتَ.

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله رفع لِيَ الأرضَ حتى رأيتُ معتركَهم».

عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة:

قال ابن إسحاق:

حدثني محمدُ بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، قال: لما دَنوْا من حول المدينة، تلَّقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قال: ولقيهم الصبيان يشتدُّون، ورسول الله ﷺ مُقبلٌ مع القوم على دابة. فقال: «خُذوا الصبيان فاحملوهم، وأعْطُوني ابنَ جعفر» فأُتى بعبدالله، فأخذه فحمله بين يديه.

قال: وجعل الناس يَحْثُون على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرَّار، فَرَرْتُم في سبيل الله. قال: فيقول رسولُ الله ﷺ: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّارُ إن شاء الله».

*****

ولنَا وَقْفَةٌ هُنا ونحن نتحدث عن وقائع المدينة المُنَوَّرَة، ونرى الأطفال يُشْغلون بما يُشغَل به الكبار، ولا يَرْضَون أن ينسبوا إلاَّ إلى نَصْرٍ عزيز، مع أنَّ ما تمَّ كان نَصْراً إذا ما تدبَّرنا أنَّ الروم قد جمعوا مئة ألف، وانضم إليهم من القبائل مئة ألف أخرى، وعدد المسلمين - كما عرفنا - ثلاثة آلاف، فكان من إلهام الله لخالد بن الوليد - وهو مَنْ هُو في قيادته وحكمته - أن جعل الانسحاب ليس فراراً، وإنما جعله - بحُسْن التدبير - نَصْراً.

ولذلك دافع الرسولُ ﷺ عن الجيش حين سمع الناسَ يقولون لهم - وهم يَحْثُون عليهم التراب -: «يا فُرَّار، فَررتم في سبيل الله» قالوا لهم ذلك وهم يستقبلونهم!

فقال الرسول ﷺ: ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله.

فالمدينة كُلُّها - إذاً - لا تُشْغَل عنهم، بل نراها - بسلُوك مَنْ فيها - مُرابِطَةً معهم، تذكرهم، وتتلقَّى أخبارَهم، وتدعو لهم.

حُزن الرسول ﷺ على قتل أمراء الجيش:

عن عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - قَالَتْ: «لَمَّا جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ وَجَعْفَرٍ وَابْنِ رَوَاحَةَ، جَلَسَ يُعْرَفُ فِيهِ الحُزْنُ، وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ صَائِرِ الْبَابِ شَقِّ الْبَابِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ لَمْ يُطِعْنَهُ، فَقَالَ: انْهَهُنَّ، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ قَالَ: وَاللَّه لَقَدْ غَلَبْنَنَا يَا رَسُولَ اللَّه، فَزَعَمَتْ أَنَّهُ قَالَ: فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ، فَقُلْتُ: أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ تَتْرُكْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَنَاءِ»(١).

النبي ﷺ وليُّ مَن لا وليَّ له:

ومن أخبار استشهاد الجيش في معركة مؤتة أن النبي ﷺ ذهب إلى بيت جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: ائتوني ببُني أخي، أي أبناء جعفر، فجيء بهم، فدعا الحلاَّق وحلق رؤوسهم، وقال لأمهم وهي تذكر يُتمهم: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة؟!».

*****

(١) البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢١٦.

فتـح مكـة

في رمضان سنة ٨ هـ

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ أقام رسولُ الله ﷺ - بعد بَعْثه إلى مُؤْتَة - جُمادى الآخرة ورجبًا، وقد تهيأ كُلُّ شيء للفتح الأعظم «فتح مكة».

وقال ابنُ القيم - رحمه الله - عن هذا الفتح:

«هو الفتح الأعظم الذي أعَزَّ الله به دينَه ورسولَه وجندَه، وحزبَه الأمين، واستنقذ به بَلَده وبيتَه - الذي جعله هُدى للعالمين - من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهلُ السماء، وضربت أطنابُ عزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجهُ الأرض ضياءً وابتهاجاً»(١).

إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد:

خرج رسول الله ﷺ لفتح مكة بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمانٍ لعشر مَضَيْنَ من رمضان.

وقبل أن نمضي في بيان ذلك، أُوَدُّ أن أذكر ما وعد الله به نبيَّه ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة بإذن ربه.

لقد أنزل الله عليه - وهو في هجرته - قولَه في سورة القصص: **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**(٢).

---

(١) زاد المعاد: ٢/٢٣٠.

(٢) القصص: ٨٥.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قال المفسرون: أي أنزل عليك. وقال الزَّجَّاج: فرض عليك العملَ بما يوجبه القرآن، وتقدير الكلام: فرض عليك أحكامَ القرآن وفرائضَه.

وقيل: أوجب عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه.

وعن عليّ بن حسين بن واقد قال: «أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ بالجُحفة، حين خرج مهاجراً إلى المدينة»

﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال جمهور المفسرين: أي مكة.

وهذا أقرب التفاسير، وبه قال ابن عباس رضي الله عنه كما أخرجه البخاري عنه[١] وزاد: كما أخرجك منها.

*****

أُخرج الرسول ﷺ من مكة، وها هو ذا يُخاطبها خطابَ من يَحِنُّ إليها ويَرغَبُ فيها.

قَالَ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[٢].

وكان النبي ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنه يهاجر على أرض ذات نخل كما في حديث البخاري[٣].

وكان قد قال له ورقة بن نوفل: «يا ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومُك».

قال ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟

(١) راجع: البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٤٠٠.
(٢) الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٦١، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
(٣) البخاري - كتاب الحوالة، حديث رقم ٢١٣٤.

قال: ما جاء رجل بمثل ما جئتَ به إلاَّ عُودي، وإن يُدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزرا.

سبحانك ربى! لا إله إلاَّ أنت، صَدَقَ وعدُك، ونُصِرَ عبدُك.

وها نحن نرى رسولَ الله ﷺ يعود إلى مكة كما وعده ربُّه، يعود ومعه عشرة آلاف مؤمنين به متَّبعين له، مُخلصين لَما جاءهم به

وها هي الأسباب تتهيأ له كما يتهيأ كُلُّ شيء لاستقباله والحَفَاوة به.

سبب الفتح:

لقد قدَّمنا في وقعة الحديبية أنه كان من شروط الهُدْنة فيها أنَّ «من أحبَّ أن يدخلَ في عَقْد محمد وعهده دَخَلَ فيه، ومَنْ أَحَبَّ أن يدخل في عَقْد قريش وعَهْدَهم دخل فيه».

فتواثَبَتْ خُزَاعَة، فقالوا: نحن في عَقْد محمد وعَهْده، وتواثَبَتْ بنو بكر، فقالوا: نحن في عَقْد قريش وعَهْدِهم.

فلمَّا استمرت الهدنة، اغتنمتها بنو بكر بن خُزَاعَة، وأرادوا أن يصيبوا منه ثأرًا قديمًا، فخرج نوفلُ بن معاوية الدِّيلى في جماعة من بنى بكرن، فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا.

وأعانت قريش بنى بكر بالسِّلاح، وقاتَل معهم من قريش مَنْ قَاتَل مستخْفيًا حتى حازوا خُزَاعَة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنَّا قد دخلنا الحرم، إلهك، إلهك.

فقال نوفل كلمةً عظيمة: لا إله اليوم يا بنى بكر، أصيبوا ثأركم، فلَعَمْري إنَّكم لتُسرقون في الحَرَم، أفلا تُصيبون ثأركم فيه؟

فلما دخلت خُزَاعَة مكة، لجئوا إلى دار بُديل بن ورقاء الخُزاعي وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

ويخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه، فقال:

يا ربِّ إني ناشدٌ محمداً حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

إلى أن قال:

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا وقتّلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرتَ يا عمرو بن سالم».

ثم خرج بُديل بنُ ورقاء في نَفَرٍ من خُزَاعَة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأخبروه بما أُصيب منهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثُمَّ رجعوا إلى مكة.

فقال رسول الله ﷺ: «كأنَّكم بأبي سفيان وقد جاء ليشدَّ العقد ويزيد في المدة».

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ومضى بُديل بن وَرْقاء في أصحابه، حتى لَقُوا أبا سفيان بن حرب بِعُسْفَان، وقد بعثته قريشٌ إلى رسول الله ﷺ ليشُدَّ العقد، ويزيد في المدة وقد رَهِبُوا الذي صنعوا.

فلما لقي أبو سفيان بُديلَ بن ورقاء قال: من أين أقبلتَ يا بُديل؟

وظنَّ أنه أتى النبي ﷺ فقال: سرتُ في خُزَاعَة في هذا السَّاحل، وفي بطن هذا الوادى.

قال: أو ما جئت محمداً؟

قال: لا.

فلمَّا راح بُديل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة، لقد علف بها النوى، فأتى مَبْرك راحلته فأخذ من بَعْرِهَا فَفَتَّه، فرأى فيه النَّوى.

فقال: أحلف بالله، لقد جاء بُديلُ محمداً.

ثُمَّ خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته أُمِّ حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طَوَتْه عنه، فقال: يا بُنيَّة: ما أدرى أرَغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟

قالت: بل هو فراشُ رسول الله ﷺ وأنت مُشركٌ نَجَسٌ.

فقال: والله لقد أصابك بعدى شَرٌّ.

ثُمَّ خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلَّمه، فلم يَرُدَّ عليه شيئاً، ثُمَّ ذهب إلى أبى بكر، فكلَّمه أن يُكلِّم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل

ثُمَّ أتى عمرَ بن الخطاب، فكلَّمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلاَّ الذرَّ لجاهدتكم به.

ثُمَّ جاء فدخل على عليٍّ بن أبى طالب، وعنده فاطمة، وحسنٌ غلامٌ يدبُّ بين يديها، فقال: يا عليُّ، إنك أمسُّ القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعنَّ كما جئتُ خائبًا، اشفع لي إلى محمد.

فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسولُ الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلِّمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس، فيكون سيِّدَ العرب إلى آخر الدهر؟

قالت: والله ما يبلغ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ.

قال: يا أبا الحسن، إني أرى أن الأمورَ قد اشتدَّت علىَّ، فانصحني.

قال: والله ما أعلم لك شيئًا يُغنى عنك، ولكنك سيّد بنى كنانة، فقُم فأَجِرْ بين الناس، ثُمَّ الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مُغنيًا عنى شيئا؟

قال: لا والله، ما أظنُّه، ولكنى ما أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس: إني قد أجرتُ بين الناس، ثُمَّ ركب بعيره فانطلق.

فلما قَدِم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: جئت محمداً فكلمتُه، فوالله ما ردَّ على شيئاً، ثُمَّ جئتُ ابن أبى قُحافة، فلم أجد فيه خيرًا، ثُمَّ جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أعدى الأعداء، ثُمَّ جئت عليًا، فوجدته ألينَ القوم، قد أشار عَلَىَّ أن أُجيرَ بين الناس، ففعلتُ.

فقالوا: فهل أجاز ذلك محمدٌ؟ قال: لا.

قالوا: ويلك والله، إن زاد الرجلُ على أن لَعب بك.

قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.

النبي ﷺ يتهيأ للفتح الأعظم:

ثم أمر رسول الله ﷺ الناسَ بالجَهَاز، وأمر أهلَه أن يُجَهِّزوه.

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة - رضى الله عنها - وهي تُحرِّك بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أيْ بُنيَّة؛ أمَرَكُنَّ رسولُ الله ﷺ بتجهيزه؟ قالت: نعم، فتجهز.

قال: فأين ترينَهُ يريد؟ قالت: لا والله ما أدرى.

ثُمَّ إن رسول الله ﷺ أعْلَمَ الناس أنه سائرٌ إلى مكة، فأمرهم بالجدِّ والتجهيز، وقال: «اللهم خُذْ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغَتَها في بلادها».

قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة:

لَمَّا تجهز الناس كتب حاطِبُ بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثُمَّ أعطاه امرأةً، وجعل لها جُعْلا على أن تُبلِغَه قريشًا، فجلعته في قُرون في رأسها، ثُمَّ خرجتْ به.

وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليّاً والزبيرَ، فقال: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا.

يقول عليٌّ: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ.

فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ.

فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ.

فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا[1] فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا[2] فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ - إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ - أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا ولا ارْتِدَادًا ولا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسلامِ.

---

(١) عقاصها: أي ضفيرة الشَّعْر.

(٢) مُلصَقاً: حليفاً لهم، وليس منهم.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ صَدَقَكُمْ.

قَالَ: عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ.

قَالَ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ؟![1].

وفي سورة الممتحنة نزلت الآيات الأولى فيما فعله حاطب بن بلتعة، وما كان لأحد أن يردَّ عن حاطب ما أراده عمر رضي الله عنه إلاَّ رسول الله ﷺ بما أعلمه ربُّه.

ولولا وحي الله إلى نبيِّه ﷺ لكان جزاء ما فعله حاطب هو ما استأذن فيه عمر: دعني يا رسول الله أضرب عُنُقَه.

ولكنَّ عمر عندما سمع من النبي ﷺ قوله: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

ونزلت الآيات لتكون دلالتها وعظًا للمؤمنين في كُلِّ زمان ومكان، وبيانًا لما يجب أن يكونوا عليه من يقين بأن من كان عدوا لله وللرسول فهو عدو للمسلمين..

ولكنها معصية متأوَّلة من حاطب، ولكن لن يُقْبَل تأويلُها من غيره، لأن غيرَه - على مَرِّ الزمان - لن يكون من أهل بدر حتى يُقبَل منه اعتذار.

ولذلك نزلت الآيات خطابًا عامًا للمؤمنين، فكانت العِبْرةُ فيها بعموم اللفظ لا بخُصوص السَّبَب، وكان من الآيات قولُه تعالى خطابًا للمؤمنين بعامة، لا لحاطب فحسب..

---

(١) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٧٨٥، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٥٠.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

والمعنى: لن تنفعكم قراباتُكم ولا أولادُكم الذين تُوالون من أجلهم أعداءكم؛ إشفاقًا على الرَّحم والولد، وتُلْقون إلى هؤلاء الأعداء بالمودَّة لأجلهم مراعاة لهم وحبًّا فيهم.

فإن الكُفْرَ يقطع الأنساب، ويُورث العداوةَ بين الأهل والأقارب والأصحاب، فإذا كان يوم القيامة - يوم الفصل - يُقْضى بينكم وبين أقاربكم وأولادكم، ويُحكم بينكم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾(٢).

والله مُطَّلِعٌ وبصيرٌ بكُلِّ ما تعملونه، فيجازيكم على أعمالكم.

فلم تصبح القضيةُ قضيةَ حاطب بن بلتعة وما فعل؛ وإنما أصبحت - بنزول القرآن - قضيةَ إيمان بالله ورسوله، وما يقتضيه ذلك من ضوابط وحدود

ومن ذلك ما تحمله بداية الآية الأولى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾(٣).

وقد قُدِّمت عداوةُ الله ليُعْلَم أن عداوة المؤمنين تَبَعٌ لعداوة الله، فمن عادى الله وَجَبَ على المؤمنين أن يُعادوه.

وقد أُمروا بإعداد العُدَّة لا لِنَصر أهواء، ولكن لنُصْرَة الله، وفي ذلك ما فيه من نَصْرٍ وعَدْلٍ لحقوق الخَلْق جميعًا.

---

(١) الممتحنة: ٣ .
(٢) عبس: ٣٤، ٣٥.
(٣) الممتحنة: ١.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١).

فعداوة المؤمنين لا تأتى دائمًا إلاَّ تَبَعاً لعداوة الله، فمَنْ عادى الله عودي، ومن نَصَرَ الله نُصِرَ، ولا يكون نَصْرُ الحق والعدل، وتحقيق السلام والبِّر بين الخَلْق، إلاَّ بالعمل على نَصْر الله، وصِدْق الاستجابة لمَا دعَا الخَلْقَ إليه ووَصَّاهم به، ويحاسبهم عليه.

وذاك هو اتباع الصراط المستقيم، الذي لا يكون سَلامٌ إلاَّ به، ولا يتحقق أمان إلاَّ بالإخلاص له.

الجيش الإسلامي يتحرك صَوْب مكة:

ثُمَّ مضى رسولُ الله ﷺ وهو صائم والناس صيامٌ، حتى إذا كانوا بالكُديْد، وهو الذي تُسمِّيه الناسُ اليوم قُديْداً، أفطر وأفْطر الناس معه، كما ذكره البخاري من حديث ابن عباس(٢).

ثُمَّ مضى حتى نزل مَرَّ الظَهْران ومعه عشرةُ آلاف، وعَمَّى الله الأخبارَ عن قريش، فهُمْ على وَجَلٍ وارتقاب.

وكان أبو سفيان يخرج يتجسّسُ الأخبار، فخرج هو وحكيم بن حزام، وبُديلُ بن ورقاء يتجسَّسون الأخبار، فَلَقيَ رسولَ الله بالجُحْفَة.

وكان ممَّن لقيَه في الطريق ابنُ عَمِّه أبُو سفيان بن الحارث، وعبدالله بن أبى أُميَّة، لقياه بالأبواء، وهما ابن عمِّه وابن عمَّته.

فأعرض عنهما لمَا كان يلقاه منهما من شدَّة الأذَى والهَجْو.

فقالت له أمُّ سَلَمَة: لا يكُن ابنُ عمِّك وابنُ عمّتك أشقى الناس بك،

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٤١.

وقال عليٌّ لأبي سفيان بن الحارث ابن عمِّه - فيما حكاه أبو عمر -:

ائت رسول الله ﷺ من قِبَل وجهه، فقل له ما قال أخوةُ يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(١) فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أَحْسَنَ منه قولاً.

ففعل ذلك أبو سفيان - وهو ابن عمِّ الرسول ﷺ، وكان شديد العداوة له ولأصحابه - قال:

ما وصَّاه به عليٌّ رضي الله عنه، فأجاب الرسول ﷺ بقول الله ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٢).

فأنشد أبو سفيان أبياتًا وكان شاعرًا:

لَعَمْرك إنِّي حين أحمل رايةً ... لتغلبَ خَيْلُ اللاتِ خيلَ مُحَمَّد

لَكَالمُدْلج الحيرانِ أظْلَمَ ليلُه ... فهذا أواني حين أُهدى فأهتدي

هداني هادٍ غيرُ نفسي ودَلَّني ... على الله من طرَّدتُ كُلَّ مطرَّد

فضرب رسولُ الله ﷺ صَدْرَه، وقال: أنتَ طَرَّدتني كُلَّ مطرَّد(٣).

ويُقال: إن أبا سفيان بن الحارث ما رفع رأسَه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياءً منه، وكان رسول الله ﷺ يُحبُّه، وشهد له بالجنة، وقال: «أرجو أن يكون خَلَفاً من حمزة».

ولما حضرته الوفاة: قال: لا تبكوا عليَّ، فوالله ما تنطقت بخطيئة منذ أسلمتُ.

(١) يوسف: ٩١.
(٢) يوسف: ٩٢ .
(٣) المستدرك على الصحيحين: ٣/٤٦.

فلما نزل رسول الله ﷺ على مَرِّ الظَّهْران نزله عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران.

فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، وركب العبَّاسُ بغْلةَ رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمسُ لعلَّه يجد بعضَ الحطَّابة، أو أحداً يُخْبر قريشًا ليخرجوا يستأمنون رسولَ الله ﷺ قبل أن يدخلها عَنْوةً.

قال: والله إني لأسير عليها، إذ سمعتُ كلام أبى سفيان، وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول:

ما رأيت كالليلة نيرانا قطُّ ولا عسكرًا.

قال: يقولُ بُديل: هذه واللهِ نار خُزَاعَة حَمَشَتْها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خُزَاعَة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانَها وعسكرَها.

قال: فعرفت صوتَه. فقلت: أبا حَنْظَلة. فعرف صوتي. فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك فداك أبى وأُمِّى؟

قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في الناس، وا صَبَاح قريش والله.

قال: فما الحيلة، فداك أبى وأُمِّي؟

قلت: والله لئن ظَفِر بك ليضْربنَّ عُنُقَك، فاركب في عَجْزِ هذه البغلة حتى آتيَ بك رسول الله فأستأمنَه لك.

فركب خلفي ورجع صاحباه.

قال: فجئتُ به، فكُلَّما مررت به على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته.

حتى مررتُ بنار عمر بن الخطاب، فقال: مَنْ هذا؟ وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيان على عَجُز الدابة قال:

أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ثُمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة، فسَبَقتْ، فاقتحمْتُ عن البغلة، فدخلتُ على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال:

يا رسول الله؛ هذا أبو سفيان، فدعني أضربْ عُنُقّه.

قال: قلتُ: يا رسول الله إني قد أجرتُه.

ثُمَّ جلستُ إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلتُ:

والله لا يناجيه الليلةَ أحدٌ دوني، فلما أكثر عمرُ في شأنه قلت:

مهلاً يا عمر، فوالله، لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قُلتَ مثل هذا.

قال: مهلاً يا عباس فوالله، لإسلامُك كان أحبَّ إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلاَّ أنى قد عرفتُ أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عبَّاس إلى رَحْلك، فإذا أصبحت فأتني به.

فذهبتُ فلما أصبحتُ غدوتُ به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلاَّ الله؟».

قال: بأبى أنت وأُمِّى، ما أَحْلَمَك وما أكرمك وأوصلك، لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟

قال: بأبى أنت وأُمِّى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمَّا هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً.

فقال له العباسُ: ويْحَك أسْلِم، واشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضْرب عُنُقُك.

فأَسْلَمَ وشهد شهادة الحق.

فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفَخَرَ، فاجعل له شيئًا.

قال: نعم، مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

اطلاع أبي سفيان على قوة المسلمين:

وقد أمر النبي ﷺ العباسَ أن يُحبس أبو سفيان بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل، حتى تَمُرَّ به جنود الله فيراها، ففعل.

فمرَّت القبائل على راياتها، كُلمَّا مرَّتْ به قبيلةٌ قال: يا عبَّاس، من هذه؟ فأقول: سُلَيْم، قال: فيقول: مالي ولِسُلَيم. ثُمَّ تمر به القبيلة، فيقول: يا عبَّاس، من هؤلاء؟ فأقول: مُزَيْنة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمرُّ به قبيلة إلاَّ سألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: مالي ولبنى فلان.

حتى مَرَّ به رسولُ الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرَى إلاَّ الحَدَق من الحديد.

قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟

قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة.

ثُمَّ قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيمًا

قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النُّبوَّة.

قال: فنعم إذاً.

قال: قلت: النَّجاء إلى قومك. وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مَرَّ بأبي سفيان قال له:

اليوم يومُ الملحمة، اليومَ تُستَحَلَّ الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً.

فلما حاذَى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمعْ ما قال سعد؟

قال: وما قال؟

فقال: كذا وكذا.

فقال عثمان وعبدالرحمن بن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صَوْلَة.

فقال رسول الله ﷺ: «بل اليومَ يومٌ تُعَظَّمُ فيه الكعبة، اليوم يومٌ أعزَّ اللهُ فيه قريشًا».

ثُمَّ أرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه.

قال أبو عمر: وروى أن النبي ﷺ لما نزع منه الراية دفعها إلى الزبير.

رجوع أبي سفيان إلى مكة:

ومضى أبو سفيان حتى إذا دخل قريشًا نادى بأعلى صوته:

«يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن».

فقامت إليه هندُ بنتُ عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتُلُوا الحَميت الدَّسم، الأحْمَشَ السَّاقين، قُبِّحَ من طليعة قوم.

قال: ويلكم لا تَغُرنَّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به. مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن.

قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنَّا دارُك؟

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فتفرَّق الناسُ إلى دورهم وإلى المسجد.

دخول النبي ﷺ مكة:

أمر رسولُ الله ﷺ خَالدَ بن الوليد أن يدخُلها من أسفلها، وكان على المجَنِّبة اليمنى، وفيها أسلم وسليم وغفار وجُهينَة وقبائل من قبائل العرب.

وكان أبو عبيدة على الرجَّلة والحُسَّر، وهم الذين لا سلاح معهم.

وقال لخالد ومَنْ معه: إن عرض لكم أحَدٌ من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى تُوَافُوني على الصَّفا، فما عرض لهم أحدٌ إلاَّ أنامُوه.

ودخلت كتائب الجيش الإسلامي مكة حيث أمرهم رسول الله ﷺ ودخل هو «من أعلاها من كَداء»(١).

دخل مكة ﷺ وهو راكب ناقته منكساً رأسه، حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله؛ تواضعاً لله، وشكراً له على نعمائه، فلما بلغ الحجون(٢). أمر ﷺ أن تُضرب له قُبّة.

وتَجَمَّع سفهاءُ قريش وأخفَّاؤها مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميَّة وسُهيل بن عمرو بالخَنْدَمة لِيُقَاتِلُوا المسلمين.

*****

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ، وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الأُخْرَى، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الحُسَّرِ، فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ.

---

(١) كداء: جبل بأعلى مكة.

(٢) الحجون: مكان بأعلى مكة بالقرب من مقبرتها.

قَالَ: فَنَظَرَ فَرَآنِي، فَقَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه. فَقَالَ: لا يَأْتِينِي إِلاَّ أَنْصَارِيٌّ، زَادَ غَيْرُ شَيْبَانَ، فَقَالَ: اهْتِفْ لِي بِالأَنْصَارِ قَالَ: فَأَطَافُوا بِهِ، وَوَبَّشَتْ (١) قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا وَأَتْبَاعًا، فَقَالُوا: نُقَدِّمُ هَؤُلاءِ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ، وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ، ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى، ثُمَّ قَالَ: حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا. قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلاَّ قَتَلَهُ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا...»(٢).

الرسول ﷺ يحطم الأصنام:

ثُمَّ نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفَه وحولَه، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثُمَّ طاف بالبيت وفي يده قوسٌ، وحول البيت وعليه ثلاث مئة وستون صَنَماً، فجعل يطعَنُها بالقوس ويقول: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾(٣).

﴿**قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴾(٤).

والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافُه ﷺ على راحلته، ولم يكن مُحْرِمًا يومئذٍ، فاقتصر على الطواف، فلمَّا أكملَه، دعا عثمانَ بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها فَفُتِحت، فدخلها فرأى فيها الصُّور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال ﷺ: «قاتلهم الله، والله ما استَقْسما بالأزلام قط».

---

(١) وبَّشَت: أي جمعت.

(٢) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٣١.

(٣) الإسراء: ٨١.

(٤) سبأ: ٤٩

ثُمَّ أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجِدار الذي يُقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدرُ ثلاثةِ أذرع، وقف وصلَّى هناك ثُمَّ دار في البيت، وكبَّر في نواحيه، ووحَّد الله، ثُمَّ فتح الباب.

ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صَنَماً إلاَّ كَسَّره.

لا تثريب عليكم اليوم:

كانت قريش قد ملأت المسجد صُفُوفاً ينتظرون ماذا يُصنع بهم، فأخذ ﷺ بِعَضَادتي الباب وهم تحته، فقال:

«لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، صَدَقَ وعدَّه، ونَصَرَ عبدَه، وهَزَمَ الأحزاب وحدَه، ألا كلُّ مأثُرَة أو مال أو دم فهو تحت قدميَّ هاتين، إلاَّ سِدانةَ البيت وسِقَايَة الحاج، ألا وقتْلُ الخطأ شبهُ العمد السوط والعصا، ففيه الدِّيةُ مُغلَّظةً، مئة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية وتَعظُّمَها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب

ثُمَّ تلا هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(١).

ثُمَّ قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعلٌ بكم؟

قالوا: خيرا، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم.

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته: **﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**(٢).

اذهبوا فأنتم الطُّلقَاء».

---

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) يوسف: ٩٢.

مفتاح الكعبة إلى أهله:

ثُمَّ جلس ﷺ في المسجد، فقام إليه عليٌّ رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده.

فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحِجَابَة مع السقاية - صلى الله عليك.

فقال رسول الله ﷺ: «أين عُثْمانُ بنُ طلحة؟».

فَدُعيَ له. فقال له: «هاك مِفْتَاحُك يا عثمان، اليوم يومُ بِرٍّ ووفاء».

وذكر ابن سعد في [الطبقات] عن عُثمان بن طلحة قال:

كنَّا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فَأقبل رسول الله ﷺ يوماً يريدُ أن يَدْخل الكعبة مع الناس، فأغلظتُ له، ونِلْتُ منه، فَحلَم عنى ثُمَّ قال:

«يا عُثمانُ، لعلَّك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعُه حيث شئت» فقلت: لقد هلكت قريشٌ يومئذٍ وذَلَّت

فقال: «بل عَمَرتْ وعَزَّت يومئذ».

ودخل الكعبة، فوقعت كلمتُه منى موقعًا ظننتُ يومئذٍ أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال.

فلما كان يوم الفتح، قال: يا عثمان، ائتني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه منى، ثُمَّ دفعه إلىَّ، وقال: خذوها خالدةً تالدةً، لا ينزعها منكم إلاَّ ظالمٌ.

يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

قال: فلما ولَّيْتُ ناداني، فرجعتُ إليه. فقال:

ألم يكنْ الذي قلتُ لك؟ قال: فذَكَر قوله لي بمكة قبل الهجرة: «ولعلك سترى هذا المفتاح بيدي أَضَعُه حيثُ شئت» فقلت: بلى، أشْهدُ أنَّك رسول الله.

وذكر سعيد بن المسيِّب أن العبَّاس تطاولَ يومئذٍ لأخذ المفتاح في رجال من بني هاشم، فردَّه رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة.

بلال يؤذن على ظهر الكعبة:

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يَصْعَد فيؤذِّن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعَتَّابُ بنُ أسيد، والحارثُ بن هشام، وأشراف قريش جلوسٌ بفِناء الكعبة، فقال عتَّاب: لقد أكرم الله أُسيداً، ألاَّ يكون سمع هذا، فيسمَعَ منه ما يُغيِظُه.

فقال الحارثُ: أما والله لو أعلم أنه حَقٌّ لاتبعتُه.

فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمتُ لأخْبَرَت عنِّى هذه الحصباءُ.

فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: قد علمتُ الذي قُلْتُم، ثُمَّ ذكر ذلك لهم.

فقال الحارثُ وعتَّاب: نشهد أنك رسولُ الله، والله ما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك.

ثُمَّ دخل رسولُ الله ﷺ دارَ أمِّ هانئ بنت أبى طالب فاغتسل، وصلى ثمانى ركعات في بيتها، وكانت ضحىً فَظَنَّها مَنْ ظنَّها صلاةَ الضحى، وإنما هي صلاةُ الفتح وكان أُمراءُ الإسلام إذا فتحوا حِصناً أو بلداً، صلَّوا عقيبَ الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله ﷺ.

وفي القصة ما يدُلُّ على أنها بسبب الفتح شُكراً لله عليه، فإنها قالت: ما رأيتُه صلاها قبلها ولا بعدها.

وأجارت أُمُّ هانئ حَمَوَيْن لها، فقال لها رسول الله ﷺ: «قد أجرْنا مَنْ أجرتِ يا أمَّ هانئ»[1].

---

(١) البخاري – كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٤٤، كتاب الجزية والموادعة، حديث رقم ٢٩٣٥، مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١١٧٩.

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين:

ولما استقرَّ الفتحُ أمَّنَ رسول الله ﷺ الناسَ كلَّهم إلاَّ تسعة نفر، فإنَّه أمر بقتلهم وإن وُجِدُوا تحت أستار الكعبة، وهم:

عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح، وعكرمة بن أبى جهل، وعبدالعزَّى بن خَطَل، والحارثُ بن نُفَيل بن وهب، ومَقِيس بن صُبَابة، وهبَّار بن الأسود، وقَيْنَتان لابن خَطَل كانتا تُغنِّيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارةُ مولاةٌ لبعض بنى عبدالمطلب.

فأمَّا ابن أبى سرح فَأسلم، فجاء به عثمان بن عفان رضي الله عنه فاستأمن له الرسول ﷺ، فَقَبِلَ من بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك، وهاجر، ثُمَّ ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمةُ بن أبى جهل، فاستأمَنَت له امرأتُه بعد أن فَرَّ، فأمَّنه النبي ﷺ فقَدِم وأسلم وحَسُنَ إسلامُه.

وأما ابن خطل، والحارث، ومَقِيس، وإحدى القينتين فقُتلوا.

وأما هبَّار بن الأسود، فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، فَفَرّ، ثُمَّ أسلم وحسُن إسلامه.

واستؤمن رسول الله لسارة ولإحدى القينتَيْن، فأمَّنها فأسلمتا.

فلما كان الغدُ من يوم الفتح، قام رسول الله في الناس خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ومجَّده بما هو أهلُه، ثُمَّ قال:

«إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، لا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، ولا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا

سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»(١).

ولما فتح الله مكة على رسوله ﷺ وهي بلدهُ ووطنُه ومولدُه، قال الأنصار فيما بينهم:

أترون رسولَ الله ﷺ إذْ فتح الله عليه أرضَه وبلدَه، أن يُقيم بها؟ وهو يدعو على الصَّفا رافِعاً يديه

فلما فرغ من دُعَائه قال: ماذا قُلتُم؟

قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتَّى أخبروه

فقال رسول الله ﷺ: معاذَ الله، المحيا محياكُم، والمماتُ مماتكم(٢).

محاولتان فاشلتان لقتل النبي ﷺ:

* **المحاولة الأولى:**

كان حِمَاسُ بنُ قيس بنُ خالد، أخو بنى بكر يُعِدُّ سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ فقالت له امرأتُه: لماذا تُعدُّ ما أرى؟

قال: لمحمد وأصحابه.

قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيءٌ.

قال: إنِّي والله، لأرجو أن أُخْدمك بعضهم، ثُمَّ قال:

إنْ يُقْبِلُوا اليوم فما لي علة هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّة(٣).

وذُو غِرَارَيْن(٤) سريع السَّلَّة

يصف بذلك سلاحَه الذي أعدَّه.

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٥٧، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤١٣.
(٢) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٣١.
(٣) الألَّة: الحرْبَه لها سِنان طويل. (٤) ذو غِرارَين: سيف ذو حدَّين.

ثُمَّ شهد الخَنْدمة مع صفوان وعكرمة وسُهيل بن عمرو، فلمَّا لقيهم المسلمون، ناوشوهم شيئاً من قتال.

فقُتِل كُرز بن جابر الفهري، وخُنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين، وكانا في خيل خالد بن الوليد، فشَذَّ عنه، فسلَكا طريقاً غير طريقه فَقُتِلا جميعًا.

وأُصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلا، ثُمَّ انهزموا، وانهزم حِمَاسُ صاحب السلاح حتى دخل بيتَه، فقال لامرأته: أغلقي عَلَيَّ بابي.

فقالت: وأين ما كنت تقول؟

فقال:

إنك لو شَهِدت يوم الخَنْدمة ... إذَّ فرَّ صفوانُ وفرَّ عكرمة

واسْتَقْبَلتْنا بالسيوف المسلمة ... يَقْطعن كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمة

ضرباً فلا نسمعُ إلاَّ غَمْغَمة ... لهم نهيتٌ حَوْلنا وهَمْهَمة

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

*** المحاولة الثانية:**

وهَمَّ «فضالةُ بن الملوَّح» أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال له رسول الله ﷺ: أفضَالة؟

قال: نعم فضالة يا رسول الله.

قال: ماذا كنتَ تحدثُ به نفْسَك؟

قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله.

فَضَحِك النبي ﷺ ثُمَّ قال: اسْتغْفرِ الله. ثُمَّ وضع يده على صدره، فسكن قلبُه.

وكان فضالة يقول: والله ما رفع يَدَه عن صَدْري حتى ما خلق الله شيئا أحبَّ إليَّ منه.

قال فضالة: فرجعتُ إلى أهلي، فمررت بامرأة كنتُ أتحدثُ إليها.

فقالت: هَلُمَّ إلى الحديث.

فقلت: لا، وانبعث فُضَالةُ يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلتُ لا — يأبى عليك اللهُ والإسلام

لو قَدْ رأيت محمداً وقبيلَه — بالفتح يوم تُكسَّرُ الأصنام

لرأيت دينَ الله أضحى بيِّنًا — والشرك يَغْشَى وجْهَه الإظلام

إسلام صفوان بن أُميّة:

وفَرَّ يومئذٍ صفوان بن أُميَّة وعكرمةُ بن أبى جهل.

فأمَّا صفوان فاستأمن له عميرُ بن وهب الجُمحَى رسولَ الله ﷺ فأمَّنه وأعطاه عِمَامتَه التي دخل بها مكة، فلحقه عميرُ وهو يريد أن يركب البحر فَرَدَّه فقال: اجعلني فيه بالخيار شهرين، فقال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر.

وكانت أُمُّ حكيم بنت الحارث تحت عكرمة بن أبى جهل، فأسلمت واستأمنت له رسول الله ﷺ، فأمَّنه فلحقت به باليمن فأمَّنته فَرَدَّته، وأقَّرهما رسول الله ﷺ هو وصفوان على نكاحهما الأول.

السرايا والبعوث بعد الفتح:

لما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح، بعث خالد بن الوليد إلى «العزَّى» لخَمْس ليال بقين من شهر رمضان ليهدمها، فخرج إليها في ثلاثين فارسًا من أصحابه، حتى انتهوا إليها فهدمها.

ثُمَّ بعث عمرو بن العاص إلى «سُواع» وهو صنم لهُذيل ليهدمه.

قال عمرو: فانتهيتُ إليه وعنده السَّادن[1] فقال: ما تُريد؟

قلتُ: أمرني رسولُ الله ﷺ أن أهدمه

فقال: لا تقدر على ذلك.

قلت: لِمَ؟

قال: تُمنع.

قلت: حتى الآن أنت على الباطل! ويحك هل يسمع أو يُبصر؟

قال: فدنوت منه فكسَّرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئًا، ثُمَّ قُلتُ للسَّادن: كيف رأيتَ؟ قال: أسلمتُ لله.

ثُمَّ بعث سعد بن زيد الأشهل إلى «مناة» وكانت بالمشَلَّل عند قُديد للأوس والخزرج وغسَّان وغيرهم، فخرج في عشرين فارسًا حتى انتهي إليها وعندها سادن، فقال السَّادن: ما تريدُ؟ قلتُ: هَدْمَ مَنَاة: قال أنت وذاك.

فأقبل سعد يمشى إليها، وتخرجُ إليه امرأةٌ عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرَها، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فكسروه، ولم يجدوا في خزانته شيئًا.

*****

(١) السَّادن: خادم الكعبة وبيتِ الأصنام.

غزوة حُنَيْن

في شوال سنة ٨ هـ

وكانت في غزوة حُنَيْن[١] دروسٌ يجب أن تُذكر، نحاول أن نقف عند بعضها، لنرى دلالتها فيما نحن بصدده في رؤية ما تَمَّ بعد الفتح الأعظم، فتح مكة.

لقد كانت وقائع فيها تجارب، وفيها آيات أُنزلت، فبقى عطاؤها ممتداً وإن مضت الأحداثُ، نجملها فيما يلي:

سبب الغزوة:

قال ابن إسحاق:

لَمَّا سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالكُ ابنُ عوف النَّصْري، واجتمع إليه مع هوازن ثقيفٌ كلُّها، واجتمعت إليه مُضر وجُشَم كلُّها، وسعدُ بن بكر وناس من بنى هلال، وفي جُشَم «دُرَيْد بن الصِّمة» شيخ كبير ليس فيه إلاَّ رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعا مجرِّبا.

مسير العدو ونزوله بأوطاس[٢]:

اجتمعت هوازنُ بما جمعت، وأجْمعتِ السَّيرَ إلى رسول الله ﷺ بعدما علمت بفتح مكة، وكان على رأسها مالك بن عوف النَّصْري، الذي ذكرنا ما صار إليه، وما أكرمه الله به من إسلام وصُحبة وجهاد.

وكان من شأنه - حين أعدَّ ما أعدَّ لحرب الرسول ﷺ وأجمع السَّيرَ إليه - أن ساق مع الناس أموالَهم ونساءهم وأبناءَهم.

لَمَّا نزل بأَوْطاسٍ اجتمع إليه الناسُ، وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمَّة

فلمَّا نزل قال: بأيِّ وادٍ أنتم؟

---

(١) حُنَيْن: واد قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً.

(٢) أوطاس: واد في ديار هوازن.

قالوا: بأوطاس.

قال - والكلام لدُريد -: نِعْمَ مجال الخيل؛ لا حَزْنٌ ضَرِسٌ، ولا سهلٌ دهْسٌ، مالي أسمع رُغاء البعير، ونهاقَ الحمير، وبكاءَ الصبيِّ، ويَعارُ الشاء[1]؟!

قالوا: ساق مالكٌ بن عوف مع الناس نساءَهم وأبناءَهم وأموالَهم.

قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة: أين مالِك؟

قيل: هذا مالكٌ، ودُعِيَ له.

قال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيسَ قومك، وإنَّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما ليَ أسمع رُغاء البعير، ونهاقَ الحمير، وبكاءَ الصبيِّ، ويَعارَ[1] الشاء؟!

قال مالك: سُقتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالَهم.

قال دُريدُ: وَلِمَ؟

قال: أردتُ أن أجعل خلفَ كُلِّ رجُلٍ أهلَه ومالَه ليقاتلَ عنهم.

قال دُريدُ لمالك: راعى ضأنٍ والله. وهل يَرُدَّ المنْهَزِمَ شيءٌ؟! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجلٌ بسيفه ورُمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك.

ثُمَّ قال: ما فَعَلَتْ كعبٌ وكلاب؟ قالوا: لم يشْهدْها أحدٌ منهم.

قال: غابَ الحدُّ والجِدُّ[2] لو كان يومُ علاءٍ ورِفعةٍ لم يغبْ عنه كعبٌ وكلابٌ، ولوددتُ أنكم فعلتم ما فعلت كعبٌ وكلابٌ.

الرسول ﷺ يستعير أدرعاً من صفوان:

لَمَا أجمع رسولُ الله ﷺ السيرَ إلى هوازن؛ ذُكرَ له أن عند صفوان بن أُمَيَّة أدْراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه - وهو يومئذٍ مشركٌ - فقال: يا أبا أُمَيَّة، أعِرْنا سلاحَك هذا، نلقى فيه عدوَّنا غداً.

---

(١) يَعارُ الشاء: أي صياحها. (٢) غابَ الحدُّ والجِدُّ: أي النشاطُ والسرعةُ والمضاءُ في الأمور.

فقال صفوان: أَغَصْباً يا محمد؟

قال ﷺ: بل عاريةٌ مضمونةٌ حتى نؤديها إليك.

فقال: ليس بهذا بأسٌ، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السِّلاح.

فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملَها ففعل.

الجولة الأولى من المعركة:

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرَّق كمناءه في الطرق والمداخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وكان رسول الله ﷺ قد خرج إلى حنين في اثني عشر ألفًا، واستعمل ﷺ عَتَّاب بن أُسيدٍ على مكة أميراً، ثُمَّ مضى يريد لقاء هوازن

قال ابنُ إسحاق: حدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة، عن عبدالرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبدالله قال:

لما استقْبَلْنَا وادي حُنينٍ، انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامَة أجوفَ حَطُوطٍ[1] إنما ننحدرُ فيها انحداراً.

قال: وفي عَمايةِ الصُبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شِعَابِه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدُّوا، فوالله ما رَاعَنَا - ونحنُ منحطُّون - إلاَّ الكتائب قد شدُّوا علينا شدَّة رجل واحد.

وانشمر الناس راجعين، لا يلوى أحدٌ منهم على أحدٍ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثُمَّ قال: إليَّ أيها الناس؟ هَلُمَّ إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله.

---

(١) حَطُوط: أي منحدرٍ.

وبقى مع رسول الله ﷺ نَفَرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمَن ثَبتَ معه من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، ومن أهل بيته: عليٌّ والعبَّاس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل بن العبَّاس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن أُمِّ أَيْمَن، وقُتِلَ يومئذٍ.

قال ابنُ إسحاق:

ولمَّا انهزَمَ المسلمون، ورأى مَن كان مع رسول الله ﷺ من جُفاة أهل مكة الهزيمة، تكلَّم رجالٌ منهم بما في أنفسهم من الضِّغْن.

فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتُهم دون البحر، وإنَّ الأزلام لَمَعَهُ في كِنانَتِهِ.

وصَرَخَ كِلدةُ بن الحنْبل: ألا بَطَل السِّحرُ اليومَ.

فقال له صفوانُ أخوه لأُمِّه - وكان بعدُ مشركًا -: اسكُتّ، فضَّ اللهُ فَاكَ، فوالله لأنْ يَرُبَّني رجلٌ من قريشٍ أحبَّ إلىَّ من أن يَرُبَّني رجلٌ من هوازن.

الجولة الثانية من المعركة:

قال ابنُ إسحاق: حدثني الزهْري عن كُثير بن العبَّاس، عن أبيه العبَّاس بن عبدالمطلب قال:

إني لَمَعَ رسول الله ﷺ آخذٌ بحَكَمَةِ بغلتِهِ البيضاء، قد شجرتها - وكنت امرءاً جسيمًا شديدَ الصَّوْتِ - قال رسول الله ﷺ رأى ما رأى من الناس: «إلى أين أيُّها الناس؟!».

قال: فلم أرَ الناسَ يلْوون على شيءٍ.

فقال يا عبَّاس: أُصرُخ: يا معشر الأنصار، يا معشرَ أصحابِ السَّمُرة.

فأجابوا: لبيك.. لبيك.

قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يَقدرُ على ذلك، فيأخذ درعه فيقذُفها في عُنُقه، ويأخذ سيفَه وقوسَه وتُرْسَه، ويقتحمُ عن بعيره، ويُخَلّي سبيلَه، ويَؤُمُّ الصوتَ حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة، استقبلوا الناس، فاقتتلوا، فكانت الدَّعوة أول ما كانت: يا معشر الأنصار، ثُمَّ خلُصتْ آخراً: يا لَلْخَزرج.

وكانوا صُبُراً عند الحرب، فأشْرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظرَ إلى مجتلَد القوم وهم يجتلدون، فقال: الآن حَمِيَ الوطِيسُ، وزاد غيره: أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ.

وفي صحيح مسلم: «ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَيَات، فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّد. قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِه فِيمَا أَرَى. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِه، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا»[1].

وفي لفظ له: «إنه نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَة، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ. فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلاَّ مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ»[2].

ما كان من شيبةَ بن عثمان الحَجَبيّ:

قال ابن إسحاق:

لَمَّا كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة. قلت: أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحُنَيْنٍ، فعسى إن اختلطوا أن أُصيبَ من محمد غِرَّة فأثأرَ منه، فأكونُ

(١) معنى حدهَّم كليلاً: حدٌّ كليل: لا يَقطع، وطَرْفٌ كليل: لا يحقق النظر، والحديث أخرجه مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٢٤.

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٢٨.

أنا الذي قمتُ بثأر قريش كلِّها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحدٌ إلاَّ اتبع محمداً ما تبعْتُهُ أبداً، وكنت مرصِدًا لَمَا خرجت له، لا يزدادُ الأمر في نفسي إلاَّ قوةً.

فلما اختلط الناسُ، اقتحم رسولُ الله ﷺ عن بغْلَتِه، فأصْلَتَ السيفَ فدنوتُ أريدُ ما أريدُ منه، ورفعت سيفي حتى كدتُ أُشعره إيَّاه، فرُفِع لي شُواظٌ من نارٍ كالبرْق كاد يمْحَشُنى، فوضعتُ يدي على بصري خوفًا عليه، فالتفت إلَيَّ رسولُ الله ﷺ فناداني: يا شَبِيبُ، ادْنُ منِّى، فدنوت منه، فمَسَحَ صدْري، ثُمَّ قال: «اللهم أعِذْه من الشيطان».

قال: فوالله لَهُوَ كان - ساعَتَئذٍ - أحبَّ إلَيَّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذْهَبَ الله ما كان في نفسي.

ثُمَّ قال: ادْنُ، فقاتِل، فتقدمت أمامه أضربُ بسيفي، الله يعلم أنى أُحِبُّ أن أقيَه بنفسي كُلَّ شيءٍ.

ولو لقيتُ تلك الساعة أبى - لو كان حَيَّاً - لأوْقَعْتُ به السَّيْف، فجعلتُ ألزمُه فيمن لزِمَهُ، حتى تراجع المسلمون فكرُّوا كرَّة رجلٍ واحدٍ.

وقُرِّبتْ بغلةُ رسول الله ﷺ فاستوى عليها، وخرج في أثرهم، حتى تفرَّقوا في كلِّ وجْهٍ، ورجع إلى معسكرِه، فدخل خِباءه، فدخلت عليه - ما دخل عليه أحدٌ غيري - حُبَّاً لرؤيةِ وجهه وسُرورًا به، فقال: «يا شبيبُ، الذي أراد الله بك خيرٌ مما أردْتَ لنفْسِك».

ثُمَّ حدَّثني بكل ما أضمرتُ في نفسي، ما لم أكُنْ أذكُره لأحدٍ قط.

قال: فقلت: أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسول الله، ثُمَّ قلتُ: استغفرْ لي. فقال: غفرَ الله لك.

حركة المطاردة:

ولمَّا انهزم المشركون، أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعَسْكَرَ بعضُهم بأَوْطَاس، وتوجَّه بعضُهم نحو نخلة، فبعث رسولُ الله ﷺ في آثار من توجَّه قِبَل أوطاسٍ أبا عامر الأشعري، فأدرك من الناس بعضَ من انهزم، فناوَشُوه القتال، فرُمِيَ بسهمٍ، فَقُتِلَ، فأخذ الرايةَ أبو موسى الأشعري - وهو ابنُ أخيه - فقاتَلهم، ففتح الله عليه فهزمهم الله، وقَتَل قاتلَ أبى عامر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لعُبيد أبى عامر وأهلَه، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك» واستغفرَ لأبى موسى، ومضى مالكُ بن عوف حتى تحصنَ بحصن ثقيف.

ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتُكم:

اقتضت حكمة الله تعالى أن أذاق المسلمين - أولاً - مرارَة الهزيمة والكَسْرة - مع كثرة عددهم وعُدَدهم وقوة شوكتهم - ليُطَامِن رؤوساً رُفعَتْ بالفتح ولم تدخل بلدَه وحرَمه، كما دَخَله رسولُ الله ﷺ واضعًا رأسَه مُنْحَنياً على فرسه، حتى إنَّ ذقْنَه تَكَادُ تَمَسُّ سَرْجَه تواضُعاً لربِّه وخضوعًا لعظمته واستكانةً لعزّته أنْ أحَلَّ له حرمَه وبَلَدَه، ولم يحلَّ لأحد قبله، ولا لأحدٍ بعده.

وليُبَيِّنَ - سبحانه - لِمَن قال: «لن نُغْلَب اليوم عن قِلَّة» أنَّ النَّصْر إنَّما هو من عند الله، وأنَّه من ينصُرُه فلا غالب له، ومن يَخْذُله فلا ناصر له غيره.

وأنه - سبحانه - هو الذي تولَّى نَصْرَ رسوله ودينَه، لا كثرتُكم التي أعجبتكم، فإنَّها لم تُغْنِ عنكم شيئاً، فوليتم مُدبرين.

فلمَّا انكسرت قلوبُهم، أُرسِلَتْ إليها خِلَعُ الجَبْر مع بريد النَّصْر، فأنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها.

وقد اقتضت حكمتُه أنَّ خِلَعَ النَّصْر وجوائزَه، إنما تفيض على أهل الانكسار.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

لم تكن هذه الآيات مجرد إخبار عمَّا وقع في غزوة حُنَيْن فحسب، وإنَّما كانت - بنزولها وحفظها في الذكر الحكيم - حديثًا للخَلْق جميعًا إلى يوم الدين، ليَعْرف مَن يؤمن بربِّه كيف يَرْجُو فوزَه ونصرَه، ويطلب عفْوَه ومَغْفِرتَه

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

والمعنى: لقد نصركم الله - أيها المؤمنون - في مواقع كثيرة، خُضتم فيها معاركَ مع أهل الشرك، كبَدْر وقُريظة والنضير والحديبية وخَيْبَر ومكة، وذلك لأنكم نَصَرتُموهُ بصِدْق جهادكم، فهيأ لكم ثِمارَ النَّصْر وفاءً بوعده الكريم في قوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾[3].

وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾ أي: ونَصَركم الله يومَ حُنَيْن مع أنَّكم قَصَّرتُم فيه، إذ أعجبتكم كثرتُكم، فتراخَيْتُم في القتال اعتماداً عليها، فلم تُفِدكم هذه الكثرة شيئًا في دَفْع العدو،

---

(١) القصص: ٥، ٦.
(٢) التوبة: ٢٥، ٢٧.
(٣) آل عمران: ١٦٠.
(٤) محمد: ٧.

وضاقت عليكم الأرضُ مع اتِّساعها من شدَّة الرُّعب والفَزَع، فقد خُيِّل إليكم أن رحابها أُغلقت في وجوهكم، فلا تجدون فيها موضعًا تطمئنون فيه وتثبتون.

نُصرتم بذلك، كمن ضاقت عليهم الأرضُ مع اتِّسَاعها، فلا يجدون فيها مكاناً يَسَعُهم، ثُمَّ انصرفتم من وجه العدو متقهقرين.

*****

إنَّ ما حدث في هذه الغزوة كان دَرْساً استفاد منه المسلمون، فلم تُسمع منهم - من بعد في جهادهم - هذه الكلمة الخاطئة «لن نُغلب اليوم من قلَّة» إعجاباً بقوتهم وكثرتهم.

بل كانت وصاياهم وأعمالُهم دالَّةً على رُشدهم، وأنَّ نَصْرَهم إنَّما يكون بانتصار الفضائل في أنفسهم.

وإنَّما تَكْثُر الجنودُ بالنَّصْر، وتَقِلُّ بالخُذْلان لا بَعَدَد الرجال..

نعم: تعلَّموا الدرسَ في حُنَيْن، وجاء الوحيُ ليذكرهم ومَن جاء بعدهم أن يكونوا على حَذَر من المعاصي فإن «ذنوب الجُند أخوفُ عليهم من عدوِّهم، وما لم ننتصر على أعدائنا بفضلنا، لم نستطع أن نغلبهم بقوتنا»

نسأل الله العَوْنَ على أنفسنا، كما نسأله النَّصْر على أعدائنا.

ولذا فإنَّ ما أنزل الله في غزوة حُنَيْن من قرآن يُتْلَى على مرِّ الزمان، لا يُخاطب الناسَ بحَدَث مضَى وانقضى، وإنَّما يُخاطبهم بسُنَنٍ باقية، وإن كانت في أحداث واقعة ذاهبة، فإن رؤيتَها في وقائع وأحداث أبلغُ أثراً وأعظم شأناً، وأبقى عِظَةً وتذكرةً.

ومن أجل ذلك حُفظ الذِّكرُ بحِفْظ الله، لا بحفظ أحدٍ سواه، فمن طلب نصرَه فَلْيَنْصُره في نفسه: قولاً وعملاً وقصدا، وليذكُر - وهو يتلو هذه الآيات - أن للَّه جنداً يُرسلهم وسكينةً يُنزلها لنَصْر مَن أخلص قَصْدَه، وحسن عمله.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

جاء في الصحيحين أن رجلاً قال لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: «أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَفِرَّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ - وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ - وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»(٢).

هكذا كان الثَّباتُ لِمَن ثَبَتَ مع رسول الله ﷺ حتى جاء النَّصْر، وخذل العدو.

وكان ممَّن ثَبَتَ ثباتاً يُحبُّه الله: أبو سفيان بن الحارث ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وكان من أشدِّ الناس عداءً له قبل إسلامه.

وقد ذكر ابنُ إسحاق ما كان عليه حال المسلمين بعد ثباتهم، قال: واجْتَلَدَ الناسُ، فوالله ما رجَعَتْ راجعةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ.

قال: والتَفَتَ رسولُ الله إلى أبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب - وكان ممَّن صَبَرَ يومئذٍ مع رسول الله ﷺ، وكان حَسَنَ الإسلام حين أسلم - وهو آخذٌ بثغر بغلته، فقال: من هذا؟ قال: أنا ابن أمِّك يا رسول الله.

غزوة حنين في بيان السنة المطهرة:

روى مسلم عن العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ:

«شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٥٢، كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٧٥، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٢٧.

أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ.

قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ.

فَقَالَ عَبَّاسٌ - وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا -: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللَّهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ. قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ. قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ.

قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَيَاتٍ، فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ: قَالَ انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ.

قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا»[1].

وروى مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا، فَكَانَ مَعَهَا، فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ.

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذَا الْخِنْجَرُ؟

قَالَت: اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ.

قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ.

---

(١) مسلم - كتاب الجهاد والسير، رقم ٣٣٢٤.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ)[١].

وواضحٌ أنَّ أمَّ سُليم لم تكن راضيةً عن فرار من فَرَّ، وطلبت عقابهم، فقال لها الرسول ﷺ: «إنَّ الله قد كَفَي وأَحْسَن».

وفي الحديث المتفق عليه عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ، بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ.

قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمِّ، مَنْ رَمَاكَ؟

فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي، فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ، فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى، فَاتَّبَعْتُهُ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: أَلاَ تَسْتَحْيِي؟ أَلا تَثْبُتُ؟ فَكَفَّ فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لأَبِي عَامِرٍ: قَتَلَ اللَّهُ صَاحِبَكَ. قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ، فَنَزَعْتُهُ، فَنَزَا مِنْهُ الْمَاءُ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَقْرِئِ النَّبِيَّ ﷺ السَّلاَمَ، وَقُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي.

وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ، فَمَكُثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ، وَقَالَ: قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي

فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ. وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ.

فَقُلْتُ: وَلِي، فَاسْتَغْفِرْ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيمًا. قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: إِحْدَاهُمَا لأَبِي عَامِرٍ وَالأُخْرَى لأَبِي مُوسَى»[٢].

*****

---

(١) مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٧٤.

(٢) البخاري كتاب المغازي - حديث رقم ٣٩٧٩، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٥٤.

غزوة الطائف

في شوال سنة ٨ هـ

تُعدُّ هذه الغزوة - في الحقيقة - امتداداً لغزوة حنين، وذلك أن معظم فُلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام «مالك بن عوف النصري» وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين.

وحاصرهم رسول الله ﷺ مدة غير قليلة، ففي رواية أنس رضي الله عنه عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف ذلك، فقيل: عشرين يوماً، وقيل: ثمانية عشر، وقيل خمسة عشر.

روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

«لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ، فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَيْئًا، قَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: نَذْهَبُ وَلا نَفْتَحُهُ، وَقَالَ مَرَّةً: نَقْفُلُ.

فَقَالَ: اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ، فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ.

فَقَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَأَعْجَبَهُمْ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ»(١).

ولما طال الحصار واستعصى الحصنُ، استشار رسولُ الله ﷺ نَوْفَلَ بن معاوية الدِّيلي، فقال: ما ترى؟ فقال ثعلبٌ في جحر، إن أقمتَ عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

فأمر رسولُ الله ﷺ ابنَ الخطاب، فأذَّن في الناس بالرحيل، فضجَّ الناسُ من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟!

فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال».

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٨١، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٢٩.

فَغَدوا، فأصابت المسلمين جراحاتٌ فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك.

فلما ارتحلوا واستَقَلُّوا قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»

وقيل: يا رسول الله ادْعُ الله على ثقيف فقال: «اللهم اهْد ثقيفاً، وائت بهم»

وقد استجاب الله دعاءه، وقدم مَنْ قدم إلى المدينة، بعد عودة الرسول ﷺ من تَبُوك في رمضان، وقد هدى الله كثيراً منهم.

وقد روى أبو داوود، عَنْ وَهْبٍ قَالَ: «سَأَلْتُ جَابِرًا عَنْ شَأْنِ ثَقِيفٍ إِذْ بَايَعَتْ. قَالَ: اشْتَرَطَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لا صَدَقَةَ عَلَيْهَا ولا جِهَادَ، وَأَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ - بَعْدَ ذَلِكَ - يَقُولُ: سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا»(١).

قسمة الغنائم بالجعرانة:

ثمَّ أمَرَ رسولُ الله ﷺ بالسَّبْي والغنائم أن تُجمع، فجُمع ذلك كُلُّه، ووجّهُوه إلى الجِعرانة، وكان السَّبْيُ ستةَ آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أوقية فضة.

فاسْتَأْنَى بهم رسول الله ﷺ أن يقدُموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة، ثُمَّ بدأ بالأموال فقسَّمها، وأعطى المؤلفة قلوبُهم أوَّلَ الناس، فأعطى سفيانَ بن حرب أربعين أُوقية ومئة من الإبل، فقال ابني يزيد، قال: أعْطُوه أربعين أُوقية ومئة من الإبل، فقال: ابني معاوية، قال: أعْطُوه أربعين أُوقية ومئة من الإبل.

وأعطى حكيم بنَ حَزام مئة من الإبل، ثُمَّ سأله مئة أُخرى فأعطاه.

وأعطى النَّضْرَ بن الحارث بن كِلْدةَ مئة من الإبل.

وأعطى العلاءَ بن حارثة الثقفي خمسينَ، وذكر أصحاب المئة وأصحاب الخمسين.

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الخراج والإمارة والفيء، حديث رقم ٢٦٣٠.

وأعطى العبَّاس بن مرداسٍ أربعين، فقال في ذلك شِعْراً، فكمَّلَ له المئة.

ثُمَّ أمر زيدَ بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس، ثُمَّ فضَّها على الناس فكانت سهامهم لكل رَجُلٍ أربعًا من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومئة شاة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، وقَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ.

قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ..

وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ منها شيء!

قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي.

قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ.

قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الحَظِيرَةِ.

قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا له، أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ.

فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟

أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!

قَالُوا: بَلِى. اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ.

قَالَ: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار؟

قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّه، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟

قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاك، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ.

أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار - فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ.

أَلا تَرْضَوْنَ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار - أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَار.

وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَار شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَار.

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَار.

قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلوا لحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا.

ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا»(١).

---

(١) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٣٠٥، مجمع الزوائد ٢٩/١٠.

كعب بن زُهير يلتقي برسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق:

ولما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، كتب بُجَيْر بن زهير إلى أخيه كعب يُخبره أنَّ رسول الله قَتَلَ رجالاً بمكة ممَّن كان يَهْجُوه ويؤذيه، وأنَّ مَن بَقِيَ من شعراء قريش قد هربوا في كُلِّ وَجْه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فَطِرِ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً مسلماً، وإنّ أنت لم تفعل فانج إلى نجائك ودار بين كعب وأخيه بُجير حوارٌ قالا فيه شعراً.

وكان آخر ما كتبه بُجير إلى أخيه كعب شعراً، قال فيه:

مَنْ مُبْلِغٌ كَعباً فهلْ لَكَ في التي ... تَلُومُ عليها باطِلاً وهي أحْزَمُ

إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحْدَه ... فَتَنْجُوا إذا كان النَّجاءُ وتَسْلَمُ

لَدَى يومَ لا يَنْجُو ولَيْسَ بِمُفْلِتٍ ... من النَّاس إلاَّ طاهرُ القلبِ مُسْلِمُ

فدينُ زُهَيرٍ وهو لا شيءَ دينُهُ ... ودينُ أبى سُلْمى علىَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعبًا الكتابُ، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به مَن كان في حاضِره من عدُوِّه، فقال: هو مقتول.

فلما لم يجد من شيء بُدَّاً، قال قصيدته التي يمدح فيها رسولَ الله ﷺ، وذكر خَوْفه وإرجافَ الوشاة من عدوّه

ثُمَّ خرج حتى قدم المدينة المُنَوَّرَة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفةٌ من جُهينة، فغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلَّى الصبحَ، فصلَّى مع رسول الله ﷺ ثُمَّ أشار إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسولُ الله ﷺ فقم إليه فاستأمِنْه

فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسولُ الله ﷺ لا يعرفُه، فقال: يا رسول الله، إنَّ كعبَ بن زهير قد جاء لِيَسْتأمنك تائباً مُسْلماً، فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول الله ﷺ: نعم.

قال: أنا يا رسولَ الله كعبُ بن زهير.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب على رجل من الأنصار، فقال: يا رسولَ الله، دَعْني وعدوّ الله، اضرب عُنقَه.

فقال رسول الله ﷺ: «دَعهُ عنك، فقد جاء تائباً نادماً عَمَّا كان منه».

قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لَما صَنَعَ صاحبُهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجلٌ من المهاجرين إلاَّ بخير.

فقال قصيدته اللاميَّة التي يصف فيها محبوبته وناقته التي أولها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبُول   متيَّمٌ إثْرها لم يُفْدَ مكبولُ

يَسْعَى الغواة جَنَابَيْها وقولُهم   إنَّك يا ابن أبى سُلمى لمقتولُ

والتي جاء فيها:

فقلتُ خَلُّوا طريقي لا أبا لكُمُ   فكُلُّ ما قدَّر الرحمن مفعولُ

كلُّ ابن أنثى وإن طَالتْ سلامتُه   يوماً على آلةٍ حَدْباء محمُولُ

نُبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمولُ

وكعبُ بن زهير - كما هو معلوم - من فحول الشعراء هو وأبوه وابنُه عقبة وابن ابنه العوَّام بن عقبة.

لو كنتُ أعجبُ من شيء لأعْجبن   سعيُ الفَتَى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ

يَسْعَى الفتى لأمورٍ ليس يُدْركها   فالنَّفسُ واحدةٌ والهمٌّ منتَشِرُ

والمرء ما عاش مَمْدود له أمل   لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

ومما يُستحسن لكعب قولُه:

أسلم زهير، فهنيئا له بما أسلم.

وكفاه فخراً أن يُسلم ويُمناه في كَفِّ رسول الله ﷺ:

حتى وضَعْتُ يميني ما أُنازِعُها　　　في كفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قولُه القِيلُ

والمراد به النبي ﷺ.

*****

غزوة تبوك

في رجب سنة ٩ هـ

سبب الغزوة:

وكان السبب في هذه الغزوة ما ذكره ابن سعد وغيره، فقد قالوا:

بلغ النبي ﷺ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة، وأجلبت معهم لخم وجذام، وغيرهم من متنصرة العرب، فندب النبي ﷺ إلى الخروج لغزو الروم.

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثُمَّ أمر الناس بالتهيؤ لغَزْو الروم.

وذلك في زمان عُسْرة الناس، وشدة من الحر، وجدْب من البلاد، وحين طابت الثمار، والنَّاس يُحبون المُقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشُخُوص على الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَى عنها، وأخبر أنه يريدُ غير الوجه الذي يقصد له، إلاَّ ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس؛ لبُعْد الشُّقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصْمد له؛ ليتأهَّب الناس لذلك أُهبته.

ومنهم مَن يقول ائذن لي ولا تفتني:

قال رسول الله ﷺ ذات يوم - وهو في جَهَازه - للجّدِّ بن قيس أحدِ بنى سلمة: «يا جَدُّ، هل لك العامَ في جِلاد بنى الأصفر؟»

فقال: يا رسول الله، أوَتأذَنُ لي ولا تَفْتنِّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عُجْباً بالنساء منِّى، وإني أخشى إن رأيتُ نساءَ بنى الأصفر أن لا أصبر.

فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ، وقال: قد أذِنْتُ لك.

ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(١).

وقال قوم من المنافقين بعُضهم لبعض: لا تَنْفِروا في الحَرِّ.

فأنزل الله فيهم: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(٢).

ولنا أن نقف هنا وقفةً لنرى تباين مواقف الناس مع الشدائد، ونُبْصِر كيف تكونُ العواقب.

وأمامَنا الآن غزوةُ تَبُوك، وما أنزل الله فيها من قرآن، وما كان للرسول ﷺ فيها من بيان.

وذلك يستوجب أن نرى الأمورَ بنتائجها، ونُبْصرَ الشدائدَ في عواقبها، فإننا - كثيراً - ما نرى أنَّ العقبات أنفع للإنسان من الوَثَبَات؛ لأنها تُعين على مراجعة النفس، وجَعْلها تثبت مع الحق حيث كان.

ومَنْ تدبَّر العواقبَ، وعَرَف قَدْرها، أَيْقَنَ يقيناً - لا شَكَّ فيه - أنَّ الحَقَّ لا يمكن أن يُهْزَم أبداً، فإنَّ العاقبة له ولِمَن اعتصَمَ به، فأناب إلى الله وثبت على تقواه.

ولنا أنْ نأخذ الزَّاد الذي نتزوَّد به ونحن نتدبر ما أنزل الله في هذه الغزوة من آيات.

وهي تُحدِّد لنا النتائجَ، وتذكر العواقب لكُلِّ عمل ساءَ أو حَسُنَ، في عاجل قبل أن نراه وافياً في اليوم الآخر.

كانت هذه الغزوة، غزوة تبوك كمَا عَرفنا السَنَة التاسعة من الهجرة، في العام الذي تزاحمت فيه الواجبات من بُعوث ووفود، واتَّسعت وامتدت المسافات

---

(١) التوبة: ٤٩ . (٢) التوبة:٨١.

فَمَهْمَا وصَفْنَا في أمْر الشدائد وأداء الواجبات، فإنَّ الأمرَ أكبر من كُلِّ وَصْف، وأكثر من كُلِّ عَدٍّ، وكُلُّ ذلك يُؤدَّى دون تَوَقُّف.

ومنه نعلم كيف أدرك الصَّفْوة من الخَلْق حكمة خَلْقهم، وغاية وُجودهم، ونُدرك ما قامت به المدينة المُنَوَّرَة - في شتَّى الجبهات - من أعمال، وكيف أُعدَّ الرجال الذين أوْفَدَتهم، ليكونوا طلائع حضارة صادقة للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويُخطئ مَن يظُنُّ أنَّ حضارةً مَا - في أيِّ زمن ما - يُمكن أنْ تستغني عن الإرشاد بما جرى مع هؤلاء، وما تمَّ على أيديهم، وما كانوا عليه من صِدْق الإيمان وبِرِّ اليقين، حتى استطاعوا أن يفتحوا للقيَم والأخلاق فَتْحاً كانوا فيه مَثَلاً صادقاً للناس، وهم يَرَوْنَ سُنَنَ الله فيما جرى لهم أو وقع بهم، دون مُحاباة لهم إنْ كانوا مُصيبين أو مخطئين.

فإن القرآن الكريم - الذي حُفظ بحفظ الله - لم يُحفَظْ لهم وحدَهم، وإنَّما حُفظ للعالمين.

فلا عجبَ أن يُحاسَبَ مَن يُؤمن به بميزان الله على كُلِّ تقصير أو تقاعد، دون مُبالغة أو تهوين، حتى يستقرَّ عند الناس - أجمعين - أنَّ الحسابَ للناس ربَّمَا يكون على ما فعلوه في أنفسهم، قبل أنْ يكون على ما فعله فيهم الآخرون.

وفي آيات كثيرة يُخاطَب المؤمنون بما يُعرِّفهم بذلك؛ حتى يكونوا على ثقة أنَّ ما يُلاقونه - في أيِّ موقف كان - إنما هو من عند أنفسهم، قبل أن يكون من كَيْد الآخرين.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وعندما تجمَّعوا في المدينة المُنَوَّرَة، وهم على فِقْهٍ بذلك، كانوا أُسْوَةً للمجاهدين الراشدين الفاتحين.

---

(١) الشورى: ٣٠.

وكانوا يطلبون من الله العَوْنَ على أنفسهم، قبل أن يَسَألوه النَّصْرَ على عدوِّهم. وكان زادُهم يستمدُونَه من وحي ربِّهم، وهم يُدَوُّونَ بالقرآن - إذا جَنَّ الليلُ - كدَوِّي النَّحْل.

ويتعلمون أن لا شيء من أمرهم يمكن أن يُصلح أو يُفيد بغير إخلاص لله وصِدْق يقين.

وكان جماعُ أمرهم ما اشتملت عليه هذه الآية الجامعة التي جعلتهم موحِّدين بالله في جميع أمرهم موحَّدِين غير متفرقين:

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وهم يرون دَلالتها - قولاً وعملاً وخُلُقاً - فيمن يقُودهم في كُلِّ شَأن لمرضات الله ربِّ العالمين. صلى الله عليه، وعلى آله وصَحْبه، ومَن اهتدى بهُداه إلى يوم الدين.

وقد كانت غزوة تبُوك - بما أُنزِلَ فيها - بياناً لتفاوت الناس وتباينهم، فكان لابُدَّ من إدراك ما اشتملت عليه من واقع عمليٍّ في آيات تُتْلى على الناس إلى يوم الدين **﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**(٢).

كانت الغزوة - كما عرفنا - في زمن عُسْرة من الناس، وكان الرسول ﷺ قَلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها، وورَّى بغيرها، إلاَّ ما كان من غزوة تبُوك؛ لبُعْد الشُّقَّة، وشدَّة الزمان.

من هُنا رأينَا مَن اعتذَرَ بفتنة نساءٍ أو شدَّة حَرٍّ، والأمر - في الحالين - يُنبئ عمَّا تُضمره القلوبُ وما تُشْغَلُ به النفوسُ؛ فإنَّ الحَرَّ - الذي يُخشى منه -

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) الأنفال: ٤٢.

سيأتي ما هو أشدُّ منه، وإنَّ الفتنة التي يُعتذر بها، قد سَقَطَ فيها من زَعَمَ أنَّه يتوقَّاها.

ومن هُنا يُعرَف أنَّ ما في هذه السورة من بيان، يجب ألاَّ تغيب التَّبْصرةُ به في كُلِّ شأن، وهي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم، على أرجح الأقوال.

وهي سورة قد نزلت في المُنَوَّرَة باتِّفاق، إلاَّ ما قيل عن الآيتين الأخيرتين، وآياتها: مئة وتسع وعشرون.

وآياتها دالة على ما اشتملت عليه، ولها أكثر من اسم:

«التوبة»: وكفاها أن تُسَمَّى بذلك للآيتين ١١٧، ١١٨ .

«براءَة»: لافتتاحها بتلك الكلمة **﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**[1].

«الفاضحة»: لأنها فَضَحَت المنافقين، وكَشَفَت وجوهَهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

قال ابن عباس: «التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلاَّ ذُكِرَ فِيهَا»[2].

«المُبَعْثِرة»: لأنَّها تُبَعْثِرُ أسرارَ المنافقين وتكشفها.

«المُقَشْقِشَة»: لأنها تُبرئ المؤمنَ، فتخلي قلبَه من النفاق.

«البَحُوث»: لأنها تبحث عن نفاق المنافقين.

عثمان بن عفان ونفقته في سبيل الله:

أمَرَ الرسول ﷺ بالجهاز، وحضَّ أهلَ الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله، فحمل رجالٌ من أهل الغنى واحتسبوا.

---

(١) التوبة: ١.

(٢) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٠٣، مسلم - كتاب التفسير، حديث رقم ٥٣٥٩.

وأنفق عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك نفقةً عظيمةً لم يُنْفق أحدٌ مثلَها كانت ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها وعُدَّتها، وألف دينار عيناً.

أخرج الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ:

«جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ. قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، يُرَدِّدُهَا مِرَارًا»[1].

تولوا وأعينهم تفيض من الدمع:

وأرسل أبو موسى أصحابَه إلى رسول الله ﷺ ليحملهم، فوافاه وهو غضبان، فقال: والله ما أحملكم، ولا أجدُ ما أحملكم عليه.

ثُمَّ أتاه إبل، فأرسل إليهم ثُمَّ قال ﷺ:

مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ، بَلِ اللَّهُ حَمَلَكُمْ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ[2].

وجاء في الحديث المتَّفق عليه عن أبى موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«أَرْسَلَنِي أَصْحَابِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ الْحُمْلانَ لَهُمْ إِذْ هُمْ مَعَهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ، وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ أَصْحَابِي أَرْسَلُونِي إِلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ، لا أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ غَضْبَانُ ولا أَشْعُرُ، وَرَجَعْتُ حَزِينًا مِنْ مَنْعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ مَخَافَةِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبَرْتُهُمِ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ أَلْبَثْ إِلاَّ سُوَيْعَةً

---

(١) أحمد - مسند البصريين، حديث رقم ١٩٧١٣، الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٣٤، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) البخاري - كتاب الأيمان والنذور، حديث رقم ٦١٣٣، مسلم - كتاب الأيمان، حديث رقم ٣١٠٩.

إِذْ سَمِعْتُ بلالاً يُنَادِي: أَيْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، فَأَجَبْتُهُ، فَقَالَ: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوكَ.

فَلَمَّا أَتَيْتُهُ قَالَ: خُذْ هَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ وَهَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ لِسِتَّةِ أَبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينَئِذٍ مِنْ سَعْدٍ، فَانْطَلِقْ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ، أَوْ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلاءِ فَارْكَبُوهُنَّ.

فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِمْ بِهِنَّ فَقُلْتُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلاءِ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لا أَدَعُكُمْ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَعِي بَعْضُكُمْ إِلَى مَنْ سَمِعَ مَقَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لا تَظُنُّوا أَنِّي حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا لَمْ يَقُلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ، إِنَّكَ عِنْدَنَا لَمُصَدَّقٌ وَلَنَفْعَلَنَّ مَا أَحْبَبْتَ

فَانْطَلَقَ أَبُو مُوسَى بِنَفَرٍ مِنْهُمْ حَتَّى أَتَوْا الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْعَهُ إِيَّاهُمْ، ثُمَّ إِعْطَاءَهُمْ بَعْدُ، فَحَدَّثُوهُمْ بِمِثْلِ مَا حَدَّثَهُمْ بِهِ أَبُو مُوسَى»[1].

وقد ذَكَرْتُ هذا الحديث لِمَا اشتمل عليه من موقفٍ لأبي موسى يجب أن يُذْكَر، وأن يُدْرَك ما فيه من حرصٍ على الحفاظ على كريم الصفات ومكارم الخلاق، لتبقى المودَّةُ صافيةً، والأُخُوَّةُ واثقةً راشدةً، وساحة النفوس بريئةً مُحَبَّبة

ما كان من علبة بن يزيد رضي الله عنه:

وجد بعض صحابة الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، وبعضُهم الآخر لم يجد الرسول ما يحملهم عليه، ولم يجدوا هم ما يحملون عليه أنفسَهم، فماذا صنعوا؟

فاسمع ما ورد في هذا الحديث الصحيح عن علبة بن يزيد، وهو ممَّن لم يجد الرسول له، ولم يجد هو لنفسه ما يُحمل عليه.

قام عُلْبَة بن زيد فَصلَّى من الليل وبكى وقال:

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٣، مسلم - كتاب الأيمان، حديث رقم ٣١١٠.

«اللهم إنك قد أمَرْتَ بالجهاد ورَغَبْت فيه، ثُمَّ لم تَجْعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل في يدِ رسولك ما يَحْمِلُني عليه، وإنِّي أتصدَّق على كل مسلم بِكُلِّ مَظْلمةً أصابني فيها من مالٍ أو جسد أو عِرْض»

ثُمَّ أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ:

أين المُتَصدِّق هذه الليلة؟

فلم يَقُم أحدٌ، ثُمَّ قال: أين المتصدِّق؟ فَلْيَقُم.

فقام إليه، فأخبره، فقال النبي ﷺ:

أبْشِر، فوالذي نَفْسُ محمد بيده، لقد كُتبتَ في الزكاةِ المتَقُبَّلة.

الرسول ﷺ يُخلف علياً على المدينة:

ولمَّا أراد رسولُ الله ﷺ الخروجَ خَلَّف عليَّ بن أبى طالب على أهله، فأرجفَ به المنافقون، وقالوا: ما خَلَّفَهُ إلاَّ استثقالاً له وتخففاً منه.

فأخذ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سلاحَه، ثُمَّ خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرْف، فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنَّك إنَّما خَلَّفتني لأنك استثقلتني وتخفَّفْتَ مني.

فقال ﷺ: كذبوا، ولكنّي خَلَّفْتُك لما تركت ورائي، فارجعْ فاخْلُفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارون وموسى.. إلاَّ أنَّه لا نبي بعدي؟[1].

فرجع عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى المدينة.

وقد أخرج البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟

قَالَ: أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي[1].

---

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤١٨.

(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٤.

شَأْنُ أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ رجع عليٌّ إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفرة، ثُمَّ إنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حَارٍّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه(١) قد رشَّت كُلٌّ واحدة منهما عريشاً، وبرَّدت له فيه ماءً، وهيَّات له فيه طعامًا

فلما دخل على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صَنَعَتا له، فقال: رسولُ الله ﷺ في الضَّحِّ(٢) وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسناء، في ماله مُقيم!! ما هذا بالنَّصف.

ثُمَّ قال: والله، لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فَهَيِّئا لي زاداً.

فَفَعَلَتا، ثُمَّ قدم ناضِحَهُ فارتحله، ثُمَّ خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبُوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُمَيْر بنُ وهب الجُمحى في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دَنَوا من تبُوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تَخَلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ فَفَعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بتبُوك؛ قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل.

فقال رسول الله ﷺ: كُنْ أبا خيثمة.

فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل، فسلَّم على رسول الله ﷺ.

---

(١) حائطه: أي بستانه.

(٢) في الضَّحِّ: أي في الشمس والريح والحرِّ.

فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» ومعناها - فيما قال المفسرون -: دَنَوْتَ من الهلكة.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً، واسمُه مالك بن قيس:

لما رأيتُ الناس في الدين نافقوا　　　أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكرما

النبي ﷺ والمسلمون في الحِجْر:

قال ابن إسحاق:

وقد كان رسول الله ﷺ بالحِجْر(١) نزلها، واستقى الناس من بئرها، فلما راحُوا قال رسول الله ﷺ:

لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عَجِينٍ عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجَنَّ أحدٌ منكم إلاَّ ومعه صاحب له فَفَعل الناسُ ذلك إلاَّ رجلين من بنى ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره.

فأمَّا الذي خرج لحاجته، فإنه خُنِقَ على مذهبه.

وأمَّا الذي ذهب في طلب بعيره، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ

فأُخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال:

ألَمْ أنهكُم ألا يخرج أحَدٌ منكم إلاَّ ومعه صاحبه؟!

ثُمَّ دعا للذي خُنق على مذهبه، فَشُفي.

وأما الآخر: فأهدته طيئ لرسول الله ﷺ حين قَدِمِ المدينة.

---

(١) الحجر: واد بين المدينة والشام، وأصحاب الحجر هم (ثمود) قوم صالح - عليه السلام.

والذي في صحيح مسلم من حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ:

«فَلَمَّا أَتَيْنَا تَبُوكَ قَالَ أَمَا إِنَّهَا سَتَهُبُّ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فلا يَقُومَنَّ أَحَدٌ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ بَعِيرٌ فَلْيَعْقِلْهُ، فَعَقَلْنَاهَا وَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَأَلْقَتْهُ بِجَبَلِ طَيِّءٍ...»[1].

قال ابن هشام: بلغني عن الزُّهري أنه قال:

لَّما مَرَّ رسول الله ﷺ بالحجر سجَّى ثوبه على وجهه واستحثَّ راحلته ثُمَّ قال:

لا تدخلوا بيوت الذين ظَلَموا أنفُسَهم إلاَّ وأنتم باكُون؛ خَوْفاً أن يصيبكم ما أصابهم.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ الْمُعَذَّبِينَ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فلا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ[2].

وفي صحيح البخاري: «أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه»[3].

قال ابن إسحاق:

وأصبح الناسُ ولا ماء معهم، فَشَكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

ناقة رسول الله ﷺ وحديث المنافقين:

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق، ضَلَّتْ ناقتُه، فقال زيدُ بنُ اللُّصَيْبِ - وكان منافقاً -:

---

(١) البخاري - كتاب الزكاة، حديث رقم ١٣٨٧.

(٢) البخاري - كتاب الصلاة، حديث رقم ٤١٥، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٢٩، ٣١٣٠، كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٨، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٣٣٣.

(٣) البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٢٧.

أليس يَزْعُمُ أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ: إن رَجُلا يقول: وذكر مقالته، وإني - والله - لا أعْلَمُ إلاَّ ما عَلَّمني الله، وقد دَلَّني الله عليها، وهي في الوادي في شِعْب كذا وكذا، وقد حَبَسَتها شَجرةٌ بِزِمامها، فانطَلِقُوا حتى تأتوني بها. فذهبوا فأتَوا بها.

شأن أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقصة وفاته:

ثُمَّ مضى رسولُ الله ﷺ فجعل يتخلَّف عنه الرجلُ فيقول ﷺ:

دَعُوهُ، فإن يَكُ فيه خيرٌ فَسَيُلحِقُه الله بكم، وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

حتى قيل: يا رسول الله، قد تَخَلَّف أبو ذر وأبطأ به بعيرُه.

فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فَسَيُلْحِقُه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتَلَوَّ على أبى ذر بعيرُه فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره، ثُمَّ خرج يتبعُ أثرَ رسول الله ﷺ ماشيًا.

ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسولَ الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كُنْ أبَا ذَرٍ.

فلمَّا تأمله القومُ قالوا: يا رسول الله، والله هو أبو ذر.

فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشى وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعثُ وحده»(١).

وذكر أبو حاتم بن حبان في صحيحه وغيرُه، في قصة وفاة أبى ذر عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر عن أبيه، عن أُمِّ ذَرٍّ قالت:

---

(١) الثقات: ٢/٩٤.

لما حَضَرَتْ أبا ذرٍّ الوفاةُ بكيتُ، فقال: ما يُبكيك؟

فقلت: ما لي لا أبكي وأنت تموتُ بفَلاة من الأرض، وليس عندي ثوبٌ يَسَعُك كفناً، ولا يُدانُ لي في تَغَيُّبك؟!

قال: أبشري ولا تبكي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لِنَفَرٍ أنا فيهم: «ليمُوتَنَّ رجلٌ منكم بفَلاةٍ من الأرض، يشهده عصابةٌ من المؤمنين» وليس أحدُ من أولئك النفر إلاَّ وقد مات في قريةٍ وجماعةٍ، فأنا ذلك الرجل، فوالله ما كَذَبْتُ ولا كُذبت، فأبصري الطريق.

فقلتُ: أنَّى وقد ذهب الحاجُّ وتَقَطَّعت الطُّرق؟!

فقال: اذهبي فَتَبَصَّري.

قالت: فكُنْتُ أُسْنِدّ إلى الكَثيب أتَبَصَّر، ثُمَّ أرجع فأُمرضه، فبينا أنا وهو كذلك، إذ أنا برجالٍ على رحالهم كأنهم الرَّخَمُ[1] تَجُبُّ بهم رواحِلُهُم

قالت: فأشرتُ إليهم، فأسرعوا إليَّ حتى وقفوا عليَّ فقالوا: يا أمةّ الله مالَكِ؟

قلتُ: امرُؤٌ من المسلمين يموتُ، تُكفِّنونه؟

قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذر، قالوا: صاحبُ رسول الله ﷺ؟

قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفرٍ أنا فيهم: ليمُوتَنَّ رجلٌ منكم بِفَلاةٍ من الأرض، يَشْهدُه عصابةٌ من المؤمنين.

وليس من أولئك النفر رجل إلاَّ وقد هلك في جماعة، والله ما كَذبتٌ ولا كُذبت.

---

(١) الرَّخَمُ: نوع من الطير.

إنه لو كان عندي ثوبٌ يَسَعُنِي كفناً لي أو لامرأتي، لم أكَفَّن إلاَّ في ثوب هو لي أو لَها.

فإني أُنشدكم اللّه أن لا يُكَفَّنني رجلٌ كان أميراً أو عَرِيفاً أو بريداً أو نقيبًا

وليس من أولئك النفر أحدٌ إلاَّ وقد قارف بعض ما قال، إلاَّ فتىً من الأنصار قال: أنا يا عَمُّ، أكفنُكَ في ردائي هذا، وفي ثوبين من عَيْبَتِي من غزل أُمِّي.

قال: أنت فكفِّني فَكَفَّنَه الأنصاري وقاموا عليه، ودفنوهُ في نفرٍ كلهم يمان(١).

تخذيل المنافقين للمسلمين وما نزل فيهم:

وقد كان رهط من المنافقين منهم: وديعةُ بن ثابت، أخو بنى عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سَلَمَة، يُقَال له مُخَشِّن بن حُمَيِّر، يُشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضُهم لبعض:

أتَحْسَبُون جلاد بنى الأصفر كجلاد العرب بعضهم بَعْضاً، والله لَكَأنا بكم غداً مقرَّنين في الحِبال، إرجافاً وترهيبا للمؤمنين.

فقال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: والله لوددتُ إني أقاضَى على أن يُضرَب كُلُّ رجل منا مئة جلدة، وإنا نَنْفَلِتُ أن ينزل فينا قرآنٌ لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله ﷺ لعمَّار بن ياسر:

أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فَسَلْهم عما قالوا، فإن أنكروا فَقُلْ: بل قلتم كذا وكذا.

فانطلق إليهم عَمَّارُ، فقال لهم ذلك، فأتوا رسولَ الله ﷺ يعتذرون إليه

فقال وديعةُ بن ثابت: كنا نخوضُ ونلعب.

---

(١) صحيح ابن حبان: ٥٨/١٥، المستدرك على الصحيحين ٣٨٨/٣.

فأنزل الله فيهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1].

فقال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبى، فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية، وتَسَمَّى عبدالرحمن، وسأل الله أن يُقْتَل شهيداً لا يُعْلَم بمكانه، فَقُتِل يوم اليمامة، فلم يُوجَد له أثرٌ.

أَمْرُ الماء في تبُوك:

ذكر ابن عائذ في مغازيه أنَّ رسول الله ﷺ نزل تبُوك في زمانٍ قَلَّ ماؤها فيه، فاغترف رسولُ الله ﷺ غَرْفَة بيده من ماء، فَمَضْمَضَ بها فاه، ثُمَّ بَصَقَهُ فيها، فَفَارتْ عَيْنُها حتى امتلأت، فهي كذلك حتى السَّاعة.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال قبل وصوله إليها:

«إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ، فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَنَا إِلَيْهَا رَجُلانِ - وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ - قَالَ: فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا؟ قَالا: نَعَمْ، فَسَبَّهُمَا النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُمَا: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ

قَالَ: ثُمَّ غَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، قَالَ: وَغَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا، فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، أَوْ قَالَ: غَزِيرٍ شَكَّ أَبُو عَلِيٍّ أَيُّهُمَا قَالَ، حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ، ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ يَا مُعَاذُ، إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَاهُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا»[2].

---

(١) التوبة: ٦٥، ٦٦.

(٢) مسلم - كتاب الفضائل، حديث رقم ٤٢٢٩.

وفاة ذي البِجادين رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق:

وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيمي، أنَّ عَبْدَ الله بن مسعود كان يحدِّث قال:

قُمْتُ من جَوْف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيتُ شُعْلَةً من نار في ناحية المعسكر، فاتبعتُها أنظُر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبدُ الله ذو البِجَادَين المزنىّ قَدْ مات، وإذا هم قد حَفَرُوا له، ورسول الله ﷺ في حُفرته، وأبو بكر وعمر يُدلِّيانه إليه، وهو يقول: أدْنيا إلىَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيت رَاضِياً عنه، فارض عنه»(١).

قال: يقول عبدالله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

قال ابن هشام: وإنما سُمِّى «ذا البِجَادين» لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك، ويُضيِّقون عليه، حتى تركوه في بِجَادٍ(٢) ليس عليه غيرُه.

فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريباً منه شَقَّ بِجادَه اثنين، فاتَّزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثُمَّ أتى رسول الله ﷺ فقيل له «ذو البجادين» لذلك.

---

(١) مجمع الزوائد: ٣٦٩/٩، وقال: رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي، وهو متروك، الأولياء ٣٣/١، حلية الأولياء ١٢٢/١، صفوة الصفوة ٦٧٩/١.

(٢) البِجَادُ: الكساء الغليظ الجافي، سُمي بذلك لأنه كان في حجر عمٍّ له يُنفق عليه ويكفله، فلما أراد الإسلام قال له عمُّه: لئن أسلمتَ لأنتزعَنَّ منك كُلَّ شيء صنعتُ إليك. فأبى إلاَّ أن يُسلم، فانتزع منه كُلَّ شيء صنعه به حتى إزار ورداء كانا عليه، فانطلق إلى أُمِّه مُجرَّداً، فقامت إلى بجاد لها من شعر أو صُوف، فقطعته اثنين، فأتزر بأحدهما، وارتدى بالآخر، فلما رآه النبي ﷺ في صلاة الصبح قال له: من أنت؟ قال: أنا عبد العزى - وكان اسمه - فقال له رسول الله ﷺ: بل أنت عبد الله ذو البجادين.

مَن حَبَسهم العُذْرُ:

وقال رسول الله ﷺ مرجعَه من غزوة تبُوك: «إنَّ بالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ولا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(١).

هذه المَعيَّةُ بقلوبهم وهممهم، لا كما يظنُّه طائفةٌ من الجُهَّال أنَّهم معهم بأبدانهم، فهذا محالٌ لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العُذْر».

فكانوا معه بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهي: القلب، واللسان، والمال، والبدن

وفي الحديث: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»(٢).

أمْرُ مسجد الضرار:

وأقبل رسول الله ﷺ من تبُوك حتى نزل بذي أوَان، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحاب مسجد الضِّرار أَتَوه وهو يتجهز إلى تبُوك، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية، وإنَّا نُحبُّ أن تأتينا فَتُصَلِّي لنا فيه.

فقال: إني على جناح سَفَر وحالِ شُغْل، ولو قدمنا - إن شاء الله - لأتيناكم فصَلَّينا لكم فيه.

فلمَّا نزل بذي أوان، جاءه خبرُ المسجد من السماء، فدعا مالكَ بن الدُّخْشُم، أخا بنى سَلَمَة بن عوف، ومَعْن بن عدى العجلاني فقال:

انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهْدماه وحرِّقاه.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٧١، مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٥٣٤.

(٢) النسائي - كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٤٥، أبو داود - كتاب الجهاد، حديث رقم ٢١٤٣، أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٧٩٨، الدارمي - كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٣٢٤.

فخرجا مُسْرِعَين، حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشم، فقال مالك لمَعْن:

أنْظِرني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي، ودخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً ثُمَّ خرجا يشتدَّان حتَّى دخلاهُ - وفيه أهله - فحرَّقاه، وهدماه، فتفرقوا عنه.

فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

الرجوع إلى المدينة:

لَمَّا دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناسُ لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يَقُلن:

طَلَعَ البَدْرُ علينا   من ثَنيَّات الوداع

طَلَعَ البَدْرُ علينا   ما دعَا للـه دَاع

وبعض الرواة يَهِمُ في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مَقْدمه إلى المدينة من مكة، وهو وَهْمٌ ظاهر؛ لأن «ثنيَّات الوداع» إنما هي من ناحية الشام، ولا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمرُّ بها إلاَّ إذا توجَّه إلى الشام.

فلما أشرف على المدينة قال: «هذه طَابَة، وهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»(٢).

---

(١) التوبة: ١٠٧.

(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٧٥، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٢٨.

المُخلَّفون عن الغزو:

ولَّما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فَصلَى فيه ركعتين، ثُمَّ جلس للناس، فجاءه المخلَّفون، فَطَفقُوا يعتذرون إليه، ويحلفون له.

وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ على نيَّتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووَكلَ سَرَائِرهم إلى الله.

وجاء كعبُ بن مالك، فلما سلَّم عليه تبسَّمَ تَبَسَّم المُغْضَب، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ

فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْه، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟!

فَقُلْتُ: بَلَى، إنِّي - وَاللَّه - لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِه بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً لَكِنِّي - وَاللَّه - لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِب تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيه، إنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ

لا وَاللَّه، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ.

وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّه مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ.

فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي

ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟

قَالُوا: نَعَمْ رَجُلانِ قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ. فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ.

فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟

قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ.

فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ

فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ.. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ.

وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَمْ لا؟

ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ، مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ.

فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟

فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ.

فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ:

مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ».

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ.

فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟

قَالَ: لا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلا تَقْرَبْهَا.

وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ.

قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟

قَالَ: لا، وَلَكِنْ لا يَقْرَبْكِ.

قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ.

فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ.

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلامِنَا.

فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ - قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ.

قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الْفَجْرِ

فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ - وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ - وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ.

قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي. وَاللَّهِ، مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ -: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ.

قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قَالَ: لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ.

قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ.

فَوَاللَّهِ، مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، مَا تَعَمَّدْتُ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا - كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: **﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**(١).

فَوَاللَّهِ، مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ - شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ

قَالَ تَعَالَى: **﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**(٢).

---

(١) التوبة: ١١٧، ١١٩ .

(٢) التوبة: ٩٥، ٩٦.

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ. فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[1].

*****

ذاك شان المخلَّفين عن غزوة تبوك، وتلك قصتهم، ومن أعظم الفوائد وأجلِّها من حديثهم ما رأيناه من نتائج الصِّدْق في جميع الأحوال:

- الصِّدْق مع النفس: فلا يخدعها ببريق عاجل.
- والصِّدْق مع الله: بالمداومة على التوبة والاستغفار.
- والصِّدْق مع الناس: فلا يكذبهم، ولا يكون غاشاً في النُّصح لهم.

إنَّ الصِّدْق طريقٌ إلى الجنة، كما جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[2].

وقد رأينا نتائجَ الصِّدْق مع كعب بن مالك وصاحبيه.

وقد قالها كعب لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، إنَّ الله إنَّما نجَّاني بالصِّدْق، وإن من توبتي ألاَّ أُحَدِّث إلاَّ صدقاً ما بقيت».

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٦، مسلم - كتاب التوبة، حديث رقم ٤٩٧٣.
(٢) البخاري - كتاب الأدب، حديث رقم ٥٦٢٩، مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٤٧١٩.

وقد جاء نداء الله لأهل الإيمان مُقترنًا بما يدلُّ على عِظَمِ قَدْره وبِرِّ نتائجه؛ ليكونوا – دَائماً – كما أمر الله، مع الصَّادقين.

وكفي لأيِّ متدبِّر أنْ يُخاطِب نَفْسه بنتائج الصِّدْق في حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المُطَهَّرَة، وهو يرى الأحداث والوقائع.

إنَّها تُرينا عِظَمَ مقدار الصِّدْق، فبه وعليه تتوقف النَّجاة، فما أنجى الله من أنجاه إلاَّ بالصِّدْق، ولا أهْلَكَ مَن أهْلَكَه إلاَّ بالكذب.

وقد أمر الله – سبحانه – عبادَ المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

وقسَّم – سبحانه – الخَلْقَ إلى قسمين: سُعداء، وأشقياء، فجعل السُّعداء هم أهل الصِّدْق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب

وهو تقسيم مُطَّرد، فالسعادة دائرة مع الصِّدْق والتصديق، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر – سبحانه – أنه لا ينفع العبادَ يوم القيامة إلاَّ صدقُهم.

وجعل عَلَمَ المنافقين – الذين تميَّزوا به – هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم فجميع ما نَعَاه عليهم أصلُه الكذب، الكذب في القول والفعل.

فالصِّدْق: بريدُ الإيمان ودليلُه ومَركَبُه وسائقُه وقائدُه وحِليَتُه ولباسُه، بل هو لُبُّه وروحُه.

والكذب: بريدُ الكُفر والنِّفاق ودليلُه ومركبُه وسائقه وقائده وحليته ولباسُه ولُبُّه.

فمضادّة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد.

---

(١) التوبة: ١١٩.

فلا يجتمع الكذب والإيمان إلاَّ ويَطْرُدُ أحدُهما صاحبَه ويستقرُّ موضِعَه.

والله - سبحانه - أنجى الثلاثةَ بصدقهم، وأهلَك غيرَهم - من المخلَّفين - بكذبهم.

فما أنْعَمَ الله على عبدٍ - بعد الإسلام - بنعمةٍ أفضل من الصِّدْق الذي هو غذاء الإنسان وحياته، ولا ابتلاه ببَليَّة أعظم من الكذب، الذي هو مرض الإنسان وفسادُه.

*****

وقوله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(١).

هذا من أعظم ما يُعرِّف العبدَ قَدْرَ التوبة وفضلَها عند الله، وإنَّها غاية كمال المؤمن، فإنه - سبحانه - أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات، بعد أن قضوا نَحْبَهم، وبذلوا نفوسَهم وأموالَهم وديارَهم لله.

وكان غاية أمرهم أنْ تاب الله عليهم.

ولهذا جعل النبيُّ ﷺ يوم توبة كعب خير يوم طَلَعَ عليه منذ ولدته أُمُّه إلى ذلك اليوم.

ولا يَعرفُ هذا - حَقَّ معرفته - إلاَّ من عَرَفَ الله، وعَرَفَ حقوقَه عليه، وعَرَفَ ما ينبغي له من عُبُودية، وعَرَفَ نفسَه وصفاتَها وأمثالَها، وأنَّ الذي قام به من العبودية - بالنسبة لحقِّ ربِّه عليه - كقَطْرَة في بَحْر.

هذا إذا سَلِمَ من الآفات الظاهرة والباطنة.

---

(١) التوبة: ١١٧.

فسبحان من لا يَسَعُ عبادَه غيرُ عَفْوه ومغفرته، وليس إلاَّ ذلك أو الهلاك.

فإنْ وَضَعَ عليهم عدلَه، فعذَّب أهلَ سماواته وأرضه، عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، وإنْ رحمهم فرحمتُه خيرٌ لهم من أعمالهم.

ولا يُنجي أحداً منهم عملُهُ.

وقد تكررت توبتُه عليهم - سبحانه - مرَّتين في أول الآية وآخرها، فإنَّه تاب عليهم - أولاً - بتوفيقهم للتوبة، فلمَّا تابوا تاب عليهم - ثانياً - بقَبولها منهم، وهو الذي وفَّقهم لِفعلها وتفضَّل عليهم بقَبولها.

فالخير كلُّه منِهُ، وبه، ولَهُ، وفي يديه يُعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمةً منه وعدلاً.

*****

حجُّ أبي بكر ﷺ

في ذي الحجة سنة ٩ هـ

قال ابنُ إسحاق:

ثُمَّ أقام رسولُ الله ﷺ مُنْصَرفه من تبُوك بقية رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثُمَّ بعث أبا بكر الصِّدِّيق أميراً على الحج سنةَ تسع؛ ليُقيم للمسلمين حجَّهم، والناسُ من أهل الشرك على منازلهم من حَجِّهم.

فخرج أبو بكر في ثلاث مئة رجل من المدينة، وبعثَ معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة، قَلَّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأسلمي، وساق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خمس بدنات.

قال ابن إسحاق: فنزلت «براءةُ» في نَقْض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه.

فخرج عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، ولحق بأبي بكر، فلما رآه أبو بكر قال: أميرٌ أو مأمور؟ قال: لا بل مأمور، ثُمَّ مضيا

فقال له أبو بكر: استَعْمَلَك رسول الله ﷺ على الحج؟

قال: لا، ولكن بعثني أقرأ «براءة» على الناس، وأنبُذ إلى كُلِّ ذي عهد عهدَه.

فأقام أبو بكر للناس حجَّهم، حتى إذا كان يومُ النحر، قام عليٌّ بن أبي طالب، فأذَّن في الناس عند الجمرة بالذي أمره رسولُ الله ﷺ ونَبَذَ إلى كُلِّ ذي عهد عهدَه.

وقال: يا أيُّها الناس، لا يدخل الجنةَ كافرٌ، ولا يَحُج بعد العام مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُريانٌ، ومن كان له عَهْد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مُدَّته.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ، فِي مُؤَذِّنِينَ يَوْمَ النَّحْرِ، نُؤَذِّنُ بِمِنًى أَنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.. ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ: لا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، ولا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»[1].

قال ابن القيِّم في [زاد المعاد]:

في هذه القصة دليلٌ على أنَّ يوم الحج الأكبر يومُ النحر.

واختلف في حَجَّة الصِّدِّيق هذه، هل هي التي أَسقطت الفَرْضَ؟ أو المُسقطة هي حَجَّةُ الوداع مع رسول الله ﷺ؟

على قولين أصحهما الثاني.

والقولان مبنيان على أصلين:

أحدهما: هل كان الحَجُّ مفروضًا قبل عام حجة الوداع أم لا؟

والثاني: هل كانت حَجَّةُ الصَّدِّيق رضي الله عنه في ذي الحجَّة، أم وقعَتْ في ذي القعدة من أجل النسيء الذي كان أهل الجاهلية يؤخِّرون له الأشهر ويقدمونها؟

وعلى هذا، فلم يؤخر النبي ﷺ الحجَّ بعد فَرْضه عامًا واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فُرض فيه، وهذا هو اللائق بهَدْيه وحاله).

وليس بيَدِ من ادَّعى تَقدُّم فرض الحج - سنة ست أو سبع أو ثمان أو تسع - دليلٌ واحد.

---

(١) البخاري - كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٥٦، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٢٨٨، ٤٢٨٩.

وغـايةُ مـا احتَج به مَن قـال فُرض سنة ست، قـولُه تعـالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1] وقد نزلت بالحديبية سَنَة ست.

وهذا ليس فيه ابتداءُ فَرْض الحَجّ، وإنَّما فيه الأمرُ بإتمامه، إذ شُرع فيه، فأين هذا من وجوب ابتدائه؟

وآية فرْض الحج وهي قوله تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[2] نزلت عام الوفود أواخر سنة تسع.

*****

(١) البقرة: ١٩٦

(٢) آل عمران: ٩٧.

عام الوفود

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسولُ الله ﷺ مكة، وفرغ من تبُوك، وأسلمَتْ ثقيفٌ وبايعت، ضربت إليه وفودُ العرب من كُلِّ وجه.

وإنما كانت العربُ تَربَّصُ بالإسلام أمرَ هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وقادة العرب، لا ينكرون في ذلك.

وكانت قريش هي التي نَصَبَت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلمَّا افتُتحت مكة، ودانت له قريش، ودوَّخها الإسلامُ، وعرفت العربُ أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، دخلوا في دين الله، كما قال (أفواجاً) يضربون إليه من كُلِّ وجه.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[١].

أيْ: فاحمَد الله على ما أظهر من دينك، واستغفره إنَّه كان تواباً.

ما كان من أمْر عدى بن حاتم:

كان رسول الله ﷺ قد بعث عليَّ بن أبى طالب في مئة وخمسين رجلاً من الأنصار على مئة بعير وخمسين فرساً، معه راية سوداء، ولواء أبيض إلى «الفُلس» وهو صنم طيئ، ليهدمه.

فهدموه وملأوا أيدهم من السبي والغنم والشاء، وفي السبي أُخْتُ عدي بن حاتم، أما عدي فقد هرب إلى الشام.

---

(١) سورة النَّصْر.

قال ابن إسحاق: قال عدي بن حاتم: ما كان رجلٌ من العرب أشدَّ كراهية لرسول الله ﷺ منى حين سمعت به، وكنت امرءاً شريفًا، وكنت نصرانيا، وكنت أسير في قومي بالمرباع[1] وكنت ملكاً في قومي.

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهتُه، وقلتُ لغلام عربي كان لي، وكان راعياً لإبلي: لا أبا لك، اعدد لي من إبلي أجمالا ذُلُلاً سماناً، فاحبسها قريبا مني، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذنِّي.

ففعل، ثُمَّ إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي، ما كنتَ صانعاً إذا غشيتك خيلُ محمد، فاصنعْه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألتُ عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد.

قال: فقلت: فقرِّب إلىَّ أجمالي، فقرَّبها، فاحتملت بأهلي وولدي ثُمَّ قلتُ: ألحَقُ بأهل ديني من النصارى بالشام.

وخَلَّفت بنتاً لي في الحاضرة.

فأصابتها خيل محمد فيمن أصابت، فَقُدِم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيئ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هرب عدي إلى الشام.

قال: فجُعلت بنتُ حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يُحبسنَ فيها، فمَرَّ بها رسولُ الله ﷺ، فقامت إليه فقالت: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامْنُن عَلَيَّ، منَّ الله عليك.

قال: ومَن وافِدُك؟

قالت: عَدي بن حاتم.

قال: الذي فرَّ من الله ورسوله؟

(١) المرباع: ربع الغنيمة يكون لرئيس القوم في الجاهلية دون أصحابه.

قالت: ثُمَّ مضى رسول الله وتركني.

حتى إذا كان من الغد مرَّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي: مثل ما قال بالأمس.

قال: حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بي، وقد يئست منه.

فأشار إليَّ رجلٌ من خلفه أن قومي فكلِّميه.

قال: فقمت إليه، فقلتُ: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامْنُن عليَّ، منَّ الله عليك.

فقال ﷺ: قد فعلتُ، فلا تَعْجَلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون ذلك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثُمَّ آذنيني.

فسألت عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أكلِّمه، فقيل: عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأقمت حتى قدم راكبٌ.

قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام.

قالت: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهطٌ من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ.

قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحَمَلَني، وأعطاني نفقةً، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدى: فوالله، إني لقاعدٌ في أهلي إذ نظرتُ إلى ظعينة تصوب إليَّ تَؤُمنا.

قال: فقلتُ ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي، فلمَّا وقَفَتٍ عليَّ أخذتٌ في اللَّوم: الظالم القاطع، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقيةَ والدِك عورتَك.

قال: قلتُ: أىْ أُخَيَّة، لا تقولي إلاَّ خيراً، فوالله، ما لي من عذر لقد صنعتُ ما ذكرتِ.

قال: ثُمَّ نزلت فأقامت عندي.

فقلت لها - وكانت امرأةً حازمةً -: ماذا ترينَ في أمر هذا الرجل؟

قالت: أرَ والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فَضْلُه، وإن يكن ملكاً، فلن تذل في عزِّ اليمن وأنت أنت.

قال: قلتُ والله إنَّ هذا الرأي.

قال: فخرجتُ حتى أقْدمَ على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده، فَسَلَّمتُ عليه.

فقال: مَنِ الرجلُ؟

فقلتُ: عدى بن حاتم.

فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته.

فوالله إنه لعامدٌ بي إليه، إذ لقيته امرأةٌ ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً، فكلَّمها في حاجتها.

قال: فقلتُ في نفسي، والله ما هذا بملك.

قال: ثُمَّ مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادةً من أدَمٍ محشوَّة ليفاً، فَقَذفها إليَّ، فقال: اجلس على هذه.

قال: قلتُ: بل أنت فاجلس عليها.

فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض.

قال: قلت في نفسي، والله ما هذا بأمر مَلِك.

ثُمَّ قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألَم تَكُ ركوسيّاً[1]؟

---

(١) الركوسيون: قوم لهم دين بين النصارى والصابئين.

قال: قلتُ: بلى.

قال: أَوَلَمْ تكن تسير في قومك بالمرباع؟

قال: قلتُ: بلى.

قال: فإن ذلك لم يكن يحلُّ لك في دينك.

قال: قلت: أجل والله، قال: وعرفتُ أنه نبيٌّ مُرسَل يعلم ما يُجْهل.

ثُمَّ قال: لعلَّك يا عديّ، إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم.

فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجدَ من يأخذه.

ولعلَّك إنما يمنعُك من دخول فيه ما ترى من كثرةِ عدوهم وقلَّة عددهم.

فوالله، ليوشِكن أن تسمعَ بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور البيت لا تخاف.

ولعلَّك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أنَّ المُلكَ والسُلطان في غيرهم.

وأَيْمُ الله، ليُوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليه.

قال: فأسلمت.

ومما جاء فيما أخرجه الإمام أحمد، قال له الرسول ﷺ:

وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ.

قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟

قَالَ: نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ. وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ.

قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: فَهَذِه الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ...)[1].

---

(١) أحمد - مسند الكوفيين، حديث رقم ١٧٥٤٨.

وأخرج البخاري في صحيحه عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ:

«بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ، فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ.

فَقَالَ: يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟

قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا.

قَالَ: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لا تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ.

قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلادَ؟ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى.

قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ.

وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلا يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ.

قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ.

قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لا تَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»(١).

---

(١) البخاري – كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٢٨.

قدوم وفد بني سعد:

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن الوليد بن نويفع، عن كريب مولى بن عباس، عن ابن عباس قال:

بَعَثَتْ بنو سعد بن بكر ضِمَامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقَدِم عليه، فأناخ بعيرَه على باب المسجد، فَعَقَلهُ، ثُمَّ دخل على رسول الله ﷺ وهو في المسجد جالس في أصحابه

فقال: أيُّكم ابنُ عبدالمطلب؟

فقال رسول الله ﷺ: أنا ابن عبدالمطلب

فقال: محمد؟

فقال: نعم.

فقال: يا ابن عبدالمطلب، إني سائلك ومُغْلِظٌ عليك في المسالة، فلا تَجِدَن في نفسك.

فقال: لا أجِدُ في نفسي، فَسَلْ عمَّا بدا لك.

فقال: أَنْشُدُكَ الله إلهك وإله أهلك، وإله مَن كان قبلك، وإله مَن هو كائن بعدك، آللَّهُ بعثّك إلينا رسولاً؟

قال: اللهم نعم.

قال: فأَنْشُدُك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آللَّهُ أمرك أن نعبَده لا نشركُ به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟

قال رسول الله ﷺ: اللهم نعم.

ثُمَّ جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وفرائض الإسلام كُلّها، ينشده عن كُلِّ فريضة كما نشدَه في التي قبلها،

حتى إذا فرغ قال: فإني أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيدُ ولا أنقصُ، ثُمَّ انصرف راجعاً إلى بعيره.

فقال رسول الله ﷺ حين ولَّى: «إن يصدق ذو العَقِيصَتَيْن[1] يَدْخُلِ الجنة»[2].

ثُمَّ أتى بعيره، فأطلق عقالَه، ثُمَّ خرج حتى قَدِمَ على قومه، فاجتمعوا عليه.

وكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال: بئست اللاتُ والعُزَّى.

فقالوا: مَهْ يا ضِمَام، اتق البَرَصَ، والجنونَ، والجُذام.

قال: وَيْلَكُم، إنهما ما يَضُرَّان ولا ينفعانِ. إن الله قد بعثَ رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممَّا كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم - في حاضرته - رجلٌ ولا امرأةٌ إلاَّ مسلماً

قال ابن إسحاق: فما سمعنا بوافدِ قومٍ أفضل من ضِمَام بن ثعلبة.

قدوم وفد النَّخْع:

وهم آخر الوفود قُدومًا علي رسول الله ﷺ قدموا في نصف المحرم سَنَة إحدى عشرة، في مائتي رجل، فنزلوا دارَ الأضياف.

ثُمَّ جاءوا رسول الله ﷺ مُقرِّين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذَ بن جبل رضي الله عنه.

فقال رجل منهم يُقال له «زُرَارة بن عمرو» يا رسولَ الله، إني رأيت في سفري هذا عجبًا.

---

(١) العقيصة: الشعر المضفور، وكان ضِمَام رجلاً جَلْداً أشعر ذا غديرتين.

(٢) أحمد - مسند بني هاشم، حديث رقم ٢١٤٢.

قال: وما رأيتَ؟

قال: رأيت أتاناً تركتُها في الحي، كأنها ولدت جدياً أسفَع أحوى[١].

فقال له رسول الله ﷺ: هل تركت أَمَةً لك مُصِرّةً على حمل؟

قال: نعم.

قال: فإنها قد ولدت غُلاماً وهو ابنُك؟

قال: يا رسول الله، فما لَهُ أسفع أحوى.

فقال: ادْنُ مني.

فدنا منه، فقال: هل بك من بَرَصٍ تكتُمه؟

قال: والذي بعثك بالحق ما علم به أحدٌ، ولا أطَّلع عليه غيرُك.

قال: فهو ذلك.

قال: يا رسول الله، ورأيت النعمانَ بن المنذر عليه قرطان مُدَمْلَجان ومسكتان.

قال: ذلك مَلِك العرب، رجع إلى أحسنِ زيِّه وبَهْجَته.

قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزاً شمطاء قد خرجت من الأرض.

قال: تلك بقيةُ الدنيا.

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض، فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، وهي تقول: لَظَى، لَظَى، بصير، وأعمى، أطعموني، أكلكم أهلكم ومالكم.

قال رسول الله ﷺ: تلك فتنة تكون في آخر الزمان.

---

(١) الأسفع: الأسود المشرب بحُمرة، والأحوى كالتأكيد للأسفع.

قال: يا رسول الله، وما الفتنة؟

قال: يَقْتُلُ الناسُ إمامَهم، ويشْتجرون اشتجار أطباق الرأس - وخالف رسول الله ﷺ أصابعه - يحسبُ المسيئ فيها أنَّه مُحْسنٌ، ويكونُ دمُ المؤمن عند المؤمن فيها أحلَى من شرب الماء.

إنْ مات ابنُك أدركتَ الفتنة، وإنْ متَّ أنتَ أدركها ابنُك.

فقال: يا رسول الله، ادع الله أن لا أُدركها.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا يدركها.

فمات وبقى ابنُه، وكان ممَّن خَلَعَ عثمانَ(١).

*****

(١) زاد المعاد: ٣/٨٩.

حجـة الـوداع

في السنة العاشـرة حجَّ النبيُّ ﷺ حَجَّة الوداع، وسُمِّيت «حَجَّة الوداع» لأنه ﷺ ودَّعَ الناس فيها وقـال: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»(١).

وحجَّ ﷺ بأزواجه كُلِّهنَّ وبِخَلْقٍ كثيرٍ من الصحابة - رضوان الله عليهم - كلُّهم يَلتمسُ أن يأتمَّ برسول الله ﷺ فَعَلَّمَهُم المناسك، وأبطَلَ شعائر الجاهلية، وقال ﷺ في خُطبته:

«... أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟

قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ.

فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ.. اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ...»(٢).

وفى البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ:

---

(١) مسلم، كتاب الحج، حديث رقم ٢٢٨٦.

(٢) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢١٣٧

«كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، ولا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْه، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِه، وَقَالَ: مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَنْذَرَ أُمَّتَه، أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِه، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِه فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ العَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ

أَلاَ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلاثًا، وَيْلَكُمْ أَوْ وَيْحَكُمْ، انْظُرُوا لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

ونزل عليه ﷺ قولُه تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾(٢).

وكان نزولُها يوم عرفة بعد العصر ورسول الله ﷺ واقفٌ بعرفات، وذلك يوم الجمعة.

ولَمَّا سمعها عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكى، فقال له النبيُّ ﷺ: ما يُبكيك؟

قال: إنَّه لم يَكمُل شئٌ إلاَّ نقُص.

قال: صَدَقْت.

فعاش ﷺ بعدها نحو ثلاثةِ أشهر، ولم ينزل بعدها حَلاَلٌ ولا حرامٌ، ولا غيرُهما من الأحكام.

وفي البخاري عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُود قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُود نَزَلَتْ لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٥١.
(٢) المائدة: ٣.

قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟

قَالَ: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾**.

قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، نزلت عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ)[1].

*****

(١) البخاري - كتاب الإيمان، حديث رقم ٤٣، البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٥٥.

وفاة الرسول ﷺ

الرسول ﷺ يُجهز جيش أسامة:

ثُمَّ قَفَلَ الرسول ﷺ إلى المدينة، فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرَّم وصفر، ثُمَّ أمَرَ الناسَ بالجهازِ إلى الشام، وأمَّر عليهم: أسَامة بن زيد بن حارثه - رضي الله عنهما - وأمَرَه أن يُوطئَ الخيل تُخُومَ البلقاء.

فطعَن نَاسٌ في إمارته لحداثَةٍ سنِّه ولكَوْنِه مَولى، وقالوا: أمَّر غُلاماً على جِلَّةِ المهاجرين والأنصار؟!

فلما بَلَغَه ﷺ ذلك - وكان المرض قد ابتدأ به ﷺ - خرج فحمد الله وأثنى عليه، وأمرهم بالجهاز وبطاعة من أمَّره عليهم.

روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ - رَضِي اللَّه عَنْهمَا - قَالَ:

«بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْد، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَته، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَته، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَة أَبِيه مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللَّه إِنْ كَانَ لخَلِيقًا لِلإِمَارَة، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»(1).

فأخذ الناس في جِهّازهم، فثقُل ﷺ فأقاموا ينتظرون ما الله قاض في رسوله.

إشارات إلى اقتراب أجله ﷺ:

الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التي تشير إلى قُرب وقوعها، وقد تمَّ للمسلمين فتح مكة أُم القُرى في السنة الثامنة من الهجرة

---

(1) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٥١، كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩١٩، ٤١٠٩، كتاب الأحكام، حديث رقم ٦٦٥٠، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٥٢.

المباركة، وفي السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقرُّ بالإسلام أو تعطي الجزية عن يد وهم صاغرون، ودانت جزيرة العرب بالإسلام.

وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبي ﷺ المتواصل وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم - فكلُّ العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فكان النبي ﷺ يعرض بقرب أجله، فمن ذلك:

*** نزول سورة النصر على رسول الله ﷺ:**

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إن سورة النَّصْر هي آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت بعد سورة براءة، ولم تنزل بعدها سورةٌ أخرى»[1].

وقد تضافرت الأخبار أنَّ هذه السورة تشتمل على إيماءٍ إلى اقتراب أجَل رسول الله ﷺ:

ففي البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «هو أجلُ رسول الله ﷺ أعْلَمَهُ له قال: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ»[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ عاش بعد نزولها نحواً من ثلاثة أشهر».

وفى صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟

---

(١) فتح الباري: ٨/٧٣٤.

(٢) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٨٨.

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ.

قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.

فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ»(١).

وعن مقاتل: لَمَّا نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وبكى العبَّاس، فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك يا عَمّ؟ قال: نُعيت إليك نَفْسُك. فقال ﷺ: «إنَّه لَكَمَا قُلتَ».

وفى رواية: «نزلت في منى، فبكى عمر والعباس، فقيل لهما، فقالا: فيه نعىُ رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: صدقتما نُعيت إلىَّ نفسي».

* **ومن هذه العلامات:** ما رواه الإمام أحمدُ عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوصِيه، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ، وَرَسُولُ اللَّه ﷺ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَته، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: يَا مُعَاذ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لاَ تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي.

فَبَكَى مُعَاذ جَشَعًا لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّه ﷺ، ثُمَّ الْتَفَتَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا(٢).

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٥٦.
(٢) أحمد - مسند الأنصار، حديث رقم ٢١٠٤٠.

* **ومنها:** ما رواه أبو سَعيد الخُدْرِيِّ قَالَ: «خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ.

فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ؟!

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا ....»[١].

* **ومنها قول عَائِشَةَ - رضي الله عنها -:**

«كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لا يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ - وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ[٢]: ﴿**مع الَّذين أَنعَم اللَّهُ عليهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾[٣] فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[٤].

* **ومنها:** ما رواه البخاري عن أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قال: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - تَابَعَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الْوَحْيَ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَوَفَّاهُ، أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ»[٥].

قال الحافظ: «والسر في ذلك أن الوفود - بعد فتح مكة - كثروا وكثر سؤالهم عن الأحكام فكثر النزول بسبب ذلك»[٦].

ابتداء مرضه ﷺ:

عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ:

---

(١) البخاري - كتاب الصلاة، حديث رقم ٤٤٦، المناقب، حديث رقم ٣٣٨١، ٣٦١٥، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٣٩٠.

(٢) البُحة: الخشونة والغلظة في الصوت.

(٣) النساء: ٦٩.

(٤) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم٤٠٨١، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٧٥.

(٥) البخاري - كتاب فضائل القرآن، حديث رقم ٤٥٩٩، مسلم - كتاب التفسير، حديث رقم ٥٣٣١.

(٦) فتح الباري: ٨/٩.

«رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَقِيعِ فَوَجَدَنِي وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَا رَأْسَاهُ. فَقَالَ: بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ وَا رَأْسَاهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي، فَقُمْتُ عَلَيْكِ فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟ فَقُلْتُ: لَكَأَنِّي بِكَ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَرَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَعَرَّسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ. قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بُدِئَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ»[1].

قال الحافظ - رحمه الله -:

«وذكر الخطابي أن مرضه ابتدأ يوم الاثنين، وقيل يوم السبت، وقال الحاكم أبو أحمد: يوم الأربعاء. واختلف في مدة مرضه ﷺ فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل: بزيادة يوم، وقيل: بنقصه. وقيل: عشرة أيام، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح، وكانت وفاته ﷺ يوم الاثنين - بلا خلاف - من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعاً، وكان له ﷺ ثلاثة وستون عاماً»[2].

اشتداد المرض برسول الله ﷺ:

كان ﷺ يُوعَك وَعْكًا شديداً[3]، وكان يُدارُ به على نسائه، ثُمَّ استأذنهن أن يُمَرَّض في بيت عائشة، فأذِنَّ لَهُ.

قَالَتْ عَائِشَةُ - رضي الله عنها -:

«لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ وَاشْتَدَّ وَجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاهُ الأَرْضَ، وَكَانَ بَيْنَ الْعَبَّاسِ وَرَجُلٍ آخَرَ. قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لابْنِ عَبَّاسٍ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ فَقَالَ: لِي وَهَلْ تَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ تُسَمِّ عَائِشَةُ؟ قُلْتُ: لا. قَالَ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»[4].

---

(١) الدارمي - المقدمة، حديث رقم ٨٠، سنن ابن ماجة - كتاب ما جاء في الجنائز، حديث رقم ١٤٥٤.

(٢) فتح الباري: ١٢٩/٨ .

(٣) الوَعْك: هو الحُمَّى، وقيل: ألَمُها.

(٤) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٦٢٥.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ:

«دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا.

قَالَ: أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ.

قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟

قَالَ: أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ. مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»(١).

وفي الصحيحين أنه ﷺ دَعَا فَاطِمَةَ ابْنَتَهُ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، فَسَارَّهَا بِشَيْءٍ، فَبَكَتْ، ثُمَّ دَعَاهَا فَسَارَّهَا فَضَحِكَتْ.

قَالَتْ عائشة - رضي الله عنها -: فَسَأَلْتُهَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: سَارَّنِي النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُقْبَضُ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَبَكَيْتُ، ثُمَّ سَارَّنِي فَأَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ أَتْبَعُهُ فَضَحِكْتُ)(٢).

وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قُلْنَا: لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ.

قَالَ: ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ(٣) قَالَتْ: فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ، فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ

ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ ﷺ: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قُلْنَا: لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

---

(١) البخاري - كتاب المرضى، حديث رقم ٥٢١٥، ٥٢١٦، ٥٢٢٨، ٥٢٢٩، مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٤٦٦٣.

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٥٤، ٣٤٣٨، كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٨٠، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٨٦.

(٣) المِخْضَب: إناء يُغتَسل فيه.

قَالَ: ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ. قَالَتْ: فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ

ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قُلْنَا: لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ: ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ......(1).

مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس:

تقول عائشة: ثُمَّ أَفَاقَ رسول الله ﷺ فَقَالَ: أَصَلَّى النَّاسُ؟ فَقُلْنَا: لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ ﷺ لِصَلاةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ.

فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقًا -: يَا عُمَرُ، صَلِّ بِالنَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ.

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلاةِ الظُّهْرِ، وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لا يَتَأَخَّرَ. قَالَ: أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ. قَالَ: فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي، وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّاسُ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ»(2).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ أمر بأن يصلي أبو بكر بالناس، فراجعته في ذلك عائشة - رضي الله عنها - ثلاث مرات وهى تقول له:

---

(١) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٦٤٦، مسلم - كتاب الصلاة، حديث ٦٢٩.

(٢) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٦٤٦، مسلم - كتاب الصلاة، حديث ٦٢٩.

«إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. قَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. فَعَادَتْ، فَقَالَ: مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ (١)....»(٢).

إلى الرفيق الأعلى:

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت:

«إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي(٣)، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ. فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ»(٤).

وفي رواية: «فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى. فَقُلْتُ: إِذًا لا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ»(٥).

---

(١) قال العلماءُ: وَجْه المشابهة أنَّ عائشة أضمرت ما سبق من قولها: (... وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلاً قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وأظهرت أنه رجلٌ... إلخ)، فأشبهت امرأةَ العزيز التي استدعت النسوة، وأظهرت إكرامهنَّ بالضيافة، وأضمرت أن يعذرنها في شغفها بحُبِّ يوسف إذا رأَيْنَه، كما صرَّحت بذلك في قولها: **﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾** واللَّه أعلم.

(٢) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٦٣٧، ٦٤١، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٣٣، مسلم - كتاب الصلاة، حديث رقم ٦٣٣، ٦٣٨.

(٣) السَّحْرُ: أعلى الصدر، والنَّحْر: موضع القلادَة من الصَّدْر.

(٤) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٩٤.

(٥) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤١٠٤، كتاب الدعوات، حديث رقم ٥٨٧٢، كتاب الرقاق، حديث رقم ٦٠٢٨

وروى البخاري عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ - رضي الله عنها -: وَا كَرْبَ أَبَاهُ. فَقَالَ لَهَا: لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ.

فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ.

فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ - رضي الله عنها -: يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟!»[1].

نظرة وداع أخيرة:

في الصحيحين عن أَنَس رضي الله عنه قَالَ:

«بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ، فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ

وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ لَهُ الصَّفَّ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخُرُوجَ، وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلاتِهِمْ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ، فَأَرْخَى السِّتْرَ، وَتُوُفِّيَ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ»[2].

من وصايا النبي ﷺ في مرض موته:

* عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رضي الله عنها - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ: الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ. فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ»[3].

* لما رأت الأنصارُ اشتداد وجع الرسول ﷺ أطافوا بالمسجد، فدخل العباسُ وأعلَمَه بمكانهم وإشفاقهم.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤١٠٣.

(٢) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٧١٢، كتاب الجمعة، حديث رقم ١١٣٠، كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٩٣.

(٣) ابن ماجة - كتاب ما جاء في الجنائز، حديث رقم ١٦١٤.

فخرج ﷺ متوكئاً على عليٍّ والفَضْل، وتقدَّم العباسُ أمامهم، والنبي ﷺ معصوبُ الرأس، يَخُطُّ برجليه، حتى جلس في أسفل مَرْقَاة من المنبر، وثار الناسُ إليه. فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال:

أيُّها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيِّكم، هل خُلِّدَ نبيٌّ قبلي - فيمَن بعث الله - فأُخَلَّد؟

ألا إني لاحِقٌ بربي، وأنتم لاحقون بي..

فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(١).

وإن الأمور تجرى بإذن الله، فلا يحملنَّكم استبطاء أمْر على استعجاله، فإنَّ الله عز وجل لا يُعَجِّل بعجلة أحد، ومن غالبَ الله غَلَبَه، ومن خادع الله خَدَعه

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٢).

وأُوصيكم بالأنصار خيراً، فإنَّهم الذين تَبَوَّأُوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تُحسنوا إليهم.

ألَم يُشاطروكم في الثمار؟

ألَم يُوسِّعوا لكم في الديار؟

ألَم يُؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة؟

ألاَ فمَن وُلِّىَ أن يحكم بين رجلين، فليقبل من مُحسنهم، وليَتَجَاوَز عن مُسيئهم.

---

(١) سورة العصر.

(٢) محمد: ٢٢.

ألاَ ولا تستأثروا عليهم.

ألاَ وإني فَرَطٌ لكم، وأنتم لاحقون بي.

ألا فإنَّ موعدكم الحوْض.

ألاَ فمَن أحبَّ أن يَردَه عليَّ غداً فَلْيَكْفُفْ يدَه ولسانَه إلاَّ فيما ينبغي.

* وعَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْد قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِك يَقُولُ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ - رَضِي اللَّه عَنْهمَا - بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا

فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ. قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ - وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ - فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي[1] وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»[2].

* وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَشَفَ رَسُولُ اللَّه ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إلا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، ألا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ - عَزَّ وَجَلَّ - وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ[3] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[4].

* وعن عائشة وابن عباس - رَضِي اللَّه عنْهما - قَالا: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً[5] عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ

---

(١) كَرِشِي: أي بطانتي وموضع سري، وَعَيْبَتِي: أي خاصته وموضع النصح له.

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥١٥.

(٣) قَمن: أي جدير وحقيق.

(٤) مسلم - كتاب الصلاة، حديث رقم ٧٣٨.

(٥) الخميصة: ثوب مخطط من حرير أو صوف.

وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»[١].

كيف تَلَقَّى المسلمون خبر موته ﷺ؟

روى البخاري في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ[٢].... فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّه، مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلاَّ ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ.

فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَبَّلَهُ وقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا

ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ.

فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَال: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ.

وَقَالَ: **﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾**[٣].

وقال: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾**[٤].

قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ[٥] يَبْكُونَ)[٦].

---

(١) البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٩٥.

(٢) السُّنْح: إحدى محال المدينة.

(٣) الزمر: ٣٠.

(٤) آل عمران: ١٤٤.

(٥) نشج الناسُ: أي بكوا بصوت مرتفع.

(٦) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٩٤.

وفي رواية أخرى:

«قَالَ عمر: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَتْلُوهَا، وَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاهَا فَعَقِرْتُ (١) حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ»(٢).

وأخرج الترمذي وابن ماجة في السنن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

«لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَلَمَّا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الأَيْدِي، وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ، حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا»(٣).

وفي صحيح البخاري، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ»(٤).

تجهيز الجسد الشريف ودفنه:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «لَمَّا أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَنُجَرِّدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا، أَمْ نَغْسِلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟

فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إلا وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لا يَدْرُونَ مَنْ هُوَ: أَنِ اغْسِلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ، يَصُبُّونَ الْمَاءَ

---

(١) العَقَر: أن تُسلِمَ الرجلَ قوائمه من الخوف، وقيل: هو أن يفجأه الرَّوْعُ ولا يستطيع أن يتقدَّمَ أو يتأخر.

(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٧٩.

(٣) الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٥١، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ، وابن ماجة - كتاب ما جاء في الجنائز، حديث رقم ١٦٢١.

(٤) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦١٣.

فَوْقَ الْقَمِيصِ، وَيُدَلِّكُونَهُ بِالْقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَلَهُ إلا نِسَاؤُهُ» [1].

وعَنْ عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - قَالَتْ: «كُفِّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ سُحُولٍ كُرْسُفٍ[2] لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ ولا عِمَامَةٌ»[3].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: «جُعِلَ فِي قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَطِيفَةٌ حَمْرَاءُ»[4].

وفي البخاري: «فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ - رضي الله عنها -: يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟! »[5].

رِثَاءُ أبى سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ:

ذكر ابن الجوزي في [صفوة الصفوة] ترجمة أبي سفيان بن الحارث قال:

هو أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن هاشم، واسمه المغيرة.

وكان أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة، أرضعته حليمة أياماً، وكان تِرْبَ رسول الله ﷺ يألفهُ إلْفاً شديداً.

فلما بُعث رسولُ الله ﷺ عاداه وهَجَاه وهَجَا أصحابَه، وكان شاعراً.

فلمَّا كان عام الفتح ألقى الله في قلبه الإسلام، فخرج متنكراً، فتصدَّى لرسول الله ﷺ فأعرض عنه، فتحوَّل إلى الجانب الآخر، فأعرض عنه.

يقول أبو سفيان: فقلتُ: أنا مقتولٌ قبل أن أصل إليه. فأَسْلَمْتُ، وخرجتُ معه حتى شهدت فتح مكة وحُنَيْناً، فلما لقينا العدةَّ بحُنَيْن اقتحمت عن فرسي وبيدي السيف صَلْتاً، والله يعلم أنى أريدُ الموتُ دونه وهو ينظُرُ إلى.

---

(١) أبو داود - كتاب الجنائز، حديث رقم ٢٧٣٣.

(٢) السحول: نسبة إلى قرية باليمن، والكرسف هو القطن.

(٣) البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١١٩٢.

(٤) مسلم - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٦٠٧.

(٥) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤١٠٣.

فقال العباس: يا رسولَ الله أخوك وابن عمِّك أبو سفيان، فارْضَ عنه

فقال ﷺ: قد فعلت، فغفر الله له كُلَّ عداوة عادانيها.

ثُمَّ التفت إلىَّ فقال: أخي لعمري. فَقَبَّلْتُ رجلَه في الرِّكاب(١).

وعن أبى إسحاق قال:

لما حضر أبا سفيان بن الحارث الوفاةُ قال لأهله: «لا تبكوا علىَّ، فإني لم أتنطَّق بخطيئة منذ أسلمت»(٢).

قال أهلُ السِّيَر: مات أبو سفيان بعد أن استُخلف عمرُ بسَنَة وسبعة أشهر، ويقال: بل مات سنة عشرين، وصلى عليه عمرُ، ودُفن بالبقيع.

*****

رثَى أبو سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ وهو ابن عمِّه، واسمه المغيرة بن الحارث، قال:

أَرِقتُ فبَاتَ ليلى لا يَــزُولُ ... وليلُ أخي المصــيبة فيه طُولُ

وأسعدني البكـاءُ وذاكَ فيمَا ... أُصِيبَ المســلمـون به قَليلُ

لقد عَظُمَت مصيبتُنَا وَجلَّت ... عَشيَّة قيل قد قُبضَ الرسولُ

وأضـحت أرضُنَا ممـا عَرَاهَا ... تكـادُ بنــا جوَانبهُــا تَميــلُ

فَقَدْنا الوحَي والتنزيل فينا ... يَرُوح بــه ويَغــــدُ جبرَئيــلُ

وذاك أحقُّ ما سَـــالَتْ عليــه ... نُفُوسُ الناس أو كادت تَسيلُ

نبيٌّ كان يجلــو الشَّــكَ عنَّـا ... بما يُوحَى إليه وما يقُــولُ

(١) صفوة الصفوة: ١/ ٥٢٠.

(٢) صفوة الصفوة: ١/ ٥٢٠.

ويهدينا فلا نخشى ضَلاَلاً   علينا والرسولُ لنا دليلُ
أفاطِمُ إن جزعت فذاك عُذر   وإن لم تجزعي ذَاكَ السبيلُ
فقبرُ أبيك سيِّدُ كلِّ قَبرٍ   وفيهِ سيِّدُ الناسِ الرسولُ

*****

لقد استوقفني ما قاله أبو سفيان في رثاء الرسول ﷺ.

فَقَدْنا الوحَي والتنزيل فينا   يَرُوح به ويَغدُ جبرَئيلُ.

وتذكرتُ ما رواه مسلم في فضائل أمِّ أيمن مولاة الرسول ﷺ فقد روى مسلم عن أنس ﷺ قال:

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ

فَقَالا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ

فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ.

فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا)(١).

فعجبت لهذه الخواطر التي تَستحضر - فيما تقول - قَدْر ما انقطع من السماء، فتقول أمُّ أيمن ما قالت وهي باكية، ويقول ابن عَمِّ الرسول ﷺ ما قال في رثائه، فقلتُ: أيُّ تقدير من هؤلاء جميعاً لمَا أُنزل من السَّماء وحُفظ بحفظ الله؟!!

لقد عرفوا للوحي قَدْرَه فعَزَّ شأنُهم، وعَظُمَ قَدْرُهم، وتحقَّق نَصْرُهم.

---

(١) مسلم - فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٩٢.

رثاء أبي العتاهية رسولَ الله ﷺ:

ومما قاله أبو العتاهية[1] في رثاء رسول الله ﷺ:

لبيك رسول الله من كان باكيا ... فلا تنس قبراً بالمدينة ثاويا

جزى الله عنا كل خير محمدا ... فقد كان مهدياً وقد كان هادياً

وكان رسول الله روحاً ورحمة ... ونوراً وبرهاناً من الله بادياً

وكان رسول الله بالخير آمراً ... وكان عن الفحشاء والسوء ناهياً

وكان رسول الله بالقسط قائماً ... وكان لما استرعاه مولاه راعياً

وكان رسول الله يدعو إلى الهدى ... فلبى رسول الله لبيه داعياً

أينسى أبر الناس بالناس كلهم؟ ... وأكرمهم بيتاً وشعباً ووادياً

تكدر من بعد النبي محمد ... عليه سلام الله ما كان صافياً

ركنَّا إلى الدنيا الدنيَّة بعده ... وكشفت الأطماع منا مساوياً

وكم من منار كان أوضحه لنا ... ومن علم أمسى وأصبح عافياً

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً وإن كان كاسياً

وخير خصال المرء طاعة ربِّه ... ولا خير فيمن كان لله عاصياً

---

(١) هو أبو العتاهية: رأس الشعراء، الأديب الصالح، أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي، لُقِّبَ بـ (أبي العتاهية) لاضطراب فيه، سار شعره لجودته وحُسنه وعدم تقعره، وقال في المواعظ والزهد فأجاد، وكان أبو نواس يعظمه ويتأدب معه لدينه. توفي أبو العتاهية ببغداد في جمادى الآخرة، سنة إحدى عشرة ومئتين، وقيل: سنة ثلاث عشرة ومئتين، وله ثلاث وثمانون سنة أو نحوها.

زوجات الرسول ﷺ اللَّاتي تُوُفِّى عنهن:

تُوفِّى ﷺ عن تسع زوجات هنَّ:

١- عائشة بنت أبى بكر.

٢- حفصة بنت عمر.

٣- جُويريَةُ بنت الحَارثِ الُمصطَلَقيَّةُ.

٤- أمُّ حَبِيَبةَ رَمَلهُ بنت أبى سفيانَ الأموية.

٥- زينبُ بنت جَحشٍ الأسَدَيَّةُ.

٦- سودةُ بِنتُ زمعة العامريَّةُ.

٧- صفيةُ بنت حُيَىِّ بنِ أخطِبَ النَّضريةُ الإسرائيلية الهارُونيَّةُ.

٨- ميمونَةُ بنتُ الحارثِ الهلالية.

٩- أم سلمةَ هِندُ بنتُ أبى أميةَ المخزومية.

رضي الله عنهُنَّ وعن سائر أصحابه أجمعين.

*****

من خصائص المدينة المنورة وفضائلها

إنَّ مكانة الشيء إنما تكون من ذاته، أو بما اتُّصف به من كمال وجمال، أو بما يُحيط به أو يجاوره، أو ما ورد عنه.

وهكذا كانت المدينة المنورة، فقد اجتمع لها كُلُّ ذلك، وحسبك في مكانتها مئات الأحاديث الواردة عن الصادق المصدوق ﷺ.

ويكفي أن نذكر عنها هذه الخصائص:

*** أنها حَرَمُ النّبِي ﷺ:**

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «لِكُلّ نَبِيّ حَرَمٌ، وحَرَمِيَ المَدِينَةُ»(١).

*** أنها مُهاجَرُ النّبِي ﷺ:**

عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المَدِينَةُ مُهاجَري ومَضجَعي فِي الأرضِ، حَقّ عَلى أُمّتي أن يُكرِموا جيراني مَا اجتَنَبُوا الكَبائِر»(٢).

*** أنها مَحبوبَةُ النّبِي ﷺ:**

عن عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ.....»(٣).

وعَنْ أَنَس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَر، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ (٤) وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا(٥).

---

(١) مجمع الزوائد: ٣/٣١٠، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

(٢) مجمع الزوائد: ٣/٣١٠، المعجم الكبير ٢٠/٢٠٥.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٣٣، كتاب المرضى، حديث رقم ٥٢٢٢، ٥٢٤٥.

(٤) الإيضاع في سَير الإبل: سرعة مع سهولة.

(٥) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٣.

* **أنها قُبّةُ الإِسلام:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «المَدينَةُ قُبّةُ الإِسلامِ، ودارُ الإِيمانِ، وأرضُ الهجرَةِ، ومُبَوَّأُ الحَلالِ والحَرامِ»(١).

* **حمايتها من الطاعون والدجال:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «عَلَى أَنْقَابِ(٢) المَدِينَةِ مَلائِكَةٌ لا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ ولا الدَّجَّالُ»(٣).

وعن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله ﷺ أنه قَالَ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إلاَّ مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إلاَّ عَلَيْهِ المَلائكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»(٤).

* **دعا لها النبي ﷺ بالبركة:**

عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِحَرَّةِ السُّقْيَا - الَّتِي كَانَتْ لِسَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ائْتُونِي بِوَضُوءٍ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ، وَدَعَا لأَهْلِ مَكَّةَ بِالْبَرَكَةِ، وَأَنَا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَدْعُوكَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ مِثْلَيْ مَا بَارَكْتَ لأَهْلِ مَكَّةَ، مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ»(٥).

---

(١) مجمع الزوائد: ٢٩٨/٣، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عيسى بن مينا وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات.

(٢) أنقاب: أي منافذ وطُرق.

(٣) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٧، كتاب الفتن، حديث رقم ٦٦٠٠، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٤٩

(٤) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٨.

(٥) الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٤٩، وقَال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ. قَالَ ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ»(٢).

*** الترغيب في سُكْنَى المدينة والصَّبر على لأوائها:**

عن عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أن النبي ﷺ قال: «... الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لا يَدَعُهَا أَحَدٌ - رَغْبَةً عَنْهَا - إِلاَّ أَبْدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ....»(٣).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى الْمَهْرِيِّ أَنَّهُ جَاءَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ لَيَالِيَ الْحَرَّةِ، فَاسْتَشَارَهُ فِي الْجَلاءِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَشَكَا إِلَيْهِ أَسْعَارَهَا وَكَثْرَةَ عِيَالِهِ، وَأَخْبَرَهُ أَنْ لا صَبْرَ لَهُ عَلَى جَهْدِ الْمَدِينَةِ وَلأْوَائِهَا(٤) فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ لا آمُرُكَ بِذَلِكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لا يَصْبِرُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا فَيَمُوتَ إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا»(٥).

وفى الحديث حثٌّ على سُكنَى المدينة؛ لِمَا فيه من الفضل، ودلالات ظاهرةٌ على فَضْل الصبر على شدائدها وضيق العيش فيها، وأنَّ هذا الفضل باق إلى يوم القيامة.

---

(١) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٢، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٣٢.
(٢) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٣٧.
(٣) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٢٦.
(٤) اللأواء: الشدة وضيق المعيشة.
(٥) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٤١، ٢٤٤٨.

قال النووي: «اختلف العلماءُ في المجاورة بمكة والمدينة:

فقال أبو حنيفة وطائفةٌ: تُكره المجاورة بمكة.

وقال أحمد وطائفةٌ: لا تُكره بل تُستحب، وإنَّما كَرهها مَن كَرهها لأمور منها: خوفُ المَلل، وخوفُ ملابسة الذنوب؛ فإنَّ الذنب فيها أقبح منه في غيرها، كما أن الحسنة فيها أعظم منها في غيرها.

واحتج من استحبها بما يحصل فيها من الطاعات التي لا تحصل بغيرها، وتضعيف الصلوات والحسنات، وغير ذلك.

قال: والمختار أنَّ المجاورةَ بهما جميعاً مستحبة، إلاَّ أن يغلب على ظنِّه الوقوع في المحذورات المذكورة، وقد جاورتهما خلائقُ لا يُحصَون من سلف الأمة وخلفها ممَّن يُقتدى بهم، وينبغي للمجاور الاحتراز عن المحذورات وأسبابها»[1] أ. هـ.

*** أنها تنفي خبثها:**

عَنْ مِحْجَنِ بْنِ الأَدْرَعِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ:

«يَوْمُ الخَلاصِ وَمَا يَوْمُ الخَلاصِ؟ يَوْمُ الخَلاصِ وَمَا يَوْمُ الخَلاصِ؟ يَوْمُ الخَلاصِ وَمَا يَوْمُ الخَلاصِ؟ ثَلاثًا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا يَوْمُ الخَلاصِ؟ قَالَ: يَجِيءُ الدَّجَّالُ فَيَصْعَدُ أُحُدًا، فَيَنْظُرُ المَدِينَةَ، فَيَقُولُ لأَصْحَابِهِ: أَتَرَوْنَ هَذَا القَصْرَ الأَبْيَضَ، هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ، ثُمَّ يَأْتِي المَدِينَةَ فَيَجِدُ بِكُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكًا مُصْلِتًا، فَيَأْتِي سَبْخَةَ الحَرْفِ فَيَضْرِبُ رُوَاقَهُ، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلاثَ رَجَفَاتٍ فَلا يَبْقَى مُنَافِقٌ ولا مُنَافِقَةٌ وَلا فَاسِقٌ وَلا فَاسِقَةٌ إلاَّ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ يَوْمُ الخَلاصِ»[2].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٩/ ١٥١.

(٢) أحمد - مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٢٠٧.

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ[١] وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[٢].

*** الترهيب الشديد من الإحداث بها:**

عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «... الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ[٣] فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ...»[٤].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئِلَ: «أَحَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَا بَيْنَ كَذَا إِلَى كَذَا، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا ولا عَدْلاً»[٥].

*** الترهيب الشديد من إرادة أهلها بسوء:**

عن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلاَّ انْمَاعَ[٦] كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»[٧].

*** تحريم صيدها وقطع أشجارها:**

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا، لا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا[٨] وَلا يُصَادُ صَيْدُهَا»[٩].

---

(١) معنى قوله «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى» أراد: أنَّ الله ينصرُ الإسلامَ بأهل المدينة، وهم الأنصار، ويفتح على أيديهم القرى، ويُغنمها إيَّاهم، فيأكلونها «يثرب» اسم أرض هي بها فغيَّرها رسول الله ﷺ بـ «طيبة و طابة» كراهة التثريب، وهو المبالغة في اللَّوم والتعنيف والتعيير. وطيبة وطابة من الطيب.

(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٣٨، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٥٢.

(٣) عَيْرٌ: جبل مقابل لأُحد، ثَوْر: جبل صغيرٌ خلف أُحدُ من جهة الشمال.

(٤) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٣٣.

(٥) الحَدَث: الأمرالحارث المُنْكَر الذى ليس بمعتاد ولا معروف في السُّنَّة، وأمَّا المُحدث - بكسر الدال - هو فاعل الحَدَث. الصَرْف: النافلة، والعدل: الفريضه. مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٢٩ .

(٦) انمَاعَ: أي ذَابَ.

(٧) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٤.

(٨) العضد: القطع، وعِضَاهُهَا: شجر عظيم له شوك.

(٩) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٢٥.

*** تحريم لُقطتها إلا لمن يريد تعريفها:**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِي الله عَنْهمَا - أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«حَرَّمَ اللَّهُ مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لأحَد قَبْلِي وَلا لأحَد بَعْدِي، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَار، لا يُخْتَلَى خَلاهَا(١) وَلا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا(٢) إلاَّ لِمُعَرِّف...»(٣).

*** النهي عن هدم بنيانها:**

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ «نهى عن آطام المدينة أن تُهدم»(٤).

*** ازورار الإيمان إليها:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الإيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»(٥).

*** تمنّي الرسول ﷺ أن يُدفن بها:**

عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَقَبْرٌ يُحْفَرُ بِالْمَدِينَةِ، فَاطَّلَعَ رَجُلٌ فِي الْقَبْرِ فَقَالَ: بِئْسَ مَضْجَعُ الْمُؤْمِنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِئْسَ مَا قُلْتَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي لَمْ أُرِدْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَرَدْتُ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: لا مِثْلَ لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا عَلَى الأَرْضِ بُقْعَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَكُونَ قَبْرِي بِهَا مِنْهَا. ثَلاثَ مَرَّات، يَعْنِي الْمَدِينَةَ»(٦).

---

(١) يُخْتَلَى: أي يُقطع، وخَلاهَا: أي الرطب من النبات.

(٢) اللقطة: ما يُعثر عليه من مال ونحوه من غير قصد ولا طلب.

(٣) البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢٦٢

(٤) مجمع الزوائد: ٣/٣٠١، وقال: رواه البزار عن الحسن بن يحيى ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٣، مسلم - كتاب الإيمان، حديث رقم ٢١٠.

(٦) الموطأ - كتاب الجهاد، حديث رقم ٨٧٧

* **فضل الموت بالمدينة:**

عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا»(١).

وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنه قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ»(٢).

وفي رواية عن حفصة: «فقلت: أنى يكون هذا؟ قال: يأتيني به اللهُ إذا شاء»(٣).

* **فضل مَن صام رمضان بالمدينة وشهد بها جمعة:**

عن بلال بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رمضان بالمدينة خيرٌ من ألف رمضان فيما سواها من البلدان، وجمعة بالمدينة خيرٌ من ألف جمعة فيما سواها من البلدان»(٤).

* **فضل التصبح بتمرها ووقايته من السُّم والسحر:**

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِمَّا بَيْنَ لابَتَيْهَا حِينَ يُصْبِحُ، لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ حَتَّى يُمْسِيَ»(٥).

* **أن بها المسجد النبوي، ومن خصائصه:**

- **أنه أول مسجد أُسِّس على التقوى:**

عَنْ حُمَيْدٍ الْخَرَّاطِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟

---

(١) الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٥٢، وقَال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٧

(٣) تهذيب الأسماء: ٣٢٩/٢.

(٤) مجمع الزوائد: ٣٠١/٣، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الله بن كثير وهو ضعيف.

(٥) مسلم - كتاب الأشربة، حديث رقم ٣٨١٣.

قَالَ: قَالَ أَبِي: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟

قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ، فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ....»[١].

- أنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشد الرِّحالُ إلاَّ إليها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[٢].

- أنَّ الصلاة فيه مضاعفة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلاَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ»[٣].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدِي أَرْبَعِينَ صَلاةً، لا يَفُوتُهُ صَلاةٌ، كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَنَجَاةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَبَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ»[٤].

- أنَّ به الرَّوضةُ الشريفة:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْمَازِنِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»[٥].

- أنَّ مَن حلف على يمين آثمة عند منبره وَجَبَت له النار:

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رسول اللَّهِ ﷺ قال: «لا يَحْلِفُ عِنْدَ هَذَا الْمِنْبَرِ عَبْدٌ وَلا أَمَةٌ عَلَى يَمِينٍ آثِمَةٍ - وَلَوْ عَلَى سِوَاكٍ رَطْبٍ - إلاَّ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ»[٦].

*****

(١) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٧٧ .
(٢) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١١١٥.
(٣) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١١١٦ .
(٤) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢١٢٣.
(٥) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١١٢٠ .
(٦) ابن ماجة - كتاب الأحكام، حديث رقم ٢٣١٧.

فَضل جبل أُحُد:

روى مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: «خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا وَبَدَا لَهُ أُحُدٌ، قَالَ: هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ...»(١).

قيل: معناه يُحبُّنا أهلُه، وهم أهل المدينة، ونُحبُّهم. والصحيح: أنه على ظاهره وأنَّ معناه: يُحبُّنا هو بنفسه.

فضل مسجد قُباء:

روى مسلمٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ»(٢).

قال النووي: «فيه بيان فضله، وفضل مسجده، والصلاة فيه، وفضيلة زيارته، وأنه يجوز زيارته راكباً وماشياً»(٣).

وروى مسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا - قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِيًا وَرَاكِبًا..»(٤).

فاللهم - يا رحمن - حَبِّب إلينا ما أحَبَّه رسولُك الكريم..

وارزقْنَا شفاعتَه يوم الدين..

واحشُرنَا - بفضلك - في زُمرته أجمعين..

واسقنَا من حوضه شربة هنيئة باردة لا نظمأ بعدها أبداً.

اللهم إنَّا نسألك ذلك، ونعوذُ بك أن نرجع على أعقابنا أو نُفتن عن ديننا.

لا إله إلا أنت، سبحانك إنك أنت التوَّابُ الرحيم.

*****

(١) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٧٥.
(٢) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٧٩.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ٩/١٧٠.
(٤) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ١١١٨



من أسماء المدينة وبيان دلالة الأسماء:

روى مسلم عن جابر بن سَمُرَه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: إنَّ الله - تعالى - سَمَّى المدينَة طَابَةَ».

في الحديث استجاب تسميتها «طابة» وليس فيه أنها لا تُسَمَّى بغيره، فقد سمَّاها الله تعالى «المدينة» في مواضع من القرآن الكريم، فقال: «مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ»[1].

وسمَّاها النبي ﷺ «طيبة» كما في حديث زيد بن ثابت عند مسلم: «إنها طَيبَةٌ» يعنى: المدينة[2].

قال النووي: «قال العلماء: لمدينة النبي ﷺ أسماء: المدينة وطابة وطيبة، والدَّار.

أما «الدَّار» فلأمنِهَا والاستقرار بها.

وأمَّا «طابة وطيبة» فمن الطِّيب، وهو الرائحة الحسنة. وقيل: من الطِّيِّب، وهو الظاهر؛ لخلوصها من الشرك وطهارتها. وقيل: من طيب العيش بها.

وأمَّا «المدينة» ففيها قولان لأهل العربية:

أحدهما وبه جزم قطرب وابن فارس وغيرهما: أنها مشتقة من: (دَانَ) إذا أطاع، والدِّين: الطاعة.

والثاني: أنها مشتقة من (مَدَن بالمكان) إذا أقام به»[3].

*****

(١) التوبة: ١٢٠.
(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٤٤.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥٥/٩.

وذكر لها أهل السِّيَرَ والتواريخ أسماء كثيرة طيِّبَة..

لكنني أَخُصُّ منها «الدَّار»

ففي حديث القرآن الكريم عن الأنصار جاء قوله تعالى في سورة الحشر:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وفى ذكر «الدَّار» وهى «المدينة» مع ذكر الإيمان إيماءٌ إلى فضيلة المدينة، بحيث جعل تبوُّءهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان.

ولعلَّ هذا هو الذي عَنَاَه الإمام مالك - رحمه الله - حين قال:

«إن المدينةُ تُبوِّئت بالإيمان والهجرة، وإنَّ غيرها من القُرى افتُتِحَت بالسيف، ثُمَّ قرأ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ... الآية﴾

ألاَ وإنَّ تسمية المدينة بـ «الدَّار» في حديث القرآن يُذكرنا بحديث القرآن الكريم عن جنَّات عَدن، وأنها عُقبَى الدَّار..

نقرأ ذلك في كثير من الآيات.

نقرأ في سورة «الرعد» عن صفات الذين أخبر الله عنهم بأنَّ لهم عُقبَى الدَّار:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

(١) الحشر: ٩.

الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

والمخصوص بالمدح في قوله: ﴿**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ محذوفٌ لدلالة مقام الخطاب عليه، والتقدير: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار عُقْبَاهم».

وتلك لِمَن تحققت فيهم هذه الصِّلات وتلك الصفات، وذاك ما أعدَّه الله للمؤمنين والمؤمنات ووعد به: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[2].

ونقرأ في سورة «الأنعام» قوله تعالى:

﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[3].

ونقرأ في سورة «الرعد» قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[4] ونقرأ في سورة «فاطر» قوله سبحانه: ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾[5].

---

(١) الرعد: ١٩ - ٢٤.
(٢) التوبة: ٧٢.
(٣) الأنعام: ١٣٥.
(٤) الرعد: ٤٢.
(٥) فاطر: ٣٤، ٣٥.

«وعاقبة الدار» كلمةٌ جرت مجرى المَثَل في خاتمة الخير بعد المشقة، تشبيها لعامل العمل بالسائر المنتَجع إذا صادف دارَ خَصْبٍ واستقر بها.

فأصل «عاقبة الدار» الدار العاقبة.

والعاقبة هي الحالة العاقبة التي تعقب، أي تجئ عقب غيرها، فيُؤذِنُ هذا اللفظ بتبدل حالٍ إلى ما هو خير، فلذلك لا تُطلق إلا على العاقبة المحمودة.

فعندما يُراد حُسْن العاقبة يأتي قوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وعندما يُراد سُوء العاقبة يأتي قوله: ﴿لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾(١).

وجملة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ خبرٌ عن ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهو في مقابل جملة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ للذين يوفون بعهد الله.

وفى سورة «الرعد» نرى الملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ سلام ثابت دائم عليكم وتلك دلالة الرفع في قوله (سلامٌ) كما جاء في سورة «الزمر»: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٢).

سبحانك ربى.. لا إله إلا أنت.

المدينة في حديث القرآن الكريم هي «الدَّار».

والجنة في حديث القرآن الكريم هي «دار المتقين».

---

(١) الرعد: ٢٥.

(٢) الزمر: ٧٣، ٧٤.

فهل بين الدَّار والدَّار ترابطٌ في المقدمات والنتائج، وهذه في الدنيا وتلك في الآخرة؟

وهل الدنيا - في حقيقتها - إلاَّ مقدمة للآخرة.

وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة.

والعبد مُطَالَب أن يأخذ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الحياة قبل الممات.. فما بعد الدنيا من دارٍ إلاَّ الجنة أو النار.

فمَنْ عرف قَدْر نفسه لم يبعها إلا بثمنها، وليس لها ثمنٌ إلاَّ الجنة، كما قال عليٌّ ﷺ: «إنه ليس لأنفسكم ثَمَنٌ إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها»

وكثيراً ما تُذكر الجنة، أو تُذكر روضةٌ من رياضها بذكر شئ من فضائل بعض الأماكن في المدينة.

ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»(١).

وهل تُقَدِّم المدينة للجنَّة - وهى تنفى خَبَثَها - إلاَّ مَن طابت نفوسُهم، فطابت لهم الجنة؟!!

في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «المَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»(٢).

واخرج الموطأ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ أَنَّ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ زَارَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَيَّاشٍ المَخْزُومِيَّ، فَرَأَى عِنْدَهُ نَبِيذًا وَهُوَ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ أَسْلَمُ: إِنَّ هَذَا الشَّرَابَ يُحِبُّهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ

---

(١) البخاري - كتاب الجنة، حديث رقم ١١٢١، كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٥، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٦٥.

(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٣٨، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٥٢.

فَحَمَلَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عَيَّاشٍ قَدَحًا عَظِيمًا، فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَوَضَعَهُ فِي يَدَيْهِ، فَقَرَّبَهُ عُمَرُ إِلَى فِيهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا لَشَرَابٌ طَيِّبٌ، فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ رَجُلاً عَنْ يَمِينِهِ

فَلَمَّا أَدْبَرَ عَبْدُ اللَّهِ نَادَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: أَأَنْتَ الْقَائِلُ: لَمَكَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْمَدِينَةِ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقُلْتُ: هِيَ حَرَمُ اللَّهِ وَأَمْنُهُ وَفِيهَا بَيْتُهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لا أَقُولُ فِي بَيْتِ اللَّهِ ولا فِي حَرَمِهِ شَيْئًا.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَأَنْتَ الْقَائِلُ: لَمَكَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْمَدِينَةِ؟

قَالَ: فَقُلْتُ: هِيَ حَرَمُ اللَّهِ وَأَمْنُهُ وَفِيهَا بَيْتُهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لا أَقُولُ فِي حَرَمِ اللَّهِ ولا فِي بَيْتِهِ شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفَ)[١].

*****

وقفتُ عند هذا القول من عبدالله بن عيَّاش، وتكرار سؤال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له: «أنت القائل لمكة خيرٌ من المدينة؟» وإجابة عبدالله بن عياش «هي حَرَم الله وأمنُه وفيها بيته» فلم يقُل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئاً سوى قوله مكرراً: «لا أَقُولُ فِي بَيْتِ اللَّهِ ولا فِي حَرَمِهِ شَيْئًا» لأنَّ ما أجاب به عبدالله بن عيَّاش لا يحتمل أن يُجاب بغير ما أجاب به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إقرار بأن مكة هي حَرَم الله وأمنه وفيه بيته.

ولم نستفد نحن أو غيرُنا من السؤال والإجابة، إلاَّ ما أجاب به عبدالله من خيريَّة مكة، وما أقرَّه عمر.

مع أن تكرار السؤال من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت النفس تتطلَّع معه إلى مزيد من القول في بيان الفضل لمَكَّة المُكَرَّمة أو المدينة المُنَوَّرَة التي طلب عمر نفسُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون موتُه في بلد نبيِّه أي المدينة المُنَوَّرَة.

(١) مالك - كتاب الجامع، حديث رقم ١٣٩٠ وإسناده صحيح.

ولم يكن لعبدالله بن عيَّاش ولا لعمر - رضي الله عنهما - أن يزيدا شيئاً عمَّا قالا، ولذلك قال عمر في ختام ما قيل: «لا أَقُولُ فِي بَيْتِ اللَّهِ ولا فِي حَرَمِهِ شَيْئًا» ثُمَّ انصرف.

*****

فإنك بأعيننا:

تذكرتُ - وأنا أطوي ما بين يدي من مراجع عن مدينة رسول الله ﷺ وقد عشت في رحابها ما شاء الله لي أن أعيش - تذكرتُ حمى الله ورعايتَه لنبيه ﷺ في مكة والمدينة، ورأيتُ أن نتذاكر فضلَ الله على رسوله منذ نشأته ورعايته، وحفظَه في جميع مراحله، وذلك من خلال قول الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾(١) وهي سورة مكيَّة.

وقد وُفِّقَ ابن عاشور في تفسيره [التحرير والتنوير] في التعليق على هذه الآية حيث قال:

«ولك أن تجعل الجَمْع باعتبار تعدُّد متعلقات الملاحظة، فملاحظةٌ للذبّ عنه، وملاحظةٌ لتوجيه الثواب ورَفْع الدرجة، وملاحظةٌ لجزاء أعدائه بما يستحقونه، وملاحظةٌ لنَصْره عليهم بعُموم الإيمان به.

وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ**﴾(٢) لأنَّ عناية الله بأهل السفينة تتعلق بإجرائها، وتجنيب الغرق عنها، وسلامة ركابها، واختيار الوقت لإرسائها، وسلامة الركاب في هبوطهم.

وذلك خلاف قوله تعالى في قصة موسى: ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾(٣) فإنه تعلُّق واحد بمشى أخته إلى آل فرعون وقولها: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ**﴾(٤)»(٥).

---

(١) الطور: ٤٨ . (٢) القمر: ١٤ . (٣) طه: ٣٩ .
(٤) طه: ٤٠ . (٥) التحرير والتنوير: ج٢٧ ص٨٤.

ويقول ابنُ عطية الأندلسى في [المحرر الوجيز]:

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ معناه: بإدراكنا وأعيُن حِفْظِنا لك وحيطتنا.

ثم قال: وهذه الآية ينبغى أن يُقَدِّرَها كُلُّ مؤمن في نفسه؛ فإنها تُفسح مضايقَ الدنيا.

أمَّا صاحب الظِّلال فإنني أراه قد وَقَفَ مبهوراً عند قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حيث قال:

«ويا لَهُ من تعبير! ويا لَهُ من تصوير! ويا لَهُ من تقدير! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان. هذه المرتبة التي يصوِّرها هذا التعبير الفريد في القرآن كُلِّه، حتى بين التعبيرات المُشابهة.

لقد قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[1].

وقيل له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[2].

وقيل له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[3].

وكُلُّها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قيل لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وهو تعبير فيه إعزازٌ خاص، وأُنْسٌ خاص، وهو يلقى ظلاً فريداً أَرَقَّ وأشَفَّ من كُلِّ ظلٍّ.

ولا يملك التعبير البشرى أن يُترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نُشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذا الظلال»[4].

*****

(١) طه: ١٣.
(٢) طه: ٣٩.
(٣) طه: ٤١.
(٤) في ظلال القرآن: مج٧، ج٢٦، ص٤٨.

أحببت أن نعيش مع قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فتذكرت تنشأته ورضاعه، وما كان في ذلك من إيواء وتكريم من الله للوليد اليتيم.

ووجدتنى مع مولد المصطفى ﷺ ومَسقط رأسه ومنشئة في مكة، حين قدمت حليمةُ السعدية مع قومها يلتمسون الرُّضَعَاءَ في مكة؛ لَمَا يرجونه من المعروف من أهليهم، وكان أهل مكة يسترضعون أولادهم فيهم لفصاحتهم، ولصحة هواء البادية.

فأقام بينهم ﷺ نحو خمس سنين، وظهر لهم من يُمْنه وبركته - في تلك المُدَّة - أنواعٌ من المعجزات وخوارق العادات.

روى ابن إسحاق عن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب - رضي الله عنهما - قال: قالت حليمةُ:

خرجتُ في نسوةٍ من بنى سعد، نلتمس الرُّضَعَاءَ على أتَانٍ قمراءَ في سنة شهباء[1] ومعي زوجي الحارثُ بن عبدالعُزى من بنى سعد بن بكر ومعنا شارفٌ لنا ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلَنا أجمع من بكاء صبينا، ما في ثدييَّ ما يُغنيه، ولا في شارفنا ما يُغذِّيه.

فخرجت على أتانى تلك، ولقد أذَّمَتْ بالركب ضعفاً وعجفاً، حتى شقَّ ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس الرُّضَعَاءَ، فوالله ما منَّا امرأةٌ - وقد عرض عليها رسولُ الله - فتأباهُ إذا قيل لها: إنه يتيم؛ وذلك أنَّا إنَّما كنا نرجو المعروف من أبى الصبي، فكنَّا نقول: يتيمٌ! وما عسى أن تصنع أمُّه وجدُّه؟ فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأةٌ قدمَتْ معي إلاَّ أخذت رضيعاُ غيري، فلمَّا أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبى: إنى والله لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه.

---

(١) شهباء: أي ذات قحط وجدب.

قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخْذه إلاَّ أنى لم أجد غيره

قالت: فلمَّا أخذتُه رجعت به إلى رحلى، فلمَّا وضعتُه في حجرى أقبل عليه ثدياى - بما شاء - من اللبن، فشربَ حتى رَوِى، وشرب معه أخوه حتى رَوَيا، ثُمَّ ناما وما كنَّا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فإذا بها حافلٌ، فحلب منها ما شرب وشربتُ، حتى انتهينا ريّاً وشبَعاً، فبتْنَا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمين يا حليمة، والله إنى لأراك قد أخذت نَسْمَةً مباركة.. ألم ترى إلى ما بتْنَا فيه من الخير والبركة؟

قالت: ثُمَّ خرجنا وركبتُ أتاني تلك، وحملته عليها معى، فوالله لَقَطَعَت بالركب ما يقدر عليها شئٌ من حُمُرهم، حتى إنَّ صواحبى ليقُلنَّ لى: يابنت أبى ذؤيب، ويْحَك! أربعى علينا[1] أليست هذه أتانك التى كنتِ خرجت عليها؟ فاقول لهنَّ: بلى والله، إنها لهى هى. فيقلن: إنَّ لَهَا لشَأناً.

قالت: ثُمَّ قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى ترُوح علىَّ - حين قدمنا به معنا - شباعا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسانٌ غيرنا منهم قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعاتهم: ويْحكُم، اسرحوا حيث تسرح غنمُ بنت أبى ذؤيب. فيسرحون.

فتروح أغنامُهم جياعاً هُزّلاً ما تبضُّ بقطرة لبن، وتَرُوح غنمى شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والبركة، حتى مضت سنتاه، ففصلتهُ عن الرضاعة.

---

(١) أربعى علينا: أى أقيمى وانتظرى وارفقى.

وقالت: وكنت لا أدخل عليه الليل إلاَّ ووجدت السقف قد انفرج، وقد نزل عليه القمر يناغيه أى: يُحدِّثه، وكان «يَشِبُّ شباباً لا يَشِبُّه الغلمان. فما بلغ سنتين حتى كان غلاماً جَفْراً»(١).

قالت: فقدمنا به على أُمِّه، ونحن أحرص شئ على مُكْثه فينا لمَا كنَّا نتعرف من بركته.

فقلت لأُمِّه: دعينا نرجع به، فإنَّا نخشى عليه وباءَ مكة، ولم نزل بها حتى ردَّته معنا.

*****

وبعد حَوْلين من مرجعهما به، أىْ في العام الخامس من مولده ﷺ أتاه مَلكان، فشَقَّا صدرَه، واستخرجا قلبَه، فشَقَّاه، واستخْرَجَا منه عَلَقَةً سوداءَ، وقالا: هذا حَظُّ الشيطان منك. ثُمَّ ملآه حكمةً وإيمانًا.

ثم لأمَاهُ فالتَأَم الشَّقُّ بإذن الله - تعالى - ثُمَّ ختماه بخَاتم النبوة بين كتفيه كالطَّابع.

ثُمَّ قال أحدُهما لصاحبه: زِنْهُ بعشرة من أُمَّته. ففعل فَوَزَنَهم.

ثمَّ قال: زِنْهُ بألفٍ من أُمَّته، ففعل فَوَزَنَهم، حتى قال: دعوة، والله لوْ وَزَنْتَه بأُمَّته كلها لوزنهم.

ثمَّ قبَّل رأسَه وما بين عينيه، وقالاَ: يا حبيب الله، لم تُرَعْ، إنك لو تدرى ما يُراد بك من الخير لقرَّت عيناك.

---
(١) جَفْراً: أى شديداً ممتلئ الجنبين.

قال ابن إسحاق: فتخَوَّفَت عليه حليمةُ بعد ذلك

قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أُمِّه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئرُ[1] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟!

قالت: فقلت: قد بلغ الله بابنى، وقضيت الذى علىَّ، وتَخَوَّفْتُ الأحداث عليه، فأدَّيته إليك كما تُحبين.

قالت: ما هذا شأنك، فاصدقينى خَبَرك.

قالت: فلم تدعنى حتى أخبرتها

قالت: افَتَخَوَّفْت عليه الشيطان؟

قالت: قُلتُ: نعم.

قالت: كلاَّ والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإنَّ لبنى لشانًا، أفلا أخبرك خبرَه؟

قالت: قلتُ بلى.

قالت: رأيت حين حملتُ به أنَّه خَرَجَ منِّى نورٌ أضاءَ لى قصور بُصْرَى من أرض الشام.

*****

ذاك ما كان من حفظ الله لرسوله ﷺ نقرؤه في آيات تتلى ووقائع تُذكر ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ إنَّه حِفْظُ الله لليتيم الذى اختاره رسولاً للعالمين.

---

(١) الظئر: العاطفةُ على ولد غيرها المرضِعةُ له.

حَفِظَهُ في نسبه، وحَفِظَهُ في ولادته ونشأته، وحَفِظَه في رعايته وبعثته، وحَفِظَه في هجرته وأداء رسالتة.. حَفِظَه في حياته كُلِّها..

وفى مماته حَفِظَ رسالَته وسيرتَه وكُلَّ شئ من أمره.

كُلُّ ذلك يجعلنا نستحضر قول ربِّه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في كُلِّ شأن من شئونه، فلا تغيب عنَّا هذه الدلالة في جميع أمره من دنياه أو آخرته.

قال الله تعالى: **﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾**(١).

فى هذه السورة - مع إبطال ما زعمه المشركون من انقطاع الوحى عنه - فيها بشارةٌ بأن الآخرة خيرٌ له من الأولى، تبشيراً له بالخيرات الأبديه **﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾**.

وهى تفيد أن حالاته ﷺ تجرى على الانتقال من حالته إلى أحسن منها.

واللام في قوله (لك) لام الاختصاص: أى خيرٌ مُخْتَصٌّ بك، وهو شامل لكُلِّ ما له تعلُّق بنفس النبى ﷺ في ذاته وفى دينه وفى أُمّته.

فهذا وعدٌ من الله بأنّ ينشر دين الإسلام، وأن يُمَكِّنَ أُمّته من الخيرات التى يأملها النبى ﷺ.

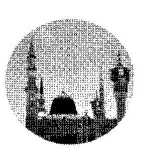
﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ حذف المفعول الثانى لـ **﴿يُعْطِيكَ﴾** ليَعُمَّ كُلَّ ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأُمَّته، فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء، كما أفادت الجملة قبلها جميع الأزمنة.

---

(١) الضحى: ١ - ٨.

ثم ذكَّره الله بما حَفَّهُ به من ألطافه وعنايته، في صباه وفى فُتُوَّته، وفى وقت اكتهاله، وأمَرَه بالشُكر على تلك النِّعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(١).

*****



(١) الضحى: ١١.

خاتمة

وإيجازاً لَمَا أردتُ من هذا الكتاب أودُّ أن أقول:

الحمد لله الذى حفظ لنا القرآن لنعرفَ به قَدَرَ كُلِّ شئ دُون تنقص أو تزيّد، كمَا حفظ لنا السُّنَّةَ المباركة؛ ليبقى فينا الرسولُ ﷺ أسوةً وقُدوةً لا يَخْفَى من أمره عنَّا شيءٌ..

ويكون الأمر بالغ العجب إذا نحن تولَّينا أو طاوعنا أحداً فيما يُريده منَّا، من رَدِّنا عن ديننا - بعد إيمان به وتصديق برسوله - والقرآن يُتْلَى علينا كما جاء من عند ربِّنا، والرسولُ قائمٌ فينا لم يَغب عنا بِصِدق بيانه.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(1).

وقد نبَّهنا الرسولُ ﷺ إلى ما نعتصم حتى لا نَضلَّ أو نُضَلَّ، وذاك ما بيَّنه القرآن الكريم، حتى يُعْصَمَ جَمْعُنا من الإغراء أو الاستدراج أو التخويف أو الإرهاب.

﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾(2).

شَرَفٌ لنا أيُّ شرف سوف نُسْأَلُ عنه، ولن نُعفَى من سؤالٍ لِقُصور حُجَّةٍ أو بيان.

وهذا الأمر - بوجوب الاعتصام بحبل الله، ووجوب الاستمساك بما أوحى الله إلى رسوله - لازمٌ في كُلِّ أمرٍ من أمورنا؛ لنَبْقَى راشدين مُسَدَّدين على صراط مستقيم.

---

(1) آل عمران: ١٠٠، ١٠١.

(2) الزخرف: ٤٣، ٤٤.

وذاك ما استَحْضَرْتُه عندما بدأتُ في كتابة هذا الكتاب.

[المدينة المُنَوَّرة.. وقائعها وفضائلها.. فى حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المُطَهَّرة]

وذاك ليس بالنسبة للمدينة المُنَوَّرَة وحدَها، بل بالنسبه لها وبالنسبة لمَكَّة المُكَرَّمة من قبلها؛ لأن بعثة الرسول ﷺ هى التى أعادت لمَكَّة المُكَرَّمة ما جُعلَت له، وهجرة الرسول ﷺ هى التى جعلت من (يثرب) طّابه وطيبة، بفضل الله ورحمته.

ويُخطئ مَنْ يرى مكةَ أو المدينة بعيداً عن هداية القرآن وبعثة الرسول ﷺ، فإن مَكَّة المُكَرَّمة كانت ذات شَرَف وقَدر على عهد إبراهيم عليه السلام الذى أُمِرَ برفع قواعد البيت، ولكن قد أُدخِلَ عليها ما يبعدها عمَّا أُنشئَ البيتُ له، والبيت إنَّما كان لتوحيد الله وعدم الإشراك به.

فلما جاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة، أصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد، والإشعاع الروحى، والغذاء العاطفى.. تُقام حوله المناسك، وتُغَذَّى به العاطفة، وتُشْعَل به مجامرُ القلوب، وتُشحَنُ به بطاريتُها الفارغة، ويُتلقى منه الرسالة الدينية، ويجتمع حوله العالم الإسلامى كُلَّ عام، يؤدى خراجَه من الطاعة، وضريبتَه من الحُبِّ والانقياد، ويُثبت تمسّكه بهذا الحبل المتين ولجوءَه إلى هذا الركن الركين..

ويطوفُ حوله أعظمُ العلماء والعقلاء، والزعماء والعظماء، والملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، في وَلَهٍ وَهَيام، وفقهٍ وحكمة

يثبتون أنهم مجتمعون على تفرُّق، متوحدون على تعدُّد، متركزون على انتشار، أغنياء على الفقر، أقوياء على الضعف..

وذاك ما عرَّفَنَا به القرآن الكريم وبيَّنه الصَّادق الأمين ﷺ.

وبه عرفنا رسالةَ الرُّسُل جميعاً كما جاءت من عند الله تعالى دون تَفْرقة بين رسول ورسول.

وتلك عقيدتُنا وما أُمرنا أن نقوله وأن نعمل به:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١).

وأخيراً.. إلى مدينة الرسول ﷺ ومسجده العظيم:

وكان من الطبيعي - بعد ذلك كُلِّه - أن يَحِنَّ المسلم - لا سيَّما الوافدُ من مكان بعيد، إذا قضى حَجَّة وأدى مناسكَه - إلى مهجر خاتم المرسلين ومثْواه الأخير، ومأرِز الإسلام..

إلى المسجد الذى انبثق منه النُّور، وانطلقت منه مَوْجةُ الهداية والعلم وقوة الإسلام في العالم..

إلى المدينة المُنَوَّرَة التى آوَى إليها الإسلام، وتمثلت فيها فصول التاريخ الإسلامى الأوَّل، وابتل ترابُها بدموع الصحابة - رضي الله عنهم - ودمائهم.

فيصلى في المسجد الذى تُعادل ركعةٌ فيه ألفَ ركعة في غيره.

ويقف في مواقف وقفَ فيها الشهداءُ والصديقون، والسابقون الأولون، فيستمد منها الصدقَ والإيمان، والحُبَّ والحَنَان، والبطولةَ والشهادةَ في سبيل الله.

ويُصلى ويُسلم على هذا النبى الذى خرج بدعوته وجهاده من الظلمات إلى النُّور، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، وذاق - لأوَّل مرَّة - حلاوةَ الإيمان، وعرف قيمة الإنسان.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين..

وصلى الله على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

محمد الراوي..

---

(١) البقرة: ١٣٦ .

(٢) الصافات: ١٨٠ - ١٨٢.

مراجع الكتاب

١- القرآن الكريم.

* **كتب التفسير:**

٢- **التحرير والتنوير.** محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية.

٣- **تفسير القرآن العظيم.** إسماعيل بن كثير الدمشقي - دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ.

٤- **التفسير القرآني للقرآن.** عبدالكريم الخطيب.

٥- **تفسير المنار.** السيد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - لبنان - ط ٢.

٦- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن.** محمد بن جرير الطبري - دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥هـ.

٧- **الجامع لأحكام القرآن.** محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي - دار الشعب - ط ٢ سنة ١٣٧٢هـ - تحقيق: أحمد البردوني.

٨- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.** أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي - دار الفكر - بيروت - ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

٩- **في ظلال القرآن.** السيد قطب - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ط ٢.

* **كتب السنة النبوية وشروحها:**

١٠- **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف.** عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ سنة ١٤١٧هـ - تحقيق: إبراهيم شمس الدين.

١١- **الزهد لابن المبارك.** عبدالله بن المبارك بن واضح المرزوي - دار الكتب العلمية بيروت - تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي

١٢- **سنن أبي داود.** أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني - دار إحياء التراث العربي.
١٣- **سنن ابن ماجة.** أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني - دار إحياء التراث العربي - سنة ١٩٧٥م.
١٤- **سنن البيهقي الكبرى.** أحمد بن الحسين البيهقي - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م - تحقيق: محمد عبدالقادر عطا.
١٥- **سنن الترمذي.** محمد بن عيسي الترمذي - دار إحياء التراث العربي.
١٦- **سنن الدارمي.** أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي - دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٧م.
١٧- **سنن النسائي.** أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
١٨- **صحيح ابن حبان.** محمد بن حبان بن أحمد التميمي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ سنة ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م - تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
١٩- **صحيح البخاري.** محمد بن إسماعيل البخاري - دار القلم - بيروت سنة ١٩٨٧م.
٢٠- **صحيح مسلم.** مسلم بن الحجاج القشيري - دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٧٢م.
٢١- **صحيح مسلم بشرح النووي.** يحيى بن شرف النووي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٢ سنة ١٣٩٢هـ.
٢٢- **فتح الباري شرح صحيح البخاري.** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - دار المعرفة - بيروت - ١٣٧٩هـ - تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، محب الدين الخطيب
٢٣- **فضائل المدينة.** المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي - دار الفكر - دمشق - ط ١ سنة ١٤٠٧هـ - تحقيق: محمد مطيع الحافظ.
٢٤- **فيض القدير.** عبدالرؤوف المناوي - المكتبة التجارية - مصر - ط ١ سنة ١٣٥٦هـ.

٢٥- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.** علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الريان للتراث - القاهرة - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٧هـ.

٢٦- **المستدرك علي الصحيحين.** محمد بن عبدالله النيسابوري - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م - تحقيق: مصطفي عبدالقادر عطا

٢٧- **مسند أحمد.** أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني - دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

٢٨- **المعجم الكبير.** سليمان بن أحمد الطبراني - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ط ٢ سنة ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٣م - تحقيق: حمدي ابن عبدالمجيد السلفي .

٢٩- **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان.** علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الكتب العلمية - بيروت - تحقيق: محمد عبدالرزاق حمزة.

٣٠- **الموطأ.** مالك بن أنس الأصبحي - دار إحياء العلوم - بيروت سنة ١٩٨٨م.

* كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:

٣١- **البداية والنهاية.** إسماعيل بن كثير الدمشقي - مكتبة المعارف - بيروت.

٣٢- **تاريخ الأمم والملوك.** محمد بن جرير الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ سنة ١٤٠٧هـ.

٣٣- **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ.** ابن الديبع الشيفاني الشافعي.

٣٤- **الرحيق المختوم.** صفي الرحمن المباركفوري - دار الوفاء - المنصورة - ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٣٥- **الروض الأنف.** عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي - دار المعرفة - بيروت - لبنان - ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م - تعليق: طه عبدالرءوف سعد .

٣٦- **زاد المعاد في هدي خير العباد.** شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. دار الريان للتراث - القاهرة - ط ١ سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
٣٧- **السيرة النبوية.** إسماعيل بن كثير الدمشقي - دار المعرفة - بيروت - لبنان - ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م - تحقيق: مصطفي عبدالواحد.
٣٨- **السيرة النبوية.** عبدالملك بن هشام الحميري - دار الجيل - بيروت - ط ١ سنة ١٤١١هـ - تحقيق: طه عبدالرءوف سعد.
٣٩- **فضائل الصحابة.** أحمد بن حنبل الشيباني - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م - تحقيق: وصي الله محمد عباس
٤٠- **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.** محمد الخضري.
٤١- **وقفات تربوية مع السيرة النبوية.** أحمد فريد. المكتبة التوفيقية - القاهرة - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

* كتب التراجم والأعلام والمعاجم:

٤٢- **الإصابة في تمييز الصحابة.** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - دار الجيل - بيروت - ط ١ سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م - تحقيق: علي محمد البجاوي.
٤٣- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب.** يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر - دار الجيل - بيروت - ط ١ سنة ١٤١٢ - تحقيق: علي محمد البجاوي
٤٤- **حلية الأولياء.** أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٤ سنة ١٤٠٥هـ.
٤٥- **سير أعلام النبلاء.** محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٩ سنة ١٤١٣هـ - تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي.
٤٦- **صفة الصفوة.** عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج - دار المعرفة - بيروت - ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م - تحقيق: محمود فاخوري، محمد قلعه جي.

٤٧- **الطبقات الكبرى.** محمد بن سعد بن منيع - دار صادر - بيروت.

٤٨- **معجم البلدان.** ياقوت بن عبدالله الحموي - دار الفكر - بيروت.

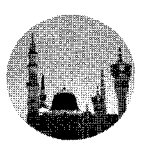
*** كتب اللغة:**

٤٩- **لسان العرب.** أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور - دار صادر - بيروت.

٥٠- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.** أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان.

٥١- **النهاية في غريب الحديث والأثر.** عز الدين علي بن محمد الجزري.

*****





فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

غزوات وسرايا انبَعَثَتْ من المدينة المُنَوَّرَة أو وقَعَتْ فيها وأنْزَلَ الله فيها قُرآناً

